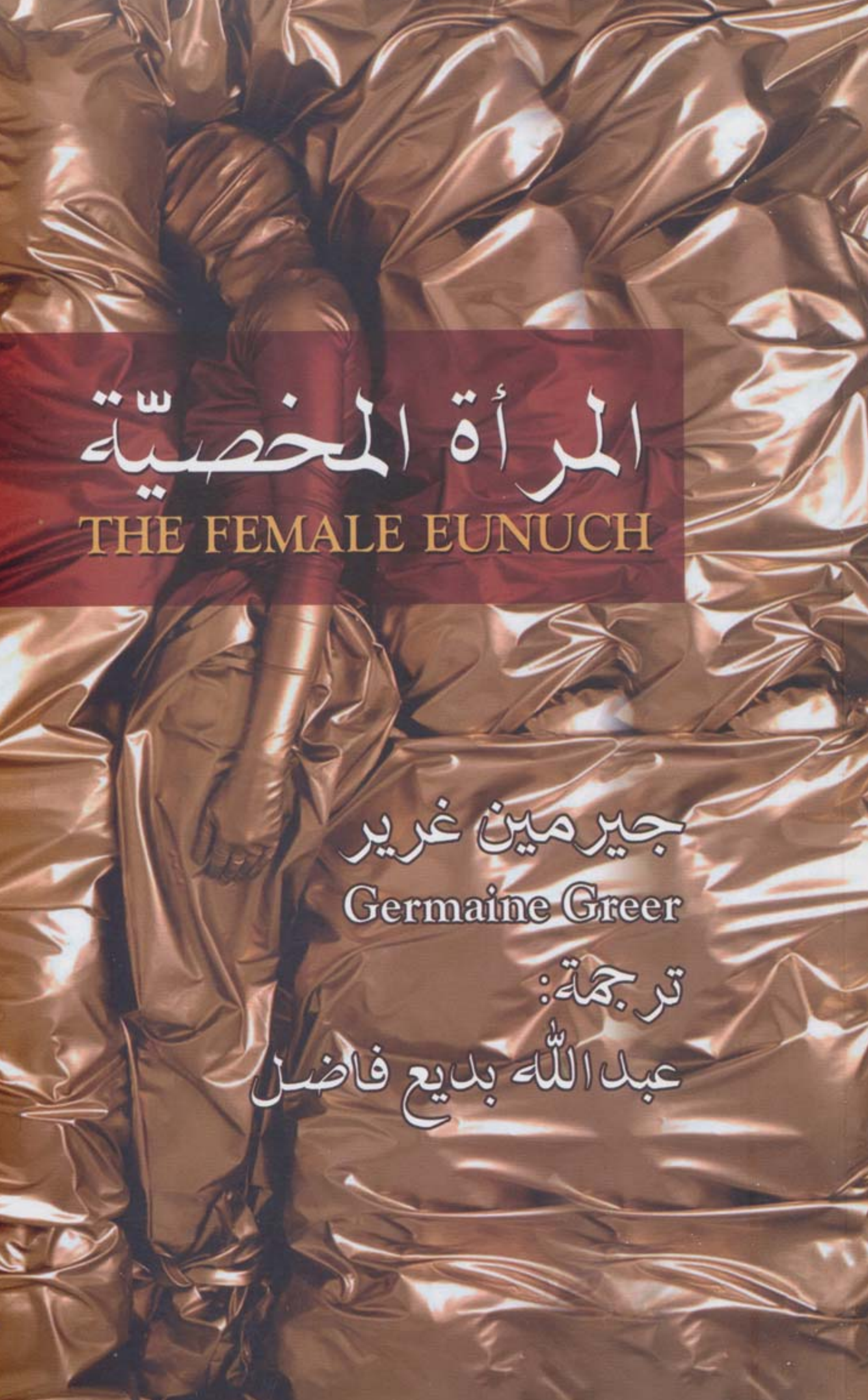

المرأة المخصيّة
THE FEMALE EUNUCH

جيرمين غرير
Germaine Greer
ترجمة:
عبد الله بديع فاضل

جيرمين غرير

المرأة المخصيّة

ترجمة: عبدالله بديع فاضل

المرأة المخصيّة

المرأة المخصيّة
تأليف: جيرمين غرير
ترجمة: عبدالله بديع فاضل
الطبعة الأولى 2014

الإخراج الفني: فايز علام
تصميم الغلاف: فادي العساف

الناشر:

الرحبة للنشر والتوزيع
العنوان البريدي ـ دمشق:
أمية، ص. ب. 7634
دمشق، سوريا
الموقع الإلكتروني: http://www.musawasyr.org
البريد الإلكتروني: info@musawasyr.org

جميع الحقوق محفوظة لدار الرحبة.

العنوان الأصلي للكتاب بالإنكليزية

The Female Eunuch
By Germaine Greer
Cambridge University Press 1999

الفهرس

مقدمة الطبعة العربية 7

إهداء المؤلفة 13

مقدمة إلى طبعة الذكرى السنوية الحادية والعشرين 15

ملخص 19

الجسد 37

الجندر 39

العظام 47

التكورات 52

الشعر 58

الجنس 61

الرحم الشرير 73

الروح 83

القالب النمطي 85

الطاقة 98

الطفل 106

الفتاة 117

البلوغ 125

البيع السيكولوجي 133
المادة الخام 146
القوة النسائية 153
العمل 172

الحب 203

المثال 205
الغيرية 219
الأنانية 224
الهوس 236
الرومانس 248
موضوع الخيال الذكري 275
أسطورة الطبقة الوسطى عن الحب والزواج 287
العائلة 319
الأمان 347

الكراهية 357

الاشمئزاز والقرف 359
الإهانات 379
التعاسة 395
الغيظ 411
التمرّد 423

الثورة 453

مقدمة الطبعة العربية

ربما تكون كتابة مقدمة لهذا الكتاب أصعب من ترجمته على الرغم من صعوبة الترجمة. ذلك أنه ليس كتابًا عاديًا، فهو كتاب جامع شامل، فيه شيء من نبض التاريخ وروح الحاضر، صرامة العلم ورحابة الأدب والفن، روح الغضب والثورة وبراعة السخرية اللاذعة، بساطة الحديث الصحفي اليومي وبلاغة الشعر والفلسفة، غوص في التفاصيل وبحث عن العام والشامل. لكن، قبل أن نذهب بعيدًا في الحديث عن الكتاب، دعونا نتعرف على مؤلفته.

من هي جيرمين غرير؟

ليس سهلًا التعريف بجيرمين غرير بكلمة أو جملة، فهي باحثة وأكاديمية وصحافية وناشطة نسوية وفنانة وأديبة، وهي قبل كل ذلك وبعده متمردة وثائرة. كنت، في أثناء الترجمة وفي أثناء إعداد المادة الأولية لكتابة هذه المقدمة، أكتشف مع كل مقالة أو خبر يتعلق بها ميدانًا جديدًا أو نشاطًا مختلفًا لها، حتى أنني وجدت نفسي حائرًا: من أين أبدأ؟

ولدت جيرمين غرير في أستراليا في عام 1939. وفيها عاشت

ودرست حتى حصلت على إجازة في الأدب الإنكليزي والفرنسي من جامعة ملبورن. ثم انتقلت إلى سيدني، حيث تعرفت على الحركات اليسارية بشقيها الشيوعي والفوضوي وباتت جزءًا منها، وإن لم يكن بالمعنى التنظيمي. إذ ذكرت في أكثر من مناسبة أنها ماركسية أو فوضوية. وفي أثناء وجودها في سيدني حصلت على درجة الماجستير في الشعر الرومانسي من جامعة سيدني. ثم حصلت على منحة لدراسة الدكتوراه في جامعة **كامبردج**. وفي غضون ذلك، دخلت عالم التمثيل المسرحي والفن والسينما، وأخذت تكتب مقالات في الصحف بأسماء مستعارة أحيانًا. بعد حصولها على الدكتوراه عملت محاضرة في جامعة **وورويك** في بريطانيا.

في عام 1970، نشرت غرير كتاب **المرأة المخصية** الذي نقدّمه هنا لقارئ العربية. وقد حقق الكتاب نجاحًا واسعًا من حيث انتشاره، ومن حيث ما أثاره من نقد وجدل وتعليق وإعجاب وسخط. وفي عام 1972، استقالت من عملها في الجامعة لتتمتع بحرية الانتقال والسفر لترويج كتابها وأفكارها. وفي عام 1979، عينتها جامعة **تولسا - أوكلاهوما** في الولايات المتحدة في مركز دراسات أدب المرأة، فأسست في مطلع الثمانينيات مجلة أكاديمية باسم **دراسات تولسا في أدب المرأة**. وفي عام 1989، تعاقدت معها **نيوهام كوليج** في جامعة **كامبردج** محاضرة خاصة.

جاء كتاب **المرأة المخصية** نقلة نوعية في حياة **غرير** إذ كرّسها واحدة من أبرز وجوه الحركة النسوية في عصرها، وبعضهم يصنفها ضمن ما يعرف بما بعد النسوية، مع أنها لم تدخر نقدًا لبعض الحركات النسوية أو لبعض أجنحتها. فهي ليست امرأة الحلول الوسط، بل تذهب في قضاياها إلى نهاياتها، وهكذا لم تكتف بأفكار المساواة وما شابه، بل طالبت بالتحرير الكامل للنساء وباستقلالهن الكامل عن أي مؤسسة

قد تقيّدهن أو تحدّ من قدراتهن. وكانت في هجومها على القالب النمطي المرسوم للمرأة معلمًا بارزًا في حركة حرق حمالات النهدين، مع أنها حذرت من أن يتحوّل التحرر من تلك الحمالات إلى قاعدة، ما يمكن أن يهدد المرأة بكبت أو قمع جديد.

كانت **غرير** تعرف أنها تكتب كتابات محرضة ومثيرة للجدل، حتى أنها كتبت مرة: «كلما زاد عدد الناس الذين نثير غضبهم، زدنا ثقة بأننا نقوم بما هو صائب». وكانت في حياتها اليومية نموذجًا للتحدي الذي وضعته نصب عينيها، وهو ما عاد عليها بالغرامات أو السخط أحيانًا، لكن ذلك لم يفعل سوى زيادة شهرتها. كما حدث معها مرة في نيوزيلندا، إذ تعرضت للتوقيف ودفع الغرامة لأنها تلفظت أمام جمهور عام بكلمات اعتبرت خادشة للحياء العام. وكذلك في التحقيق الذي أجرته حول حالة النساء اللواتي تعرضن للاغتصاب في بنغلاديش أثناء الحرب مع باكستان. إضافة إلى موقفها إلى جانب سكان أستراليا الأصليين، الذي لم يلق استحسانًا في الدوائر الرسمية الأسترالية، ذلك أنها اعتبرت أن معاملة السكان الأصليين في أستراليا شبيهة بمعاملة السود في جنوب أفريقيا على يد نظام الأبارتيد، وقامت بخطوة رمزية تمثلت بإعلان انتمائها إلى السكان الأصليين الذين تبنوها واحدة منهم.

مؤلفاتها:

إضافة إلى الكتاب الذي بين أيدينا، نشرت **جيرمين غرير** عددًا من الكتب والمقالات والتحقيقات، منها:

- الجنس والقدر: سياسة الخصوبة البشرية

(*Sex and Destiny: The Politics of Human Fertility*) (1984).

ـ أبي، بالكاد عرفناك

(*Daddy, We Hardly Knew You*) (1989)

ـ التغيُّر: النساء، التقدم في السن وانقطاع الطمث

(*The Change: Women, Aging and the Menopause*) (1991).

ـ المرأة الكاملة (1999) (*The Whole Woman*)، وهو يعتبر تكملة لكتاب المرأة المخصية، ناقشت فيه أن التقدّم الذي أحرزته الحركة النسوية كان قليلًا، وانتقدت بعض أجنحة الحركة على ما يروجنه من أوهام في ذلك المجال.

ـ الفتى الجميل (2003) (*The Beautiful Boy*).

وفوق ذلك، ظهرت غرير في برامج حوارية ومناظرات ساخنة على محطات كثيرة، ولها كتابات كثيرة في الصحف، وأعمال أخرى في وسائل الإعلام.

تزوجت جيرمين غرير خلال حياتها زواجًا قصيرًا لم يدم سوى ثلاثة أسابيع، وهي تعيش حاليًا في منطقة إيسكس في المملكة المتحدة مع كلبين وثلاثة عشر إوزة وعدد غير ثابت من الحمام.

المرأة المخصية:

يتقصى الكتاب التجليات المختلفة للصورة النمطية أو النموذج المقولب الذي وقعت المرأة أسيرة له، ويحللها وينتقدها. فهذه الصورة النمطية التي ترفع المرأة إلى مستوى الإلهة المعبودة شعرًا وفنًا، هي نفسها التي تفرّغها من عقلها وإنسانيتها وتستخدمها وسيلة إعلانية أو سلعة في سوق السلع. وهذه الصورة لم تكن من بنات أفكار الشركات ومصممي الدعايات فحسب، بل أسهم مفكرون وأطباء ومحللون نفسيون وكتّاب وشعراء في إنتاجها، حتى ليبدو التخلص منها أشبه

بحرب على مستويات متعددة. والكتاب في تقصيه وتحليله ونقده لكثير من تلك الأفكار، لا يكتفي بذلك بل يسعى إلى تلمس ملامح مسار جديد أمام النساء، مسار لا يمكن أن يتحقق تمامًا إلا بالثورة، ثورة لا من أجل المساواة فحسب، بل من أجل حرية النساء التامة.

وهذا الكتاب ليس من النوع الذي تقرأه، ثم تضعه جانبًا وانتهى الأمر. إنه كتاب يحرّض ويقلق ويثير الأسئلة. كتاب يدفعك إلى إعادة اكتشاف نفسك. ولا يمكن أن تقرأه دون أن يترك أثرًا فيك.

أخيرًا، لا بدّ من الإشارة إلى العنوان. العنوان صادم ومستفز، وقد فكرنا ببدائل مقبولة، لكننا وجدنا أنفسنا نعود في كل مرة إلى العنوان نفسه، كل البدائل التي فكرنا بها بدت أقل مما يريد الكتاب قوله. وربما يكون من النافل القول إن بعض ما يرد في الكتاب من أفكار أو كلمات أو تعابير صادمة جاء ليؤدي وظيفة معينة في إطار بحث علمي معرفي، وربما يحق لنا، ونحن نقدّمه للقارئ العربي، أن نحرّف ما قاله بعض أجدادنا ونقول: لا حياء في العلم.

المترجم

أود شكر الصديقة ضحى العاشور على ما أبدته من ملاحظات على الترجمة العربية، وقد كان لملاحظاتها فضل في تقديم هذا الكتاب على نحو أفضل.

إهداء المؤلفة

*هذا الكتاب مهدىً إلى **ليليان**، التي تعيش وحيدة مع مستعمرة من صراصير نيويورك، المفعمة بالحيوية على الرغم مما ينتابها من قلق وما تعانيه من أمراض الربو والوزن الزائد، والتي تهتم بالجميع دائمًا، والغاضبة غالبًا، واللاذعة أحيانًا، والتي، فوق ذلك كله، معنيّة دائمًا. **ليليان** الوافرة، الذهبية، البليغة، المحبوبة بكل ما في الحب من جزر ومد؛ **ليليان** الجميلة التي تظن أنها بشعة، **ليليان** التي لا تعرف التعب، وتخال نفسها دائمًا متعبة.*

*وإلى **كارولين**، التي رقصت، لكن كان رقصها سيئًا، والتي رسمت، لكن كان رسمها سيئًا، والتي قفزت مغادرةً طاولة الغداء، والدموع تطفر من عينيها، صارخةً أنها تريد أن تكون لها شخصيتها، والتي خرجت، وحققت ما أرادت، على الرغم من جمالها الباهر. **كارولين** التي تتألم من كل هجوم، وتشكّ في كل مديح، والتي اجترحت أمورًا عظيمة بلطف وتواضع، والتي هاجمت السلطات بحب شجاع؛ **كارولين** التي لا تعرف الهزيمة.*

*وإلى جدتي الشقراء **جوي** ذات العينين الخضراوين، التي بخس زوجها سلامة حسها، وانتقص من عقلها، لأنها كانت أذكى منه بحنان،*

وأحنّ منه بذكاء، إلى أن فرّت منه، واستعادت نفسها وبصيرتها وحسّها بالفكاهة، ولم تبك بعد ذلك قط، إلّا في حالات التعاطف مع الآخرين.

وإلى كاسوندرا، التي تصنع السحر من الجلود وشلل الغزل والأقلام، والتي لا تهدأ قط، ولا تغفل قط، والتي تقود مصيرها الغريب في برية نيويورك، مخلصة وقاسية، قوية مثل حبل من الفولاذ، ورقيقة مثل تنهيدة.

وإلى مارسيا ذات العقل العامر بكل شيء الذي لا يدمّر أي شيء، مارسيا التي تفهم الأحلام والكوابيس، تحدّق في العواصف ولا تضطرب، وتعيش بين الملعونين ولا تخشاهم؛ روح حية وسط الأموات.

مقدمة إلى طبعة الذكرى السنوية الحادية والعشرين

كتبت قبل عشرين سنة، في المدخل إلى كتاب المرأة المخصية، أنني ظننت الكتاب سيتقادم بسرعة، ويختفي. وكنت آمل أن يظهر جيل جديد من النساء على الأرض، جيل لا ينطبق عليه تحليلي للاضطهاد الجنسي في العالم المتقدم في النصف الثاني من القرن العشرين.

وها هي أجيال جديدة كثيرة من النساء على الأرض: نساء يمارسن رياضة كمال الأجسام، وعضلات صدورهن قوية مثل عضلات الرجال؛ عدّاءات ماراتون بعضلات قوية ومشدودة مثل عضلات الرجال؛ مديرات يتمتعن بسلطة تعادل سلطة أي رجل؛ نساء يدفعن نفقة، ونساء تُدفع لهن النفقة؛ سحاقيات صريحات يطالبن بالحق في الزواج وفي إنجاب أطفال عن طريق التلقيح الصناعي؛ رجال أزالوا أجزاء من أجسادهم، وحصلوا على جوازات سفر بوصفهم إناثًا قانونًا؛ عاهرات متحدات في منظمات مهنية علنية على نطاق واسع؛ نساء مسلحات على الخطوط الأمامية في أقوى الجيوش على وجه الأرض؛ نساء يحملن رتبة عقيد في الجيش عن جدارة دون أن يتخلين عن أحمر الشفاه الزاهي والأظافر المطلية؛ نساء يكتبن كتبًا عن فتوحاتهن الجنسية، يسمين فيها الأشياء بمسمياتها ويصفن الوضعيات وقياسات الأعضاء

وهلمجرا. لم تكن رؤية أي ظاهرة من هذه الظواهر النسائية ممكنة قبل عشرين سنة.

تكتب المجلات النسائية حاليًا للراشدات، وهي لا تناقش الجنس قبل الزواج ومنع الحمل والإجهاض فقط، بل والأمراض التناسلية وسفاح المحارم والانحراف الجنسي، وحتى أمور المال المختلفة والسياسة وحفظ الموارد وحقوق الحيوان وقوة الاستهلاك. وبما أن سوق وسائل منع الحمل قد أشبعت، وقلّ المال الذي يمكن جنيه من الأمور المتعلقة بالطمث، فإن شركات الأدوية متعددة الجنسيات قد وجهت اهتمامها أخيرًا إلى النساء في مرحلة سن اليأس وما بعدها، حيث يمثلن سوقًا جديدة ضخمة غير مستغلة هي سوق العلاج بالمُعيضات الهرمونية، حتى بات من الشائع أن ترى الجنس بين المسنّين في كل مسلسل تلفزيوني. فما الذي تريده النساء أكثر؟

الحرية، هذا ما يردنه.

الحرية من أن نكون شيئًا يُنظر إليه بدل أن نكون إنسانًا يبادلك النظر. الحرية من الخجل. الحرية من واجب إثارة شهيّة الرجل المتعب الجنسية بعد أن فقد شهوته لنداء الصدور الناهدة، ولم تعد سيقان النساء تثيره مهما بلغت من الطول. الحرية من الملابس المزعجة المصممة لأغراض الإثارة. الحرية من الأحذية التي تجعلنا نقصّر خطواتنا ونبرز مؤخراتنا. الحرية من هوس الجمال الفتيّ الحاضر دائمًا. الحرية من الإهانات المذلّة التي تنهال علينا من على رفوف بائعي الصحف؛ الحرية من الاغتصاب، سواء بالكلام المستبيح لما تحت ثيابنا، المنبعث من أفواه الرجال في مواقع البناء، أو بالتلصص علينا ونحن نمضي في أعمالنا اليومية، أو بإيقافنا، أو بدعوتنا لممارسة الجنس، أو بملاحقتنا في الشارع، أو بمغازلة زملائنا في العمل لنا على نحو مداهن، أو بملامسة رئيسنا في العمل لنا، أو

بشتى صنوف السادية التي يمكن أن يمارسها معنا رجال نحبهم، أو بإرهابنا بعنف وضربنا على يد غريب أو عصابة من الغرباء.

قبل عشرين سنة كان التشديد على الحق في التعبير الجنسي مهمًا، أمّا التركيز على حق المرأة في أن ترفض تودّد الرجال فأقل أهمية بكثير؛ أما الآن فيعتبر التشديد على الحق في رفض إيلاج العضو الذكري، والحق في الجنس الآمن، والحق في العفة، والحق في إرجاء الفعل الجنسي الجسدي حتى يتوافر دليل مؤكد على الالتزام بالعلاقة، نتيجة ظهور الإيدز على الأرض، أكثر أهمية بكثير. ومع ذلك يبقى ما يعرضه كتاب **المرأة المخصية** من آراء صحيحًا، لأنه يقوم على أنّ للمرأة الحق في أن تعبّر عن جنسانيتها؛ وهو أمر يختلف تمامًا عن الحق في الاستسلام لتودّد الذكور. فكتاب **المرأة المخصية** يرى أن رفض الفكرة القائلة بأن رغبة الأنثى الجنسية (الليبيدو) هي مجرد استجابة لرغبة الطرف الآخر ضروري لتحرير المرأة. أما أصحاب العقول الميتة من مأجوري **فليت ستريت**[1] ففسروا الكتاب على أنه: «نداء للنساء بأن يخرجن، ويمارسن [الجنس]».

كانت الحرية التي طالبتُ بها منذ عشرين سنة هي الحرية في أن تكوني إنسانة تتمتع بالكرامة والنزاهة والنبل والشغف والفخر، أي كل تلك الأشياء التي تشكل قوام الشخصية الإنسانية. الحرية في أن تجري وتصرخي وتتحدثي بصوت عال وتجلسي مباعدة بين ساقيك. الحرية في أن تعرفي الأرض وتحبيها بكل ما يسبح ويستلقي ويدبّ عليها. الحرية في أن تتعلمي، والحرية في أن تُعلّمي. الحرية من الخوف والحرية من الجوع والحرية في الكلام والحرية في المعتقد. مازالت معظم النساء في العالم خائفات، ومازلن جائعات، ومازلن

1- فليت ستريت (Fleet Street): شارع في وسط لندن كانت معظم الصحف البريطانية تصدر فيه، وأصبح يستخدم للدلالة على الصحافة البريطانية والعاملين فيها.

مكتومات الصوت، ويثقل الدِّين كاهلهن بكل أنواع القيود، ومازلن مقنّعات ومكمّمات ومشوّهات ومضروبات. وكتاب المرأة المخصية لا يتناول النساء الفقيرات (لأنني عندما كتبته لم أكن أعرفهن)، بل نساء العالم الفني الذي ترى الفقيرات ظلمَه حريةً.

حوّل موت الشيوعية المفاجئ في عامي 1989-1990 النساء الفقيرات في أنحاء العالم إلى مجتمع استهلاكي لا تتوافر فيه حماية للأمهات والمسنين والمعاقين ولا التزام بالرعاية الصحية أو بالتعليم أو بتحسين مستوى المعيشة لعموم السكان. في تينك السنتين، هوت ملايين النساء من عالمهن إلى الحضيض؛ وعلى الرغم من أنهن فقدن إعالة أبنائهن ومعاشاتهن والإعانات الاستشفائية ورعايتهن النهارية وأعمالهن المحمية، وأغلقت المدارس والمستشفيات ذاتها التي كنّ يعملن بها، فإنهن لم يصرخن. كانت لديهن حرية الكلام، ولكن لم يكن لهن صوت. كانت لديهن حرية شراء الخدمات الأساسية، لكن لم يكن المال متوافرًا لديهن، وكانت لديهن الحرية في الانغماس في أقدم شكل من أشكال العمل الخاص: الدعارة، وبيع الجسد والعقل والروح في سوق النزعة الاستهلاكية، فإن لم يفعلن ذلك، فلا حرية أمامهن إلا حرية مكابدة الجوع وحرية التسوّل.

يمكنك الآن أن ترى المرأة المخصية في أنحاء العالم؛ فقد كانت، طوال الوقت الذي ظننّا فيه أننا نبعدها عن أذهاننا وقلوبنا، تنتشر في كل مكان قد تصل إليه ملابس الجينز والكوكا كولا. لقد نصبت المرأة المخصية معسكرها في كل مكان ترى فيه طلاء الأظافر وأقلام حمرة الشفاه وحمالات النهدين والكعوب العالية. يمكن أن تراها منتصرة حتى من خلف حجاب.

ملخص

«لقد فقد العالم روحه، وأنا فقدت جنسي»

توللر، ***هينكمان*** (TOLLER, Hinkemann)

هذا الكتاب جزء من الموجة النسوية الثانية. لقد رأت المستقرعات[2] القديمات، اللواتي قضين فترة سجنهن، وعشن سنوات قبول النساء تدريجيًا في المهن التي يفضلن القيام بها، وفي الحريات البرلمانية التي يرغبن في ممارستها، وفي الأكاديميات التي استخدمنها كما لو أنها محلات يمكنهن أن يحصلن منها على شهادات في الوقت المستقطع الذي يقضينه في انتظار الزواج؛ لقد رأت أولئك المستقرعات روحهن تنبعث في النساء الأصغر سنًا بنظرة جديدة وحيوية. إذ رحّبت السيدة **هازل هنكينز هالينان** (Hazel Hunkins-Hallinan)، رئيسة مجموعة **سيكس بوينت**[3]، بالمناضلات الأصغر سنًا، ورحّبت حتى بصراحتهن الجنسية. وقالت **لإيرما كيرتز** (Irma Kurtz): «إنهن شابات وبسيطات جدًا في مجال السياسة، لكنهن مليئات بالطاقة والحيوية. لقد كانت

2- المستقرعة (suffragette): امرأة تنادي بمنح المرأة حق الاقتراع. [المترجم]

3- مجموعة نسوية بريطانية تأسست عام 1921 للقيام بحملات تهدف إلى الضغط من أجل القيام بتغييرات في قوانين المملكة المتحدة تشمل ست نقاط أساسية تتعلق بمساواة النساء سياسياً ومهنياً وأخلاقياً واجتماعياً واقتصادياً وقانونياً. [المترجم]

عضوية مجموعتنا حتى وقت قريب متأخرة جدًا عمّا أرغب به»[4]. وبعد نشوة الفعل المباشر، انكبّت السيدات اللواتي كنّ مناضلات قبل جيلين على العمل لتكريس موقعهن في مجموعات من المنظمات الصغيرة، فيما تسرّبت قوة طاقتهن الرئيسية في مسائل تخفيض النفقات وإحياء المزركشات والمشدّات النسائية والأنوثة بعد فترة العشرينات المتساهلة، وفي البيع الجنسي في الخمسينيات الذي أخذ يتضاءل على نحو متزايد، ويزداد احترامًا في الوقت ذاته. لقد ذوت الحماسة التبشيرية، التي تمتعن بها، إلى حالة من غرابة الأطوار.

التركيز الجديد مختلف. فقد كانت سيدات الطبقة الوسطى الراقيات في حينها ينادين من أجل الإصلاح، أمّا الآن فتطالب نساء الطبقة الوسطى غير الراقيات بالثورة. وقد جاءت المطالبة بالثورة لدى العديد منهن قبل المطالبة بتحرير النساء. لقد كان اليسار الجديد محرك معظم الحركات، وكان التحرير، عند كثيرات منهن يتوقف على المجتمع اللاطبقي القادم واضمحلال الدولة. والفارق جوهري، لأن الإيمان الذي كان لدى المستقرعات بالنظم السياسية ورغبتهن العميقة بالمشاركة فيها قد تلاشى. كانت السيدات، فيما مضى، توّاقات للإشارة إلى أنهن لا يبحثن عن إثارة الاضطراب في المجتمع أو عن خلع الله عن عرشه [كما يقال]. وكانت أفعالهن تهدد الزواج والعائلة والملكية الخاصة والدولة، لكنهن كنّ توّاقات إلى تهدئة مخاوف المحافظين، ولذلك فقد خانت المستقرعات قضيتهن، ومهّدن الطريق لفشل التحرير. وبدا واضحًا منذ خمس سنوات أن التحرير قد فشل: فقد بقي عدد النساء في البرلمان عند مستوى منخفض؛ وظلت النساء المهنيات أقلية صغيرة؛ وظهر نمط تشغيل النساء بوصفه عملاً وضيعًا وثانويًا وأقل أجرًا. لقد فُتح باب القفص، لكنّ الكناري رفض أن

4- ‘Boadicea Rides Again’, *Sunday Times Magazine*, 21.9.1969

يطير، فجاء من يستنتج أنّه ما كان يجب فتح باب القفص لأن طيور الكناري مخلوقة للعيش أسيرةً؛ وما كان لأي اقتراح بديل من أثر سوى تشويش النساء وإثارة حزنهن.

هناك منظمات نسوية ما تزال موجودة وتتبع السبل الإصلاحية التي وضعتها المستقرعات. مثل **المنظمة الوطنية للنساء** التي أسستها **بيتي فريدان** (Betty Friedan)، وهي ممثلةٌ في لجان الكونغرس، ولاسيما تلك التي تعتبر ذات صلة خاصة بالنساء. ومازالت السياسيات يمثلن مصالح النساء، لكنها في الغالب مصالح النساء بوصفهن تابعات تجب حمايتهن من الطلاق السهل وجميع أشكال المواثيق الكازانوفية. مجموعة **سيكس بوينت**، التي تقودها السيدة **هنكينز هالينان**، هي هيئة سياسية محترمة. والجديد في هذا الوضع هو أن تلك المجموعات تحظى باهتمام جديد، فوسائل الإعلام تصرّ على تقديم مواضيع تحرير المرأة أسبوعيًا وحتى يوميًا. ما تغيّر هو أن الجميع أصبحن فجأة مهتمات بقضايا المرأة. قد لا يكنّ ميّالات للحركات الموجودة، لكنهن مهتمات بالقضايا. وأصبح من المتوقع أن تجد الحركة دعمًا قويًا بين الشابات في الجامعات. وليس مفاجئًا أن تقرّر العاملات المستغَّلات إجبار الحكومة على دفع الفدية أخيرًا، لكن المفاجئ هو أن تبدأ بالهمهمة نساء يبدو، في الظاهر، أن ليس لديهن ما يشكون منه. لقد فوجئت في حديثي إلى مستمعات هادئات في مجتمعات محلية، يلبسن على نحو لائق، ويضعن القبعات، باكتشافي أنهن قد فكّرن بسعادة في معظم الأفكار الجوهرية، وعبّرن عن انتقادات شديدة واحتجاجات حادة. وما كان في مقدور حتى المستقرعات أن يدّعين التمتع بدعم القاعدة الشعبية الذي تكتسبه النسوية الجديدة يومًا بعد يوم.

لا يمكننا سوى التخمين حول أسباب هذا النشاط الجديد. فلربما يكون البيع الجنسي قد أفرط في عمله. ولربما لم تؤمن النساء قط

بقيمة أنفسهن التي فرضها عليهن علماء النفس والقادة الدينيين والمجلات النسائية والرجال. ولربما قادتهن الإصلاحات، التي حدثت فعلاً في النهاية، إلى وضع تمكنّ فيه أخيرًا من رؤية كامل المشهد، وبدأن بفهم مبررات وضعهن. وربما وجدن الوقت للتفكير لأنهن لم يعلقن في شرك الإنجاب غير المرغوب به والعمل الوضيع الشاق في المنزل. وربما يكون مأزق مجتمعنا قد أصبح باعثًا على اليأس وجليًا إلى حدّ لم تعد معه النساء قادرات على التسليم بترك الآخرين يتصرفون به. لقد ألقى أعداء النساء باللوم على تلك الظروف لأنها أثارت سخط النساء. أما النساء فيجب أن يقدّرن هذا السخط على أنه أول دافع للمطالبة بالحياة؛ ولقد بدأن بالتعبير عن أنفسهن وبالحديث فيما بينهن. لطالما أثارت رؤية النساء يتحدثن فيما بينهن قلق الرجال؛ الأمر الذي يعني في هذه الأيام تدمير التراتب. «صحيح!».

> نستطيع التوكيد بثقة على أن المعرفة التي يستطيع الرجال أن يكتسبوها من النساء، مثلما كنّ، وكما هنّ الآن، دع جانبًا ما يمكن أن يكنّ عليه، هي معرفة ناقصة وسطحية على نحو بائس، وستكون كذلك دائمًا، إلى أن تحكي النساء أنفسهن كل ما يجب أن يحكينه.
>
> جون ستيوارت ميل (John Stuart Mill)

تشكّل نصيرات تحرير المرأة المنظمات أقلية حسنة الدعاية؛ إذ تظهر الوجوه نفسها في كل مرة تطرح فيها للنقاش مسألة نسوية. ويجري تقديمهن دائمًا على أنهن قائدات حركة هي أساسًا بلا قائد. وهنّ لسن أقرب إلى تقديم إستراتيجية ثورية مما كنّ في أي وقت مضى؛ وأمور كالتظاهر وتجميع قوائم القراءة وتولّي اللجان ليست في

حدّ ذاتها سلوكًا متحررًا، ولاسيما عندما تكون مطمورة في سياق من العمل المنزلي والخدع الأنثوية. فهذه الوسائل، بوصفها وسائلًا لتعليم الأشخاص الذين يجب بالفعل أن يحرروا أنفسهم، هي وسائل محدودة الفاعلية. ومفهوم الحرية المتضمن في ذلك التحرير فارغ أيضًا؛ فهو، في أسوأ الظروف، يتحدّد بشروط رجال هم أنفسهم ليسوا أحرارًا، وفي أفضل الظروف يُترك غير محدّد في عالم ذي إمكانيات محدودة جدًا. فمن جهة، يمكن العثور على نسويات يخدمن فكرة المساواة «الاجتماعية والقانونية والمهنية والاقتصادية والسياسية والأخلاقية»، وعدوّهن التمييز، ووسائلهن المنافسة والطلب. ومن جهة أخرى، هناك أولئك اللواتي يحبّذن مثالاً أعلى لحياة أفضل، مثالاً سيتحقق عندما تضمن الوسائل السياسية الصحيحة حياةً أفضل للجميع. لكنّ أيًا من البديلين لا يمكن أن يشكل إغراء كبيرًا للنساء المشمئزات من الطرائق السياسية التقليدية، سواء الدستورية منها أو الشمولية أو الثورية. فقد تكون ربة المنزل، التي يجب أن تنتظر حتى انتصار الثورة العالمية للحصول على حريتها، معذورة حين تفقد الأمل، في حين لا تستطيع الطرائق السياسية المحافظة أن تخترع طريقًا يمكن أن تتنوع فيها العائلة أحادية الرجل بوصفها الوحدة الضرورية اقتصاديًا. ولكن هناك بعدٌ آخر يمكنها فيه أن تجد دافعًا وسببًا للفعل، على الرغم من أنها قد لا تجد مخططًا للمدينة الفاضلة. إذ يمكنها أن تبدأ، لا بتغيير العالم، بل بإعادة تقييم ذاتها.

من المستحيل المجادلة في الدافع نحو تحرير النساء إذا لم يكن هناك يقين حول درجة التبعية أو الاتكال الطبيعي اللذين هما دائمًا من طرف المرأة. ولهذا السبب، فإن هذا الكتاب يبدأ بفصل الجسد. فنحن نعرف ما نحن، لكننا لا نعرف ما يمكن أن نكون، أو ما يحتمل أننا كنّاه. تعبّر دوغمائية العلم عن الوضع الراهن بوصفه النتيجة الحتمية

للقانون، ولكن يجب أن تتعلم النساء الشك في الفرضيات الأساسية حول ما هي الحالة التي تعتبر النساء فيها سويات، وذلك كي يفتحن من جديد إمكانيات التطور التي أوصدها التكييف على نحو متعاقب. وهكذا نبدأ من البداية، بجنس الخلايا. فلا يمكن فهم الكثير من الاختلاف الصُّبغي حتى يتجلّى في التطور، ولا يمكن للتطور أن يحدث في الفراغ، وهكذا فمراقبتنا للمرأة متحيّزة من البداية، بوعي وبلا وعي، بافتراضات لا يمكننا التوقف عن القيام بها، ولا يمكننا دائمًا أن نحدد متى وضعت تلك الافتراضات. الفرضية الجديدة الكامنة وراء النقاش في مسألة الجسد هي أن كل ما نشاهده *يمكن أن يكون عكس ما نراه*. وحتى نبيّن بعض جوانب التكييف فإننا نتابع بمناقشة لتأثير السلوك على الهيكل العظمي. ومن فصل **العظام** ننتقل إلى فصل **التكورات**، وهو أمر ما يزال أساسيًا في الفرضيات حول الجنس المؤنث، ومن ثم إلى فصل **الشعر**، الذي اعتبر لزمن طويل ميزة جنسية ثانوية أساسية.

لقد كانت الجنسانية (sexuality)[5] الأنثوية دائمًا موضوعًا فاتنًا؛ وهذه المناقشة تحاول أن تبيّن كيف قنّع معظم المراقبين الجنسانية الأنثوية وشوّهوها، على نحو لم يكن في يوم من الأيام أكثر مما هو عليه في زماننا. حيث يقدّم تكوين الأنثى على أنه نوع خاص من التكييف، والآن تبدأ طبيعة ذلك التكييف بالظهور. وما يحدث في الواقع هو أن الأنثى تعتبر موضوعًا جنسيًا تستخدمه الكائنات الجنسية الأخرى ـ الرجال ـ وتستمتع به. أما جنسانية الأنثى فمُنكرة ومشوّهة لأنها تعتبر سلبية. فالفرج ملغى من رسوم الأنوثة بالطريقة ذاتها التي تقمع بها علامات الاستقلالية والقوة في بقية جسمها. أما الصفات التي تحظى

5- للكلمة معان عدة، لكنها تتصل جميعًا بالجنس؛ فهي تدل على اتصاف أمر ما بأنه جنسي، وعلى الانخراط في عمل جنسي أو الاهتمام به، وعلى الرغبة أو القدرة الجنسية، إلخ. [المترجم]

بالثناء والمكافأة فهي تلك التي للمخصيّة: الجبن والامتلاء والتراخي والرقة والحذلقة. ينتهي فصل **الجسد** بلمحة عن الطريقة التي يُعتقد بها أن الإنجاب يؤثر في كامل العضوية عبر عمليات **الرحم الشرير**، مصدر الهستيريا والاكتئاب الطمثي والضعف وعدم الملاءمة لأي مشروع مستدام.

إن مزيج الصفات المستنتجة للروح والجسد هو خرافة **الأنوثة الأبدية**، التي تسمى هذه الأيام **القالب النمطي**، وهي الصورة المهيمنة في ثقافتنا عن الأنوثة والتي تتوق إليها جميع النساء. وانطلاقًا من افتراض أن ربّة الثقافة الاستهلاكية هي من صنع الإنسان نباشر تحريًا حول الكيفية التي صنعت بها، فنتحدث عن صناعة **الروح**. والعنصر الرئيسي في هذه العملية هو كالخصاء الذي رأيناه يمارس على الجسد والكبت وحرف **الطاقة**. وبإتباع النمط البسيط ذاته نبدأ **بالطفل**، مبيّنين كيف نختزل ما هو عظيم بشيء قليل. تصارع **الفتاة** حتى تجعل دراستها المذكّرة متوافقة مع تكييفها الأنثوي إلى أن يحلّ **البلوغ** الغموضَ، ويجعلها ترسو بأمان في وضعها الأنثوي. إذا كان ذلك ينفع، وإن لم ينفع، فإنها تتعرض لمزيد من التكييف على هيئة تصحيح، ولاسيما على يد علماء النفس الذين توصف افتراضاتهم ووصفاتهم **بالبيع النفسي**.

ولأن عددًا كبيرًا من الافتراضات حول جنس العقل تغيّم فوق مسألة قدرة الأنثى العقلية، فأننا نورد، تحت عنوان **المادة الخام**، وصفًا موجزًا لفشل السنوات الخمسين الماضية من الاختبارات الشاملة والمنوّعة في اكتشاف أي نمط للتفريق بين القدرات الفكرية الذكرية والأنثوية. ولأن نتيجة تلك الاختبارات لم تغيّر القناعة الراسخة بأن النساء غير منطقيات وذاتيات وساذجات عمومًا، فإن فصل **القوة النسائية** يتناول تعبيرًا متماسكًا عن كل ذلك التحيّز، ألا وهو كتاب **أوتو وينِنغر** (Otto

Weininger) الجنس والطبع (Sex and Character)، ويحوّل جميع العيوب التي يوردها إلى مزايا، فيرفض مفاهيمه عن الفضيلة والذكاء، ويتبنى مفاهيم وايتهيد (Whitehead) وآخرين. وتصحيحًا للفكرة النظرية عن مدى قيمة العقول الأنثوية يقدّم فصل العمل وصفًا عمليًا للأنماط التي يتبدّى بها إسهام النساء فعليًا وكيفية تقييمه.

لقد خُصيت النساء على أساس قطبية المذكر والمؤنث، والتي جنّد الرجال فيها كل طاقتهم، ونظّموها في قوة عدائية فَتْحيّة مقلّصين كل الاحتكاك الجنسي الغيري (heterosexual) إلى نمط سادي ـ ماسوشيّ. لكن ذلك لم يعن سوى تشويه مفاهيمنا عن الحب. لذا فبعد أن يبدأ فصل الحب باحتفال بالمثال يتابع ليصف بعض التحريفات الرئيسية، كالغيرية والأنانية والاستحواذ. وهي تشوهات تتخفّى تحت مظاهر خرافية متنوعة، لكن الكتاب يتناول اثنتين منها في فصل الرومانسية، الذي يعرض وصفًا للخيالات التي تقتات عليها الشهوة والمرأة خائبة الرجاء، وفي فصل موضوع التخيّلات الذكرية، الذي يتناول الطرق المفضّلة التي تُقدّم فيها النساء في الأدب الذكري على نحو الخصوص. ويسجل فصل خرافة الطبقة الوسطى عن الحب والزواج صعود الخيال المتبادل عن الحب الغيري[6] الذي يتمتع بالقبول عمومًا في مجتمعنا، كاستهلال لمناقشة الشكل العادي من الحياة كما نفهمها، أي العائلة. وفيه نقد لاذع للعائلة النووية في عصرنا واقتراح لبعض البدائل الغامضة، لكنّ الوظيفة الرئيسية لهذا الجزء، كما للكتاب كله، هي، في المقام الأول، اقتراح إمكانية بديلة والرغبة فيها. يتمثل البعبع الرئيسي أمام أولئك الخائفات من الحرية بعدم الأمان، ولذا ينتهي فصل الحب بنقد وهم الأمان، الإله المعبود في

6- الحب الغيري هو حب شخص من الجنس الآخر بمقابل الحب المثلي وهو حب شخص من الجنس ذاته. [المترجم]

دولة الرفاه، والذي لم يكن في يوم من الأيام أضعف مما هو عليه في عصر الحرب الشاملة والتلوث العالمي والانفجار السكاني.

> اقتربي أيتها المرأة، واسمعي ما يجب علي أن أقوله. وجّهي فضولك مرةً نحو الأشياء المفيدة، وتفكّري في المزايا التي منحتك إياها الطبيعة، وسلبها منك المجتمع. تعالي، وتعلّمي كيف وُلدتِ رفيقة الرجل، وكيف أصبحت عبدته؛ كيف أنشئت لتحبي وضعك، وتظني أنه طبيعي؛ وأخيرًا كيف أنّ التعوّد الطويل على العبودية قد حطّ من مكانتك حتى صرت تفضلين نقائصها التي تستنزف طاقتك لأنها مريحة، على فضائل الحرية وحسن الصيت لأنها أصعب. إذا كانت الصورة التي سأرسمها ستتركك مسيطرة على نفسك، إذا كنت تستطيعين أن تتأملي فيها بلا عاطفة، فعودي إلى تساليك التافهة؛ «لا علاج لك؛ فقد أصبحت النقائص عرفًا».
>
> **تشودرلوس دو لاكلوس، «*عن تعليم النساء*»**
>
> (Choderlos de Laclos, ‘On the Education of Women’, 1783)

ولأن الحب قد أُفسد إلى هذه الدرجة، فقد وصل في حالات كثيرة إلى أن يتضمن فعلاً من الكراهية. وهو يأخذ في حالات متطرفة شكل الاشمئزاز والقرف الذي تسببّه الساديّة والوسوسة والشعور بالذنب، ويستثير جرائم شنيعة ضد أجساد النساء، لكنه يقتصر في الغالب على سوء المعاملة والسخرية المعبّر عنهما بالإهانات المرضية والمزاح الثقيل. وبدلاً من الإسهاب في المظالم التي عانت منها النساء

في ظروفهن المنزلية الفردية، تتناول هذه الأجزاء المناسبات العامة التي لا تنطوي الأنماط المعقدة من الاستغلال المتبادل فيها على أي غموض. هناك تقديرات ذاتية كثيرة للمعاناة التي يمكن أن توجد في الأدب النسوي، وهكذا يتناول فصل التعاسة المشكلة على نطاق أوسع، مبيّنًا بالدليل أن النساء لسن سعيدات حتى عندما يتبعن الخطة التي يرسمها لهن مستشارو الإرشاد الزوجي العاطفيين والنظام الذي يمثلونه. وعلى الرغم من عدم وجود نمط يمثل اعتداء النساء على الرجال يوازي عنف الرجال ضد النساء، هناك أدلة وافرة على استياء النساء الذي يتجلى في نزاع جنسي غير جسدي مرير، يحدث عادةً على شكل لعبة من نوع ما، على شكل وضع شعائري لا تظهر فيه المسائل الحقيقية قط. ولهذا الانتقام غير الواعي نظائره في العصيان النسائي الأكثر تنظيمًا ووضوحًا، من حيث أنه يسعى إلى وسم الرجال بالأعداء، وبالتالي يجب إما منافستهم أو مجابهتهم أو الهجوم عليهم. وبقدر ما تطلب تلك الحركات الحرية من الرجال، أو تجبرهم على منح الحرية، فإنها تؤبّد الجفاء بين الجنسين واتكال النساء على الرجال.

يجب أن تستتبع الثورة تصحيح بعض وجهات النظر الخاطئة التي اتحدت افتراضاتنا عن الأنوثة والجنس والحب والمجتمع لخلقها. وهي تومئ أوليًا نحو إعادة نشر الطاقة، حتى لا تعود تتجلى في الكبت، بل في الرغبة والحركة والخلق. يجب إنقاذ الجنس من المقايضة بين الأقوياء والضعفاء، بين المسيطرين والمُسيطَر عليهم، بين الجنسي والخنثى، ليصبح ضربًا من التواصل بين أشخاص رقيقين ولطفاء ومقتدرين، وهو ما لا يمكن تحقيقه بإنكار الاتصال الجنسي الغيري. يجب أن ترفض الأنوثة المتطرفة تشجيع خداع المدير المتسلط ذاته، لا بأن تهاجمه بعنف، بل بأن تحرر نفسها من الرغبة في تلبية توقعاته. ربما يقاوم الرجال تحرير المرأة لأنه يهدد أسس النرجسية القضيبية، ولكن

هناك مؤشرات على أن الرجال أنفسهم يبحثون عن دور أكثر إرضاء. فإذا ما حرّرت النساء أنفسهن، فسيحرّرن بالضرورة ظالميهن: قد يراود الرجال شعور قوي بأنهم، بوصفهم الأوصياء الوحيدين على الطاقة الجنسية وحُماة النساء والأطفال، قد تولّوا المستحيل، ولاسيّما الآن وقد أنتجت طاقاتهم الموجهة في الاتجاه الخطأ السلاح النهائي. لقد أظهر الرجال أصلاً، في قبولهم النساء في ميادين من الحياة يهيمن عليها الذكور، رغبةً في التشارك بالمسؤولية، حتى ولو لم تكن الدعوة قد قوبلت بالموافقة. أما الآن، وقد أصبح من الممكن القول بأن النساء سيحملن العلبة المليئة بالفوضى التي صنعها الرجال، فلا حاجة للمفاجأة من أن النساء لم يقفزن لالتقاط الفرصة التي سنحت. لو استطاعت النساء التفكير بأن الحضارة ستصل إلى مرحلة النضج عندما ينخرطن بها كليةً، فلربما كنّ شعرن بمزيد من التفاؤل في إمكانيات التغيير والتطور الجديدة. وربما تكون الأزمة الروحية التي نجتازها حاليًا مجرّد ألم آخر من آلام النمو.

لا يفعل فصل الثورة أكثر من «إطلالة سريعة على ما سيكون». وهو يشير إلى أن النساء يجب ألّا يدخلن في العلاقات المقبولة اجتماعيًا، كالزواج، وأنهن عندما يكنّ غير سعيدات فيها فيجب ألّا يترددن في الهرب منها. ويمكن التفكير جديًّا في اقتراح ألّا تقتصر النساء عمدًا على علاقة واحدة. وهو يؤكد طبعًا على أنهن يجب أن يكنّ مكتفيات ذاتيًا، وأن يمتنعن بوعي عن إقامة تبعيّات حصريّة وغيرها من أنواع التكافل العصابي. ينضوي كثير مما يشير إليه هذا الفصل تحت مسمى اللامسؤولية التامة، ولكن عندما تكون الحياة والحرية على المحك، والشرط الضروري هو استعادة الإرادة بالحياة، فيمكن الظنّ أنّ انعدام المسؤولية يشكل مخاطرة صغيرة. لقد مرت مائة سنة تقريبًا منذ أن سألت نورا زوجها هيلمر: «ما هي أقدس واجباتي في نظرك؟»،

وعندما أجابها: «إنها واجباتك نحو زوجك وأولادك»، احتجّت قائلةً:

> لديّ واجبات أخرى لا تقل عنها قداسة بالدرجة. [....] واجباتي نحو نفسي. [....] أعتقد أنني مخلوق آدمي عاقل.. مثلك تمامًا. أو على الأقل، هذا ما يجب أن أسعى إليه. صحيح يا تورفالد أنّ معظم الناس قد يتفقون معك، فهذه الآراء تحتشد بها صفحات الكتب، ولكنني ما عدت أقنع بما يراه الناس ولا بما يرد في الكتب. أريد أن أزن الأشياء بوحي من فكري أنا.. وأن أرقى بنفسي إلى مرتبة الفهم والإدراك[7].

العلاقات الوحيدة التي يعترف بها مجتمعنا، وتحظى بامتيازات كاملة، هي تلك الملزمة والتكافلية والتي يقررها الوضع الاقتصادي. وتذوب أكثر العلاقات عفويةً ورقةً وكرمًا في القالب المقبول عندما تستفيد من الدعم والشرعية والأمان والاستمرار المقبولة. لا يمكن أن يكون الزواج وظيفة على النحو الذي صار إليه. ويجب ألّا تقاس مكانة المرأة على أساس اجتذاب رجل وإيقاعه في الفخ. وليس أمام المرأة، التي تدرك أنها مقيّدة بمليون خيط من الخيوط الدقيقة في موقف من العجز والكراهية المتنّكرين على هيئة هدوء وحب، أي خيار سوى الهرب، إذا كانت لا تريد أن تفسد وتخبو تمامًا. الحرية مخيفة ولكنها منعشة أيضًا. وليست الحياة أسهل ولا أبهج لشبيهات نورا اللواتي انطلقن في رحلتهن نحو الوعي، لكنها أكثر متعة وحتى نبلاً. سيقولون عن هذه النصيحة أنها تشجيع على اللامسؤولية، لكنّ المرأة التي تقبل طريقًا في الحياة لم تختره عن معرفة، والتي تمثّل سلسلة من المصادفات التي تقدَّم زيفًا على أنها القدر، هي حقًا غير مسؤولة. أن يتنازل المرء عن فهمه الأخلاقي، وأن يتحمّل جرائم ضد الإنسانية،

7- إبسن، *بيت الدمية* (Ibsen, *A Dolls House*, Act III) [أخذت ترجمة جميع المقاطع المأخوذة من المسرحية كما هي من الترجمة العربية التي قام بها كامل يوسف والصادرة عن دار المدى ـ المترجم]

وأن يترك كل شيء لشخص آخر، سواء كان الأب أو الحاكم أو الملك أو الحاسوب، هي اللامسؤولية بعينها. أن ننكر أن خطأ ما قد ارتكب عندما تكون نتائجه فوضى مرئية وملموسة في كل جانب، فتلك هي اللامسؤولية. أما ما يلقيه الاضطهاد على كاهلنا فليس مسؤولية، بل شعور بالذنب.

يجب أن تعرف المرأة الثورية أعداءها: الأطباء والأطباء النفسيون ومفتشو الصحة والقسس ومستشارو الزواج ورجال الشرطة والقضاة والمصلحون المتأنقون، جميع التسلطيين والمتعسفين الذين يحومون حولها بالتحذيرات والنصائح. ويجب أن تعرف أصدقاءها، أخواتها، وأن تبحث في قسماتهن عن قسماتها الخاصة. فمعهن يمكن أن تكتشف التعاون والتعاطف والحب. ولا يمكن للغاية أن تبرر الوسيلة، فإذا اكتشفت أن طريقها الثوري لا يقود إلّا إلى مزيد من الانضباط وعدم الفهم المستمر، مع ما يلازمهما من مرارة ونقص، بغض النظر عن مدى تألق الهدف الذي من شأنه أن يبررها، فيجب أن تفهم أنه طريق خطأ وهدف خادع. والصراع الذي ليس مفرحًا هو الصراع الخطأ. ليس فرح الصراع استمتاعًا وعربدةً، بل الحس بالغاية والإنجاز والكرامة الذي هو عودة الطاقة الذابلة إلى الإزهار. وهذه الأشياء فقط يمكن أن تحفظها، وتبقي نبع الطاقة متدفقًا. لا تمكن موازنة المشكلات إلا بالإمكانيات، وكل خطأ يرتكب يسوّى عندما يُفهم. والطرق الوحيدة التي تستطيع فيها أن تشعر بذلك الفرح هي الطرق الراديكالية: كلما زادت السخرية والذمّ للفعل الذي تقوم به، كان أكثر راديكالية.

الطريق مجهول، تمامًا مثلما هو جنس الأنثى غير المخصيّة مجهول. ومهما كنا نستطيع أن نرى بعيدًا، فإننا لا نرى بعيدًا بما يكفي لتمييز الخطوط العامة لما هو مرغوب به في النهاية. وهكذا لا يمكن تصميم إستراتيجية نهائية. أن نكون أحرارًا في الانطلاق، وأن نجد

رفاقًا للرحلة هو أقصى ما نحتاج إلى رؤيته من المكان الذي نقف فيه. والتمرين الأول للمرأة الحرة هو أن تبتكر أسلوبها في الثورة، أسلوب من شأنه أن يعكس استقلالها وأصالتها. كلما كانت أشكال الاضطهاد أوضح ظهورًا في فهمها، كانت أقدر على رؤية شكل الفعل المستقبلي على نحو أوضح. وفي البحث عن الوعي السياسي لا بديل عن المواجهة. سيكون من السهل جدًا منح النساء شكلاً آخر من نكران الذات، ومزيدًا من الفرص للشهوة والأمل المفقود، لكنّهن قد حصلن على ما يكفي من التنمّر. ولقد اقتيدت النساء من أنوفهن، ومن غير أنوفهن، حتى اضطررن للاعتراف بأنهن، مثل الجميع، ضائعات. وقد تسعى النخبة النسوية إلى قيادة النساء غير الواعيات في اتجاه استبدادي آخر، ويدرّبنهن كمجموعة مهام خاصة في معركة قد لا تنتهي، أو يجب ألّا تنتهي. إذا كانت هناك معركة ضارية فستخسر النساء، لأن أفضل البشر لا ينتصرون قط؛ وعواقب النضال لا تختفي عندما تنتهي الحاجة إليها. الحرية هشّة، وتجب حمايتها، أما التضحية بها، حتى ولو كإجراء مؤقت، فهي خيانة لها. ليست الغاية من هذا الكتاب أن يحكي للنساء ما الذي يجب عليهن القيام به في الخطوة التالية، أو حتى ما الذي يجب أن يردن القيام به في الخطوة التالية، لكنه كتب بروح الأمل في أن تكتشف النساء أن لديهن إرادة؛ وعندما يحدث ذلك سيكنّ قادرات على أن يقلن لنا ما الذي يردنه، وكيف.

الخوف من الحرية قوي فينا. ونحن نسمّيها تشوّش أو فوضى[8]، والكلمات مهدِّدة. إننا نعيش في فوضى حقيقية من السلطات

8- في الأصل (chaos or anarchy)، وكلاهما يمكن أن تترجما «فوضى» من بين كلمات أخرى. فضلت استخدام كلمتين مختلفتين للترجمة هنا، ولكن ذلك لا يعني أنني سأترجم كلمة (chaos) بـ «تشوّش» أينما وردت، وما لم يقتضي النص غير ذلك فسأترجمها بـ «فوضى».

المتناقضة، عصر من الامتثالية دون اتفاق، من الاقتراب دون تواصل. لا يمكن أن نخاف من الفوضى إلّا إذا تخيّلنا أنها لم تكن معروفة لنا، لكننا في الحقيقة نعرفها جيدًا. ومن غير المحتمل أن تدخل تقنيات التحرير التي تبنتها النساء عفويًا في صراع عنيف، مثل ذلك الموجود بين المصالح الشخصية المتحاربة والعقائد المتصارعة، لأنهن لن يسعين إلى إزالة كل الأنظمة، بل الأنظمة الخاصة بهن فقط. ومهما بلغن من التنوع لا ينبغي لهن أن يصلن حد التناقض التام، لأنهن لا يسعين وراء الفتوحات.

آمل أن يكون هذا الكتاب تحريضيًا. وآمل أن يستثير النار من جميع قطاعات المجتمع الناطقة. فالأخلاقي التقليدي سيجد فيه كثيرًا مما يستحق الشجب انطلاقًا من أنه ينكر العائلة المقدسة، ويحطّ من قدسية الأمومة، ويستنتج أن النساء لسن بطبيعتهن أحاديات الزواج. وينبغي أن يعترض المحافظون السياسيون قائلين إن الكتاب، في دفاعه عن تحطيم أنماط الاستهلاك التي يمارسها منفقو المال الرئيسيون، أي ربّات المنازل، يستدعي الكساد والضيق. وهذا معادل للاعتراف بأن اكتئاب النساء ضروري لصيانة الاقتصاد، ويصادق ببساطة على هذه النقطة. إذا كانت البنية الاقتصادية الحالية لا يمكن أن تتغيّر إلا بالانهيار، فالأفضل أن تنهار بأسرع ما يمكن. فالأمة التي تعترف أن جميع العمال يستحقون أجرهم، ثمّ تمتنع عن دفع الأجور لـ 19.5 مليون عامل، لا يمكن أن تستمر. وسيعترض الفرويديون بأن الكتاب، حين يضع الاعتبار التقليدي لنفس الأنثى جانبًا، ويتبنى مفهومًا للمرأة لا يمكن تأكيد وجوده، هو مجرّد ميتافيزيقيا، متناسين الأساس الميتافيزيقي لمذهبهم. وسيندب المصلحون قائلين إن صورة الأنوثة قد حُطّمت بالدفاع عن الجنوح، حتى أن النساء يُسحَبن بعيدًا عن مراكز القوة الحقيقية. لقد أصبحت مراكز القوة السياسية، في مملكة

الحاسوب، مراكز للعجز، ولكن حتى لو كان الأمر على هذا النحو، فلا شيء في الكتاب يحول دون استخدام الآلة السياسية، على الرغم من أنه قد يشير إلى عدم الاعتماد عليها. سيأتي أشد النقد من أخواتي في اليسار، الماويّات والتروتسكيّات والـ(IS) وعضوات حركة طلاب من أجل مجتمع ديمقراطي، لأني، من وجهة نظرهن، متوهّمة بأن من الممكن صعود درجات الثورة قفزًا والوصول على نحو ما إلى الحرية والشيوعية دون إستراتيجية أو انضباط ثوري. ولكن، إذا كانت النساء هن البروليتاريا الحقيقية، هن الغالبية المضطهدة فعلاً، فلا يمكن تقريب الثورة إلّا بسحبهن الدعم من النظام الرأسمالي. السلاح الذي أقترحه هو سلاح البروليتاريا الأكثر احترامًا، ألا وهو الانسحاب من العمل. وعلى أي حال، من الواضح أني لا أجد المعمل قلب الحضارة الحقيقي، ولا أرى في عودة دخول النساء إلى الصناعة الشرط الضروري للتحرير. فما لم تتغيّر مفاهيم العمل واللعب ومكافأة العمل بشكل كامل، ستستمر النساء في تقديم العمل الرخيص، بل وأكثر من ذلك، في تقديم العمل المجاني المجرّد من الحقوق لصالح ربّ عمل حائز على عقد مدى الحياة ومنظّم لصالحه.

لا يمثّل هذا الكتاب سوى إسهامًا آخر في الحوار المستمر بين النساء المتسائلات والعالم. ليست هناك أجوبة على أسئلة، ولكن قد يكون بعضها طُرح بطريقة أنسب مما كان عليه. إذا لم يثر السخرية أو الشتم، فسيكون قد أخفق في غايته. وإذا لم تجده الطفيليات الأنثويات الأكثر نجاحًا مزعجًا، فلا قيمة له. لا يمكن لأي امرأة تتمتع بشيء من الاعتداد بالذات أن تتحمّل ما يتحمّلنه. ندب مناوئو حق المرأة في الاقتراع قائلين إن تحرير المرأة سيقضي على الزواج والأخلاق والدولة؛ وكان تطرفهم ملحوظًا بوضوح أكثر من النزعة الخيرية المشوّشة لدى الليبراليين والإنسانويين الذين اعتقدوا أن إعطاء النساء درجة من

الحرية لن يفسد أي شيء. وعندما نجني المحصول الذي بذرت بذوره المستقرعات بغير قصد، فسنرى أن مناهضي النسوية كانوا على حق، في نهاية المطاف.

الجسد

الجندر[9]

صحيح أن كل خلية من جسم المرء تشهد على جنسه. لكن ما ليس معروفًا هو ما الذي يعنيه ذلك الاختلاف في الخلايا تحديدًا على مستوى وظيفية الجسد. لا نستطيع أن نستنتج من الفرق الملاحظ في الخلايا وجود فرق مهم في النسج المؤلفة من تلك الخلايا. ووضع أي افتراضات عن تفوّق أحد الجنسين أو دونيته على هذا الأساس يعني افتراض أشياء يصعب جدًا إثباتها. وحين نتعلم كيف نقرأ الحمض النووي، فربما نصبح قادرين على معرفة ما هي المعلومات الوراثية المشتركة فعلًا بين جميع عضوات الجنس المؤنث، وحتى ذلك الحين سيكون النقاش في هذا الأمر طويلًا ومضجرًا يمتد من البيانات البيولوجية إلى السلوك.

إن القول بأن الجنسين يشكّلان قطبين منفصلين وأنهما منقسمان بالطبيعة هو جزء جوهري من أدواتنا المفهومية، لكنه في الحقيقة

9- الجندر (Gender): الترجمة الأكثر شيوعًا للكلمة هي «النوع الاجتماعي»، ويترجمها قاموس المورد بالجنس (من حيث الذكورة والأنوثة)، ويعربها بعضهم بـ «جندر»، وبعضهم بـ «جنوسة». سنستخدم كلمة «جندر» في ترجمة هذا الكتاب لأسباب تتعلق بسهولة الاستخدام. مع العلم أن الفارق الأساسي بين كلمتي «جنس» و«جندر» هو أن الجنس يتعلق بالفروق البيولوجية بين الذكر والأنثى، أما الجندر فيتعلق بالتمييزات الثقافية والاجتماعية بينهما. [المترجم]

خاطئ كليًا. فعالمي الحيوان والنبات ليسا منقسمين عمومًا إلى جنسين، ولا حتى إلى جنسين مع إمكانية وجود شذوذات وأنواع غير محددة؛ إذ أن بعض المخلوقات المحظوظة تحمل الصفات المذكرة والمؤنثة معًا؛ ولبعض الفطور ووحيدات الخلية أكثر من جنسين وأكثر من طريقة في التزاوج. إن درجة التمايز بين الجنسين يمكن أن تتنوع من شيء ضئيل جدًا لا يمكن إدراكه بالحواس إلى درجة من الاختلاف كبيرة إلى حد ظل معه العلماء زمنًا طويلًا جاهلين بحقيقة أن ذكور نوع معين وإناثه كانا مصنفين نوعين متمايزين. زعم علماء الأنثروبولوجيا النازيون أن الصفات الجنسية الثانوية أكثر تطورًا لدى الأجناس الأعلى تطورًا، مشيرين إلى أن الصفات الثانوية أقل تحديدًا لدى ذوي الأصول الزنجية والآسيوية منها لدى أبناء العرق الآري[10].

في الحقيقة، العديد من أشكال الحياة البسيطة متمايزة جنسيًا على نحو مدهش أكثر من تمايز الإنسان. لكنّ ما نلاحظه هو التشديد على التمايزات بين جنسي الإنسان والمبالغة فيها، وقبل أن نبرّر العملية يجب أن نسأل *لماذا*.

يمكن أن نرى التمايز الذي يعتبر جوهريًا للجنس الإنساني إذا ما كبّرنا خلية من الجسم إلى حد نستطيع معه أن نرى الصّبغيات، أي نحو ألفي مرّة. فإلى جانب الصبغيات الخمسة وأربعين الموجودة في خلية الجسم المذكّرة هناك صبغي صغير جدًا، يسمى الصبغي (Y). وهذا الصبغي، في الحقيقة، ليس صبغيًا جنسيًا، كما أن لديه مشكلات معينة نتيجة عزلته.

10- يتجسد التحيز الأنثروبولوجي والإثنولوجي في دراسة ضخمة من ثلاثة مجلدات، أعدها هـ. هـ. بلوس وم. وب. بارتلز (H. H. Ploss and M. and P. Bartels)؛ دمر هتلر بلاكات الطبعة الألمانية الأصلية لكن ليس قبل أن يعد د. إريك دينغوول (Eric Dingwall) نسخة إنكليزية منها: النساء (*Woman*) (لندن، 1935). وسيشار إليها من الآن فصاعدًا في هذا الكتاب بـ (بلوس وبارتلز).

بما أن اختبار التحوّل داخل صبغيّ ما لا يمكن إلّا في تركيبات مختلفة عندما يكون من الممكن توزيعها بحرية عن طريق العبور[11]، فإنّ كبح العبور يمنع التحوّل الحاصل ضمن الشكل (Y) الذي يتم اختباره. وبما أن العبور لا يحدث، فإن الصّبغي (Y) لا يستطيع أن يقوم بأي تبادل بنيوي عن طريق تبادل الأجزاء. وبالتالي، يفقد الصّبغي (Y)، في أثناء تطوّره، فاعليته في مسألة تحديد الجنس، وتأخذ مكانه الصّبغيات الذاتية[12] المتفاعلة مع الصّبغي (X)[13].

الصّبغيات الذاتية هي الصّبغيات التي ليست (X) ولا (Y)، وهناك ثلاثة وعشرين زوجًا منها في الخلية. يتأكد جنس الأنثى بوجود زوج من الصّبغيات إلى جانب تلك الأزواج يبدو مثلها تمامًا، لكنه في الحقيقة يحدّد الجنس، ويرمز له بالرمز (XX). وبدلًا من الزوج (XX) الإضافي على الأزواج الثلاثة والعشرين من الصّبغيات الذاتية، يوجد لدى الذكر زوج يحمل الرمز (XY). للصّبغي (Y) وظيفة سلبية: فعندما يلقّح حيوانٌ منوي يحمل الصبغي (Y) بويضةً، فإنه ببساطة يقلّل مقدار الأنوثة التي سينتج عنها تشكيل جنين أنثى. ومن ثمّ يرث الجنين، إضافة إلى ذكورته، عددًا من نقاط الضعف التي تسمى الصفات المتصلة بالجنس، لأنها تنتج عن مورّثات لا توجد إلّا في الصبغي (Y). والتشوّهات الغريبة كالشعرانيّة الزائدة، التي تعني نمو الشعر المفرط على الأذنين أساسًا، والبقع الخشنة على اليدين والقدمين والجلد الشبيه باللّحاء وشكل معين من أشكال نسيج أصابع القدمين، هي بعض من تلك التشوهات المعروفة على نطاق أضيق

11- العبور (crossing over): تبادل المورّثات بين الصّبغيات المتجانسة. [المترجم عن المورد الأكبر].

12- الصّبغيات الذاتية (autosomes): الصّبغيات التي لا أثر لها في تحديد الجنس، تمييزاً لها عن الصّبغيات الجنسية. [المترجم]

13- F. A. E. Crew, *Sex Determination* (London, 1954), p. 54.

من الهيموفيليا[14]، الذي هو في الحقيقة نتيجة مورّثة متحوّلة في الصبغي (X)، ولا يستطيع الصبغي (Y) أن يكبحها، فهي تنتقل عن طريق الإناث، لكنها لا تكون فعالة إلّا في الذكور. ويتبع عمى الألوان نمطًا شبيهًا. إضافة إلى ذلك، هناك نحو ثلاثين اضطرابًا يمكن وجودها لدى ذكور الجنس البشري، لكنها نادرة لدى الإناث للسبب ذاته. وهناك أدلة كثيرة على أن الأنثى أقوى فطريًا من الذكر؛ فهي تعيش أطول، وعدد وفيّات الذكور أعلى من عدد وفيات الإناث ضمن الفئة العمرية الواحدة، مع العلم أن عدد حالات الحمل بالذكور قد يكون أكثر بنسبة 10-30 في المائة. ليس هناك تفسير لزيادة نسبة الحمل بالذكور لأنّ عدد النطاف المنتجة للإناث هو ذاته عدد النطاف المنتجة للذكور. وهذا مدعاة للتأمل: أليس ذلك تعويض طبيعي عن ضعف الذكور بالمقارنة مع الإناث[15].

> في حين تبقى المرأة أقرب إلى النمط الطفولي، فإن الرجل يقترب أكثر من الخرف. تعبّر نزعة الرجل الانحرافية المتطرفة عن نفسها في نسبة أكبر من العبقرية والجنون والحماقة؛ أما المرأة فتبقى أكثر طبيعية تقريبًا.
>
> و. آي. توماس، *الجنس والمجتمع*،
> (W. I. Thomas, '*Sex and Society*', 1907, p. 51)

14- الهيموفيليا (haemophilia): اضطراب في تخثر الدم، يحدث على نحو حصري تقريباً بين الذكور، وفيه يستغرق الدم زمناً أطول حتى يتخثر. [المترجم]

15- Ashley Montagu, *The Natural Superiority of Women* (London, 1954), pp. 76-81.

توصّل علماء الجريمة مؤخرًا إلى ملاحظة مربكة أخرى حول الصّبغي (Y). إذ وجدوا أن هناك نسبة كبيرة من الذكور الذين يحملون الصبغي (XYY)، أي أن لديهم (Y) إضافية، بين الرجال المسجونين لارتكابهم جرائم عنف، وبدا أن ذلك متصل بنواقص معينة في القدرة العقلية[16].

لا تقرّر الصّبغيات ببساطة تطور الصفات الجنسية: فهي تشكّل الفرق الأولي، لكنّ تطور الصفات البدنية المختلفة يشمل كامل النظام الإفرازي وتفاعل الهرمونات المتنوعة. لقد أصبحت النساء مدركات خصوصًا لهرموناتهن نتيجة استخدام الهرمونات المصنّعة في حبوب منع الحمل؛ وكالعادة عند نشر هذه الأفكار للعموم توصف وظيفة الهرمونات على نحو بسيط جدًا. وفي الحقيقة، هناك فهم منقوص لكامل مجال عمل الهرمونات. وقد اضطر الأطباء، في تلاعبهم بتوازن الهرمونات الأنثوية الدقيق والمتقلّب، إلى الاعتراف بأنهم قد سببوا تعديلات في الوظائف غير الجنسية وغير الإنجابية لم يكونوا يتوقعونها. من الصعب بمكان أن نفهم رياضيات المورّثات والصّبغيات البسيطة، أما عندما يتعلق الأمر بكيمياء الهرمونات فيصبح فهم العملية أصعب. نحن نعرف أن الهرمون الذكري، التستوستيرون، يحرّض نمو الصفات الجنسية الذكرية، وأنه متصل على نحو ما بالهرمون الذكري الآخر، الأندروجين، الذي يحرّض نمو العضلات والعظام والأحشاء. يقوم هرمون الخلايا البينية النخامية بتنظيم إفراز الأندروجين، كما هي الحال مع الهرمون الأنثوي، الأستروجين، الذي يشبهه كثيرًا. يفرز كلا الجنسين كلا الهرمونين؛ وكل ما نعرفه

16- ناقش مؤتمر كروبوود حول العواقب الجرمية للشذوذات الصبغية، والذي عقد في جامعة كامبردج في صيف 1969، هذه المسألة بإسهاب. وتضم قائمة المراجع التي تدور حول متلازمة (XYY) نحو 500 عنوان.

هو أننا إذا أعطينا الأستروجين للرجال فإن صفاتهم الجنسية الثانوية تصبح أقل وضوحًا، وإذا أعطينا الأندروجين للنساء يحدث الأمر ذاته. يحتاج الأستروجين في بعض الوظائف إلى مساعدة الهرمون الأنثوي الآخر، البروجسترون. لجميع إفرازاتنا تفاعلات متكاملة ومساعدة: يكشف كل تحقيق من هذه التحقيقات تقريبًا مواد كيماوية جديدة بأسماء جديدة. على الرغم من القصف العشوائي للنساء بجرعات كبيرة من الهرمونات بهدف منع الحمل، فإن الموقف الأكثر شيوعًا من الهرمونات بين العارفين هو موقف يقوم على الاحترام والدهشة. ومازال البحث جاريًا عن حبة لا تمنع إلا الوظيفة الضرورية للحمل، ولن تشعر النساء بالثقة حتى توجد.

يتحدّد جنس الطفل عند الحمل لأنّ كل نطفة تحمل صبغي (Y) وصبغي (X)، والبويضة الناضجة تحمل صبغي (X) واحد. يسبب الصبغي المتخصص الاختلاف الأوّلي، لكنّ تطور الصفات الجنسية ينشأ عن المواد الكيميائية المتخصصة في الصّبغيات. لا يظهر الجنين حتى الأسبوع السابع أي خصائص متمايزة جنسيًا، وعندما يبدأ التطور الجنسي فإنه يتخذ نمطًا متشابهًا على نحو ملحوظ لدى الجنسين. يبدو البظر ورأس القضيب متشابهان جدًا في البداية، ويتطور مجرى البول كأخدود لدى الجنسين. لدى الصبيان يتشكل الصّفن خارج انتفاخ الأعضاء التناسلية، ولدى الفتيات يتشكل الشفران. إذا فحصنا النسيج في هذين الموضعين المتناظرين، نرى أنه في الحقيقة مختلف، على الرغم من أن النساء لديهن أنسجة شبيهة بأنسجة الرجال في مواضع مختلفة[17].

الطبيعة ذاتها ليست دائمًا خالية من الغموض. فقد يكون لدى الفتاة أحيانًا بظرًا ناميًا جدًا إلى حدّ يظنّ معه أنها صبي. وبالمثل، قد

17- Gray's *Anatomy* (London, 1958), pp. 219-20.

يكون العديد من الأطفال الذكور ناقصي النمو أو أعضاؤهم التناسلية مشوهة أو مخفيّة إلى حدّ يظنّ معه أنهم فتيات. وأحيانًا يقبلون جنسهم على النحو الموصوف، وينظرون إلى أنفسهم بوصفهم أعضاء ناقصين في الجنس الخطأ، ويتبنّون سلوك ذلك الجنس ومواقفه على الرغم من نزاعاتهم معه. وفي حالات أخرى، يخلق نوعٌ من الإدراك الوراثي مشكلةً تقود إلى البحث لتحديد الجنس الحقيقي للطفل[18]. يعتبر بعض الأطفال خطأ خُناثى، كما هي حال الفتيات الصغيرات اللواتي يولدن دون فرج. ويعتبر بعض من يملكون التركيبة (XXY) نساءً دون مبايض. يمكن حلّ بعض هذه الصعوبات بالجراحة التجميلية، لكن غالبًا ما يقوم الجرّاحون بهذه العمليات لدوافع خاصة، عندما يكشف فحص بنية الخلية الجسمية الدقيق أنه لا يوجد شذوذ خلقي. يعتقد أن ظاهرة المثلية الجنسية ناتجة عن عجز الشخص عن التكيّف مع دوره الجنسي المفترض، ويجب ألّا يعامل على أنه مشكلة وراثية أو مرضية، لكنّ اللغة المتحيّزة، حين يتعلق الأمر *بالشذوذ*، لا تدع لمثلي الجنس طريقةً للتعبير عن رفضه، وبالتالي لا بدّ وأن يعتبر نفسه غريبًا. ليست الأدوار الجنسية «الطبيعية»، التي نتعلم القيام بها منذ طفولتنا، طبيعيةً أكثر من التصرفات الغريبة التي يقوم بها لأشخاص الذين يلبسون ملابس الجنس الآخر ويسلكون سلوكه. في مقاربة الأشكال والمواقف التي تعتبر طبيعية ومرغوبة، يشوّه الجنسان نفسيهما، ويبرّران العملية بالإشارة إلى الاختلاف الوراثي الأساسي بين الجنسين. لكن، من بين الصّبغيات الثمانية وأربعين ليس هناك سوى واحد مختلف: وعلى هذا الاختلاف نبني فصلًا كاملًا بين الذكر والأنثى كما لو أنّ الثمانية وأربعين مختلفة. ربما يصرخ الرجال الفرنسيون عاليًا «يعيش

18- Robert Stoller, *Sex and Gender* (London, 1968), *passim.*

الاختلاف»، لأن الاختلاف مزروع باستمرار في جميع جوانب الحياة. لكنّ الأسهل والأوضح هو أن نتمعّن في ذلك التشوه المحرَّض عمدًا كما يتجلى في الجسم وفي تصوراتنا عنه، فنحن لسنا سوى أجسامنا، أيًا يكن ما نحن عليه، أو ما نزعم أننا عليه.

العظام

هل يستطيع الهيكل العظمي أن يدل على جنس الإنسان؟ عندما يصرح علماء الآثار جازمين أن قطعة من عظم فخذ تعود إلى امرأة في العشرين من عمرها، فإننا نتأثر بدرجة اليقين التي يتحدثون بها، على الأقل لأن هذا التصريح، الذي لا يعدو أن يكون مجرد تخمين، لا يمكن التحقق من صحته مطلقًا. وذلك التخمين يقوم إلى حد بعيد على فرضيات علماء الآثار عن النساء. فما يقصدونه هو أن ذلك العظم نموذجيًا هو عظم أنثى، أي أنه يجب، حسب الفرضيات، أن يعود لامرأة. إذ من المستحيل أن ينجو المرء من الأفكار المقولبة عن الأنوثة كما هي شائعة في مجتمعه، وقد ارتكبت أخطاء غريبة في هذا المجال، ومازالت ترتكب.

إننا نميل إلى الاعتقاد بأن الهيكل العظمي صلب؛ ويبدو أنه يبقى عندما تذوب كل الأجزاء الأخرى، وهكذا نفترض أنه واحد من الأشياء التي لا تتأثر بالتكيف الخارجي. أما في الحقيقة، فإن العظم نفسه قد يتشوّه بفعل العديد من المؤثرات. وأول هذه المؤثرات هو الضغط العضلي. فبما أن الرجال أقوى من النساء تكون الأخاديد العضلية على عظامهم أوضح. فإذا قيدت العضلات بالربط أو بالضمور أو بضغط خارجي مستمر دون ضغط مقابل يوازنه، يمكن أن تنزاح العظام عن

اصطفافها. كذلك، تتغيّر أجسام الرجال نتيجة العمل الذي يقومون به، والغذاء الذي يتناولونه في فترة النمو، الأمر ذاته يحدث مع أجسام النساء، لكن عند النساء تضاف إلى تلك التأثيرات تأثيرات أخرى تمليها الموضة والإغراء الجنسي. لقد حدثت تغيرات كبرى في تاريخ الإغراء الأنثوي في الوضعية المرغوبة التي تتخذها الأكتاف، فكانت تارة مائلة وطورًا مستوية، تارة منحنية إلى الأمام وطورًا مشدودة إلى الخلف، وكانت الفساتين أو المشدات تدعم الأكتاف المشدودة، لدرجة أدت إلى تغير التوازن الدقيق لعظم على عظم نتيجة ضغط العضلات لتحافظ على وضعية مصطنعة. وهكذا، فقد انحنى العمود الفقري إلى الأمام لدى عارضات الأزياء المتبخترات، أو إلى الخلف على شكل حرف (S) في أسلوب الفن الجديد[19] أو اتخذ شكلًا سرجيًا في الخمسينيات. تزيد الأحذية هذه الضغوطات غير الطبيعية؛ إذ يغيّر الحذاء ذو الكعب العالي كل التواء عضلات الفخذين والحوض، ويدفع بالعمود الفقري إلى اتخاذ زاوية تعتبرها بعض الدوائر أساسية للإغراء. كنت كبيرة بما يكفي لأتذكر جدتي وهي تتوسل إلى أمي أن تلبسني مشدًا، لأنها كانت تجد خراقة جسدي المراهق غير جذابة، وكانت تخشى ألا يكون ظهري قويًا بما يكفي ليحمل طول قامتي دون سند. لو أنني لبست المشد في عمر الثالثة عشرة، لكان قفصي الصدري قد نما على نحو مختلف، ولكان الضغط النازل على حوضي قد جعله أعرض. يعبس الناس هذه الأيام لدى سماعهم فكرة لبس المشد، لكن نساء عديدات لا يحلمن بتحطيم الحزام الذي يمنحهن *الدعم والتحكم بالمعدة*. حتى الملابس الضيقة مشدودة جدًا، ويمكن أن تسبب أعراضًا غريبة لمن تلبسها.

19- الفن الجديد (art nouveau): أسلوب في الفن والعمارة والديكور شاع في أواخر القرن التاسع عشر وتميّز باستخدام الأشكال الطبيعية وفق أسلوب معيّن وبالخطوط الانسيابية. [المترجم]

تؤثر طريقة ضاربة الآلة الكاتبة في الجلوس والمقعد الذي تجلس عليه البائعات في المتاجر في الوضعية وفي الهيكل العظمي تاليًا.

يفهم معظم الناس أن تطور الأعضاء يتأثر بالتمارين التي يمارسها الطفل في مرحلة النمو. حاولت أمي ثنينا عن تقليد السباحات الأستراليات الشهيرات معلقة على أكتافهن العريضة وأوراكهن الضيقة، والذي حدث نتيجة تدريبهن القاسي، كما كانت تصر دائمًا. وهناك اتفاق على وجوب أن تتلقى الفتيات الصغيرات برنامجًا للتربية البدنية مختلفًا عن ذاك الذي يتلقاه الفتيان، ولكن ليس هناك إقرار كم من ذلك الاختلاف يرجع إلى الاعتقاد بأن الفتيات الصغيرات يجب ألا يشبهن الفتيان. تبدو الفتيات الصغيرات جميلات جدًا وهنّ يمارسن الرقص الإيقاعي، ويبدو الفتيان رجوليين وهم يتمرنون على جهاز الثابت[20]. تمتد الفرضيات ذاتها إلى الاقتراحات المتعلقة بالهيكل العظمي لكل من الذكور والإناث: فهيكل عظمي صغير اليد، يجب أن يكون لأنثى، والأقدام الصغيرة أنثوية أيضًا، لكن تبقى الحقيقة أن كلًا من الجنسين قد يظهر تفاوتًا في النسب.

يتعلم طلاب الطب التشريح على نموذج ذكري، فيما عدا الحالات التي يتناولون فيها صراحة الوظائف الإنجابية. ويتعلمون أن الهيكل العظمي للأنثى *عمومًا* أخف وأصغر، وأن تركيبة عظمها أشبه بتركيبة عظم الطفل منها بعظم الرجل. وهذه الملاحظة الأخيرة تتكرر لتشمل

20- انظر على سبيل المثال:

Joan Fraser, *Stay a Girl* (London, 1963), p. 3:

تحتاج المرأة إلى نوع من التدريب مختلف عن ذاك الذي للرجل. فهو يحتاج إلى حركات تهدف إلى تنمية قوته البدنية وتمتين عضلاته، أما المرأة فلا تحتاج إلى عضلات متينة. هي تحتاج إلى نوع غير مجهد من التمرين، إلى حركة تنعشها وتجعلها تسترخي. حركة ستمنح حركاتها اليومية، بالإضافة إلى تناغم عضلاتها ومفاصلها وغددها وجهازها التنفسي والهضمي، كياسة ورشاقة وتوازنًا تعزز من أنوثتها.

جسم الأنثى كله، أي أنه يحافظ على طفولته أو يفاعته، فيما جسم الذكر يهرم أو يشيخ. وهذا الوصف، بعيدًا عن تضمنه أي خلل في تطور الأنثى، يدل ضمنًا على ميزة تطورية تتمثل بدرجة أعلى من المرونة والتكيف، ولا يمكن أن نستنتج منه أي شيء مهما كان حول القوة الجسدية أو القدرة العقلية[21].

ينبغي عدم تضخيم الفارق بين النوع الطفلي والنوع الشيخي، فهناك في الواقع طيف واسع من التنوع الممكن، دون أدنى أثر لشذوذ وظيفي. وهذا التصنيف يمثّل محاولة لتحديد نزعة ما. إذ في بحثنا عن تمايزات لتبرير التباينات في نسبة الذكور والإناث، لم نبالغ في الاختلاف العام فحسب، بل واخترعنا اختلافات معينة غير موجودة، كالضلع الإضافي الذي مازال بعضهم يعتقد بوجوده لدى النساء. يفترض أن حوض الأنثى مختلف تمامًا عن حوض الذكر، حيث الحوض هو مكان التفريق الأبرز في البنية العظمية بين الجنسين. أما في الحقيقة، فالفارق هو فارق في الأبعاد النسبية وزاوية الميل، على حين يظهر التصميم الأساسي نفسه عندهما[22]. تميل النساء جيدات التغذية اللواتي يقضين وقتًا طويلًا جالسات إلى امتلاك أحواض أكبر من أحواض النساء العاملات النشيطات أو سيئات التغذية، والاختلاف الجنسي لديهن يظهر نتيجة تأثيرات لا علاقة لها بالجنس البيولوجي، بل بالجنس من وجهة نظر اجتماعية[23]. والحكم المسبق القائل إن

21- لطالما كان احتفاظ النساء بملامح طفلية موضع ملاحظة، كما، على سبيل المثال، فعل بيتشات (Bichat) في كتابه *التشريح العام* (لندن، 1824)، وبالطبع بلوس وبارتلز (*op. cit.*, p. 90)، لكن لم ير أولئك المعلقين أن ذلك قد يثبت أنه ميزة، كما فعل توماس في كتابه *الجنس والمجتمع* W. I. Thomas, *Sex and Society* (London, 1907), pp. 18, 51، وآشلي مونتاغو (*op. cit.*, pp. 70—71).

22- انظر: Gray's *Anatomy* (*op. cit.*), pp. 402—7

23- يمكن استنتاج الدليل على التمايز الطفيف في التكوين الحوضي بين النساء البدائيات =

الحوض الضيق غير ملائم لإنجاب الأطفال لا أساس له من الصحة؛ فالتشوه في أي اتجاه سيؤثر في فعالية آليات الحوض. لكن معظم الناس لا يحكمون على الجنس مثلما يفعل علماء الآثار؛ إذ عندما تكون الأعضاء الجنسية الفعلية مخفية، فإن نوع الجنس يظهر من خلال الصفات الخارجية، لكن حتى التكورات تفعل فعلها في العظام الساكنة غير المرئية، فترفعها نحو الأعلى، أو تبرزها نحو الخارج، أو تجعلها تتمايل وتتأرجح. فهل ستعيش هذه العظام لتشهد على جنسنا؟

= والعاملات النشيطات من كتاب بلوس وبارتلز، وهما يستشهدان، على سبيل المثال، بـ (Hennig's 'Das Rassenbecken') من:

(*Archaeologie für Anthropologisten* (1885—6), Vol. 16, pp. 161—228)

التكورات

عندما يريد شخص ظريف في حفلة أن يعبّر بالإيماء عن امرأة جميلة، فإنه يموج يديه في الهواء ويغمز بطريقة موحية. إن فكرة التكورات مرتبطة عن قرب بالإيحاءات الجنسية إلى حد لا يستطيع معه بعض الأشخاص منع أنفسهم من التعليق الساخر أو الضاحك حتى على إشارات المرور. فصورة الأنثى الأكثر شعبية، على الرغم من مقتضيات تجارة الألبسة، هي صورة تحضر الصدور والأرداف فيها حضورًا طاغيًا في تعاقب هلوسي من الانتفاخات والمنحنيات التي تأخذ شكل قطع مكافئ.

هناك اعتقاد شائع أن جسم الأنثى مغلف بطبقة عازلة من الدهن، بالضبط لأنه بذلك يصبح أكثر مدعاة للرغبة بالعناق والتضام، وهكذا، تختلط الأمور، وتصبح أعداد مجلة نيتشر وهيو هيفنر (Hugh Hefner)[24]، على حد سواء، مومسات في هذا الزحام. صحيح أن النساء يلبسن ملابس أقل وأخف مما يلبسه الرجال، لكن ليس من السهل تحديد ما إذا كانت طبقة الدهن تلك ناتجة عن ضرورة عزل الأجزاء المكشوفة من الجسم أم هي موجودة أصلًا ولا علاقة

24- Nature: مجلة تهتم بأمور الطبيعة. وهيو هيفنر ناشر صحف أمريكي، مؤسس مجلة بلاي بوي. [المترجم]

لتعرية تلك الأجزاء بها. فالنتيجة التي ترتبت على عادة تغليف الرجال الأجزاء السفلى من أجسامهم بألبسة طويلة هي فقدانهم الأنسجة التي تمكن رؤيتها على السيقان الدجاجية[25] المكشوفة على شاطئ أي منتجع بريطاني[26]. لدى الرجال طبقة من الدهن تحت الجلد مثل النساء، لكن النساء يراكمن كميات أكبر منه في مواضع معينة. يتراكم معظم الدهن، لدى الأشخاص البدينين، في طبقة تحت الجلد، وهكذا فما تعنيه فعلًا الحقيقة الزائفة القائلة إن لدى النساء دهن تحت الجلد هو أن النساء يجب أن يكن أسمن من الرجال. يمكن أن نرى تاريخيًا أن جميع الأشخاص المكبوتين المتراخين كانوا سمينين، وأن المخصيين يميلون إلى السمنة مثل العجول، وهكذا يجب ألا يفاجئنا وجود رجال مازالوا يفضلون النساء المثيرات للعناق[27].

> ليس أجملُ ثدي في الطبيعة أجملَ من ذاك الذي يشكّله الخيال.
>
> **غريغوري، *«وصية أب لبناته»***
>
> (Gregory, '*A Father's Legacy to his Daughters*', 1809, p. 64)

التكويرة التي تحظى بأعلى تقدير من بين جميع التكويرات هي تكويرة الثدي. والغدة الفعلية التي تشكل قاعدة الثدي هي كتلة محدبة

25- في الأصل (Chicken legs): وهي ظاهرة موجودة لدى البشر وخاصة الرجال تتمثل بنحافة الساقين وضخامة بقية الجسم، كما هي الحال لدى الدجاج. [المترجم]

26- يعتبر كتاب بروبي ـ جوهانسن (Broby-Johansen) *الجسد والملابس* (*Body and Clothes*) (لندن، 1969) أشمل وصف حتى الآن للتفاعل بين الجسد والصورة الذاتية والملابس، بما في ذلك تحوّل المناطق المثيرة جنسيًا وتوضّع الدهون.

27- Sophie Lazarsfeld, *The Rhythm of Life* (London, 1934), p. 158

تمتد من الضلع الثاني إلى الضلع السادس، أما الدهن الذي يتجمع حول الغدة، ويشكّل المجرى الذي يفصل بين الثديين، فليست له خاصية جنسية في حد ذاته؛ يمكن في بعض الحالات أن تكون صاحبة ثديين كبيرين غير سمينة في أماكن أخرى، وتكون هذه الظاهرة عادة نتيجة اضطراب هرموني. إنّ درجة الاهتمام التي يعامل بها الثديان، بالإضافة إلى التشوش الناجم عمّا يريده المولعون[28] بالثدي فعلًا، يوقعان النساء في حالة هوس حيالهما. وهكذا، فالثديين دائمًا غير ملائمين تمامًا؛ فهما إما صغيران جدًا أو كبيران جدًا أو شكلهما خطأ أو مترهلان. ومن المستحيل منافسة مواصفات القالب الثديي الجاهز لأنها مصطنعة اصطناعًا، بل ويجب أن تزيف بطريقة أو بأخرى. لكن الواقع مختلف، والثدي الفعلي إما أضخم من ذلك القالب أو أصغر منه.

الثدي الممتلئ أشبه ما يكون في الواقع بحجر طاحون حول عنق المرأة: فهو يحبب بها الرجال الذين يريدون أن يجعلوا منها صورة معبودة، لكن لا يسمح لها قط أن تفكر في أن عيونهم المحدقة بها تراها فعلًا. فثدياها يثيران الإعجاب طالما أنهما لا يظهران أي إشارات على وظيفتهما، وعندما يقتم لونهما أو يصبحان ممطوطين أو ذابلين يصبحان موضوعًا للاشمئزاز. وهما لا يشكلان جزأين منها، بل طُعمين يتدليان حول عنقها، يجبلان ويفتلان مثل معجونة سحرية، أو يدخلان الفم ويُمصمصان مثل قطع من المثلجات. الطريقة الوحيدة التي تستطيع النساء بها أن يخترن عدم المشاركة في تلك المناولة الرخيصة هي أن يرفضن ارتداء الملابس الداخلية التي تؤيد

28- في الأصل (fetishists): وهم الممارسون للفتشية (fetishism) وهي في هذا السياق تعني تعلّق مرضي لاعقلاني بجزء من الجسد قوامه إشباع الرغبة الجنسية عن طريق ذلك الجزء، دون أن يكون له بالضرورة ارتباط مباشر بتلك الرغبة. [المترجم]

وهم الثديين المنفوخين، ما يضطر الرجال إلى قبول تنوّعات الواقع كما هو. التركيز الذي بدأ مؤخرًا ينصب على الحلمة، التي كانت غائبة عن الثدي في الفن الإباحي الشعبي، هو في صالح النساء، لأن الحلمة معبرة وسريعة الاستجابة. لقد حرر زحف تحرير النساء النامي كالنبات بعض الأثداء من هيمنة الإسفنج والأسلاك[29]. وقد تكون إحدى طرق التقدم في الاتجاه ذاته هي تذكير الرجال بأن لديهم حلمات حساسة أيضًا.

ثاني تكويرة في ساعة الجوكر الرملية[30] هي خمصة الخصر. وهناك مبالغة في دقة الخصر لإبراز تكويرة الثديين والردفين الخارجية: ونادرًا ما يكون الخصر ظاهرة طبيعية. إذ في جميع العصور التي اعتبرت فيها دقة الخصر مطلوبة، كان على النساء أن يلجأن إلى استخدام أدوات خاصة لفرض تلك الدقة بالقوة، وقد ظهر الخصر الدقيق إلى الوجود، وإلى حد كبير، بالطريقة ذاتها التي تطيل فيها مجموعة من الحلقات النحاسية فعلًا رقاب سيدات البانتو[31]. وقد مضت حسناوات القرن التاسع عشر إلى إجراء متطرف جدًا تمثل باستئصال الأضلاع السفلى حتى يتمكنّ من شد الحزام على نحو أكثر إحكامًا. وتستخدم إحدى القبائل المحلية في غوايانا الجديدة مشدات للرجال والنساء يندفع اللحم بفعلها نحو الأعلى والأسفل، بحيث

29- ربطاً مع الفكرة الواردة في الفقرة السابقة، الإسفنج والأسلاك هي المواد التي تصنع منها القوالب الجاهزة التي تعطي للثدي شكلاً محدداً، كحمالات الثديين على سبيل المثال. [المترجم]

30- تشبيه ساخر للمرأة ضخمة الصدر والردفين ودقيقة الخصر بالساعة الرملية. [المترجم]

31- البانتو (Bantu) أبناء مجموعة الشعوب الأفريقية الأصلية التي تعيش في وسط أفريقيا وجنوبها وشرقها. كان طول رقبة المرأة لدى هذه الشعوب ميزة جمالية فكانوا يعملون على إطالة رقبة المرأة بإضافة حلقات معدنية حول رقبتها في فترة النمو حتى تصبح أطول. [المترجم]

تتشكل لدى الرجال أيضًا تكورات على شكل ساعة رملية. إذا أخذنا فرض المشدّات المحكمة على «O» مرشدًا لنا، فيمكن أن نفترض أن قيمة أساسية تضفى على الخِصر الدقيق بوصفه نقطة قصم للجسد الأنثوي، وبذلك يشبع الخيالات السادية[32].

الولع[33] بالأرداف نادر نسبيًا في ثقافتنا، مع أن كينيث تاينان (Kenneth Tynan) كتب مقالة لمجلة شبه إباحية حول الموضوع منذ زمن غير بعيد تدل على أنه ذو خبرة[34]. ومازالت المجلات شبه الإباحية تحمل إعلانات عن مشدات بحشوات للمؤخرات غير الملائمة، لكن امتدادات الأفخاذ والأرداف المنتفخة الرجراجة الكبيرة التي كانت تدغدغ مخيلة أجدادنا أصبحت عمومًا موضع خزي[35]. ومحلها باتت المؤخرة الممتلئة في السراويل الضيقة، التي تبدو، من نواح أخرى،

32- Pauline Reage, *The Story of O* (Traveller's Companion, Paris, 1965), p. 18 and *passim*.
ويقدم ثورشتاين فيبلن (Thorstein Veblen) شرحًا سوسيولوجيًا للتكورات بوصفها رفاهية وضعفًا مميزين في كتابه نظرية *الطبقة المترفة* (*The Theory of the Leisure Class* (London, 1899), pp. 141-6). [قصة « O» للكاتبة الفرنسية بولين رياج - المترجم]

33- راجع ملاحظة سابقة حول الفتشية. [المترجم]

34- Kenneth Tynan, 'The Girl who turned her Back', *Mayfair*, Vol. 4, No. 3, March 1969.

35- يكشف المديح الآتي للسمنة والمقتبس من بلوس وبارتلز (*op. cit.*,p. 86) مدى الأهمية التي لا بدّ أن يكون أجدادنا قد أضفوها عليها:
ثمة شيء غريب ومنفر في الأسطح الزاوية أو المسطحة لدى النساء، مثلما تظهر لدى بعض الأعراق البدائية نتيجة كثرة العمل أو بؤس المعيشة في عصر ما تزال النساء الأوروبيات فيه في أوج حياتهن.
ربما تعتبر الطبقة الدهنية صفة جنسية ثانوية مهمة جدًا لدى النساء. فهي تضفي الاستدارة على الأطراف، والتكور على العنق والرقبة والأكتاف، والانتفاخ على الثدي، والاستدارة المكورة على المؤخرة؛ أي كل علامات الأنوثة المميزة. وهذه الطبقة الدهنية هي التي تمنح الركبة شكلها المبطن لتختلف جدًا عن شكلها لدى الرجل. وتنتج الاستدارة الضخمة (التي تبدو أحيانًا غير متناسبة) في الجزء الأعلى من فخذ المرأة، الذي ينزلق بسرعة نحو الركبة البارزة الملساء، عن الطبقة الدهنية ذاتها.

أكثر صبيانية، هي ما يجتذب الانتباه الأكثر صراحة. الفتيات غالبًا خجولات بخصوص مؤخراتهن، فيغطين أنفسهن بكابات (capes) وسترات طويلة، لكن غالبًا ما يكون ذلك نتيجة امتلائهن في تلك المنطقة، وليس العكس.

ثمة نوع من الاختلاف الطبقي في التفضيلات الجنسية. فما تزال محبوبة الطبقة العاملة مكتنزة وريانة، بينما يميل أبناء الطبقة الوسطى المتأنقة إلى القوام الممشوق وحتى إلى النحافة. أما بين النساء، فهناك جانب مشترك لدى الحالتين، إذ هن مطالبات بأن يشكلن أجسامهن بما يبهج أعين الآخرين. والنساء مزعزعات إلى حد أنهن يتخذن دائمًا بعض التدابير لتلبية هذا المطلب، سواء كان منطقيًا أم لا. فأنحل النساء إما أن يتبعن حمية غذائية لأنهن يتخيلن ضخامة في مكان ما، أو يقلقن لأنهن لسن مكتنزات؛ والأكثر اكتنازًا يقلقن بخصوص حيوية تكوراتهن، أو يتبعن حمية لفقدان اكتنازهن. يعرض على الفتاة المكتنزة التي ينبغي أن تكون نحيلة، وعلى الفتاة النحيلة التي ينبغي أن تكون مكتنزة، أدوية خطرة نوعًا ما لتحقيق أهدافهن. وفي كلا الحالتين، تفصّل المرأة نفسها لتروق لسوق مشترين؛ قد يكون الشاري الأكثر تطلبًا هو زوجها، الذي يمضي في ضبط اقترابها من الصورة المقبولة شرطًا لرغبته وفخره المستمرين بها.

لكل جسم إنساني وزنه وشكله المثاليين، وهو ما تستطيع الصحة والكفاءة وحدهما تحديده. عندما نعامل أجساد النساء على أنها أشياء جمالية بلا وظيفة فإننا نشوهها ونشوه صاحباتها. وسواء كانت المنحنيات المفروضة هي خطوط أرابيسك وافرة الحيوية أو تكورات ملكة الثديين[36] أو لفّات الفن الجديد المخففة، فإنها تشويهات للجسم المفرد الديناميكي، وتقييدات لإمكانيات أن يكون المرء أنثى.

36- في الأصل (tit-queen): وتعني امرأة ذات ثديين كبيرين ومثيرين. [المترجم]

الشعر

كان ماكرًا طالب المدرسة، الذي كتب إلى صحيفة صنداي (Sunday) سائلًا عن سبب هياج مدير مدرسته من الشعر البني الذي تركه يتدلى على رقبته ليصل إلى ياقة قميصه. ذلك أن الرجال الذين بدؤوا بإطالة شعرهم في جيلنا لم يكونوا يتصرفون بلا دافع، كما حاولوا أن يزعموا فيما بعد. فقد كان إطلاق الشعر علامة على أنهم لم يقبلوا أخلاقية جيل الشعر القصير من البيروقراطيين الذين أنجبوهم. وقد نجحوا، عن طريق إطالة شعرهم، بوضع نهاية لبعض الفرضيات المسبقة الغريبة حول دلالته الجنسية، فكثير من الشباب كانوا يطيلون شعورهم حتى تغطي رؤوسهم خصلات شعر مجعدة متقافزة وجدائل صقيلة طويلة، كانت أخواتهم يحاولن عبثًا أن يحاكينها. أما تلك الفرضية القديمة القائلة إن الشعر الذي تطلقه النساء على رؤوسهن أكثف وأطول من ذلك الذي يستطيع الرجال إطلاقه فلم تمت بلا ألم[37]. كان الرجال طويلو الشعر يعتبرون شاذين

37- كانت الفرضية القائلة إن الشعر ينمو على رؤوس النساء أكثر منه على رؤوس الرجال عامة تقريبًا. ويمضي بيشات (Bichat) (*op. cit.*, Vol. II, p. 446) أبعد من ذلك ليقول «ربما يظن المرء أن الطبيعة قد عوضت الجنس اللطيف بذلك عن النقص الذي يعني منه في أجزاء أخرى عديدة». قارن: أعمال الفيلسوف الشهير ارسطو (*The Works of Aristotle the Famous Philosopher*) (لندن، 1779)، ص374. مع أن =

أو منحرفين، وكانت النساء يلجأن إلى شلالات ضخمة من الشعر الاصطناعي لتعويض التوازن. والمفارقة أنهن مع هذا الإصرار على تكثيف الشعر على رؤوسهن وتزيين رموشهن، كنّ يعملن بدأب على نزع أي أثر للشعر من تحت إبطهن وعن أذرعهن وأرجلهن. عندما أخرج الصيف «المنحرفين» إلى الحدائق والمنتزهات العامة بقمصانهم الداخلية، لاحظوا أن أذرع العديد منهم وصدورهم كانت خالية من الشعر ولحاهم لا تكاد تظهر؛ وبدلًا من تفهم ما الذي يعنيه ذلك بخصوص ذكورة الصدر المشعر، أخذوا ذلك دليلًا إضافيًا على أن أولئك الرجال منحلون أخلاقيًا. ومنذ وقت غير بعيد، تمكن إدموند ويلسون (Edmund Wilson) من تقديم فرضية تقول إن همنغواي كان يعاني من نقص في رجولته، وتتهمه بأن شعر صدره كان ناعمًا جدًا.

الحقيقة هي أن بعض الرجال شعراني، وبعضهم لا؛ وبعض النساء شعرانيات وبعضهن لا. ولدى الأعراق المختلفة أنماط مختلفة من توزع الشعر. إذ ليس لدى الزنجي «الذكر»، وهو أكثر المخلوقات ذكورة، سوى القليل من الشعر على جسمه. ولدى بعض النساء القوقازيات داكنات البشرة وفرة من الشعر الداكن على أفخاذهن وربلات سيقانهن وأذرعهن وحتى على خدودهن؛ وإزالة ذلك مؤلمة وتستغرق وقتًا طويلًا. وفي النهاية، كلما سمح للنساء بنزع المزيد من الملابس، كان الشعر الذي يجب أن ينزعنه أكثر.

إن مبرر نزع الشعر بسيط. إذ هناك اعتقاد خاطئ تمامًا بأن الجنسانية خاصية حيوانية، على الرغم من الحقيقة الواضحة بأن

= الصلع صفة مرتبطة بالجنس، فإنه ليس من الصحيح الزعم أن الصلع لا يصيب النساء. لقد نتج عن كثافة التحيز الجنسي إخفاء تام لصلع النساء، وهو في الحقيقة أكثر شيوعًا مما يعتقد عمومًا.

الإنسان هو أكثر الحيوانات نشاطًا جنسيًا، وهو الوحيد الذي يمارس الجنس باستقلال عن الدافع الإنجابي الغريزي. وفي الخيال الشعبي، الشعرانية مثل الفرائية، مؤشر على البهيمية، ومن ثم فهي مؤشر على الجنسانية العدوانية. والرجال يرعونها، تمامًا مثلما يُشجّعون على تطوير الغرائز التنافسية والعدائية، أما النساء فيكبتنها، تمامًا مثلما يكبتن جميع جوانب قوتهن وطاقتهن الجنسية. وبذلك، إذا لم يشعرن من تلقاء أنفسهن بما يكفي من الاشمئزاز من الشعر على أجسامهن، فسيتولى الآخرون توجيههن لنزع الشعر عن أجسامهن. وفي الحالات المتطرفة، تحلق النساء منطقة العانة أو ينتفنها، حتى يبدون أكثر لاجنسيةً وطفوليةً. وبما أن فرويد نفسه قد ذهب إلى حد اعتبار شعر العانة شاشة مزودة بنوع من الاحتشام الفسيولوجي، فيمكن لهذه الحلاقة أن تقدّم على أنها ثورة. كما ان جميع الجهود المبذولة لإزالة الرائحة عن جسم الأنثى هي جزء من كبت تلك الحيوانية المتخيّلة. وهكذا، لم تعد إزالة روائح التعرّق والتنفس تكفي في هذه الأيام؛ وها هي المجلات النسائية تحذر النساء من رعب الرائحة المهبلية التي يفترض أنها منفرة تمامًا. أما الرجال، الذين لا يريدون نساءهم حليقات ومعطرات بمزيلات الرائحة إلى حد يفقدن معه نكهتهن، فعاجزون أمام كره النساء أنفسهن لأجسامهن. وعلى الجانب الآخر، يشعر بعض الرجال بالفخر برائحته وشعرانيته بوصفهما جزءًا من الرفض الذكوري للحُسن. هناك حل وسط بين سحر جلد الماعز نصف المعالج وجسم الدمية الأنثى الخالي من الشعر والرائحة، وهذا الحل الوسط هو الجسم المعتنى به والذي يبقى نظيفًا على نحو معقول، الجسم المرغوب، سواء كان جسم ذكر أم أنثى.

الجنس

الأعضاء الجنسية للمرأة مغلفة بالألغاز.

إذ يفترض بمعظمها أن يكون داخليًا ومخفيًا، ولكن حتى الخارجية منها مظللة نسبيًا. عندما تبدأ الفتيات الصغيرات بطرح الأسئلة، تجيبهن أمهاتهن، هذا إن كن محظوظات، برسومات بيانية بسيطة عن الجهاز التناسلي، تظهر فيها الأجزاء المتصلة بالمتعة أقل بكثير من ظهور تعقيدات القنوات والمبيضين. أنا نفسي لم أدرك أن أنسجة مهبلي طبيعية تمامًا إلى أن رأيت رسمًا تشريحيًا مفصلًا تفصيلًا شديدًا في كتاب مدرسي عن التشريح يعود إلى القرن الثامن عشر[38]. لا تشجَّع الفتاة الصغيرة على استكشاف أعضائها التناسلية، أو على معرفة الأنسجة التي تتألف منها، أو على فهم آلية التزليق والانتصاب. بل تعتبر الفكرة، في حد ذاتها، مقززة. ونتيجة هذه الحشمة الغريبة - التي قد تجد امرأة شابة معها أنها تصل حتى إلى غرفة العمليات الجراحية لدى الطبيب الذي يكره أن يفحصها، ويكره أن يسهب في

38- E.g. Samuel Collins, *Systema Anatomicum* (London, 1685), p. 566, and Palfijn's *Surgical Anatomy* (London, 1726), plates facing pages 226 and 227, also his *Description Anatomique des Parties de la Femme* (Paris, 1708, the plates are not numbered) and Spigelius, *De humani corporis Fabrica* (1627), Tab. XVII, Lib. VIII, and *Les Portraits Anatomiques* of Vesalius (1569), and the *Tabulae Anatomicae* of Eustachius (1714).

شرح ما يراه ـ تكتسب النشوة الأنثوية بعدًا لغزيًا متزايدًا باطراد، والمفارقة أنها ترفع، في الوقت ذاته، إلى مستوى الواجب. وهكذا، أصبحت طبيعتها الفعلية مسألة تأمل غيبي. ومازالت جميع أنواع الأفكار الخاطئة حول النساء منتشرة، على الرغم من دحضها منذ سنوات: إذ يرفض رجال كثيرون القبول بفكرة القذف الأنثوي التي يلفها الخيال على الرغم من تاريخها الطويل والمهيب.

ينبثق جزء من الحشمة التي تحيط بالأعضاء التناسلية الأنثوية من نفور حقيقي. فأسوأ نعت يمكن أن ينعت به شخص هو ذاك المتصل بالفرج. وأفضل ما يمكن أن يكون الفرج عليه هو أن يكون صغيرًا وخفيًا: إذ لا يمكن أن يضاهى القلق بخصوص ضخامة القضيب إلا بالقلق تجاه صغر الفرج. لا تريد أي امرأة أن تكتشف أنها تملك فرجًا كطوق الحصان، وإنما تأمل ألّا تكون رطبة أو كريهة الرائحة، وأن تزيل برضا نفس جميع علامات حيضها من أجل الحشمة العامة. لكن، لم تكن النساء دائمًا متحفظات على هذا النحو، إذ يمكن أن نجد في الأدب الشعبي أمثلة ممتعة عن نساء يتباهين بأعضائهن التناسلية، كالبغي الشهوانية التي تلوم خياطًا جبانًا بعبارات مداورة لأنه لم يتجرأ على قياس كيسها المهذّب بياردته:

ستجد الكيس عميقًا جدًا
ولن تصل إلى الكنز إلّا بمشقة[39].

كما أثنت أخرى على جزئها المخجل بهذه العبارات:

عندي علبة دبابيس أنيقة
علبة لم ترَ مثلها قطّ

39- أغنية شعبية جديدة تصور خطابًا مرحًا بين فتاة ريفية وخياط شاب، من العام 1670.

هي في مكان ليس للبلوى[40] به محطّ
هناك فوق ركبتي تحطّ...
آه.. كم أنيقة علبتي
ما لها في الكون من نظير
لذا، فلن أبيع ما بحوزتي
ولو بخمسين جنيهًا في السنةِ[41].

في البداية، كان الطب النسائي كله في يد الرجال، وقد وصف بعضهم، من مثل صامويل **كولينز** (Samuel Collins)، المهبل بمحبةٍ تثير البهجة في أي امرأة تقرأ كلماته. وبالطبع لم يكن يفترض أن ترى النساء تلك الكتب مطلقًا. فهو يتحدث عن المهبل كما لو أنه معبد فينوس وعن قبة الفرج كما لو أنها وسادة فينوس، لكنه يتخلى عن لطف التعبير ليصف أعاجيب الانتصاب الأنثوي:

> ... الحوريات... وقد تمددن، يعصرن القضيب فعلًا، ويتحدثن فرحًا في فعل الجماع... فائدة الأوعية الدموية هي نقل السائل الحيوي إلى مادة البظر، وفائدة الأعصاب هي تشريبه بـ(choyce Juyce) أثارته أرواح حيوانية (مليء بجسيمات مرنة تجعله قويًا ومشدودًا)... تقذف غدد المهبل... وقد سخّنها الجماع، السائل المصلي المخمّر الممدّد، عبر العديد من القنوات إلى تجويف المهبل، فتجعل ممره رطبًا وزلقًا، وهو أمر ممتع في الجماع... تتجلى الشرايين الخثلية[42] فعلًا بتشعبات كثيرة على جانبي المهبل وأجزاء أخرى منه، وفيها الكثير من الشعيرات الدموية لجعله دافئًا ومنتفخًا في فعل الجماع[43].

40- في الأصل (Pox) وهي الأمراض النُفاطية كالجدري والسفلس أو الزهري، وهي كذلك الداء أو البلوى. [المترجم]

41- *The High-prized Pin-Box. Tune of, Let every Man with Cap in's Hand* etc., c. 1665.

42- خثلي: عائد لمنطقة البطن بين السرّة والعانة. [المترجم]

43- Samuel Collins (*op. cit.*), pp. 564—5

الوصف الذي يقدّمه **كولينز** وصف فعال، فالمهبل يتحدث، ويقذف، وهو مشدود وقوي. لقد كان هو ومعاصروه يفترضون أن النساء الشابات أكثر توقًا لممارسة الجنس من الشباب. وبعض التعابير التي استخدموها لوصف أنسجة الأعضاء التناسلية الأنثوية أثناء الفعل غنية بالمعلومات المفيدة والدقيقة، على الرغم من أنها غير علمية. يقال أن المهبل مبطّن «بأردية مثل بتلات زهرة متفتحة»، مع «جعدة فوق جعدة»، وهو ما «يمنح البهجة في الجماع». وكان المهبل يصنف على أنه «حساس بما يكفي» وهو وصف دقيق. كما كانوا يدركون دور البظر الخاص، في إثارة «حلاوة الحب» و«فورة الجماع».

> المهبل اصطناعي جدًا (هو يستخدم كلمة «لا يضاهى») بحيث يستطيع أن يكيّف نفسه مع أي قضيب، فيستطيل للقضيب الطويل، ويلاقي القصير، ويتسع للثخين، ويتقلّص للصغير، وهكذا يستطيع كل رجل أن يضطجع بكفاءة مع أي امرأة، وكل امرأة مع أي رجل.
>
> '**ملخّص تشريح الأجسام البشرية**'، 1682

كانت الفكرة القائلة إن بإمكان المرأة جيدة الصحة وحسنة التكيف أن تحصل على رعشات جنسية ذات منشأ مهبلي تعتبر إقحامًا تجريديًا في المشاهدات التجريبية لأولئك الرواد. عدّ **كولينز** البظر، على نحو بديهي، جزءًا عزيزًا من العضو المحبوب؛ ولم يقلل من التشديد على دور المهبل في خلق المتعة، كما رأينا آنفًا. لقد قبلنا بتعاسة، إضافة إلى إعادة البظر إلى مكانته السابقة بعد استبعاد الفرويديين له، فكرةً عن سلبية المهبل التامة وحتى انعدام صلته. وهكذا، أصبحت ممارسة الجنس مهارة ذكرية أخرى، تقوم النساء فيها بدور الحكم

وحسب. أما المهارات التي استخدمتها زوجة الحمّام[44] لجعل أزواجها يتصببون عرقًا، والمصرّات القوية لدى الفتيات التاهيتيات اللواتي يستطعن أن يبقين رجالهن داخلهن طوال الليل، فكلتاهما مجهولتان لنا. وينصب كل التركيز اللغوي السوقي على عنصر *الإقحام؛ فنكحها وفتحها وأولج فيها وخرقها*[45]، كلها أفعال تُمارس على الأنثى السلبية، وأسماء القضيب كلها أسماء أدوات. وليس هناك في الإنكليزية سوى كلمتين أصيلتين يمكن استخدامهما مع أي من الجنسين، هما كلمة «swive»، التي لم تعد دارجة، وكلمة «ball» الغامضة[46]. يحاول الدّعاة من مثل تيودور فيثفل (Theodore Faithfull)، ومثلي، أن يغيّروا تشديد اللغة المجازية الحالية. إذ قد كتب فيثفل للرجل الذي يعاني من صعوبة في الانتصاب:

> إذا تجاهلت أي فكرة عن الانتصاب، وركّزت انتباهك على صديقتك، وإذا تجاهلت البظر واستخدمت أصابعك لمداعبتها من الداخل، وإذا ترافق عملك هذا بتقريب أعضائك الجنسية منها، فربما تجد عاجلًا أنها تستطيع أن تسحب عضوك الجنسي إلى داخل مهبلها دون أي حاجة للانتصاب من جانبك[47].

يبدو هذا مثل كذب علاجي، لكن جرت محاولات جدية لزيادة

44- (Wife of Bath): قصة أو رواية من تأليف جيفري تشوسر (Geoffirey Chaucer). [المترجم]

45- ليست ترجمتي حرفية لهذه الكلمات، بل حاولت إيجاد مقابلات عربية تخدم الفكرة التي تحاول الكاتبة تقديمها، وتفاديت في الوقت ذاته استخدام كلمات رائجة في الاستخدام اليومي بالعربية، خشية ألا يجدها القارئ لائقة. [المترجم]

46- الكلمتان تعنيان القيام بالفعل الجنسي وتنطبقان على الجنسين معاً، كأن نقول مارس ومارست، فيمكن لأي من الجنسين أن يكون فاعلاً في العملية. قد لا يكون في العربية كلمتان تفيان بالمعنى وتناسبان السياق. [المترجم]

47- Theodore Faithfull answering correspondence in *International Times* No. 48, 17—30 January 1969.

مشاركة المرأة في الجماع. فقد بيّن أ. هـ. **كيغل** (A. H. Kegel) للنساء، وهو يعلّمهن كيفية التغلب على ضعف المثانة الذي غالبًا ما تبتلى به النساء، كيفية تمرين عضلاتهن العانية ـ العصعصية، ووجد، من دون قصد، أنّ ذلك قد زاد من استمتاعهن الجنسي[48]. أما رأي أزواجهن بالموضوع فليس مسجلًا. لقد نتج سلس البول عن كبت النشاط ذاته الذي كبح المتعة الجنسية؛ وقد نكتشف أنّنا إذا استعدنا قدرة النساء على إدارة بنيتهن العضلية، فقد يتوقف الكثير من اضطراباتهن الحوضية، ويزداد استمتاعهن الجنسي على نحو مماثل. وبالطبع لا يمكننا أن نفعل ذلك حتى نكتشف كيف ينبغي أن يعمل الحوض، إذ طالما لا تستطيع النساء تشغيله، لا نستطيع أن نراقب فعله، وهكذا تؤبّد الحلقة ذاتها. لو أمكن حدوث التفاعل التسلسلي الصحيح، فلربما وجدت النساء أن البظر كان مشاركًا على نحو مباشر أكثر في الجماع، ولكان من الممكن أن يصلن إلى الذروة بطريقة أقل فخامةً وتعمّدًا من التدليك بالأصابع. على أي حال، سيكون على النساء أن يقبلن جزءًا من المسؤولية عن متعتهن ومتعة شريكهن، وهذا يتضمن درجة من السيطرة والتعاون الواعي. يمكن الظفر بجزء من المعركة إذا استطعن تغيير موقفهن تجاه الجنس، وطوّقن القضيب، وحفّزنه بدلًا من الاكتفاء بتلقيه. لقد أنشدت النساء المتنورات منذ زمن بعيد مدائح الوضعية التي تكون المرأة فيها فوق، لأنّ جسم الرجل الأثقل وزنًا لا يثقل بذلك عليهن، ويمكن أن يستجبن بعفوية أكثر. لكن المسألة، في نهاية المطاف، هي مسألة تواصل، والتواصل لا يتحقق وفق صيغة: *هو يتكلم وأنا أستمع*.

48- كيغل، رسالة إلى المحرر، في *مجلة الجمعية الطبية الأمريكية*، المجلد 153، 1953، ص1303-1304. وقد ناقش دانييل براون (Daniel G. Brown) عمله في «الرعشة الجنسية الأنثوية وعدم الكفاية الجنسي»، *تحليل للاستجابة الجنسية البشرية*، تحرير: (Ruth and Edward Brecher (London, 1968), pp. 163—4).

إن التخلص من وهم الرعشة المهبلية هو أمر مفيد في النهاية، لكنّ استبدال تلك الرعشة بالتقلصات البظرية سعيًا وراء إشباع حقيقي قد يتكشّفعن أنه كارثة للجنسانية. لقد أعطت استنتاجات ماسترز وجونسون (Masters and Johnson) بعض الآثار الجانبية غير المتوقعة، كالهوس البظري الحقيقي الذي يصيب كتاب ميت إيلجيرسن (Mette Eiljersen) إنّي أتّهم! فبينما تتحدث عن رعشة النساء بوصفها نتيجة «اللمسات الصحيحة على الزّر»، تشجب علماء الجنس الذين..

> .. ينصحون... بإثارة البظر كجزء من التمهيد للجماع، كتمهيد لذاك الذي يعتبره معظم الرجال «الشيء الحقيقي». وهذا الذي يعتبرونه «الشيء الحقيقي»، هو، في الواقع، خالٍ تمامًا من الإحساس بالنسبة للنساء.
>
> هذا هو لب المسألة! الذي أخفته النساء الذليلات الخجلات المذعنات مئات السنوات[49].

لم تكن جميع النساء في التاريخ ذليلات ومذعنات إلى تلك الدرجة. وإنه لهراء أن نقول إن المرأة لا تشعر بأي شيء عندما يحرّك الرجل قضيبه في مهبلها، فالرعشة مختلفة نوعيًا عندما يستطيع المهبل أن يتموّج حول القضيب بدلًا من الفراغ. وليس التمييز كله بين متعة الرجال البسيطة المحتومة واستجابات النساء المعقدة صحيحًا. فإذا كان القذف يعني تفريغ الضغط عند جميع الرجال، فإن إنتاج السائل المنوي الدائم وما يولّده من ضغط للقيام بالجماع، يمكّن الرجال من المجامعة دون نشوة ودون إحباط مع أي كان. لكنّ العملية التي يصفها الخبراء، والتي يقوم الرجل فيها، بدافع الواجب، بزيارة المناطق الحساسة جنسيًا، ويقضي وقتًا متساويًا على كل حلمة، ويولي انتباهه

49- Mette Eiljersen, *I Accuse!* (London, 1969), p. 45.

للبظر (على نحو مباشر جدًا في العادة)، ويمرّ بجميع مراحل الإثارة الإصبعية أو اللفظية، ويدع بعد ذلك نفسه بأدب يلج المهبل، منتظرًا ربما حتى يخبره انكماش البظر أنه مرحب به، تلك العملية مجهدة ومحسوبة بطريقة لا إنسانية. المعنى المتضمَّن بأن هناك جماعًا مثاليًا إحصائيًا، وينتج عنه دائمًا إشباع إذا ما اتبعت الإجراءات الصحيحة، هو معنى موهن ومضلّل. ليس هناك بديل عن الإثارة، إذ لن يضمن كل تدليك العالم الإشباع، لأن المسألة مسألة تفريغ للطاقة الجنسية ـ النفسية. وليس الإشباع الحقيقي مدّخرًا في مجموعة صغيرة من الأعصاب، بل في انخراط الشخص بكليته في الجنس. ولا تستند بهجة الجنس، التي تستمر عالية لدى النساء بعد هزة الجماع، والتي يراقبها الرجال بتعجّب، إلى البظر، الذي لا يستجيب استجابة خاصة لمثير مستمر، وإنما إلى استجابة حسية عامة. وإذا ركزنا استجابة الأنثى في البظر، فإننا نفرض على النساء تقييد الجنس ذاته الذي أعاق استجابة الذكر. المثال الأعلى الجنسي الذكري عن الذكورة التي لا تعرف التراخي والخالية من الروح الغرامية هو مثال موحش جدًا، فإذا كان التعبير عن تفريغ الطاقة يتم بمصطلحات ميكانيكية، فسيكون البحث عنه بطريقة ميكانيكية أيضًا، ويصبح الجنس مجرد استمناء في المهبل.

ستشعر نساء كثيرات ممن استقبلن استنتاجات **ماسترز وجونسون** بصيحات من مثل: «ألم أقل لك ذلك!» و«أنا طبيعية!» أن هذا النقد خيانة. لقد اكتشفن المتعة الجنسية بعد أن كنّ محرومات منها، لكنّ الحقيقة القائلة إنهن لم يعرفن سوى الإشباع عن طريق الإثارة البظرية هي دليل على وجهة نظري، لأنها المؤشر على تجريد الجسم بكامله من جنسانيته، واستبدال الجنسانية بالتناسلية. الزواج المثالي، كما تقيسه التجهيزات الإلكترونية في مخابر مؤسسة أبحاث البيولوجيا

الإنجابية، ضعيف: جنس مملّ بين أشخاص مملين. الشخصية الجنسية هي جوهريًا غير تسلطية. وإذا كان النظام يرغب بتعزيز سهولة التأثر في مواضيعه، فيجب عليه أن يجعل الجنس أليفًا. أما ما قدّمه ماسترز وجونسون فمخطط للزواج الأحادي النموذجي الباهت الخالي من الإثارة. وإذا أرادت النساء أن يتجنبن هذا الاختزال الأخير لإنسانيتهن، فيجب أن يبحثن عن النشوة لا عن هزة الجماع فحسب.

> يعكس تنظيم الجنسانية المزايا الأساسية لمبدأ الأداء وتنظيم المجتمع. يشدّد فرويد على جانب المركزية. وهو فعّال خصوصًا في «توحيد» الموضوعات المتنوعة للغرائز الجزئية في موضوع ليبيدي (شهواني) واحد من الجنس الآخر، وفي توطيد التفوّق التناسلي. وفي الحالتين، فإن عملية التوحيد كبتيّة ـ أي أن الغرائز الجزئية لا تتطور بحرية إلى مرحلة «أعلى» من الإشباع الذي حافظ على أغراضها، بل تختصر وتُقلَّص إلى وظائف تابعة. وهذه العملية تنجز تجريد الجسم من جنسانيته، الذي يعتبر ضروريًا اجتماعيًا، لكنها تترك ما تبقى منه حرًا ليستخدم أداةً للعمل. وهكذا يستكمل التقليص المؤقت للطاقة الجنسية بتقليصها موضعيًا[50].

إذا وجدت النساء أن البظر قد أصبح منبع المتعة الوحيد، بدلًا من اعتباره رافدًا يغذي استجابة جنسية أعم، فسيجدن أنفسهن خاضعات لأخلاقيات الأداء، وهذا ليس نكوصًا في حد ذاته، إذا كان مبدأ الأداء في مجتمعنا يشمل المشروع والإبداع. لكنّ المشروع والإبداع متّصلان بالطاقة الجنسية التي لا تحتمل الخضوع لمعايير التحضر. وهكذا، ينبغي أن تصارع النساء لإبقاء الإمكانيات البديلة مفتوحةً، فيما يصارعن لبلوغ ذلك النوع من القوة الذي يستطيع أن يستفيد من طاقاتهن.

50- Herbert Marcuse, *Eros and Civilization* (London, 1969), pp. 52—3.

لقد قام المجتمع المتساهل بالكثير لتحييد الدوافع الجنسية عن طريق احتوائها. لدرجة أضحى معها الجنس لكثيرين عملًا حزينًا، تفريغًا ميكانيكيًا لا يتضمن اكتشافًا ولا فرحًا بالنجاح، مؤكّدًا العزلة الإنسانية التي يزداد تثبيطها للهمم أكثر من أي وقت مضى. لم تتجسّد الممارسات العربدية، التي يخشاها الطهرانيون، على كل زاوية شارع، على الرغم من أن أعدادًا متزايدة من الفتيات يسمحن بمزيد من الحريات (الكئيبة) أكثر ربما مما فعلن من قبل. لقد ازدهرت المثلية الجنسية بأشكال عدة، وفي الحقيقة ازدادت كل أنواع الجنس التي يمكن أن تفلت من يد المؤسسة الميتة - كالجنس الجماعي والجنس الإجرامي وانتهاك الأطفال والتقييد أثناء الجنس والعقاب - في حين تبدو الطاقة الجنسية الطبيعية مراقة ومبددة بثبات. ليس هذا لأن التنوير مؤذ، أو لأن الكبت مهماز ضروري للعجز البشري، بل لأن التنوير الجنسي حدث بمعونة حكومية، بحيث نشرت اكتشافاته بنثر رديء ورطانة سريرية حول العالم. لم ينتج عن السماح بالحديث عن الجنسانية بحرية إلا إقامة رطانة أخرى عن حالة السواء الجنسي، رطانة متخمة بالكذب والخداع وسقط المتاع. النساء اللواتي يفهمن التجربة الجنسية بالطريقة التي تكتب جاكي كولينز (Jackie Collins) عنها ضائعات ضياعًا لا رجوع عنه لأنفسهن ولعشاقهن:

> أخذها إلى غرفة النوم، وعرّاها من ملابسها ببطء، مارس الحب معها بجمال. لا هياج ولا اندفاع. داعب جسدها كما لو أنه لم يكن هناك أي شيء مهم في العالم. أوصلها إلى حافة النشوة وعاد بها، حيث أبقاها مرفرفة وواثقة من كل حركة يقوم بها. كبر ثدياها تحت لمساته، انتفخا وصارا أكبر وأصلب. طفت على طائرة معلّقة، أسيرة يديه وجسمه. كان يتمتع بتحكم مدهش، يتوقف في اللحظة المناسبة تمامًا. وعندما حدث الأمر، حدث فقط لأنه أراده أن يحدث، ووصلا إلى الهزة في توافق

تام. لم تختبر ذلك من قبل، وتمسّكت به، والكلمات تخرج مرتعشة من فمها عن مدى حبها له. بعد ذلك استلقيا ودخّنا وتحدثا. قال لها: «أنت مدهشة؛ أنت ذكية بأن جعلتني أنتظر إلى ما بعد الزواج»[51].

بطلة الآنسة كولينز محتشمة جدًا وسلبية وحذرة وأنانية وبليدة، على الرغم من ثدييها المتمددين الخارقين. عندما يتعب زوجها من اللعب على أداته الجنسية، لن يكون في متناول يدها أي ملاذ، بل يجب أن تستمر في التراخي على سريرها الهوائي الفارغ من الهواء، متسائلة أين الخطأ. ليس هناك ذكر للأعضاء التناسلية: يحدث كل شيء في خدر أو في مستنقع من الأحاسيس غير المتمايزة. هو يجهد من أجل إمتاعها مثل خصيّ في جناح الحريم. الجنس مسخّر في خدمة الثورة المضادة.

> العناقات تتمازج من الرأس إلى القدمين، وما من كبير كهنة تيّاه يمرّ بمكان سرّي.
>
> بليك (Blake)، *القدس*»

ما تعبّر جاكي كولينز عنه هو النموذج الرومانسي الأكثر شيوعًا عن الجماع المثالي. وهو يبيّن عمق قناعتنا بمفهوم تفوّق الذكر. كانت بطلة الآنسة كولينز تتلاعب بدافع رفيقها الجنسي المسيطر، وتجعله ينتظر، طالما يستمر إلحاحه، حتى تصبح هي جاهزة. وقد استعملت، في التلاعب باندفاعاته العنيفة، تفوّقًا وهميًا، لأنها رقيقة وعاطفية ومحتشمة، محبة لا لإشباعها هي، بل تعبيرًا عن التقدير والثقة والحب الحقيقي، حتى تتمكن من تهذيبه للزواج والأداء الجنسي الموهوب.

51- Jackie Collins, *The World is Full of Married Men* (London, 1969), pp. 152—3.

يبخس الجانب النفسي المعقّد من حبه قدره؛ مازالت وحيدة وأنانية وبدون طاقة جنسية لترغب به أو لتأتي به إلى متعة جديدة فيها. تظهر جاكي **كولينز** وكتب الجنس أننا مازلنا نمارس الحب مع أعضاء وليس مع أشخاص: وهكذا، فنتيجة ابتعادنا عن إدراك أن الإنسان لا يكون في أي فعل أكثر تفردًا وحضورًا مما هو في فعل الحب، فإننا لا ندرك مدى انعدام تواصلنا ولا أي وحدة نعيش.

الرحم الشرير

الجنس شيء، والإنجاب شيء آخر، والعلاقة بينهما غامضة حين يتعلق الأمر بالبشر، فهؤلاء قد يجامعون عندما يريدون، وليس فقط عندما تدفعهم الحرارة أو الدافع الغريزي إلى ذلك. ولا بدّ أن يكون الفرق ناتجًا، في جانب منه على الأقل، عن أن للبشر ذاكرة وإرادة وفهمًا لممارسة متعة الجنس والرغبة به لذاته. لا تتعلم الفتيات الصغيرات عن متعة الجنس أي شيء سوى أنها متضمنة في اكتشافاتهن المتعلقة بوظيفتهن الإنجابية، وأنها نتيجة عابرة فحسب لتلك الوظيفة. وتبذل عناية أكبر لتعريفهن بصدمة الطمث المقتربة وبالاحتمال المرعب بأن ينجبن طفلًا إذا ما «فقدن السيطرة» أو «استسلمن» للدافع الجنسي، بدلًا من مساعدتهن في إدراك تلك الدوافع الجنسية في المقام الأول، والترحيب بها. وهكذا تعرف الفتاة في طور النمو عن رحمها أكثر مما تعرف عن أعضائها التناسلية الخارجية، وكثير مما تعرفه لا يبشر بالخير[52].

فمعرفة المرأة عن الرحم مدرسية، إذ معظم النساء لا يشعرن

52- أحد تلك الكتب هو الذي كتبته الدكتورة إيرنا رايت (Erna Wright) لتحضير الفتيات للحيض بعنوان «*طمث بلا ألم*» (لندن، 1966)؛ والرسوم البيانية المنفرة التي تستخدمها لا تظهر البظر مجرد إظهار، كما أنه لا يذكر في النص.

فعلًا بأي شيء من نشاط مبايضهن أو أرحامهن إلى أن يحدث خطأ ما، كما يحدث عادة. حتى أن نساء كثيرات، ويمكن للمرء أن يقول كثيرات جدًا، يمتن نتيجة مرض في أعضاء تجاهلنها عمليًا طوال حياتهن: عنق الرحم والفرج والمهبل والرحم. ينتج جزء من المشكلة أيضًا عن أمراض بدأت تافهةً، ومعالجتها ممكنة، لكن تشخيصها تأخر، وهو ما ينشأ عن التجهيل الذي يبجل زيفًا تحت اسم «حشمة». لقد ارتبط الرحم بالمشكلات منذ زمن سحيق جدًا، وبعض النفور الذي يبديه الأطباء من الإصغاء إلى ما تشعر به النساء من قلق حيال جهازهن الإشكالي ينبثق من هذا الخوف التأسّلي[53]. يُنظر إلى البرود الجنسي لدى النساء على أنه شرط مشترك، ناجم عن سوء الحظ وسوء الإدارة؛ بينما لدى الرجال، يعالج العجز بأقصى جدية. كما تُفحص أي آفة تافهة على القضيب بعناية فائقة حتى لا يضطر الرجل إلى الشعور بتهديد قلق الخصاء. أما الرحم العجوز المسكين فيجب أن يتدفق منه الدم أو يعاني من الهبوط قبل أن يأخذ أحد وضعه على محمل الجد. وكذلك، يُتجاهل البظر: إذ كادت ممرضة مرة تقطع بظري وهي تحلق شعر عانتي من أجل عملية. حتى لطاخات عنق الرحم، التي يحكى عنها كثيرًا، قلما تُجرى في مجتمعنا. أفلحت أول مرة في الحصول على فحص لطاخة عندما ذهبت يائسةً إلى عيادة الأمراض الجنسية لأن طبيبي ما كان ليفحص مهبلي أو يستخدم علم الكشف عن الأمراض ليكتشف طبيعة تهيّج تبيّن أنه بالضبط ما كنت أظنه. كانت اللطاخات تجرى في عيادة الأمراض الجنسية باعتبارها اجراء روتينيًا: أما في عيادة الطبيب العام المحترم فلم يكن فحص اللطاخة يُجرى. تنتج الجلبة الهائلة المتعلقة بنتائج قطع القناة المنوية غير المحسوسة

53- التأسّلي (atavistic) من التأسّل: وهو عودة شكل موروث من الأسلاف، أو صفة وراثية إلى الظهور بعد غياب دام أجيالاً. [المترجم]

الغريبة على نفسية الرجل من هذا التركيز على الرجل، ذلك أن مخترعي حبوب منع الحمل لم يشغلوا بالهم كثيرًا بنفسية المرأة، حتى أن سنوات مرّت قبل أن يكتشفوا أن امرأة من كل ثلاث نساء يتناولن حبوب منع الحمل يعانين من اكتئاب مزمن. إن العناية المبالغ بها بجهاز الذكر، بالإضافة إلى مقاومة المشاركة باهتمام جدي بالرحم وتوابعه، هي ثمرة قرون من الخوف من الرحم، حتى لا يتمّ استئصاله بفعل سياسي أو هتاف في الاجتماعات العامة[54]. يجب قبل كل شيء أن تتثقّف جميع النساء أنفسهن حول أجسامهن، وأن يستلمن دراسة طب الأمراض النسائية والتوليد[55]، وأخيرًا وليس آخرًا، أن يتغلبن على تحيّزهن لصالح الأطباء الذكور.

أحدث أشكال الوهم حول الرحم هو الفكرة السائدة على نطاق واسع حول أسباب *الهستيريا* في أوروبا حتى القرن العشرين. في البداية، كانت الهستيريا تسمى *الأم*، وكان الظن أنها رحم تائه صعد إلى حلق فتاة وسدّها. وكان أكثر علماء التشريح شكًّا يعتقدون، على الرغم من استنكارهم الفنون التي كان الدجالون والسحرة يستخدمونها لتسكين الهستيريا، أن الرحم قد «امتلأ بالدم والبذور الميتة اللذين تنشأ عنهما الرطوبات الفاسدة سيئة التكييف»، ويطوّرون نظريتهم الغريبة عن الاحتقان الحوضي[56]. كانوا يفترضون أن النساء العزباوات والأرامل يعانين أكثر من الهستيريا، وأن الحصول على زوج صالح قد يعالج ذلك.

54- ناقش هايس (H. R. Hays) بإسهاب الخوف القديم من الرحم في كتاب *الجنس الخطر: خرافة الشؤم الأنثوي* (لندن، 1966).

55- قارن تعليقات دانييل براون (Daniel G. Brown) على ضرورة أن تتولى النساء دراسة جنسانيتهن.

56- *مشاهدات* بيسشوف (Bisshof) *وممارساته المتعلق بالنساء في أثناء السفر وغيره.* (لندن، 1676) ص76.

> إن القول بأن الأم (كما يسمونها) تدخل إلى حلق النساء المتزوجات والصبايا، هو أمر يعتقد الألوف أنه حقيقة؛ أجل، وأن خيط الأم ثابت في الحلق، وأن عرق الأم أيضًا يوجد هناك، أي وهمٍ تُسيِّره بدهاء امرأة معينة في هذه البلدة، حتى تخدع بذلك عديدًا من النساء البريئات، وتفتني على نحو عجيب.
>
> 'In libellum Hippocrates de virginum morbis', 1688, p. 73.

وبالطريقة ذاتها، ظهر المرض الأخضر الذي حظي بنقاش جدي جدًا، ولكنه خيالي، والذي أعاد أطباء تواقون لإخفاء الأصول الشعبية لأفكارهم تسميته بـ«الخُضار»[57/58]. توصيفات الحالة حيوية جدًا، وعلى

57- الخُضار (chlorosis): فقر دم ناشئ عن نقص الحديد يصيب الفتيات المراهقات فيجعل بشرتهن ضاربة إلى اللون الأخضر. [المترجم]

58- لقد وصف الخُضار بأنه «حالة من حالات فقر الدم مشاهدة لدى النساء الشابات والفتيات، وكان يعتقد أنها ناتجة عن المشدات المشدودة بإحكام على الخصر أو الإمساك أو حالات الحمل المتكررة أو قلة الصحة والراتب الغذائي».
(*The British Medical Dictionary*, ed. Sir Arthur Salusbury McNalty, London, 1961).
وغالبًا ما كان يعتقد في الطب الشعبي أنه ناجم عن إحباط رغبة العذراء في التزاوج وإنجاب الأطفال، راجع *أعمال أرسطو في أربعة أجزاء* (لندن، 1822)، ص21-22. وفي الحقيقة ربطها بافريوس (Baverius) في القرن الرابع عشر بنقص الحديد، لكن ربطها بالعذرية حجب المسألة عن منظرين من مثل جوهان لانج (Johan Lange) الذي كتب بحثًا عن مرض العذارى في عام 1554. وفي عام 1730، عقّد هوفمان (Hoffmann) المسألة اكثر بأن ربطها بالهستيريا. وأظهرت دراسات مستنيرة انتشاره في المدارس الداخلية وبين الطالبات عمومًا، وربط في إحدى المراحل حتى بحالة قلبية. (انظر مدخل إلى تاريخ الطب *An Introduction to the History of Medicine* by Fielding) (H. Garrison, Philadelphia, 1929, pp. 167, 207, 271, 314, 360, 571, 647). من المتفق عليه عمومًا هذه الأيام أنه لا يوجد مرض قابل للتعريف اسمه الخُضار.

الرغم من أن بعضها يشمل أعراضًا ناشئة عن أسباب أخرى، فإننا نستطيع عمومًا أن نشاهد متلازمات وسواس المرض ذاتها التي تعزا إلى الهستيريا هذه الأيام: الصرع والربو وضيق النفس وامتلاء البطن بالغازات و(sensus globi in abdomine se volventis) والتعب والتشنج والحيض الموجع. يعتقد بعض الأطباء فعلًا أن الرحم جزء من كل مرض يصيب الجنس المؤنث. وهناك افتراض أن النساء خاضعات بالطبيعة لطغيان الرحم النهم، وأنهن يعانين من أعراض، لا يعاني منها الرجال إلا إذا بالغوا في ممارسة الاستمناء[59]. وعلى الرغم من وصف آلية الكبت بطرق متنوعة، فإن ردة فعل المرأة على تلك الآلية قد اعتبرت (كما هي الحال عادة) أساس استمراره. كانت النساء أضعف وأكثر تعرضًا للتأثيرات غير المنطقية من أن يسمح لهن بالتحكم بحيواتهن. وعندما انهارت إحدى طالباتي في امتحانها الأخير، وأصابتها نوبة من التشنج والبكاء المرير، عزي السبب رسميًا إلى الهستيريا: كانت دراسة أسباب حالتها تتمتع بأهمية خاصة، لكن بدلًا من دراستها وسمت بالهستيريا التي بدا وكأنها تقدم أجوبة على كل شيء.

على الرغم من أننا لم نعد نؤمن بالمرض الأخضر، نتيجة انخراط غير المتزوجات في سوق العمل بوصفهن جزءًا أساسيًا، وإن غير ماهر، من قوة العمل، مازلنا نؤمن أن العوانس عرضةً للاستنفاد والضياع

59- هناك كم هائل من الكتب والمراجع التي تتناول الهستيريا بدءًا بـ (Hippocrates *Liber Prior de morbis mulierum*) والذي ظهرت نسخة منه في عام 1583، و(*In libellum Hippocrates de virginum morbis*, 1648). كان المرض اختصاصًا رائجًا ومربحًا. اختار كثير من الأطباء الشباب أن يكتبوا عنه في أطروحاتهم باللاتينية. ويضم المتحف البريطاني (T.559) ما ينوف على ثلاثين كراسة تعود إلى الفترة الواقعة بين 1668 و1796، وربما تنفع أمثلة على الطريقة التي جمعت بها أعراض متغايرة تحت يافطة الهستيريا.

بفعل الإحباط. لم تنشر وظائف الرحم المرعبة الأخرى وتقبل إلا مؤخرًا. وهكذا، بات يسمح للرجال بأن يشاركوا في ألغاز الولادة، التي لم يعد من الضروري أن تجري في حلقة من الساحرات. لم يعد من الواجب تطهير النساء أو مباركتهن في الكنيسة بعد الإنجاب. وهناك محاولات لتقليص الانطباع بأن الولادة هي نوع من العقاب المنزل بالنساء، ولإعادة تثقيفهن بحقيقة الإنجاب، في وقت أصبح فيه أسوأ مرافقي المخاض ـ أي حمى النفاس والنزيف المفاجئ ـ تحت السيطرة الطبية. وعلى الرغم من انخفاض عدد الرجال الذين يراقبون زوجاتهم برعب، وهن يعانين من الإجهاض وهبوط الرحم بلا حول ولا قوة حتى الموت، فإننا لم نتصالح بعد مع فكرة الرحم الشرير. إن أهم وأشمل تجلٍّ لبقاء ذلك الخوف التأسّلي هو الموقف الشائع من الحيض.

تضطر النساء الملتزمات بالدين الإسلامي أو الهندوسي أو الموسوي إلى اعتبار أنفسهن غير طاهرات في فترة الحيض وإلى عزل أنفسهن خلال هذه الفترة. وقد وضعت الكاثوليكية القروسطية شرطًا يمنع دخول المرأة الحائض إلى الكنيسة. ومع أن التنوير يزحف إلى هذا الميدان بسرعته العادية، مازال لدينا اشمئزاز ملحوظ تجاه الحيض، وهو ما يظهر واضحًا في محاولاتنا إبقاءه سرًا. حتى أن نجاح الحشوة[60] يعود جزئيًا إلى أنها مخفية. يعدّ حدوث الطمث أول مرة لدى الفتاة أهم من أي عيد ميلاد، لكنه في الأسر الأنغلوسكسونية عرضة للتجاهل والإخفاء عن الآخرين. كنت خلال الأشهر الستة التي توقعت فيها مجيء طمثي الأول، أحمل في حقيبتي المدرسية كيسًا ورقيًا فيه حفاضات ودبابيس. وعندما جاء أخيرًا، عانيت آلامًا مبرحة حتى

60- في الأصل (tampon): حشوة ملفوفة مصنوعة من مواد ناعمة ماصّة، كالقطن، توضع في المهبل في أثناء الحيض لامتصاص الدم. [المترجم]

لا يخمّن أحد وجوده، أو يشم رائحته أو أي شيء. كانت حفاضاتي مصنوعة من قماش مناشف خشن، وكنت أتسلل إلى غرفة الغسيل، وأجثو فوق دلو من الخرق المتسخة، آملة ألّا يمسك أخي بي متلبسة بأعمالي المقززة. ليس مفاجئًا أن تستصعب الفتيات الصغيرات الأنيقات المهذبات التكيّف مع الحيض، حين لا يفعل مجتمعنا أكثر من شرحه وتركهن يتعاملن معه. في حين كانت الفتاة الصغيرة، بين السكان الأصليين الذين عاشوا على طول نهر بينيفاذر في **كوينلاند**، تغمر حتى الخصر في رمل دافئ لمساعدتها على التقلصات الأولى، وكانت أمها تغذيها وتعتني بها في مكان مقدّس، ثم تسير بها بنجاح إلى المعسكر الذي تنضم فيه إلى وليمة للاحتفال بدخولها في جماعة الفتيات اللواتي بلغن سن الزواج، والأرجح أن يكون الطمث بذلك أخف وطأة[61]. مازالت النساء يشترين المناشف الصحية بكثير من السرية، ولا يحملن حقائبهن إلى الحمام إلّا حين يحتجن إلى حمل فوطة. ومازلن ينقبضن أمام فكرة ممارسة الجنس في أثناء الحيض، ويشعرن أن الدم الذي ينزفنه من نوع خاص، على الرغم من أنه ليس خاصًا، كما كان الظن، حين كان هو السائل الذي يقدّم للشيطان في كؤوس المحبة التي تستخدمها الساحرات. إذا كنت تظنين أنك متحررة، فربما تفكرين في تذوّق دم طمثك؛ فإن أصابك ذلك بالغثيان، فأمامك طريق طويلة، يا حبيبتي.

الحيض، كما قيل لنا، عملية فريدة من عمليات الجسم الطبيعية، ذلك أنه يتضمن فقدان دم. ويفترض أن الطبيعة هي معجزة التصميم، وأن عملياتها جميعًا لا تنطوي على أي هدر، وأنها ليست بحاجة إلى إبطال، ولاسيما عندما تكون مزعجة للمرأة فقط، وهكذا، يظنّ بأنه من

61- Ploss and Bartels (*op. cit.*), Vol. I, pp. 611—31, 'The Seclusion of Girls at Menstruation'.

غير المحتمل أن يرافق الحيض أي ألم «حقيقي». أما في الحقيقة، فلا تشعر أي فتاة صغيرة، تجد نفسها فجأة نازفة من عضو لم تكن تعرف بوجوده إلى أن بدأ يضايقها، أن الطبيعة هي معجزة التصميم، وأن هذا التصميم صحيح كيفما كان. وعندما تكتشف أن الألم المصاحب لذلك الرعب هو على نحو ما *غلطتها*، نتيجة التكيّف الخاطئ مع دورها الأنثوي، فإنها تشعر فعلًا بأنها ضحية مزحة سمجة. يعترف الأطباء أن معظم النساء يعانين من «الانزعاج» في أثناء الحيض، لكنهم يختلفون كثيرًا حول نسبة النساء اللواتي يعانين من ألم «حقيقي». وسواء كانت تقلصات الرحم مؤلمة حقًا، أو أنها يمكن أن تعاد إلى استرخائها بشيء من العلاج النفسي أو غيره، فذلك غير جوهري. فالحقيقة هي أنه ما من امرأة تحيض لو كان الأمر بيدها. لمَ ينبغي ألّا تمتعض المرأة من إزعاج يسبب لها التوتر قبل حدوثه وبعده وأثناءه؛ نفور ورائحة وتلوّث؛ أمر يستغرق ما بين سُبع حياتها البالغة وخُمسها إلى حين انقطاع الطمث؛ ويجعلها خصبة ثلاث عشرة مرة في السنة، فيما تتوقع أن تحمل مرتين فقط في حياتها؛ ولمَ ينبغي ألّا تمتعض عندما يعني انقطاع الطمث عدّة سنوات من الاضطراب الهرموني والضمور التدريجي لأعضائها الجنسية؟ الحقيقة هي أن الطبيعة ليست معجزة التصميم، وكل معركة مع المرض هي تدخّل في ذلك التصميم، وهكذا، ليس هناك أي أساس منطقي للافتراض أن الحيض، كما نعرفه، يجب أن يكون، أو يلزم أن يكون غير قابل للتغيير.

يقود تناقض الموقف الذي ينظر إلى الحيض على أنه قدر إلهي، لكن لا يصح ذكره، إلى اشتداد ثورة النساء ضده، وهو ما يمكن تتبعه في جميع الكلمات الشائعة المستخدمة له، *كاللعنة*، والتقزز الذكري المعبَّر عنه بتعابير مثل *ارتداء الأسمال البالية*. لدينا فقط الخيار بين ثلاثة أنواع من التعبير: الممتعض المبتذل واللطيف («جاءتني الدورة»

أو «أنا متوعكة») والتعبير بلغة علمية عن *الحيض*. ولكن الفتيات غير قابلات للتقييد: ففي إحدى مدارس الفتيات في سيدني، تعطى الفوط النسائية اسمًا رقيقًا هو *أزهار الربيع*؛ وتسمي الفتيات الإيطاليات فترة الدورة الشهرية *الماركيز*، وتسميها الألمانيات *الملك الأحمر*. قد تجسد المرأة المعاني التي انتقتها السيدة **لا دام أو كاميليا** (La Dame aux Camellias)[62] لتدل أصدقاءها النبلاء على حالها، لكن لو أنها استخدمت على نطاق واسع، فلربما بدت مثل علامة على التحريم، نوعًا من جرس المجذومين. وقد جرت بعض الخطوات لإخراج الحيض إلى العلن بطريقة غير متحاملة، مثل قصيدة سيلفيا بلاث (Sylvia Plath) عن الطمث[63]. ربما نحتاج إلى إنتاج فيلم فني عن بداية الحيض، وفيه تظهر المضامين بطريقة غير أكاديمية، هذا إذا كنا لا نستطيع أن ننظم احتفالًا عامًا بدخول فتاة إلى عالم النساء بوسائل أخرى.

62- رواية للكاتب الفرنسي ألكساندر دوما الابن، نشرت في العام 1848، مترجمة إلى العربية بعنوان غادة الكاميليا.

63- يعتبر شعر سيلفيا بلاث أثرًا باقيًا للنساء اللواتي اختنقن في شباك النشوء العرقي. ويبني تصويرها بنى خيالية عن الشهوانية الأنثوية التي يستحوذ عليها حلم الانتهاك والموت. تظهر بعض الأفكار المسيطرة والتوترات الأساسية واضحة في قصيدتها القصيرة «استعارات»:

أنا أحجية من تسعة مقاطع،
فيل، بيت ممل،
بطيخة تمشي على محلاقين،
ثمرة حمراء، عاج، أخشاب جميلة!
هذا الرغيف كبير بانتفاخه الذي تسببه الخميرة.
والنقود التي سكت حديثًا في هذا الكيس.
أنا وسيلة، مرحلة، بقرة في ثوب عجلة.
لقد أكلت صندوقًا من التفاح الأخضر،
وركبت القطار الذي لا نزول منه.

(*التمثال الضخم*، لندن، 1960).

لقد استخدم الحيض كثيرًا في الجدل حول ملاءمة النساء للقيام بأعمال معينة: فحين يدور الحديث عن راحة النساء تقلل آثار الحيض، وحين تكون راحة أسيادنا هي المهددة تضخم تلك الآثار. لا ينتقص الحيض من أهلية النساء بأكثر مما تنتقص عادات من مثل تعاطي المشروب وارتفاع الضغط والقرحة والمخاوف الذكورية من أهلية الرجال. ليس ضروريًا إعطاء إجازات في أثناء الحيض. ربما يكون واردًا أن ترتكب النساء جرائم قبل فترة الحيض وفي أثنائها، ولكن الحقيقة هي أن النساء يرتكبن من الجرائم أقل بكثير مما يرتكب الرجال. وهكذا، لا بدّ للنساء من أن يكن مدركات لاستخدام الحيض على هذا النحو في الحجج التي يسوقها مناهضو النسوية، وأن يتصدين له برواياتهن عن الوضع. فالحيض لا يحوّلنا إلى ممسوسات عاصفات ولا إلى عاجزات بالكامل؛ المسألة ببساطة هي أننا نفضل أن نتابع حياتنا دون منغصاته.

الروح

القالب النمطي

هناك، في ذلك البعد اللغزي، حيث يلتقي الجسد مع الروح، تولد المرأة ـ القالب ويصبح لها وجود. هي جسد أكثر منها روحًا، وروح أكثر منها عقلًا. لها ينتمي كل ما هو جميل، حتى كلمة جمال نفسها. كل شيء موجود لخدمة جمالها. فالشمس لا تسطع إلا لتصقل بشرتها وتلمّع شعرها؛ والريح لا تهب إلا ليتوهج اللون في وجنتيها؛ والبحر يتوق لغسلها؛ والورود تسحق سعيدةً لتتحول إلى عطر يجدد بشرتها. هي تاج الإبداع وتحفته. ولذا، تُنقّب أعماق البحار بحثًا عن اللؤلؤ والمرجان لتزيينها؛ وتُفتح أحشاء الأرض على أمل أن تلبس الذهب والألماس والياقوت والزمرّد.

> يعلّمونها منذ الطفولة أن الجمال هو صولجان المرأة، ويصوغ العقلُ نفسَه وفق الجسد، وحائمًا حول قفصه المذهّب لا يبحث إلا عن زخرفة سجنه.
>
> **ماري وولستونكرافت، *«دفاع عن حقوق النساء»***
>
> (Mary Wollstonecraft, ‘A Vindication of the Rights of Women’, 1792, p. 90).

وتُضرب صفار الفقمات بالهراوات، وتنتزع الحملان غير الوليدة من أرحام أمّاتها، وتموت ملايين الخِلدان وفئران المسك والسناجب والمنك والقاقم والثعالب والقنادس والشنشيلة والأسلوت والوشق وغيرها من الكائنات الصغيرة الجميلة في غير وقتها حتى تتمكن المرأة من الحصول على الفراء. وتهبها اللقالق والنعام والطواويس والفراشات والخنافس ريشها. ويخاطر رجال بأرواحهم في صيد النمور من أجل معاطفها، وفي صيد التماسيح من أجل حقائبها وأحذيتها. وتمنحها الملايين من ديدان الحرير منتجاتها الصفراء؛ وحتى الخياطات يموّجن درزاتهن أو يحبكن المخرمات بأيدين، كي تتزين بأفضل ما يمكن للنقود أن تشتريه.

لقد تخلى رجال حضارتنا عن كل بهارج الأرض حتى يتمكنوا من العمل بحرية أكبر في نهب العالم بحثًا عن ثروات لتزيين *سيدتي* حسب الموضة. كما تسخّر مواد خام جديدة وعمليات مبتكرة وآلات حديثة لخدمتها. وهكذا، يجب أن تكون *سيدتي* أبرز منفق للمال، إضافة إلى أنها أبرز رمز لعرض القدرة على البذخ والنجاح في أمور المال. وفيما يكدح زوجها في معمله، تتبختر هي في أجمل الشوارع وأفخم الفنادق عارضةً ثروته على ظهرها وصدرها وأصابعها ومعصميها، مواصلة ذلك الإنفاق الأساسي الذي بدأته في بيته الذي يمثّل إطارها وخلفيتها، ومستمتعةً بذلك الكسل الحريري الذي يعتبر الشرط الضروري للمحافظة على هيبة زوجها ومؤهلاتها في إظهار تلك الهيبة[64]. ذات يوم، كانت السيدة الأرستقراطية هي الوحيدة القادرة على المطالبة بلقب درّة الإبداع: فيداها، دون غيرها من النساء، بيضاوان كفايةً، وقدماها صغيرتان كفايةً، وخصرها ضامر كفايةً، وشعرها طويل وأشقر كفايةً؛ لكن، مع الوقت، أعدت زوجة كل تاجر قروسطي ذي دخل

64- Thorstein Veblen (*op. cit.,*) *passim.*

جيد نفسها لتقلد *سيدتي* ولتواكب الموضة، حتى أجبرت *سيدتي* على أن تستعرض نفسها مثل دمية ملمعة مثقلة بقطع عملاقة من الياقوت وبحبات من اللؤلؤ مثل بيض الحمام. في هذه الأيام، مازالت ملكة بريطانيا تعتبر أنّ جزءًا من دورها الملكي أن تلبس أقصى ما تستطيع من مجوهرات العائلة في أي مناسبة عامة تظهر فيها، مع أن الملوك تخلصوا من واجب الظهور مثل واجهة عرض، وهو واجب آل حصريًا إلى زوجاتهم.

وفي الوقت الذي كانت المرأة فيه تتحوّل إلى واجهة لعرض الثروة والانتماء الطبقي، فيما الرجال ينزلقون إلى حالة من الإغفال النسبي تحت شعار «إن الجميل هو الجميل بفعله»، كانت تظهر أهم رمز في الفن الغربي. كان جسدا الرجل والمرأة عند الإغريق نموذجين للجمال الإنساني الذي ليس بالضرورة جمالًا من النوع الجنسي؛ وربما كانوا يفضّلون صورة الذكر الفتي لأنه الأقوى والأكثر تناسبًا. وبالمثل، لم يظهر الرومان تحيّزًا نحو تصوير الأنوثة في فنّهم الذي طفت عليه سمة النصب التذكارية. أما في عصر النهضة فبدأت صورة الأنثى تهيمن، لا بصفتها أمًّا، كما في الرمز السائد للسيدة العذراء مع طفلها فقط، بل بوصفها غرضًا جماليًا بذاتها. في البداية أخذت صورة المرأة العارية فرصها في المشاهد العامة أو اللوحات التي تضم آدم وحواء معًا، لكن **فينوس** طالبت تدريجيًا بالسيطرة، ولم تعد **مريم المجدلية** ذابلةً هزيلةً، بل مشتهاةً وبهيجةً، وبدأت بالظهور صور شابات مجهولات اختُرن نتيجة جمالهن فقط، وأخذن بالتدريج يظهرن مجرّدات من ملابسهن تحت أسماء من مثل **فلورا** أو **بريمافيرا**[65]. وأخذ الرسامون يرسمون زوجاتهم وخليلاتهم وزوجات الملوك بوصفهن نماذج للجمال

65- أسماء لوحات شهيرة [المترجم].

الشهواني مجردات من ملابسهن إن كن جذابات، ولكن ليس من مجوهراتهن. فتحتفظ سوزانا بأساورها في الحمّام، وتبقى هيلين فورمينت ممسكة بفرائها أيضًا.

ما حدث للمرأة في الرسم حدث لها في الشعر أيضًا. فكان جمالها موضع احتفاء في علاقته بالأغنياء الذين يتحلّقون حولها: شعرها أسلاك ذهبية، وجبينها عاج، وشفتاها ياقوت أحمر، وأسنانها صفّان من اللؤلؤ، وثدياها مرمر معرّق بلازورد أزرق، وعيناها سوداوان مثل كهرمان أسود[66]. وكان هناك تشديد على تقصّف جمالها في مقارنة لا بدّ منها مع الوردة، لذا كانت تحرض على استخدام جمالها في ممارسة الجنس قبل أن يذوي على ساقه[67]. كما كانت تصور وكأنها مادة للاستهلاك؛ فشبهها بعضهم بالكرز والقشدة، شفتاها حلوتان

66- مثال:

حسبت شعر عشيقتي ذهبًا،
وفي خصلات شعرها علقت قلبي:
كانت ضفائرها الكهرمانية ملء النظر
حتى ألقت بي في حالة من البهجة المزهوة؛
كان جبينها العاجي وذقنها الجميلة
الطعمين اللذين شدّاني إلى المعصية؛
نظراتها المتلألئة وعيناها الصافيتان
الزاهيتان أكثر من شروق الشمس.

(روبرت غرين، *كنوز فرانسيسكو* (Robert Greene, *Francesco's Fortunes*))

67- مثال:

عندما أعجب بالوردة،
التي تجعلها الطبيعة تأوي
إليك بأحسن مما تأوي إلى كثيرات،
وأرى كم كان الفن دقيقًا
حين كسا كل جزء منك،
أفكر مشوش الرؤية:
هل أنت الوردة أم الوردة أنت!

(توماس لودج، *وليام لونغبيرد* (Thomas Lodge, *William Longbeard*))

كالعسل، وبشرتها بيضاء كالحليب، وثدياها مثل قشدة غير خاثرة وهما صلبان كالتفاح[68]. وكانت بعض الخيالات تحتفي بملابسها المبهرجة أيضًا، بثوبها الذي يفوق غشاوة الصبح شفافية، بمخرّماتها الرقيقة مثل خيوط العنكبوت، بالدمى التي تلعب بها، وبالخدمات التي تقدمها[69]. نجد حتى الآن بطل رواية يصف الحقائب الأنيقة لسيدته الراقية وقبعاتها اللعوب وزينتها وأحذيتها المنتقاة بعناية؛ صحيح أن الوصف لم يعد ينصب على المجوهرات والأزهار، لكن التشديد الاستهلاكي ذاته. فالسكرتيرة الفأرية تتفتح في القالب الأنثوي عندما تحمّر شفتيها، وترخي شعرها، وتلبس شيئًا مزركشًا.

لا يتوقع من النساء، في هذه الأيام، أن يظهرن وقد أنفقن على أجسادهن مبالغ طائلة، اللهم إلا إن كنّ مثل باولا دي ليبيجي (Paola

---

68- مثال:

خداها مثل تفاحتين لوحتهما الشمس،
شفتاها مثل كرزتين تغريان الرجال بقضمهما،
ونهدها مثل طاس من القشدة غير الخاثرة...
(إدموند سبنسر، *إبيثالاميون* (Edmund Spenser, *Epithalamion*))

69- مثال:

كان الوجه الخارجي من ثوبها شفيفًا،
والحرير الأرجواني الذي يبطن ثيابها مزينًا بنجوم مذهبة،
وأكمامها الواسعة خضراء وموشّاة برسم بستان وافر الشجر...
وكانت تستخدم جزمة من الصدف المطعم بالفضة
مزخرفة بالمرجان الضارب إلى الحمرة حتى ركبتها،
حيث تجثم عصافير، من اللؤلؤ الفارغ والذهب،
وهكذا، من شأن العالم أن يتعجب من النظر؛
تلك التي تملؤها وصيفتها غالبًا بالماء العذب،
الذي يسقسق، عندما تمضي هي في حال سبيلها، من مناقير العصافير.

الشيء الوحيد الصحيح هو أن تكتشف أن مارلو (Marlowe)، في هذا المقطع يقدّم هيرو نموذجًا مقابل الجمال الطبيعي الذي يتمتع به ليندر حبيب الآلهة، ويصور عاريًا تمامًا. أما هيرو التي ترسم لها صورة نمطية فربما تعتبر أحد مواضيع القصيدة.

(di Liegi) أو جاكي أوناسيس (Jackie Onassis)، وهذا ما يعني الاقتصار على المناسبات الاحتفالية فقط، ولكن مطلوب منهن أن يبدون نفيسات وعلى الموضة وأنيقات، وألّا يظهرن في الثوب نفسه مرتين. صحيح أن الواجب المفروض على قلّة من النساء قد أصبح أقل وطأة، لكنه بات مفروضًا على كثير منهن أيضًا. وهكذا، تقود المرأة-القالب جيشًا من الموظفين. فلها تصنَّع مواد التجميل والملابس الداخلية والمشدات والجوارب وخصل الشعر الزائف والشعر المستعار وتصفيف الشعر، بالإضافة إلى الملابس الخارجية والمجوهرات والفراء. يجب بناء المظهر كاملًا طبقة إثر طبقة، وهو بناء باهظ التكاليف. لقد أفسحت الفخامة الطريق للإنتاج الكبير. ولا بدّ من الإبقاء على روح التنافس حامية، لأن المزيد والمزيد من النساء يصارعن للصعود نحو الأعلى، بحيث تستطيع صناعة الأزياء أن تعتمد على سوق متوسعة باطراد. ولأن النساء الأفقر يسعين إلى محاكاة تلك الصناعة وتقليدها، فهن يأخذن الأشياء الدارجة بعد انتهاء موسمها، ويستخدمن تأثيرات غير متقنة، فيخلطن بين أناقة الطبقة الراقية وقماشها اللامع وبريقها وبين صورة زائفة مبهرجة عنها. والعمل معقّد جدًا إلى حد تتطلب إدارته خبراء. ينبغي إلباس النساء المقولبات وتصفيف شعرهن وطليهن على يد الخبيرات ومقرِّرات الموضة، مع أنهن قد يشجِّعن على الرأفة بربات البيوت اللواتي يطالعن حيواتهن في المجلات المهتمة بهذه الأمور عبر الزعم بأنهن مخلصات طول العمر لشعرهن وصابونهن ومائهن. والتباهي عادةً أكثر إحباطًا من عدمه، لسوء الحظ.

تستطيع كل امرأة، طالما هي شابة وجذابة، أن تمنّي نفسها بحلم صعود السلم الاجتماعي، وبأن تبزّ بريق الترف بجمال طبيعي صرف؛ وتبقى الأمثلة القليلة على عمل فذّ من هذا القبيل أمام أعين الجمهور.

تطالع الشابات، يحدوهن الأمل والتفاؤل والطموح، أحدث أشكال المرأة-القالب، معروضة في **فوغ** (Vogue) و**نوفا** (Nova) و**كوين** (Queen) وغيرها من المجلات اللماعة، حيث تطل عليك العارضات من بين الإعلانات عن العقارات والفراء والمجوهرات الخيالية. في هذه الأيام، يتأثر تماثل أزياء السنة بشدة بظهور مصممات الأزياء الجريئات في بريطانيا اللواتي يتوجهن إلى الفتاة العاملة مشددات على التنوع والراحة والمظاهر البسيطة اللافتة للنظر. لم يعد هناك وجه واحد للسنة: حتى **تويغي** (Twiggy) اضطرت للانسحاب إلى التسويق واقتصدت في ظهوراتها الشخصية، فيما تعمل **شريمب** (Shrimp) أساسًا في نيويورك. لكنّ المرأة-القالب مازالت هي العليا. لقد سمحت لنفسها ببساطة بدرجة أعلى قليلًا من الاختلاف.

المرأة-القالب هي الأنوثة الأبدية. هي الغرض الجنسي الذي يبحث عنه جميع الرجال وجميع النساء. هي لا تنتمي إلى أي من الجنسين، لأنها هي نفسها بلا جنس على الإطلاق. وتأتي قيمتها حصرًا من الطلب الذي تثيره في الآخرين. وجودها هو كل ما يجب أن تسهم به. ليست بحاجة إلى أن تنجز أي شيء، فهي جائزة الإنجاز. ليست مضطرة إطلاقًا لأن تعطي دليلًا إيجابيًا على شخصيتها الأخلاقية لأن الفضيلة منتحلة من جمالها وسلبيتها. وإذا ما وجد بصحبتها أي رجل، ليس له الحق في صحبتها، فلا ضير في ذلك لأنها محايدة أخلاقيًا. المسألة مجرد مسألة منافسة ذكورية. وهي قد تدفع الرجال ببراءة إلى الجنون والحرب. وكلما زادت المشكلات التي يمكن أن تسببها، ارتفعت أسهمها، لأن حيازتها تعني المزيد والمزيد من الطلب عليها. لا أحد يرغب بفتاة لا يشعر بجمالها أحد سواه؛ وهكذا، يرحب الرجال بالقالب لأنه يوجّه ذوقهم إلى مواضع القيمة التي تحظى بأعلى تقدير، على الرغم من أنهم قد يحتجون لأن بعض جوانبه لا تتوافق

مع أصنامهم المعبودة. هناك مجال لتنوع القالب وفق جميع الأصنام المعبودة.

> خرافة المرأة السوداء القوية هي وجه العملة الآخر لخرافة المرأة الشقراء الغبية. حوّل الرجل الأبيض المرأة البيضاء إلى مخلوق غريب رقيق ضعيف العقل وضعيف الجسم، إلى وعاء جنسي، ووضعها على قاعدة تمثال؛ وحوّل المرأة السوداء إلى أمازونية قوية معتمدة على نفسها، ووضعها في المطبخ... حوّل الرجل الأبيض نفسه إلى المدير كلي القدرة ووطد نفسه في المكتب الأمامي.
>
> **إلدريدج كليفر، القصة الرمزية للمخصيين السود، «*روح على الجليد*»**
>
> (Eldridge Cleaver, The Allegory of the Black Eunuchs, 'Soul on Ice', 1968, p. 162).

قد يتبع الرجل المولع بالسيقان التنورات القصيرة، ويستطيع المولع بالأثداء أن يشجّع البلوزات الشفافة والياقات المفتوحة، في حين قد يجد الرجل الذي يحب النساء السمينات نفسه مكرهًا على الاستمتاع بهن سرًا. هناك حدود صارمة للتنوع في المرأة ـ القالب، إذ لا يجب أن يتدخل أي شيء في وظيفتها بوصفها غرضًا جنسيًا. قد ترتدي الجلد، طالما هي لا تستطيع فعلًا أن تقود دراجة نارية، وقد تلبس المطاط، ولكن يجب ألّا يشير ذلك إلى أنها غطاسة خبيرة أو متزلجة على الماء. وإذا لبست ملابس رياضية فالهدف هو أن تؤكد أنها غير قوية رياضيًا. وقد تمتطي حصانًا منفرجة الساقين، وتبدو ناعمة ومتقوسة، لكن يجب ألّا تنحني فوق رقبة الحصان رافعةً كفلها في الهواء.

> خُلقت لتكون دمية الرجل، لعبته المخشخشة، ويجب أن تخشخش في أذنيه في أي وقت يشاء فيه أن يتسلى بغض النظر عن السبب.
>
> **ماري وولستونكرافت، *«دفاع عن حقوق النساء»***
>
> (Mary Wollstonecraft, 'A Vindication of the Rights of Women', 1792, p. 66).

ولأنها رمز القدرة على الإنفاق والمنفق الرئيسي، فهي أيضًا أنجع بائع للسلع في هذا العالم. لقد أظهرت جميع المسوح التي أجريت أن صورة المرأة الجذابة هي أنجع وسيلة تحايل إعلانية. فقد تجلس متباعدة الساقين على رفرف سيارة جديدة، أو تخطو لتركب السيارة متوهجةً بالجواهر؛ وقد تضطجع عند قدمي رجل مداعبة جوربيه الجديدين؛ وقد تمسك مضخة الوقود في وقفة متحدية، أو ترقص في فرجة في غابة بحركة بطيئة منتشية بشامبو جديد؛ تبيع صورتُها أيَّ شيء تفعله. عبادة المرأة مكتوبة بحروف كبيرة على وجه حضارتنا، على لوحات الإعلانات وشاشات السينما والتلفاز والصحف والمجلات والمعلّبات وعلب التبغ والصناديق الكرتونية والقناني، كلها حكر على الإلهة الحاكمة المعبودة. لا ينبغي التفكير في أن قوتها يستتبع حكم النساء، فهي ليست امرأة. شفتاها اللامعتان وبشرتها الكامدة وعيناها التائهتان وأصابعها التي لا عيب فيها، وشعرها الاستثنائي، طاف ولامع، متجعد وبراق، كلها تكشف نجاح مواد التجميل والإضاءة والتركيز والطباعة والتقطيع والتركيب، نجاحًا فوق إنساني. تنام هادئة، شفتاها حمراوان ونضرتان ومغلقتان، عيناها طريتان وسوداوان كما لو أنهما قد زيِّنتا للتو، ورموشها المستعارة ملتفة على نحو لا عيب فيه. حتى

عندما تغسل وجهها بصابون حمام جديد غني بالكريم، يكون تعبيرها هادئًا وفارغًا، ويبقى تبرجها تامًا كما من قبل. وإذا ما ظهرت مرةً شعثاء الشعر ومعكرة، فإن قسماتها تصبح ملساء بأعجوبةٍ مع دعاية لاستخدام مسحوق غسيل جديد أو مكعب مرقٍ حتى تعود إلى مظهرها المناسب. ولأنها دمية: باكية أو متجهمة أو باسمة تبقى دمية. إنها معبودة، وأساريرها المشكّلة من تسلسل الخطوط والكتل تعبّر عن عجز راضٍ.

خاصيتها الأساسية هي الخصاء. إذ لا بدّ أن تكون شابة، جسمها خالٍ من الشعر، وبشرتها نضرة، ويجب *ألّا يكون لها عضو جنسي*. ويجب ألّا تشوّه كتلةٌ عضلية انسياب خطوط جسمها، على الرغم من أنها قد تكون نحيلةً على نحو مؤلم أو مغرية بعناق دافئ. يجب ألّا يشي تعبيرها بأي أمارة على المرح أو الفضول أو الذكاء، لكنه يمكن أن يدل على العجرفة المبتذلة إلى حد السخف، أو على الرغبة المكبوتة التي تعبر عنها بوهن بعينين منخفضتين وفم متجهم (لأن رغبة المرأة ـ القالب الجنسية تساوي الخضوع غير العقلاني)، أو، وهذا الأكثر شيوعًا، على الحيوية والسعادة البلهاء. ينبغي أن تكون سعيدة، وهي ترى العالم ينهب نفسه لمصلحة هذه المخلوق؛ فبنيان العالم كله سيتداعى إن لم تكن سعيدة. وهكذا تبدو صورة المرأة دائمة الابتسام ملصقة على كل سطح يمكن تخيّله. تثير فطيرة تفاح نظرة غبطة حانية، وتسبب غسالة آلية المرح، وتستدعي علبة شوكولاتة رخيصة امتنانًا طربًا بعذوبة، وعلبة كولا سبب كاف لأن تفغر فاها في إشراقة لا توصف، وحتى ضمادة لاصقة جديدة تلقى الترحيب بابتسامة رضا. المرأة الحقيقية تلحس شفتيها، وتفتح فمها، وتومض بأسنانها، عندما يظهر المصورون: يجب أن تصل إلى العرض الأول لفيلم زوجها في نوبة من الفرح، وإلّا فسيدور لغط حول نجاحه. أما الخطر المهني الذي يحتمل

أن تواجهه فتيات مجلة بلاي بوي فهو وجع عضلات الوجه الناجم عن الابتسام الإلزامي الدائم.

> التعقّل أفضل ما في فاليري
> مع أن كل ما فيها مليح
> شفتاها دافئتان مثل حبات فراولة
> وعيناها باردتان مثل الجليد
> ولن يكون أفضل ما في كل شيء
> أكثر من واف بالغرض
> فيما عدا بطاطسها
> وحلوياتها المصنوعة من الأرز
>
> **روجر ماك غوف، «*تعقّل*»**
> (Roger McGough, 'Discretion').

ما المشكلة إذاً؟ ربما لم أستطع فهمها. ربما لا أتمتع بابتسامة ساحرة أو أسنان سليمة أو ثديين جميلين أو ساقين طويلتين أو مؤخرة ممتلئة أو صوت مثير. ربما لا أعرف كيف أتدبر أمري مع الرجال، وأزيد قيمتي في السوق، بحيث تصبح الجوائز المستحقة للأنوثة مستحقة لي. ومرة أخرى، ربما أنا مشمئزة من هذه الحفلة التنكرية. مشمئزة من التظاهر بالشباب الدائم. مشمئزة من التنكّر لذكائي وإرادتي وجنسي. مشمئزة من التحديق بالعالم عبر أهداب زائفة، بحيث يختلط كل ما أراه بظل من الشعر المشترى؛ مشمئزة من إثقال رأسي بكومة من الشعر الميت، عاجزة عن تحريك رأسي بحرية، مرعوبة من المطر والريح ومن الرقص بقوة حتى لا يتسرب العرق إلى جدائلي المطلية بالورنيش. مشمئزة من حمّام السيدات. مشمئزة من التظاهر أنّ تصريحات رجل أحمق معتدّ بنفسه هي مدعاة اهتمام لا

منازع له من قبلي، مشمئزة من الذهاب إلى أفلام ومسرحيات لأن شخصًا آخر يريد أن يذهب إليها، ومشمئزة من ألّا يكون لي رأي في أي منها. مشمئزة من أن أكون مسترجلة في لباسي. أرفض أن أكون مقلّدة لشخصية أخرى. أنا امرأة، ولست خصيّة.

> ما الغاية من فرد الشعر المطرّز والنهود المعرّاة؛ الوجنات المتوردة والنظرات المغرية وبوابات الموضة والملامح بارعة التكوين والإيماءات المربكة الموقعة في الفخ، واللفافات والخيوط المصنوعة من بذاءات معلنة مدعومة ومعروضة مع تلك الأمثولة المتسلطة في أيامنا هذه، وأيضًا مع تسامح وموافقة لائقين؟
>
> هل يصير العالم عقيمًا نتيجة التناقص على مدى أجيال، ويصبح، مثل الأرض، أقل خصوبةً حتى الآن؟
>
> هل يفقد الدم حرارته، أو هل تصبح أشعة الشمس مائية وأقل توهجًا مما كانت في السابق، بحيث يجب بذلك أن يستثار الرجال حتى يصلوا إلى الشهوة؟
>
> أليكس نيكولاس، «*خطاب عن الزواج واتخاذ زوجة*»
> (Alex. Niccholes, ‘A Discourse of Marriage and Wiving’, 1615, p. 143-152).

وُلد آبريل آشلي (April Ashley) ذكرًا. جميع المعلومات التي أمّنتها المورثات والصبغيات والأعضاء الجنسية الداخلية والخارجية أكّدت الأمر ذاته. كان أبريل رجلًا. لكنه كان رجلًا يتوق إلى أن يكون امرأة. كان يتوق إلى المرأة ـ القالب، لا إلى أن يتبناها، بل إلى أن يكونها. أراد الأقمشة الناعمة والمجوهرات والفراء والماكياج وحب الرجال وحمايتهم. هكذا، كان عاجزًا. لم يستطع قط أن يسحر

النساء، مع أنه لم يرحب بمغازلات المثليين. لم ينظر إلى نفسه على أنه منحرف، أو حتى على أنه متخنث في لباسه، بل على أنه امرأة قلبها سحر وحشي إلى رجل. حاول باستماتة، وصار يقلد الإناث، لكنه في النهاية عثر على طبيب في الدار البيضاء جاءه ببديل أكثر قبولاً، وبموجب هذا البديل خصي، واستخدم عضوه الذكري بطانةً لشق جراحي، هو ما سيصبح مهبلًا. سيكون أبريل عقيمًا، لكن ذلك لن يؤثر قط في سمة الأنوثة. وبعد تلك العملية، عاد إلى بريطانيا لامعًا. أزالت المعالجة الهرمونية المركزة لحيته، وكوّنت له ثديين صغيرين، وكان أصلًا قد أطال شعره، واشترى ملابس نسائية في الوقت الذي كان يقلد فيه شخصية أخرى. أصبح عارضة أزياء، وصار يمثل القالب الأنثوي لأنه مؤهل تمامًا للقيام به، فقد كان أنيقًا وحسيًّا ومصقولاً على نحو جميل، وكان يحب صورته. وفي يوم مشؤوم تزوج من وريث أحد النبلاء، المحترم آرثر كوربيت (Arthur Corbett) الذي يمثّل قمة طموح الحلم الأنثوي، وذهب ليعيش معه في فيلا في ماربيلا. لكن الزواج لم يكتمل قط. فعجز أبريل، بوصفه امرأة ـ قالب هو ما يجب أن نتوقعه من خصي، لكنه ليس مختلفًا جدًا، في نهاية المطاف، عن عجز النساء الإناث، اللواتي يستسلمن للجنس دون رغبة سوى المتعة الطفلية المتمثلة بالاحتضان والتعلّق، وهما الجائزتان المفضلتان لهن. طالما بقي القالب الأنثوي هو ما يحدد الجنس المؤنث، فإن أبريل آشلي امرأة بغض النظر عن القرار القانوني الناشئ عن طلاقها[70]. إنها ضحية القطبية بين الجنسين مثلما نحن كذلك تمامًا. أبريل آشلي، مجللة بالخزي ومجردة من جنسها، هي أختنا ورمزنا.

70- Corbett *v* Corbett (otherwise Ashley) before Mr Justice Ormerod (Law Report, 2 February 1970, Probate, Divorce and Admiralty Division). *News of the World*, 8 February 1970, *Sunday Mirror*, 3, 8, 15 February 1970.

الطاقة

الطاقة هي القوة التي تسيّر كل إنسان. وهي لا تضيع ببذل الجهد، بل تُصان به، لأنها قدرة من قدرات النفس. وقد تقودها الضوابط والكوابح إلى الظهور بمظاهر منحرفة. ومثل القوة المحركة التي تسيّر السيارة على طريق عام تتحوّل، إذا ما اصطدمت بعائق، إلى قوة هدّامة تفتت مصدرها إلى قطع. ليس من الصعب جدًا حتى على إنسان متوسط الإدراك أن ينتبه إلى أن النساء يتمتعن بوفرة من الطاقة الهدّامة، لكن قلة قليلة تدرك أن هذه الطاقة الهدامة ما هي إلّا إبداع انقلب على نفسه بفعل الإحباط الدائم. الأمراض العصبية وآلام الحيض وحالات الحمل غير المرغوب فيها والحوادث من كل الأنواع هي جميعًا دليل على طاقة النساء التي تدمّرهن. إنها تمتد إلى ما هو أبعد منهن، فتنزل الخراب بشخصيات الآخرين وإنجازاتهم، ولاسيما أزواجهن وأطفالهن. وهذا لا يعني، بالضرورة، أن النساء يكرهن بالضرورة جميع أقربائهن، بل يعني أنه إذا كان الأطفال يصوّرون للنساء على أنهم واجب، والزواج على أنه نير لا خلاص منه، فكلما زادت الطاقة التي يملكنها، زاد هياجهن وغيظهن بحيث يمزقن أنفسهن والمتكلين عليهن إلى قطع. وعندما يصوّر الأطفال زيفًا للنساء على أنهم الإسهام الوحيد ذي المعنى الذي يسهمن به في الحياة، وعلى أنهم التعبير الصحيح عن

إبداعهن وعمل حياتهن، تكون النتيجة أن يعاني الأطفال وأمهاتهم من هذا الأمر.

> تُحرف الطاقات الحيوانية الصرف التي تجعل كلاً من العقل والجسد ينطلقان، وأزهار الأمل الرقيقة تتفتح، وتصرَّف في رغبات عقيمة أو شكاوى سليطة تقلص القدرات وتفسد المزاج؛ وإضافة إلى ذلك، فإنها تصعد إلى الدماغ وتنتج، عبر شحذ الفهم قبل أن يكتسب قوة تناسبية، ذلك المكر المثير للرثاء الذي يسم على نحو مخز عقل المرأة، وأخشى أن يسمه في المستقبل في ما تبقى النساء إماء القوة.
>
> **ماري وولستونكرافت، «*دفاع عن حقوق النساء*»**

ومع أن أشخاصًا كثيرين يرون هذا الوصف لانحراف طاقة النساء منصفًا، فإنهم لن يروا بالسهولة ذاتها أن الحل لا يكمن في عرض بدائل أخرى على النساء البالغات، تثقل كواهلهن بالإضافة إلى أعباء البيت والأطفال وكل تلك الأمور. لقد أقامت المرأة البالغة في ذهنها نمطًا محرفًا في التعبير عن رغباتها ودوافعها، نمطًا يجعلها متوافقة مع النسخة المشوّهة من الأمومة، وهذا النمط لن يختفي بمجرد أن يسمح لها ببدائل. إذ الأرجح أن تتبع كل هدف بديل بطريقة «أنثوية»، أي بتذلل وخداع وبلا كفاءة وبلا اتساق. وفي معظم الحالات، لا تمنح النساء بديلًا حقيقيًا عن الواجبات والمسؤوليات الكبتية: والأرجح أن تختار معظم النساء التخلي بسعادة عن عمل غير ماهر في معمل أو عن عمل مكتبي ممل لصالح الملل الأكثر «طبيعية» المتمثل بالأسرة العصرية، لأن طاقاتهن مخنوقة بالأنواع العادية من العمل النسائي الذي يتخيّلن معه أن حتى العمل المنزلي قد يكون بديلًا أفضل. أما

النساء اللواتي يحصلن على تعليم فيحصلن على بديل حقيقي، بقدر ما يكون التعليم الذي حصلن عليه حقيقيًا، وهو سلعة نادرة في هذه الأيام. ومع ذلك، فعندما حصلن على التعليم في البداية لم تكن النتيجة خلق سلالة سريعة من النساء الخارقات.

...لا نكون سعداء إلّا بقدر ما تمتدّ حياتنا في دوائر دائمة الاتساع من التدفق الصاعد لدوافعنا المبكرة...

هربرت ريد، «*حوليات البراءة والتجربة*»

(Herbert Read, 'Annals of Innocence and Experience', 1940, p.55).

هذا وصف معاصر لطليعة طالبات جامعيات، وسيتعرف مدرسو الجامعات على ظاهرة شبيهة:

في المحاضرات تكون الطالبات نموذجًا في الانتباه والمثابرة؛ حتى إنهن قد يعملن بجد لتدوين كل ما يسمعنه وأخذه معهن إلى البيت مكتوبًا. وهنّ عمومًا يشغلن المقاعد الأولى لأنهن يسجلن أسماءهن أبكر، ويصلن قبل بدء المحاضرات بزمن كاف. لكن هناك حقيقة جديرة بالملاحظة، وهي أنهن غالبًا لا يلقين سوى نظرة سطحية على المادة التي يكون الأستاذ قد حضّرها ليوزعها على الطلاب؛ حتى أنهن أحيانًا يمررنها إلى جاراتهن دون أن يلقين عليها مجرد نظرة؛ فالتمعن في الأوراق من شأنه أن يؤخرهن عن كتابة ما يسمعن[71].

ما لاحظه هذا المراقب المتحامل نوعًا ما حقيقي كفاية: كانت الفتيات مجتهدات، وربما مجتهدات زيادة عن اللزوم، لكن كانت جهودهن تنصب على الأهداف الخطأ. كنّ تواقات للإرضاء، لالتقاط

71- Carl Vogt, 'La Question de la Femme', *Revue d An-thropologie*, 1888, Tome III, fasc. Iv, pp. 510—12, quoted in Ploss and Bartels (*op. cit.*), Vol. I, p. 126.

كل ما يقال لهن، أما المواد التي حضّرها المحاضر ووزعها على الطلاب فهي موضوع المحاضرة الحقيقي، لكنهن لم يكنّ مهتمات بذلك قط. كانت كل طاقتهن تنصرف إلى التوافق مع المتطلبات الانضباطية وغيرها، لا على إشباع فضولهن حول الموضوع الذي يدرسنه، وبالتالي فقد كان معظم تلك الطاقة يتجه خطأ إلى مواظبة لا معنى لها. مازالت هذه الظاهرة شائعة جدًا بين الطالبات، اللواتي يشكلن نسبة كبيرة من الطلاب الذين يدخلون قسم الآداب في الجامعات، وبالنتيجة يهيمنّ على مهنة التعليم. تمثل العملية بوضوح أحد العائدات المتناقصة: الخَنُوع يحرّض الخُنُوع لتعليم الخَنُوع، في عالمٍ ينبغي الهجوم فيه باستمرار على المجهول بكل ما لدى الإنسان من قدرات؛ لا يمكن للتعليم أن يكون مسألة طاعة، ولم يكن كذلك قط. ليس من المفاجئ إذًا أنّ النساء قلما يقمن بسبق علمي، بل يعملن أكثر مساعدات للرجال في المخابر وتحت توجيههم، وهذا ببساطة استمرار للظاهرة التي شاهدناها في أيامهن الجامعية. فعندما يحين وقت تقدمهن بطلب لدخول الجامعة يكون نمط انحراف طاقتهن العقيم قد توطد. ولا يكن، في الأغلبية العظمى من الحالات، قد حافظن على ما يكفي من الدافع للرغبة في تأهيل أنفسهن أي تأهيل إضافي؛ أما القلة التي تذهب إلى الجامعة فتفعل ذلك في كثير من الأحيان استجابة لتوجيه معلماتهن وضغطهن، غير عارفات بالغاية الحقيقية من وراء ذلك، وغير مهتمات بتطوير إمكانياتهن، وأقصى طموحهن هو أن يحصلن على شهادة جيدة ومؤهل للدخول في مهنة سندريلا التعليمية. أما درجة الرضا التي تحصل عليها النساء اللواتي يتبعن هذا النمط فهي قليلة جدًا؛ ولا يفاجئنا أن نعرف أن كثيرات منهن يتعاملن مع حياتهن المهنية على أنها بديل مؤقت للزواج أو تأهيل غير مباشر له..

يمكن فهم كل الاعتراضات الشمولية على دخول النساء إلى مجال

المهن على أنها طرق للتعبير عن هذا الوضع الأساسي. ويبدو أنها أحكام ناجمة عن التحيز، إذ طالما أنها لا تورد أي سبب آخر غير الجنس، فيجب أن نعترف أنها متحيزة. لكن، ما لم تعترف المناضلات النسويات بأن الظواهر التي يصفها نقّاد أداء النساء في الصناعة والمكاتب وقاعات المدارس ونقابات العمال والفنون والعلوم هي ظواهر حقيقية، فلا بد أن يخفقن في تحديد المشكلة، ومن ثم في حلها. إذ من الصحيح أن الفرص التي أتيحت للنساء أكبر بكثير من رغباتهن بالاستفادة من تلك الفرص. ومن الصحيح أيضًا أن النساء اللواتي ينتفعن من الفرص غالبًا ما يفعلن ذلك بأسلوب أنثوي بَنَوي خَنوع. يجب أن نفهم أنه ليس كافيًا أن نشجع النساء على استخدام مبادرة لا يملكنها، تمامًا مثلما هو عديم الفائدة أن نشتمهن على عدم الحصول عليها. يجب أن نسعى إلى فهم الكيفية التي تنحرف بها طاقة النساء بانتظام منذ الولادة حتى البلوغ، بحيث عندما يصلن إلى البلوغ لا يكون قد تبقى لديهن سوى نوبات متقطعة من الحيلة والإبداع.

لقد اضطررت في حديثي عن الطاقة إلى استخدام كلمات مثل الحيلة وبذل الجهد والمبادرة والطموح والرغبة والدافع، وهي مصطلحات ذات وقع مذكّر، لأنها تنطوي على معان لا تتوافق مع الأنوثة. حتى المناضلات النسويات غالبًا ما يفترضن خطأ أن الجنسانية عدوة الأنثى التي تريد فعلًا أن تطور تلك الجوانب من شخصيتها، وهذا ربما هو الجانب الأكثر تضليلًا في حركات من مثل المنظمة الوطنية للنساء. لم يكن الإصرار على جنس الطالبة الأمريكية هو ما أضعف رغبتها في فعل شيء ما بحياتها، بل الإصرار على دور جنسي سلبي لها. وفي الحقيقة، إن الأداة الرئيسية في تشتيت الطاقة الأنثوية وحرفها هي إنكار الجنسانية المؤنثة واستبدالها بالأنوثة أو اللاجنسية. إذ مهما اختلفت وجهات نظرنا حول مفهوم الطاقة، فإنها ترتبط جميعًا

بالجنسانية. هي ما أطلق عليه ماك دوغال (McDougall) اسم قوة *الحياة الخلاقة* (*élan vital*)، أما يونغ ورايش فأسمياها *الدافع الجنسي* (*libido*)، وأسماها جانيه (Janet) *التوتّر* (*tension*)، وأسماها هيد (Head) *التيقظ* (*vigilance*)، وأسماها فلوجيل (Flügel) *الطاقة الأوركتيكية* (*orectic energy*)[72]. وجميع هذه المصطلحات تعني شيئًا واحدًا. وأحد أخطاء النظرية التقليدية هو أنها تفترض ضمنًا وجود نوع من النظام الرأسمالي للطاقة، بوصفها مادة يجب توظيفها بحكمة وعدم صرفها كلها دفعة واحدة[73].

> إنّ درجة جنسانية أيّ إنسان وطبيعتها الجوهرية تمتدّ إلى أعلى قمة في روحه.
>
> نيتشه (Nietzsche)

في الحقيقة، الطاقة لا يمكن أن تفنى، بل تُحوّل أو تُحرف، وهو ما نعرفه من مفهوم الطاقة الذي اشتققناه من الفيزياء. رأى فرويد أن الكبت يستنزف طاقة كان من الممكن لولاه أن تتجلى في فعل إبداعي: ما يحدث للأنثى هو أن طاقتها تُحرف، نتيجة إنكار جنسانيتها، إلى نظام من الكبت المستمر الذي يصبح في النهاية غير عكوس. استهلكت الطالبات في كتابة ما يقوله المحاضر والحضور المبكر والانتباه إلى المحاضرات من الطاقة ما بذله زملاؤهن الذكور في استكشاف الموضوع، وكنّ في المختبر يبددنها في التشاغل بإيقاع الأشياء وطرح أسئلة سخيفة وفي إثارة الجلبة وقلة التركيز. والطاقة

72- Vide 'Sublimation: its Nature and Conditions' in J. C. Flügel, *Studies in Feeling and Desire* (London, 1955).

73- The traditional view is expounded by McCary in *The Psychology of Personality* (London, 1959), pp. 7—9.

الذكرية بدورها تحدد وتشوّه، لكن بطريقة مختلفة، إذ تصبح عدوانًا وتنافسًا. قدر الأنثى أن تصبح مشوّهة وموهنة نتيجة التأثير الهدام للطاقة على النفس، لأنها محرومة من الهدف ومن الاحتكاك مع الواقع الخارجي الذي يجب أن تعتمد عليه لتدرّب نفسها.

> الطاقة هي الحياة الوحيدة، وهي تنبع من الجسم... الطاقة بهجة أبدية.
>
> بليك (Blake)

أفعال الجنس هي بحد ذاتها أشكال من البحث عن المعرفة، كما تبيّن العبارة التلطيفية القديمة «المعرفة الجسدية»: والبحث في جنسانية الأنثى هو بالضبط العنصر الذي يطلب منها أن تنكره. ولا يطلب منها أن تنكره في اتصالاتها الجنسية فقط، بل وفي جميع اتصالاتها بدءًا من الطفولة، وهكذا، عندما تصبح مدركةً لجنسها، يكون النمط الذي شبّت عليه قد اكتسب ما يكفي من قوة العطالة ليتغلب على الأشكال الجديدة من الرغبة والفضول. هذا هو الشرط المقصود من مصطلح الخصيّة. ففي النظرية النفسانية التقليدية، التي ليست في نهاية المطاف سوى طريقة أخرى لوصف الوضع الراهن وتبريره، يوضح تجريد النساء من الجنس في النظرية الفرويدية عن الجنس المؤنث على أنه افتقاد عضو جنسي. ربما لم يكن فرويد يقصد أن تؤخذ صياغاته على أنها تعبيرات عن قانون طبيعي، بل على أنها أوصاف متماسكة لحقائق مشروطة بمصطلحات جديدة وملهمة على نحو قيّم؛ ومع ذلك فقد قال:

> بل نستطيع، فيما لو جعلنا لمفهومي الذكورة والأنوثة مضمونًا أكثر تحديدًا، أن نؤكد أن الليبيدو هو على الدوام وباطراد من ماهية ذكرية،

وأنه يظهر لدى الرجل ولدى المرأة على السواء، وبغض النظر عن موضوعه، أرجلًا كان أو امرأة[74].

إذا كنا سنصر على أن الخصائص الأنثوية هي منتج التكييف، فيجب علينا أن نجادل بأن قطبية المذكر ـ المؤنث فعلية بما يكفي، ولكنها ليست ضرورية. وسنضطر لرفض قطبية المصطلحات المحددة، التي هي دائمًا اصطناعية، ونكافح من أجل الحرية في الانتقال بين مصطلحات غير محددة بدقة. وعلى هذا الأساس، نستطيع، بل يجب، أن نرفض فكرة الأنوثة بوصفها معنى بدون طاقة جنسية، وبوصفها تاليًا ناقصة وتحت ـ إنسانية، لأن ذلك تخفيض ثقافي للإمكانيات الإنسانية، وأن نعتمد على مصطلح أنثى غير المحدد، الذي يحتفظ بإمكانية الطاقة الجنسية المؤنثة. وحتى نفهم كيف تخصى الأنثى وتصبح أنثوية، يجب علينا أن نفكّر في الضغوط التي تخضع لها منذ أن تكون في المهد.

74- فرويد، *ثلاثة مباحث في نظرية الجنس*، ترجمة جورج طرابيشي، دار الطليعة، ص92.

الطفل

يتمتع الطفل لحظة ولادته بقوى ملحوظة؛ يكون قادرًا على أن يقف منتصبًا، وأن يحرك رأسه، وأن يستخدم أصابع قدميه، وتكون كفاه قادرتين على الإمساك بقوة. وخلال ساعات يفقد الطفل هذه القوى، ويكون عليه أن يكدح ليتعلم من جديد مهارات كان يمتلكها أصلًا. لم نعد في هذه الأيام نقمّط الأطفال بأن نلفهم حتى يصيروا مثل سيجار قاس، تستطيع الأم أن تتخلص منه كيفما تشاء، لكننا مازلنا نعامل الطفل وكأنه مزيج من دمية وكائن عاجز. سرعان ما تضبط الممرضة صراعات الطفل الأولى من أجل الحركة واضعةً القابض المعدني على مؤخرة رقبته ومؤخرته، ما يجعله ثابتًا بلا حركة.

> يتطلب كل مخلوق صغير، على امتداد المملكة الحيوانية، تمرينًا مستمرًا، ويجب أن تمر طفولة الأطفال، الذين تنطبق عليهم هذه الحقيقة، بقفزات غير مؤذية تمرن القدمين واليدين دون أن تتطلب توجيهًا كل دقيقة من الرأس، أو انتباهًا متواصلًا من المربية... لا يترك الطفل، ولاسيما البنت، لحظةً يقوم فيها بتوجيه نفسه، وهكذا يعتبر المتّكل ـ الاتكال طبيعيًا.
>
> ماري وولستونكرافت، *«دفاع عن حقوق النساء»*

ربما لا يقمّط الطفل، لكنه يوضع في السرير ويلف بإحكام. ومن المعروف أن هذه العملية غير جيدة له إلى أبعد حد، فالأطفال الخدّج والضعفاء لا يخضعون لها. إنها في الحقيقة أرخص وأسهل طريقة للتأمين ضد فقدان الحرارة: قد نتساءل، على أساس ربحي، كيف تؤثر أسرّة الأطفال الرطبة والسخانات الرأسية التي تعمل بالأشعة تحت الحمراء، والتي تستخدم في حالات خاصة، في تشكيل نفس الطفل، ومن ثمّ، كيف يرتكس الطفل للتقميط النهائي الذي سيحدث حالما يصبح قويًا بما يكفي.

كانت أمي تئنّ، وأبي يبكي،
وأنا أقفز إلى هذا العالم الخطر
عاجزًا وعاريًا وزاعقًا بصوت عال
مثل عفريت مختبئ في غيمة.

فكّرتُ، مصارعًا بين يدي أبي
مكافحًا ضد أقمطتي
مقيدًا ومنهكًا، أن من الأفضل
أن أقطّب جبيني بصمت على صدر أمي[75].

تبدو الطاقة شيطانية لنا، لأن ثقافتنا كلها مصممة على تسخيرها لغايات خفية: يجب تهذيب الطفل؛ أما ما يعنيه ذلك فعلًا فهو أنه يجب أن يطمس. بداية يمنع من الصراخ وتمرين رئتيه في أي وقت وفي أي مكان يمكن أن يعكّر صفو البالغين. يتمتع الطفل الجديد بفضول هائل، وقدرة مماثلة على تشرّب المعلومات، لكنه يستنفدها كلها في بيئات مهيّأة خصوصًا، فيها أصوات مكتومة وألوان بلا نكهة وجسد الأم الكبير

75- William Blake, 'Infant Sorrow', *Songs of Experience (Poetry and Prose of William Blake*, ed. Geoffrey Keynes, London, 1967, henceforward referred to as *Nonesuch*, p. 76).

المهيمن. إن استغراق الطفل الشديد في إنسان واحد يجعل من ألفته تدريجيًا أمرًا لا غنى عنه، وهذا عامل ضروري في تطور الشخصية الذي يعتبره مجتمعنا طبيعيًا. والموقف المسبق من إبدال الأم كلية القدرة بأي شخص، أو مجموعة أشخاص، قوي جدًا في الواقع. ومع أن أبحاث د. **ياروسلاف كوش** (Jaroslav Koch) في براغ، الذي احتفظ بأطفال في بيئة حرة خاصة، وتوصّل إلى أنهم يستطيعون تسلّق سلّم بعمر ثمانية أشهر، أثبتت بما لا يقبل الشك أن اكتساب الطفل لجميع القدرات يتأخر عشرة أضعاف أو مائة ضعف نتيجة الدور المفروض عليه بوصفه منتج الأم ودميتها وإنجازها. فقد كان مصير نتائجه هو التجاهل في ثقافة تصرّ على هيمنة الأم بوصفها شرطًا مسبقًا لتكوين الشخصية[76]. يجب أن ينقطع انتباه الطفل عن الواقع الخارجي ليتحوّل إلى علاقة انطوائية تقوم على الاستغلال المتبادل، هي ما سيشكّل نمط دوافعه المستقبلية.

> لم يذهب الأطفال نحو الأشياء التي كان من المفترض أن تسعدهم، كالدمى مثلًا؛ ولم يهتموا بقصص الجنيات. وفوق كل ذلك، سعوا إلى اعتبار أنفسهم مستقلين عن الكبار في جميع الأفعال التي تمكنوا من القيام بها بأنفسهم؛ مظهرين بوضوح الرغبة في ألّا يتلقوا مساعدة، إلاّ في حالات الضرورة المطلقة. واعتبروا هادئين ومنهمكين في عملهم ومركّزين عليه، وكانوا يتصرفون بهدوء وسكون مدهشين.
>
> **ماريا مونتيسوري، *«الطفل في العائلة»***
>
> (Maria Montessori, ‘Il Bambino in Famiglia’, 1956, p. 36).

76- *Sunday Mirror*, 19 October 1969.

يعيد كل زواج تمثيل الموقف الأوديبي: قد يكون الأطفال، الذين يكبرون دون أدنى فكرة عن تكافل الأم والابن، مشوشين وقد لا يكونون، لكنهم لن يظهروا أي نوع من السلوك الوسواسي في علاقاتهم التي تفترض الأمان والدوام.

«ليس لي اسم:
ولا أبلغ إلا يومين من العمر»
ماذا سأسميك؟
«أنا سعيدٌ،
والفرح هو اسمي»[77].

لا يدرك الطفل الوليد أي تمييز بينه وبين كل ما يراه. يعي في البداية ذاته عندما لا تلبَّى رغبة ما من رغباته، ويكتشف الفرق بينه وبين أمه نتيجة الإحباط والارتباك[78]. وهكذا، فأول فعل من أفعال الأنا هو رفض الواقع وتبنّي موقف معاد وقلق منه. وهذا الحس بالانفصال والمحدودية داخل النفس ترعاه ثقافتنا بعناية حتى يصبح أساس أخلاقيتنا الأنوية، التي لا تتصرف بناءً على فهم مضاعفات الفعل على الجماعة والشعور بها نتيجة الاستمرارية بين النفس والآخرين، بل بناءً على قوانين وقيود مفروضة ذاتيًا بطريقة نرجسية. وهكذا، ينبغي تهيئة مرشد الطفل الداخلي، أي ضميره، والأفضل أن نسميه قلقه وإحساسه بالذنب. وربما تفشل هذه العملية، أو تنعطف في الاتجاه الخطأ، في وقت مبكر، ما يؤدي إلى ظهور التوحّد وغيره من

77- William Blake, 'Infant Joy', *Songs of Innocence* (*Nonesuch*, p. 62).

78- من أجل شرح لهذا المبدأ، انظر:
Paul Schilder, *The Image and Appearance of the Human Body: Studies in the Constructive Energies of the Psyche* (London, 1935), pp. 120—22 and Norman O. Brown, *Life Against Death* (London, 1968), Part IV, 'The Self and the Other; Narcissus' (pp. 46—57).

أشكال الاضطراب لدى الأطفال في عمر مبكر جدًا، والتي تعتبر أساس رفض الأطفال زملاءهم في المجموعة ممن يقبلون التكييف بلا صعوبة، وانعزالهم عنهم. ينبغي أن يشير معدل حدوث هذه المشكلات العالي لدى الأطفال الموهوبين إلى ارتباط بين قوة طاقة الطفل وتأثير القيود المفروضة عليها: ولذلك، فإن مجرد أن يستطيع هؤلاء الأطفال أن يظهروا أي علامة على القدرة، أيًا تكن، هو في حد ذاته أمر لافت للنظر. فيما مضى، كان الأطفال المضطربون يدرَبون ويطوعون للنظام، أو يحتجزون في مؤسسات خاصة يعالج فيها فشلهم بالتأقلم على أنه حالة مرضية خلقية. واقتضى الأمر أن تقوم امرأة موهوبة جدًا وشجاعة باختراق هذه الملاجئ، وأن تبدأ بعكس عمليات التكييف، حتى يستطيع هؤلاء الأطفال أن يبدؤوا من جديد خطة علاج أقل كارثيةً.

كانت طرائق **مونتيسوري** ناجحة نجاحًا واضحًا حتى أنها اتخذت أساسًا لمعظم مدارس الأطفال في إنكلترا وأوروبا، لكن ذلك لم يترافق مع فهم لمغزى أفكارها العميقة بوصفها انتقادات للتنشئة التي يخضع لها الأطفال خارج المدرسة وفي السنوات الحاسمة التي تسبق المدرسة. وفي النتيجة، فإن التعليم الابتدائي متقدم جدًا على أشكال التربية الأخرى في هذا البلد حتى أن أزمة جديدة تحدث في العلاقة بين المدرسة والبيت، وبين مدارس الصغار ومدارس الكبار. لقد خلقت **مونتيسوري**، من خلال فتح قاعة التدريس حتى يستطيع الأطفال المعاقين الحركة فيها بحرية، وضعًا فريدًا بالضرورة. وهناك معلمات جسورات في إنكلترا يتجولن في قاعات غير منضبطة، ويستمعن للأطفال عندما يقومون ليشرحوا للمجموعة نتائج تحقيقاتهم، لكن معظم المعلمات أكثر نزقًا من أن يسمحن بمثل هذه الفوضى المثمرة، ومعظم قاعات التدريس أكثر اكتظاظًا من أن تحتمل هذه الطرائق،

وليس لدى معظم المدارس ما يكفي من المال لتأمين الكتب والوسائل الأخرى لمثل هذه الدراسة. وقد وجدتُ، حتى على المستوى الجامعي، أنه من المستحيل حتى الآن أن ندير مختبرًا بحثيًا ليكون جهدًا تعاونيًا عفويًا على نحو مشابه. وتحكي مونتيسوري قصصًا مثيرة للمشاعر عن كيفية تعبير الأطفال عن احترامهم المشترك لزائر ملكي، وكيف كتب طفل على السبورة، وقد سمع عن زلزال في جنوب إيطاليا: «أنا آسف أنني صغير جدًا»، حتى ظننت أنه لم يتقبل ما سمعه، إلى أن أضاف عبارة تشرح أنه كان راغبًا في المساعدة لو لم يكن صغيرًا، فكتب جملته المركبة الأولى. وقد أحرز أطفالها تقدمًا تجاوز الإنجازات العادية لفئاتهم العمرية، ولكني أخمن أنه لو أجريت دراسات متابعة حول مشكلاتهم في التكيف مع عالم لا يستطيع أن يستفيد من التلقائية والتعاون، لجاءت الصورة ربما أكثر إثارة للإحباط. وهكذا، ففرضية مونتيسوري الأساسية بسيطة لكنها جذرية:

> هناك حقيقة واحدة تكمن في أصل كل الانحرافات، وتحديدًا أن الطفل قد مُنع، في سنوات تكوينه، من تحقيق النموذج الأصلي لتطوره، عندما كان من المفترض أن تتطور طاقاته الكامنة عبر عمليةٍ من التجسيد... فتلحم بذلك شخصيته المؤقتة في وحدة منسجمة. فإذا لم تتحقق هذه الوحدة، نتيجة حلول البالغ محل الطفل أو نتيجة نقص دوافع النشاط في بيئته، يحدث أمران: تتطور الطاقة النفسية والحركات باستقلالٍ عن بعضها بعضًا، وينتج عن ذلك «إنسان منقسم على نفسه». وبما أنه لا شيء في الطبيعة يخلق نفسه، ولا شيء يدمر نفسه، وهذا صحيح خاصة في حالات الطاقات، تصبح هذه الطاقات منحرفة لأن عليها أن تعمل خارج النطاق المخصص لها بحكم الطبيعة... وقد أصبحت منحرفة، قبل كل شيء، لأنها فقدت غرضها وتعمل في فراغ وضبابية وفوضى. وبذلك يهرب العقل، الذي كان يجب أن يبني نفسه عبر تجارب الحركة، إلى الخيال[79].

79- Maria Montessori, *The Secret of Childhood* (London, 1936), p. 191.

الهروب إلى الخيال مسموح في ثقافتنا، لأنه جزء من القيد على التطور الذاتي الذي نسميه حضارة. وعلى الرغم من أن بعض جوانبه، كالفتشية والممارسات الاستمنائية، مستهجنة فإنها تعتبر عمومًا ملازمًا ضروريًا وحتى ممتعًا للكبت. لقد بنيت نظريات كاملة في الفن على فرضية أن وظيفة الفن الصحيحة هي أن يؤمن تعبيرًا خياليًا غير مؤذ عن الميول التي من شأنها، لولا ذلك، أن تكون هدامة ولا اجتماعية.

لم نقدّم حتى الآن أي شيء حول كبت الطاقة النفسية لدى الأطفال، وهو ما ينطبق على الفتيات أكثر منه على الصبيان، لأن الفتاة والصبي يعاملان بالطريقة ذاتها حتى عمر معيّن. لكن التمييز يبدأ في عمر مبكر نسبيًا، على الرغم من رفض المربين الإنكليز القوي للتمييز بين الصبيان والبنات في المدارس الابتدائية. إذ مازالت بعض الطفلات يُلبسن ملابس زهرية لا زرقاء، ويُلبسن ملابس مزركشة رقيقة، ويُعاقبن على تمزيقها أو تلويثها. ويعقص شعر بعضهن، ويثبت بقوس، ويقال لهن: أنت جميلة، وأنت فتاة البابا، وغير ذلك من التعابير المبتذلة. حتى حين يتعلق الأمر بالفتيات الصغيرات، اللواتي يرتدين ملابس الأطفال الفضفاضة، ولا يبالين كثيرًا بالشعر والجدائل وغيرها من مواد التجميل الطفلية، يبدأ نظام من المكافآت والتشجيع بالعمل في مرحلة مبكرة بعض الشيء. لا أحد يريد أن ينشئ طفلًا لا يعرف جنسه، لكن مع إغفال أي فكرة أخرى عن الجنسانية الأنثوية، تطبع أساليب الأنوثة في الذهن على نحو غير مدرك بالحواس تقريبًا منذ البداية. وسرعان ما تكتشف الطفلة كيف تصبح حيية وساحرة، وكيف تجعل من أبيها ألعوبة في يدها[80]. عندما يكتشف الصبيان الصغار مزايا الحياء،

80- لاحظ فرويد هذه الظاهرة في:
(*New Introductory Lectures in Psychoanalysis* (Complete Works, Vol. xxii, p. 117). =

تصيبهم الصدمة في النهاية عندما تُقص جدائل شعرهم الطفلية، أما البنت الصغيرة فتُمتدح وتشجَّع على استغلال فتنتها. لا أحد يقول لها مباشرةً كيف تفعل ذلك، لكنها ببساطة تتعلمه بالتجربة. وإنه لغريب حقًا أن نسمع الأصوات التي ترتفع احتجاجًا على تدمير البراءة نتيجة عرض أفلام عن الجنس في مدارس الكبار، في حين لا نسمع أي صوت يصيح من هول السماح لطفلة في الثالثة من العمر أن تتلاعب بنا.

لا بدّ أن يأتي على الصبيان الصغار في النهاية زمنٌ، عاجلًا أم آجلًا، ينقطع فيه الحبل السري. وتصبح العلاقة مع الأم أبعد. وحين لا يحدث ذلك، كما هي الحال في العائلات الأمومية القوية كالعائلة اليهودية، تكون النتيجة هي ما عبر عنه فيليب روث (Philip Roth) بحزن في شكوى بورتنوي (Portnoy's Complaint):

> ماما، ما الذي أردت أن تحوّليني إليه على أي حال، زومبي (zombie) يسير على قدمين مثل رونالد نيمكين (Ronald Nimkin)؟ من أين جئتِ بفكرة أن أروع ما يمكن أن أقوم به في الحياة هو أن أكون *مطيعًا؟ سيدًا صغيرًا؟* خاليًا من جميع التطلعات إلى مخلوق من الشهوات والرغبات! «أليكس..»، تقولين لي، ونحن نغادر ويكواهيك دينر ـ ولا تفهميني خطأ، فقد التهمتُ ذلك كله: المديح هو المديح، وأنا آخذه على عواهنه ـ «أليكس..»، تقولين لي، وأنا بكامل أناقتي في ربطة عنقي المثبتة بدبوس وسترتي «اللوفر» ذات اللونين: «..الطريقة التي قطعت بها قطعتك من اللحم! الطريقة التي أكلت بها تلك البطاطا المشوية دون أن تسقط منها شيئًا! كنت أستطيع تقبيلك، لم أر في حياتي سيدًا صغيرًا كهذا وفوطته في حضنه الصغير بذلك الشكل». لقد كان ما رأيته، يا ماما، كعكة فواكه. كعكة فواكه صغيرة ـ وبالضبط ما صُمِّم

= ويتباهى المدافعون عن الحيل الأنثوية بها، ومن الأمثلة على ذلك:
M. Esther Harding, *The Way of all Women* (London, 1932), p. 7, and Mary Hyde, *How to Manage Men* (London, 1955), p. 6.

برنامج التدريب لإنتاجه. طبعًا! طبعًا! ليس اللغز حقًا أنني لست ميتًا مثل رونالد نيمكين، بل أنني لست مثل جميع الشباب اللطفاء الذين أراهم يتمشون يدًا بيد في بلومينغديل (Bloomingdale) في صباحات أيام السبت[81].

ما يحدث للفتى اليهودي، الذي لا يفلح قطّ في الهرب من استبداد أمه، هو بالضبط ما يحدث لكل فتاة تعتَبر تنشئتها «عادية». إنها مثليّة جنسيًا. ومثل المثليّ الذكر تعيش حياتها في توتر حول أمور من مثل قوائم الضيوف والصلصة البيارنيّة (sauce béarnaise)، إلّا حين تمارس، بموجب حق الأمومة السماوي، العملية ذاتها التي دمرت شهواتها ورغباتها على شهوات أبنائها ورغباتهم.

يستطيع الصبيان الابتعاد عن طريق أمهاتهم، وهم، في آخر الأمر، يريدون ذلك ويُشجَّعون عليه. أما البنات فلا. هناك اتفاق على أن «الفتيات يتلقين تنشئةً أكثر» من الصبيان: أمّا ما يعنيه ذلك فعلًا فهو وجوب أن تخضع الفتيات لمراقبة وكبت قاسيين إذا كان للنتيجة المرجوة أن تتحقق[82]. تتعرّف الفتاة باكرًا على دورها الوضيع، فيما تعلّمها أمها المهارات المنزلية (ويا للعجب!) ويتمزز نكوصها من الواقع الخارجي بالعقوبات التي تنالها نتيجة تجولها وحدها. وفي حين يشكل الصبيان مجموعات وعصابات لاستكشاف المنطقة التي يعيشون فيها وترويعها[83]، تبقى الفتاة معزولة في البيت، مستمعةً إلى حكايات عن الغرباء الأشرار. ويبرَّر حجزها بالمقارنة مع الحرية

81- Philip Roth, *Portnoy's Complaint* (London, 1969), p. 125.

82- يقتبس J. Dudley Chapman, *The Feminine Mind and Body* (New York,) 1967) من (Oscar Hammerstein II) «يمكنك أن تمرح وتتسلى مع ابنك، لكن يجب عليك أن تكون أبًا مع ابنتك» (*Carousel*), p. 19).

83- *Vide* Anna Anastasi, *Differential Psychology* (London), and Walter Wood, *Children's Play and its Place in Education* (London, 1913), pp. 83-4.

الممنوحة للفتيان باسم الحماية، مع أن البيت هو أخطر مكان موجود. فتتعلم أن تخاف العالم كله وألاّ تثق به، والأسباب دائمًا غير واضحة. لكن هذا التحذير، الذي يفترض أن يساعد الفتيات، مخفق تمامًا. فالرغبات الجنسية ليست ضعيفة لدى [هؤلاء الأشرار] إلى درجة تمنعهم من مهاجمة البنات الصغيرات وهن في طريقهن لقضاء بعض المهمات أو المشاوير التي تجيزها الأمّهات. فعندما اتصلت فتاة صغيرة فاتتها الحافلة بأمها من عند موقف الباص ذات مساء، منفقةً بذلك قطعة النقود التي كان يفترض أن تدفعها أجرةً لركوب الحافلة، طلبت أمها منها أن تسير إلى البيت لأن السيارة لم تكن معها. فمضت الطفلة في طريقها باكية ومرعوبة، فبادرها بالكلام شخص غريب وهو يبتسم لها، ثم اختطفها واغتصبها وخنقها. النتيجة الأكثر شيوعًا لنظام الإنذار المظلم هو أن الفتيات الصغيرات، عندما يلتقين بشخص يستعرض أعضاءه الجنسية، أو يتحدثن إلى غريب يفعل شيئًا غريبًا لهن، يخفن جدًا ويشعرن بالذنب، كما يخفن أكثر من تأثير ذلك في أهاليهن حتى أنهن لا يخبرنهم به. وهناك عامل يسهم في النمط الذي يتجلى به انتهاك الأطفال، وهو أن الفتيات الصغيرات ينظرن إلى أنفسهن على أنهن ضحايا، فلا يستطعن حتى أن يستجمعن قواهن ليصرخن أو يهربن. ذلك أن حرمانهن من فهم التهديد، يجعلهن غير قادرات على الدفاع عن أنفسهن دفاعًا كافيًا. والسخرية الأدهى هي أن منتهكي الأطفال هم أنفسهم منتجات ذلك التكييف الأخرق ذاته.

وفيما يتعرف الصبيان على المجموعات والمنظمات، بالإضافة إلى طبيعة العالم خارج منازلهم، تبقى الفتيات في البيت هادئات، يلعبن بدُماهن، ويحلمن، أو يساعدن أمهاتهن. وفي المدرسة يستخدمن طاقتهن لقمع أنفسهن، ليكن جيدات، ويبقين هادئات، ويتذكرن ما يسمعنه، ويفعلنه. وفي البيت يقمن بشعائر جسدية لا معنى لها،

لا يرتبط بها أي نشاط عقلي. وهكذا، فالحسي والفكري منفصلان لديهن أكثر مما لدى أخوتهن. فإذا سيطر الحسيّ، تراهنّ يفضلن العمل بأيديهن، في الطبخ والخياطة والحياكة ومتابعة نمط صممه شخص آخر. والمصممون ومعلّمو الطبخ والخياطون كلهم رجال. أما إذا أصبحت النساء «مثقفات» فيكنّ مجردات من حقوقهن بأجسادهن ومكبوتات ومجهدات وقليلات الكفاءة ويبقين خانعات كما من قبل. لقد قامت بعض النابغات بخرق مباشر للتفاعل التسلسلي، ورأين الأمر على حقيقته، لكن تحمل معظم المبدعات دمغة العبث والتشوش حتى في أفضل أعمالهن. رأت فرجينيا وولف (Virginia Woolf) بعضًا من الطريق، لكن ذلك كلّفها كثيرًا؛ وكانت جورج إليوت (George Eliot) واحدة من القليلات اللواتي اخترقن سترة الجنون. ربما كان الفرق بينهما واحدًا من فروق طاقة النفس أو الذكاء، أو ربما ببساطة لم تكن إليوت جميلة بينما كانت فرجينيا جميلة ومحببة. أيًا تكن الحال، فإن أسس النزاع قد أرسيت في طفولتهما.

الفتاة

لن أكون عادلةً مع الفتيات إن كان كلامي يوحي بأنهن قبلن تطبيعهن الثقافي دون صراع. فغالبًا ما تواجه الفتيات الصغيرات ضغط أمهاتهن عليهن ليكن مرتبات وخفيّات بالدرجة ذاتها من المقاومة. إذ قد ترفض الفتاة في طور النمو أن ترتب غرفتها، وقد تصر على تمضية وقتها في أمور صبيانية، تصل حد الانضمام إلى مجموعة من الذكور والقتال من أجل المحافظة على مكانتها فيها بأن تكون أخشن بمرتين من أي من الصبيان. قد تضيع كل مناديلها وشرائط شعرها، وقد تمزق سروالها وهي تتسلق الأشجار، وتشتم أفضل الصبيان وتختال عليه. ويشار إلى ذلك باستنكار ظاهر على أنه مرور بمرحلة صعبة، ولكن قد نجد دليلًا على استمرار هذا النوع من المقاومة على مدى سنوات وسنوات، وذلك إلى أن يوجه البلوغ الضربة الساحقة النهائية.

> ستكون الفتاة التي لم يوهن الكسل معنوياتها، أو يلطخ الخجل الزائف براءتها، دائمًا فتاة لعوبًا...
>
> **ماري وولستونكرافت، «*دفاع عن حقوق النساء*»**

ربما تكون هذه *الغُلامية*، وهو الاسم الذي يطلق على الفتاة المتمردة المليئة بالحيوية، في أي عمر بين الخامسة والخامسة عشرة؛ وربما لا

تكون غلامية طيلة الوقت، إما لأنها تستمتع بالدلال الذي تناله الفتاة اللطيفة المرتبة، أو لأنها تدرك منافع أن تتصرف بالطريقة المفضلة، أو ببساطة لأنها محرومة من فرصة أن تكتشف كم يمكن أن تكون قوية أو لم تكتشف الحافز إلى ذلك. عمومًا، الفتيات الصغيرات اللواتي يتلقين هدايا ثمينة، ويفسدهن الدلال والمديح، هن من يستسلمن قبل غيرهن لصانعي الدمى. إذ يحتفظن بنمط المكافأة التي تكون في البداية حلويات وملابس دمى، ومن ثم أثواب وأحذية وحتى تجعيد الشعر المؤقت وصبغ الأهداب، وبعد ذلك ملابس جميلة لتظهر بها في العطل الأسبوعية والنزهات والسينما وهذا النوع من المناسبات.

لكن، حتى الفتاة الصغيرة التي تستسلم للضغوط التي تطبقها أمها وغيرها ممن يعملون على تأنيثها عرضة لتأثيرات متضاربة. ففي المدرسة يُقابل تصنعها بالحلي ومواد التجميل بعدم الرضا وبالاستهجان. ويطلب منها القيام بشيء من التمارين البدنية لفترة معينة من الزمن كل أسبوع، على الرغم من ملاحظات **الأم** التي تلتمس لها كل أنواع أعذار الضعف والتوعك. وتعطى مسؤوليات، وتُجبر على الانضمام إلى جهود جماعية وأنشطة تجدها، إذا ما استمر تأنيثها بسرعة معقولة، منفرة جدًا. والأرجح أن تنشغل بالقيل والقال والقهقهة مع صديقاتها الحميمات في زاوية الملعب بدلًا من لعب الكرة الناعمة، مع أن الكرة الناعمة صيغة مؤنثة من رياضة مذكرة. فهي لا تحب أن يبللها العرق أو أن تتسخ. ومع أن معلماتها يثنين على سلوكها وترتيبها، فإنهن يتأسفن على كسلها المتزايد، وقد تشعر باحتقار زميلاتها الأكثر «ذكورة» أي الأكثر نشاطًا لها. وقد تتلقى شتائم تتهمها بأنها جبانة أو خائرة الإرادة أو مدللة المعلمة أو بأنها ضعيفة وبلهاء أو رعديدة.

ولكن إذا كانت حبيبة **الماما** تعاني من مشكلة في المدرسة، فإن

الفتيات الناجحات النشيطات في مجتمع المدرسة يقعن في مشكلات في البيت. فخارج المدرسة، ليس هناك مجال للنشاط والمغامرة الجماعيين اللذين تؤمنهما المدرسة. يبدو العمل المنزلي لا يطاق، ويمكن أن تصبح النزاعات الأسرية مصدرًا لقلق جدي، حتى أن معلمين كثيرين اكتشفوا أن تلميذة جيدة تعود من العطلة الصيفية وقد تغيّرت تغيّرًا يتجاوز الإدراك، وذلك أساسًا نتيجة التشويه الذي يفعله توجيهها في البيت. ومع تقدّمها في العمر، تجد أن نشاطاتها أصبحت مضبوطة بمزيد من الصرامة؛ فتمنع من القيام بالأفعال البريئة التي تتضمن شيئًا من الجهد، لأنها باتت «كبيرة على هذا النوع من الأشياء». تشعر أحيانًا أنها قد قُذفت إلى نوع من النسائية المخجلة، فتقاوم باستماتة إلى درجة الانكفاء إلى سلوك طفلي هدام. وهكذا، قد تغدو عنيدة أو خرقاء بلا سبب، قبل زمن طويل من اقتراب البلوغ الذي يجعل هذه التغيُّرات قابلة للتفسير. كثير من التغيُّرات التي يُعتقد أنها متصلة بالبلوغ هي في الواقع متصلة بآخر صراعات الفتاة الصغيرة للمحافظة على طاقتها. إذ أن المدرسة الابتدائية قد ربتها بوصفها شخصًا دون تمييز بين صبي وبنت. ويمكن أن نتوقع ظهور الصراع عندما تنتقل إلى مدرسة الكبار حيث تكتشف أنها أمام الخيارات غير السارة المتمثلة بدراسة الخياطة والعلوم المنزلية وما شابه، نتيجة اعتراضات النساء على فرض النموذج الذكري من التربية على الفتيات. وتقابل السخرية المرة المتمثلة في تعليمها صيغة محددة ذكريًا من التربية بتضمين هذه المواد التافهة في نظامها الدراسي. ولا بدّ أن تشعر فعلًا، وهي تجلس في نسختها السخيفة من البزة المذكرة، وتصنع أصابع من الأسفنج بأيد ملوثة بالحبر، كأنها مثل كيس ملاكمة للحضارة.

تتمنى الفتيات أحيانًا لو كن صبيانًا ـ يمكنكِ أن تري ما يفعله الرجل ـ عمله مدهش ـ هل هناك أعظم من عمل الرجل؟ الرجل ـ من يصنع الرجل؟ يصنعه تدريب الأم ـ أمّ أبراهام لينكولن ـ مسؤولية عظيمة أن تدربي رئيس المستقبل ـ ربما تعتقد الزوجة أن عمل الزوج أعظم من عملها ـ عملها رتيب ومتعب ـ وكذلك العمل التجاري ـ ليس عمل النساء أقل من عمل الرجال ـ ما يقوله راسكين عن الزوجة ـ نجاح الرجل يعتمد على المرأة ـ وصحته تعتمد على طبخ زوجته ـ قد يتوقف مصير أمّة على وجبة صحية ـ لو انخرط كل من الرجال والنساء في الحياة التجارية، لفقدت الحياة الكثير من رونقها ـ المرأة تصنع الحياة الاجتماعية ـ الحياة الأخلاقية ـ تبقي الرجل مفكرًا ـ قيم التربية البيتية ـ آداب الجلوس على المائدة لدانييل وبستر ـ المرأة تطرّز حياة الرجل ـ التطريز للتجميل ـ تطريز النظافة ـ تطريز ابتسامة ـ تطريز كلمات لطيفة.

ملخص ماري وود ـ آلن، *«ما الذي يجب أن تعرفه فتاة صغيرة»*.

(Mary Wood-Allen, 'What a Young Girl Ought to Know', 1928).

(مقتبس حرفيًا)

مهما بدت الفتاة قبل البلوغ للمراقب المتحرر من الوهم بليدة ومشوشة فإنها مخلوق متقد العاطفة. تستهلك الصراعات التي تعاني منها يوميًا وساعيًا الكثير من طاقتها، ومع ذلك لديها ما يكفي لترتعش أمام قصص المغامرة والإنجاز ولتتماثل مع الأبطال، الذكور والإناث على حد سواء. وجنسانيتها أساسية لهذه الاستجابات، تمامًا مثلما هي

لممارساتها التناسلية. قد يجد المرء، في المدرسة الابتدائية، هذا الاهتمام المتحمس بشكل بريء وصريح، وأحيانًا حسيّ تمامًا. أذكر أن مجموعة من الفتيات والصبيان الصغار قبّلوني مرةً في أثناء زيارة إلى مدرسة في مانشستر، وألقوا بأذرعهم حول رقبتي، والتصقوا بثوبي الفرائي ضاغطين بالأسئلة والهدايا بلا تمييز. استطاعت صفوف التلاميذ الذين يبلغون الحادية عشرة أو الثانية عشرة من العمر الذين علّمتهم في أستراليا أن تولّد كثافة استثنائية وجدت التعبير عنها بكثير من الطرق الغريبة، أحيانًا بأشكال من التعلق والمثالية الجذلة، وأحيانًا بتجارب فريدة ومحرفة ضمن مجموعة الملعب. وقد تمكنوا أحيانًا من تقديم أعاجيب من التعاون المتناغم في عرض مسرحياتهم ومشاريعهم الصغيرة، أو ابتكار طرق لتمييز يوم ميلاد أو لمقاومة إدارة مدرسة. وفي أحيان كثيرة كانوا يرفعون الراية إشارة إلى ارتكاب خطأ، أو يتشاجرون. وفي أغلبية الأحيان، كانت السلطات تتدخل لأن الصفوف أصبحت صاخبة جدًا، أو لأن نظام المدرسة معرّض لخطر التمزق. فكان يجري الحد تدريجيًا من مجال القبول والتجريب والتعبير لأن نمط الخضوع والرفض وكل ما تبقى مما هدف إليه التكيف كان مفروضًا فرضًا.

كان جديرًا بالملاحظة أن تحتفظ تلك الفتيات، على ضوء النزاع والتطبيع الثقافي القاسي الذي أُخضعن له، بالكثير من طاقة الطفولة وحبها. وكان جزء من التعبير عنها جنسيًا بالتحديد. وعلماء النفس مستعدون للاعتراف بهذا الأمر، على الرغم من إصرارهم على أن نشاط الفتاة الجنسي قبل المراهقة ذكريّ وبظريّ وما شابه[84]. وهكذا يفسرون عمومًا شغف المراهقة النموذجي بالخيول على أنه انعكاس

84- *Vide* Karen Horney, *Feminine Psychology* (London, 1967), pp. 40-42, also Cap. II 'The Flight from Womanhood' *passim*. *Cf.* Margaret Mead, *Male and Female* (London, 1949), p. 144.

لحسد القضيب من جانب الفتاة غير الناضجة. إذ يفترض بالحصان بين ساقي الفتاة أن يكون بمثابة قضيب عملاق. أي هراء هذا! إذ ليس ما تشعر به راكبة الحصان الشابة هو أن الحصان إسقاط لأناها الجسدية، بل إنه *أنا أخرى* تستجيب لسيطرتها. وما تشعر به هو حب قوي يستثير استجابة. السيطرة المطلوبة بركوب الحصان قوية وبارعة جدًا حتى أنها بالكاد تذوب في نوع من الإثارة الجنسية المنتشرة التي كان من شأن منظّرين من مثل د. بيرسون (Pearson) أن يجعلونا نؤمن بها. إن ركوب الحصان هو، عند عديد من الفتيات اللواتي يبدأن بتكوين صورة حول الدور الأنثوي، الفرصة الوحيدة التي سيحصلن عليها لاستخدام أفخاذهن القوية للتطويق والإثارة والسيطرة. كانت جورج إليوت تعرف ما الذي كانت تفعله عندما وصفت شغف دوروثي بروكس بركوب الفرس وتركها تعدو بجموح في براري *ميدلمارش*. إنه جزء جوهري من رغبتها في القيام بعمل بطولي عظيم، وفي أن تكون حرة ونبيلة.

لم تكن أولئك الفتيات الصغيرات، اللواتي كتبن رسائل حب متقدة العاطفة لزميلاتهن ولي شخصيًا في المدارس التي علّمت بها، يمتلكن فهمًا واعيًا لمشاعرهن المتّقدة غير المتبلورة. فنتيجة المحرّمات المفروضة على تعبيرهن عن مشاعرهن الحادة، أصبحن هائجات على نحو مثير للشفقة، أحيانًا هستيريات وأحيانًا يائسات وسخيفات. كان تعبيرهن عن شعورهن يتم على نحو مشوّه، مثل ضحكة مكبوتة، ما جعله عرضة للاحتقار والشتم. رد فعل معظم المعلمين على «هذا النوع من الأشياء» هدام على نحو مرعب. شهدت مرة كيف عوقبت فتاة صغيرة على قصيدة حب كتبتها بأن قُرئت القصيدة أمام بقية التلاميذ مصحوبةً بسخريات وإيماءات استهجان، فيما وقفت الكاتبة الصغيرة جامدةً وهي تشعر كأن سيخًا من الحديد يخترق روحها، ومنتظرة

الوقت المبارك الذي تستطيع فيه أن تفر إلى الحمّام لتستمتع بذرف دموع الخزي. مهما كانت المعلمة متحررة، تكتشف مبكرًا أن الحظر الصارم المفروض على الاحتكاك الجسدي بين المعلمة والتلميذة يجب أن يحترم، لأن آخر لهب من الطاقة الجنسية ليس سوى مدمر، ولا يمكن سوى إفساده، إذا ما أخذنا السياق الأوسع ووظيفة المدرسة في إطارها الاجتماعي. إنه عصب موجع في وضع التربية، وسيبقى كذلك، ويجب أن يبقى كذلك، ما لم يتغيّر كامل توجهنا الجنسي جذريًا. ولا يمكن لتحديه تدريجيًا أن ينتج سوى عذابًا أكبر.

تبقى الفتاة التي توجه شغفها إلى زميلتها في وضع أفضل من تلك التي تحب معلمتها. فهذه التعلّقات العميقة التي تستمر طويلًا تفسر عادة على أنها إغواء فتاة من جانب فتاة أخرى، تكون عدوانية على نحو خاص وناضجة جنسيًا، أو على أنها توق إلى الأم محوّل إلى امرأة أخرى لأن قرب الأم يتراجع مع اقتراب النضج الجنسي والتنافس الأوديبي، أو ببساطة على أنها الرغبة في الإسرار بالفضول الجنسي والتشارك في معرفة محرّمة[85]. من الخطر الاعتراف بأن الفتيات المتلازمات هنّ غالبًا مفتونات إحداهن بالأخرى، وأنهن غيريات بعمق ومتعاونات، وأنهن غالبًا روحانيات على نحو أصيل، بالإضافة إلى أنهن جنسيات تمامًا، إن لم يكنّ تناسليات بالمعنى الحرفي. إذا شرّفنا هذه العلاقات بإعطائها اسم *الحب* دون انتقاص منها، فإننا ندل ضمنًا على مجموعة من اللازمات المضادة للمجتمع التي لا يمكن السماح بها. أن تتعلم

85- Helene Deutsch, *The Psychology of Women* (London, 1946, 1947),Vol. I, pp. 7, 22.

وفيه تذهب هيلين دوتش إلى حد التصريح بأن أعظم خطر كان يتهدد مريضاتها اللواتي يتعذر ضبطهن هو أنهن يجب أن يحرضن بلا وعي شهوة رفاقهن الذكور لأنهن «لا يملكن أي دافع جنسي، ولا يرغبن بأي إشباع جنسي، ونتيجة غياب الرغبة فإنهن يشعرن بالأمان».

الفتاة إخفاء تلك المشاعر، وهي بين أقوى وأرفع ما ستشعر به على الإطلاق، هو أمر حقير ولكن لا بدّ منه. مهما كانت ملامسة فتاة لجسم فتاة أخرى بريئة، لا يمكنها أن تفلت من ضرورة أن تفعل ذلك استراقًا، وهو ما تعرفه بالحدس منذ ولادة حبها. إنها تتعلم تدريجيًا أن تفكر في مشاعرها على ضوء التقييم الشائع لها، وأن تسخر منها وتنكرها. تلك الخسارة كبيرة جدًا، وتأخذها بعيدًا على الطريق إلى النمط الأنثوي الذي يتّسم باستجابة سطحية متحدة مع تكتّم عميق. إنها ترتد من التشارك الصريح مع كيان آخر إلى غيظ المواعيد الغرامية ودغدغاتها، التي يتغاضى كل العالم عنها. أستطيع أن أتذكر مشهدًا مع أمي حين ضبطت رسالة كتبتُها إلى حبيبتي في المدرسة، فتاة عرفتني على بيتهوفن بأن تعزف سوناتاته لي في ملحق قذر كنا نلجأ إليه في كل لحظة فراغ، وكانت تمسك بيدي ونحن نغني ألحان باليسترينا وباشيلبيل في كورس المدرسة الممتاز، متظاهرةً بأنني جورج صاند (George Sand) وبأنها شوبان (Chopin)، والعكس بالعكس، فتاة محاها البلوغ، وسينتهي بها الأمر مغنية في كورس دام يانكيز (Damn' Yankees). كانت أمي تصرخ بأنني غير طبيعية؛ وحتى أوقف تدفقها، كرّرت ما كنت قد قرأته في ملاحق مجلة صنداي من أن تلك المرحلة هي مرحلة المثلية الجنسية لدى المراهقات، وأنني كنت أمر بتلك المرحلة على أي حال. كفّرت عن تلك الخيانة الكاذبة الجبانة لنفسي وحبيبتي على مدى أسابيع. فأي صفح بعد تلك المعرفة؟

البلوغ

البلوغ هو عندما تتلقى الطفلة ـ المرأة، التي مازالت تصارع، الضربة القاضية. إن تعريف البلوغ صعب؛ ولا يتصل كثير من التضارب الذي يحيط به إلا اعتباطيًا بالتغيّرات الفسيولوجية الضرورية. وكالعادة تتَّخذ الفسيولوجيا مبررًا للمصير؛ ويوصف الاحتمال على أنه ضرورة. لو كان سكان جزر تروبرياند (Trobriand) أو أشخاص آخرون خالون من العُصابات التي لا تصيب مجتمعنا فحسب، بل ومعظم المجتمعات الأخرى التي نعرفها، هم من يعدون الدراسات عن المرور بصدمة البلوغ، لكانت نتائجها مختلفة عما نعرفه. ولأن الوضع على ما هو عليه، فكل ما نعرفه هو أن البلوغ جحيم. جحيم للصبيان كما للفتيات، لكنه لدى الصبيان مسألة تكيّف مع التغيّرات الجسدية التي تدل على حضور الجنس والتناسلية، بالإضافة إلى إحباط الدوافع التناسلية والذنب والاضطراب المترافقين مع الاحتلام والخيالات الشبقة. أما لدى الفتاة فهو شأن مختلف: إذ عليها أن تصل إلى الوضع الأنثوي المتمثل بالسلبية واللاجنسية. ما إن يبدأ شعر عانتها بالظهور حتى يجب أن تتعلم كيف تزيله. ويجب أن تحتمل الطمث وتخفيه. لطالما منعت من قبول جسمها على أنه جنسي إلى حد أن الطمث يأخذها على حين غرة مثل تدنيس مشين لسلامتها الجسدية، مهما كان استعدادها له جيدًا.

هذا هو الوقت الذي ستحصد فيه ثمار الزوبعة. تعود جميع صراعاتها إلى البيت لتجثم. وإذا لم تتمكن من تحقيق التوازن بين رغباتها وتكييفها، فذلك هو الوقت الذي تنهار فيه، أو تهرب، أو تنحرف، أو تبدأ بالفشل في المدرسة، أو تتبنى أشكالاً من السلوك ليست معادية للمجتمع وحسب، بل ومدمّرة ذاتيًا أيضًا.

يتفق جميع مراقبي علم النفس الأنثوي، من فرويد ودوتش (Deutsch) إلى هورني (Horney) وتيرمان (Terman)، على أن قدرات الفتاة الفكرية وغيرها تعاني من نقصان ملحوظ في أثناء البلوغ وبعده[86]. وتضيع الميزة الطفيفة التي تتمتع بها على الصبيان في المدرسة. يعتقد د. تشابمان أنه «يجب تهنئة النساء على قدرتهن على اجتياز هذه المرحلة من الحياة محافظاتٍ على أثر من الاستقرار الانفعالي»، أما ما كان يعنيه فعلًا فهو تمييز آخر ضد النساء[87]. إنه لموقف ذكري متعصب ذاك الذي يفترض أن مخلوقًا ينزف من موضع عضوه الجنسي المشقوق لا بدّ من أن يكون ممسوسًا. وإذا استمعنا إلى الفتيات البالغات أنفسهن يتحدثن، فقد نجد سببًا كافيًا للصراع، دون أن نستشهد بوزارة البيولوجيا السرية.

> هناك ما يقلقني، ويحرجني جدًا أن ألتمس النصيحة من أمي. أشعر أحيانًا بوحدة شديدة، وأتوق ببساطة إلى صديق حميم. أتوق إلى تجربة لم أعرفها من قبل. أعرف أنني صغيرة جدًا على الحديث بمثل هذه الأمور، فأنا مازلت في الثالثة عشرة من العمر، ولكني لا أستطيع منع نفسي، وأشعر باليأس حين أفكر أن علي الانتظار كل هذا الوقت. أرجوك لا تنصحيني بنسيان هذه الرغبة لأنني لا أستطيع مهما حاولت. فتفكيري يدور حولها معظم الوقت. أرجوك ساعديني[88].

86- Deutsch (*op. cit.*), pp. 136—7, *cf.* Horney (*op. cit.*), pp. 100-101 and Lewis M. Terman, *Genetic Studies of Genius* (London, 1936), Vol. III, pp. 93—4.
87- J. Dudley Chapman (*op. cit.*), p. 69.
88- James Hemming, *Problems of Adolescent Girls* (London, 1950), pp. 93-4.

أي مساعدة يمكن أن تكون هناك؟ هل يجب إقناع كاتبة هذه المناشدة بأنها تريد شيئًا آخر؟ وهي مدركة أصلًا أن تلك الرغبة التي تصفها لا يفترض أن توجد. وعندما تصل إلى الخامسة عشرة فستصبح مقتنعةً أنها لا توجد. ومن جهة أخرى، لدينا مشكلة فتاة مفصلة تفصيلًا:

> أنا أعتبر العنزة السوداء في عائلتنا، وأتوق إلى الجمال بكل جوارحي. عندما أذهب إلى السينما وأرى الفتيات الجميلات، فإن ذلك يجعلني أوشك على البكاء نتيجة اعتقادي أنني منفرة جدًا. هل يمكن أن تقدمي لي أي أفكار لها علاقة بالجمال؟[89]

قلق هذه الفتاة وإحساسها بالعار هما نتيجة تآكل شخصيتها الدائم. إنها معلّقة على حافة عمر من التعمية والشعائر البلهاء، مليئة بنذر الشر والفشل، ربما يمكن تسكين تلك المشاعر لفترة قصيرة من الزمن وهي ما تزال صغيرة ومحل استلطاف، لكنها لا تلبث أن تعود بقوة مضاعفة عندما تنتهي تلك الفترة القصيرة من الزمن. في فترة البلوغ، تصبح تجليات الصراع الخارجية، التي ربما وجدت منذ الطفولة، أوضح: طبع حاد، كوابيس، تبوّل ليلي، قهقهة، كذب، خجل، بكاء، عضّ الأظافر، طقوس قهرية مؤثرة، حكّ بثور الجلد، جلوس في سكينة فترة طويلة، خرق، إحراج، تكتّم.

ليس هناك لدى المجموعات المؤنثة صغيرة السن، المحدودة عادةً بالوضع المدرسي، نشاط مماثل للنشاط التناسلي القوي متعدد الأشكال الذي يميز بلوغ الذكر. وهكذا، تُشجَّع الفتاة في مرحلة النمو على استخدام سحرها الأنثوي، على أن تكون حيية ومغرية، وعلى أن تتجاهل، في الوقت ذاته، الواقع الحقيقي الذي تجري فيه مثل هذه المداهنات. تصبح رغباتها القوية مشتتة في خيالات سلبية، بينما صلتها

89. *Ibid.*, p. 130.

مع الجنسانية ضعيفة أو مخفية. تعطي إحصاءات كينزي (Kinsey) القائلة إن 90 في المائة من الذكور يمارسون العادة السرية، بينما 62 في المائة من النساء فعلن ذلك مرة واحدة على الأقل، فكرة ناقصة جدًا عن الفرق الفعلي في النشاط الجنسي الآلي بين الصبيان والفتيات[90]. إذ في هذه الفترة الحرجة، يُتوقع أن تبدأ الفتاة علاقاتها مع الرجال، علاقات قائمة على جاذبيتها بوصفها غرضًا جنسيًا، علاقات لا يمكن كبحها دون أي اعتبار لدافعها الجنسي الخاص. لقد أعطى هذا الوضع، في هذه الأيام التي تتصف بزيادة تسامح المجتمع، ارتفاعًا في بعض الانحرافات المحزنة جدًا. إذ ليس من النادر أن تسمح فتاة تبحث عن «الشعبية» أو عن استحسان الفتيان لها لأولئك الفتيان بالتمادي في حريتهم معها، في حين لا تبحث هي عن أي شيء لنفسها، أو لا تحصل على أي شيء. إن ظاهرة الفتيات اللواتي يوافقن على مداعبة الصبيان حتى يصلوا إلى الرعشة، أو السماح لهم بممارسة الجنس معهن على عجل، وأحيانًا في ظروف حقيرة أو عمومية، هي نتيجة غير منشودة، لكنها غير استثنائية، من نتائج القوة الخاملة للسلبية المطبوعة في الذهن في المجتمع المتسامح. يستطيع المرء أن يرى في فترة بعد الظهر من أي يوم سبت في بلدة إنكليزية ريفية مجموعات من الفتيات مرتديات زيًا موحدًا يعكس صورتهن المقبولة منتشرات في الشوارع وهن يتظاهرن بتجاهل مجموعات الصبيان الذين يعبّرون عن احتقار واضح لهن. فسهولة تأثرهن مجتمعة مع تفاهتهن وتضليلهن لا تعطيهن فرصة اتصال حقيقي مع أبناء جيلهن من الذكور. وما يدعو للسخرية أن التكيّف مع الأنوثة، الذي يفترض أن يزيد قيمة الغرض الجنسي السوقية، يمكن أن يصبح، بل يصبح فعلًا، أسوأ حطّ من قيمتهن.

90- A. C. Kinsey, W. B. Pomeroy, C. E. Martin and P. H. Gebhard, *Sexual Behaviour in the Human Female* (Philadelphia, 1953), p. 173.

عندما تخفق فتاة في التعامل مع وضعها الجنسي، كما تفعل غالبًا، فإنها تطلب الإرشاد لأن الجواب لا يمكن أن يأتي من ذاتها. درس جيمس هيمنغ (James Hemming) الرسائل التي ترسل إلى مجلة أسبوعية ملاحظًا أن الرسائل التي ترد من فتيات هي ضعف الرسائل التي ترد من صبيان، ومعظمهن، على عكس الصبيان، مشغولات بمشكلات التكيف الشخصي. وهو يعطي عددًا من الأسباب:

> ليس واضحًا ما الذي يعتبر مسؤولًا عن الاختلاف بين الجنسين. ربما لأن الصبيان يجدون أسهل عليهم أن يتكيفوا مع مجتمع مازال الرجال في الغالب يسيطرون عليه على الرغم من تحرير النساء المتزايد. وربما لأن الفتاة تعاني من مشكلات لا يعاني منها الصبي لأن الأهل يقلقون على بناتهم المراهقات أكثر مما يقلقون على أبنائهم المراهقين. وربما لأنها تقلق بفعل القيم الموجودة أكثر مما يقلق الصبيان. وربما لأن براعة الفتاة في التعبير عن نفسها بالكلمات، أكثر من براعة الفتى، تجعلها أميل إلى الكتابة عن مشكلاتها الشخصية. وربما المسألة هي أن ما أسماه د. جيمس سوتي (James Suttie) «تحريمنا الرِقة» يجعل الصبيان خجولين من إطلاع الآخرين على مشكلاتهم، إذا كان ذلك الاطلاع يجعلهم يبدون «ناعمين». أيًا يكن السبب، فإن البحث في مشكلات المراهقة ينتهي إلى أن مشكلات التكيف لدى الفتيات أكثر من تلك التي لدى الصبيان[91].

جميع الحالات التي يذكرها هيمنغ هي منتجات السبب العميق، ألا وهو ضرورة أن تتبنى الفتاة المراهقة دور الخصيّة. ذلك أن بحثها عن إرشاد هو علامة أساسية على تخليها عن استقلالها. إذ طالما أُخضعت للإشراف والرقابة أكثر من أخيها، ويطلب منها أن تتكيف مع السلبية الأنثوية المناسبة وأن تستمر في كبت نفسها. إنها عملية

91- Hemming (*op. cit.*), p. 15.

دقيقة، وإذا ما أخذنا الضغوط التي مورست عليها منذ طفولتها، فليس من المفاجئ أن يظهر البلوغ على أنه اللحظة الحاسمة.

> في التحليل النفسي للنساء اللواتي يعانين من مشكلات عُصابية أو اضطرابات في الشخصية، كثيرًا ما يجد المرء حالتين: (1) على الرغم من أن الصراع الحاسم قد نشأ في جميع الحالات في مرحلة الطفولة المبكرة، فإن أولى تغيّرات الشخصية قد حدثت في المراهقة.. (2) يتزامن بدء هذه التغيّرات مع الحيض[92].

تتابع كارن هورني (Karen Horney) هذه المشاهدة بأن تضع قائمة بالأنواع الرئيسية من التفكك التي توجد لدى هذه الشخصيات العُصابية: الإثم الجنسي والقلق والخوف من أنهن لا يطابقن المثل الأعلى الأنثوي والدفاعية العميقة والشك والعداء. تجد هورني، من خلال التفكير بمشاهداتها، أنها يجب أن تتكر بعضًا من آرائها الفرويدية المبكرة، وأن تخاطر بالخروج على الإجماع. كانت الحجة التقليدية هي أن ما يفاقمه البلوغ هو عجز المرأة عن قبول دورها الجنسي الصحيح، أي الأنوثة المسماة خطأً نسائية. أما ما وجدته هورني فهو أن الأنوثة نفسها أنتجت هذه الانحرافات، على الرغم من أنها لم تكد تتجرأ على قول ذلك صراحةً. فاختتمت بحثها بنصيحة مترددة مفادها أن من الأفضل «تعليم الأطفال بشجاعة وجَلَد بدل أن نحشوهم بالمخاوف»[93]. حتى خلاصة متحفظة كهذه ترفع وطأة الشعور بالذنب الناتج عن العجز عن التكيف مع الدور الأنثوي عن كاهل أولئك اللواتي يعانين منه أعظم معاناة.

ولكن ما فائدة الشجاعة والجَلَد عندما يكون كل مبرر وجود المرأة هو أن يستغلّها شريكها المثالي؟ لا بدّ أن تتخذ الفتاة، التي تجد أن

92- Horney (*op. cit.*), p. 234.
93- *Ibid.*, p. 244.

قيمتها في المواعيد الغرامية لا تأتي إلا من الصفات التي سعى تعليمها المدرسي إلى الحط منها، قرارًا ضارًا في كل الحالات. وإنه لمؤلم ومعيق للفتاة أن تتبنى الخصال التي يحددها الفخ الجنسي. وهي، في انتظارها أن يرن جرس الهاتف، وفي تعلمها ألا تبدو متلهفة جدًا، وفي تظاهرها بعدم الاهتمام، تطبق نظامًا ذاتيًا قد يصبح متطرفًا. وفي مناسبات نادرة، قد تجد نفسها في وضع لا تكون فيه هذه الضوابط ضرورية بالتأكيد. لا بدّ أن يكون أولئك المنظرين، الذين ينكرون جنسانية الأنثى، قد رأوا من حفلات أغاني البوب بقدر ما رأيت، حيث آلاف الفتيات اللواتي تتراوح أعمارهن بين الثانية عشرة والسادسة عشرة يتجاوبن بعنف مع الإثارة الموسيقية والاستعراضية الذكرية. وإنه لأمر شائع في الصناعة الموسيقية أن يحشو النجوم ما بين أفخاذهم، وأن تبلل الفتيات أغطية مقاعدهن. لقسوة هذه الظاهرة والهستيريا التي تثيرها علاقة مباشرة بندرتها. التشوه هو ذات التشوه الذي كان المتهتكون الخارجون على القانون يمارسونه عندما يمزقون بينتوس (Pentheus) إربًا.

> هناك فتاة صغيرة اسمها لايتيشيا
> وهي تكتب أروع الرسائل
> إلى أبطال الخيال المراهق
> أولئك الذين يرسَمون على ورق مقوى
> في ألعاب الأطفال
> مستثيرة الاغتصاب بالوكالة
> مراسلة شهوانية
> إنها ملكة المراهقة بلا منازع
> في عالم الإباحية الشعبية.
>
> **روجر ماك غوف**، «S.W.A.L.K.»

لم ينكر أحد قوة الرغبات والطاقات الجنسية لدى الشابات وتركيزها بعنف مثلما فعل الفرويدون. قد تتعلم النساء شيئًا ما من إشباع الخيال الذي استخدمته عزباوات القرن السابع عشر.

> لدى الخادمات الشابات تسلية عابثة يسمّينها تشكيل خبز الكوكل؛ وفيها يصعدن على ترس طاولة، ثم يرفعن ركبهن ومعاطفهن بأيديهن أعلى ما يستطعن، ثم يؤرجحن أردافهن جيئة وذهابًا كما لو أنهن يعجنّ العجين بمؤخراتهن، ويرددن الكلمات، تحديدًا:
>
> سيدتي مريضة، وذهبت إلى السرير،
> وأنا سأشكّل خبزي الكوكل
> عقباي إلى الأعلى ورأسي نحو الأسفل،
> وهذه هي الطريقة التي أشكّل بها خبز الكوكل.
>
> لا أتخيّل فعلًا [يعلّق أوبري (Aubrey)] أن ينطوي هذا على أي شيء، سوى عبث الشباب[94].

لم نعد نقر بفكرة الشهوة المتأججة لدى العذراء في سن الزواج إلا بصيغتها الباهتة في متلازمة لوليتا؛ نحن لا نؤمن بالمرض الأخضر، ولكننا نقبل فعلًا أن البلوغ نوع من المرض الطبيعي ذي منشأ غير عضوي، وهو افتراض لا يقل اعتباطية. ما يجب أن نراه في آلام البلوغ المبرحة هو نتيجة التكييف الذي يشوه شخصية الأنثى ليخلق الأنثوية.

> حتى يكون الذكر واثقًا من أنه «رجل»، يجب أن ينظر إلى الأمر على أن الأنثى هي «امرأة» بوضوح، وهي عكس «رجل»، أي يجب أن تتصرف الأنثى مثل مثليّة.
>
> **فاليري سولاناس**، *«بيان سكام»*
>
> (Valerie Solanas, 'SCUM Manifesto').

94- John Aubrey, *Remaines of Gentilisme and Judaisme* (1686—7), edited and annotated by James Britten (London, 1881), p. 153.

البيع السيكولوجي

مقدّر للنساء، بحكم تكييفهن، أن يتخلين عن استقلالهن وأن يبحثن عن إرشاد. يجب أن يكون ذلك دليلنا *البديهي* على الطبيعة المصطنعة لمفهومنا عن الأنوثة حتى أنه غالبًا ما يحتاج إلى تقديم وشرح. ويشير عدد النساء اللواتي يلجأن إلى إرشاد المحللين النفسيين الأبوي إلى الحقيقة ذاتها. لا يمكن إخفاء وجود التوتر المستمر في الموقف الأنثوي، ومن ثم، لا بدّ من شرح تلك الحقيقة؛ وبشرحها يفترض علم النفس التقليدي اعتباطيًا، مثله كمثل الكابتن في كتاب ستريندبرغ (Strindberg) *الأب* (The Father)، أن النساء قد خضعن لتكييف لا يناسب وظيفتهن البيولوجية، ألا وهي تنشئة الأولاد والعمل الداعم في البيت[95]. قد تشعر المرأة التي تبحث عن إرشاد أكاديمي لدى علماء نفسيين أنها تخففت من بعض أكثر الصراعات إزعاجًا بفعل ذلك الإرشاد، مع أن هذه النتيجة مشكوك فيها. ما تكتشفه فعلًا هو أن الشروط التي تثور ضدها تسندها بنية ضخمة من البيانات والتنظيرات التي لا تستطيع سوى التكيّف معها لأنها لا تملك أي أمل

95- August Strindberg, *The Father*, Act II, Sc. vii.

مازال الكابتن، على الرغم من قناعته بأن خرافات زوجته وقلة فهمها لعمله لم يخدمانه جيدًا، يتخيّل أنه قد عاش أيامًا طيبة في الماضي، وذلك حين «تزوج المرء زوجة» واستمتع بـ «الحب الحسي» معها، ولم تكن العلاقة بينهما علاقة عمل.

في تغييرها. ويتطلب الأمر طبيبًا نفسيًا آخر ليشرح لها دالّة تحيز المراقب ونزعة علم النفس الأساسية المحافظة[96]. حين يتعلق الأمر بالمرأة، يعتبر الطب النفسي خدعة استثنائية تستغل الثقة: إذ تبحث المخلوقة غير الشكاكة عن المساعدة لأنها تشعر أنها غير سعيدة وقلقة ومشوشة، ويقنعها علم النفس بأن تبحث عن السبب في *ذاتها*. فتغيير الشخص أسهل من تغيير الوضع القائم الذي يمثّل قيمة أعلى في فلسفة علماء النفس التفاؤلية. وإذا ما فشل كل شيء آخر، فهناك اللارجكتيل[97] والعلاج بالصدمة والتنويم المغناطيسي وغيرها من أشكال «العلاج» التي تدعم مزاعم المجتمع. يعجز علماء النفس عن معالجة العالم، فيعالجون النساء. وهم، في الحقيقة، لا يديرون تلك العملية مجرد إدارة: إذ كشفت دراسة آيزينك (1952) (Eysenck) أن 44 في المائة فقط من المرضى الذين عولجوا بالتحليل النفسي قد تحسّنوا؛ وأن 64 في المائة من الذين عولجوا بطرق أخرى (العقاقير والصدمة وغيرها) قد تحسنوا؛ وأن 72 في المائة من الذي لم يتلقوا أي علاج قد تحسنوا. وأثبتت الدراسات اللاحقة التي قام بها بارون وليري (Barron and Leary)، وبيرجن (Bergin)، وكارترايت وفوجل (Cartwright and Vogel)، وترواكس (Truax) هذه النتائج السلبية[98].

يقال الكثير حول مرجعية التحليل النفسي ونظرية الشخصية. المرأة التي تقبل توصيفات التحليل النفسي لها ولمشكلاتها تجد نفسها أمام أخطار محدّدة أكبر بكثير من آثار التحيزات الشخصية لدى النصف الآخر من المجتمع.

96- Naomi Weisstein, 'Kinder, Kuche, Kirche as Scientific Law: Psychology reconstructs the Female', *Motive*, March—April 1969, pp.78—85.

97- اسم دواء نفسي. [المترجم]

98- *Ibid.*, p. 80.

فرويد أبو التحليل النفسي، لكن التحليل النفسي ليس له أم. وهو ليس والده الوحيد، وإضافة إلى ذلك، تحدّت بنى لاحقة من نظرية التحليل النفسي نظام فرويد أحيانًا، ودعمته في أحيان أخرى. ربما تكون الطريقة المثلى للتعامل مع التحليل النفسي هي اعتباره نوعًا من الميتافيزيقيا، لكنه يعامل عادة بالإجلال ذاته الذي تعامل به العلوم. وقد عبّر فرويد نفسه بحزن عن عجزه عن فهم النساء، وصار مع مرور الوقت أكثر تواضعًا في ما يقوله عنهن. ربما تكون أفضل مقاربة لفرضيات فرويد عن النساء هي تلك التي تبناها د. إيان سوتيي، إذ طبقت التحليل النفسي على فرويد نفسه[99]. يمكن القول إن حجر الزاوية في نظرية فرويد عن النسائية هي القناعة المذكرة بأن المرأة رجل مخصي. وبموجب هذه النظرية يفترض بالمرأة أن تعتبر نفسها محرومة، حتى أن الكثير من دوافعها ينبثق إما عن محاولة التظاهر بأنها ليست كذلك ـ وخير مثال على ذلك هو الأنثى التي تنغمس في نشاط جنسي بظري ـ أو من محاولة التعويض عن هذا النقص عن طريق الإنجاب. ليست هذه الحجة في جوهرها سوى لغو، ولا يمكن أن تتجاوز مصطلحاتها الخاصة، حتى أنها غير قابلة للإثبات ولا للدحض. والدليل أن إرنست جونز (Ernest Jones)، وهو فرويدي مخلص، أخذ يشك بوجود خطأ ما في الفرضيات الأساسية لهذه النظرية، بعد أن أخذ على عاتقه مهمة مراقبة جنسانية الطفلات:

> يتنامى لدينا شك مثير للقلق بأن المحللين النفسيين الرجال قد دُفعوا إلى تبني وجهة نظر تبالغ في تمركزها على القضيب حيال المشكلات قيد النقاش، فقللوا بذلك من أهمية الأعضاء الأنثوية[100].

ولسوء الحظ، كان يجب أن يبقى ذلك الشك مهمشًا، ولم يتطور قط

99- Ian Suttie, *The Origins of Love and Hate* (London, 1935), p. 221.
100- Ernest Jones, 'The Early Development of Female Sexuality' in *Papers on Psychoanalysis* (London, 1948), p. 438.

إلى نظرية جديدة. ورغم الأدلة استمر المحللون النفسيون في الاعتقاد بالصدمة المتصلة بالأعضاء التناسلية. فالإيمان، في نهاية المطاف، لا يعتمد على الدليل. والمخطط الفرويدي يقوم على أن تطور الفتيات الصغيرات متواز مع تطور الفتيان الصغار ويضاف له التعقيد الناجم عن اكتشاف الفتاة أنها قد فقدت قضيبها. وجنسانيتها الطفلية هي أساسًا مذكرة، مع مؤهلات مهمة:

> كما نعرف جميعًا [كذا]، لا يرسخ التمييز الحاد بين الشخصية المذكرة والشخصية المؤنثة إلا في مرحلة البلوغ. وبدءًا من تلك المرحلة، يكتسب التباين بينهما تأثيرًا في تشكيل الحياة الإنسانية على نحو أكثر حسمًا من أي مرحلة أخرى. صحيح أن الميول المذكرة والمؤنثة يمكن تمييزها بسهولة في مرحلة الطفولة، لكن تطور ظواهر الكف الجنسي (العار والقرف والأسف وغيرها) يحدث لدى الفتيات الصغيرات في وقت أبكر من الصبيان، وتكون مقاومتها أضعف؛ إذ يبدو الميل إلى الكبت الجنسي لديهن أقوى، وحين تظهر الغرائز الجنسية الجزئية لديهن فإنها تؤثر بالشكل السلبي. لكن النشاط الأيروسي الذاتي للمناطق الحسّاسة جنسيًا هو نفسه لدى الجنسين، ونتيجة تماثله ليست هناك إمكانية للتمييز بين الجنسين كذاك الذي يبرز بعد البلوغ. وحين يتعلق الأمر بتجليّات الجنسانية على شكل إيروسي ذاتي واستمناء، يمكن أن نستنتج قاعدة عامة مفادها أن جنسانية الفتاة الصغيرة ذات طبيعة مذكّرة كليّةً[101].

هذا محض هراء. فمفاهيم التماثل والاختلاف بلا معنى. وبالمثل، لا يقدّم وصف الشخصية التي تقوم على الضبط الذاتي الكبتي أي معرفة. ما يتم التعبير عنه بقوة هو فقط ما اعتقد به فرويد من أن كل الطاقة الجنسية (الليبيدو) هي طاقة ذكرية. نحن نعرف شيئًا

101-S. Freud, *Three Essays on the Theory of Sexuality* (*op. cit.*), p. 219 (my ital.).

عن دراسته للغة، لكننا لا نعرف شيئًا عن الواقع الذي تحيل إليه تلك الدراسة.

> إن ثنائية المذكر والمؤنث هي مجرد نقل لثنائية الفاعلية والسلبية إلى مصطلحات تناسلية؛ والفاعلية والسلبية تمثلان انصهارًا مقلقًا لإيروس (Eros) وموت (Death) المتحاربين فيما بينهما. وهكذا يطابق فرويد بين الذكورة والعدوانية وبين الأنوثة والمازوشية[102].

إذا كنا نريد تحقيق علاقة مستقرة بين قوى الخلق والتدمير، فسيكون علينا أن نتخلى عن القطبية. لا يمكننا البقاء في بيئة من السادية الذكرية والمازوشية المؤنثة، في عالم من المعتدين والضحايا. وقد اعترف فرويد نفسه بذلك، لكنه لم يربط هذه الفكرة العميقة بفرضياته حول خاصية النساء الجوهرية.

> لقد حقق الرجال السيطرة على قوى الطبيعة حتى أنهم لن يجدوا بمساعدتها صعوبة في إبادة بعضهم بعضًا حتى آخر رجل. هم يعرفون ذلك، ومن هنا يأتي جزء كبير من اضطرابهم الراهن وتعاستهم وحسهم بالقلق. والآن يمكننا أن نتوقع أن يبذل إيروس الخالد، وهو القوة الثانية بين «القوتين المقدستين»، جهدًا لتأكيد نفسه مقابل خصمه المكافئ له في الخلود[103].

كتب فرويد هذا قبل هيروشيما والموت بأعداد هائلة بزمن طويل. ولم يقترح إعادة منح النساء جنسانيتهن، أي إخلاصهن لإيروس، بوصفها إحدى الطرق التي يستطيع إيروس فيها أن يحشد قواه، بل طور، هو وأتباعه، مفهوم المازوشية المؤنثة على أنها قدر سماوي فرضته البيولوجيا.

المرأة التي تقاوم دورها الجنسي وتتجاهل رسالة نزفها المهبلي،

102- Norman O. Brown, *Life Against Death* (*op. cit.*), p. 121.

103- S. Freud, *Civilisation and its Discontents*: Complete Works (*op. cit.*), p. 144.

أي الرسالة التي تقول أنها يجب أن تحمل وتلد، تبقى مثبتة في حالة عدائية طفلية يولدها حسد القضيب. قد تكون نشيطة جنسيًا، لكن استجابتها مذكرة ومرتبطة ببظرها، ولا تنشأ في فتحتها الاستقبالية، أي في مهبلها. تنبثق مازوشية المرأة الناضجة من رغبتها في الاستسلام لعدوانية الذكر التواق، ولا تخضع هذه المازوشية إلا لنرجسية المرأة التي تحميها وتجعلها تفرض شروطًا أخلاقية وجمالية وبدنية. أما في الفترة الفاصلة الضرورية بين نضوجها وتزاوجها، فهي تعبّر عن جنسانيتها بخيالات سلبية؛ ولا تكتمل إلا بالحبل، لأن الطفل يرمز إلى عضوها التناسلي المفقود وإلى إنجازها، وهكذا، تخبو الخيالات، وتستبدل المازوشية ـ النرجسية بحماية الطفل وتنشئته اجتماعيًا. هذا وصف دقيق لآلية موجودة، وقد أثبت أنه مغر حتى للمنظّرات، اللواتي لم يتجرأن على وضع تجربتهن الذاتية في مواجهة ما اعتبر حقيقة موضوعية. وإضافة إلى ذلك، كان يمارس ضغطًا أخلاقيًا. إذ كانت المرأة التي تنشأ كل رعشاتها الجنسية في البظر، تشعر بالخجل نتيجة عزو ذلك إلى عدم النضوج وحسد القضيب، وكانت المرأة التي تسعى وراء أهداف إيجابية تعتبر بالتعريف سيئة التكيّف مع دورها الحقيقي، وربما طفلية.

> غالبًا ما يفسِد النشاطُ السليم في جوهره والطاقة الاجتماعية والفكرية، اللذين تطورهما الفتاة الصغيرة التي تتكر خيالاتها، حياتَها العاطفية، ويمنعها من تحقيق الأنوثة الكاملة والأمومة فيما بعد. كما أن الحقيقة القائلة إن النساء يعلقن أحيانًا في أشكال طفلية من الحياة العاطفية، بينما تتطور عقولهن وأفعالهن جيدًا، هي حقيقة مثيرة للاهتمام، ومازالت بحاجة إلى الشرح والتفسير. يبدو أنّ الانتقال من حياة الخيالات إلى الأنوثة الناضجة تمامًا هو إنجاز نفسي يمكن كبحه بالعقلنة[104].

104- Deutsch (*op. cit.*), Vol. I, p. 101.

أولويات هيلين دوتش واضحة. فإذا كان العقل يعيق التأنيث، يجب أن يذهب العقل. ولم تستطع نظريتها في التحليل النفسي أن تمدّها بجواب على مشكلتها الأكاديمية المثيرة للاهتمام، لأن الجواب يكمن في السياق الاجتماعي الذي توجد فيه النساء النشيطات الذكيات. إن الاقتراح القائل إن الزوجة المقبلة ومعلمة المدرسة العانس يجب ألّا يبتكرن نشاطات تعويضية، لأنهن لا يشاركن في إنجاب الأطفال، من شأنه أن يقلب كل شيء رأسًا على عقب. إذ أن المثالين، الأنثوي والمذكر الزائف، يمثّلان حالتين من الخصاء. حتى أن دوتش توصلت إلى إعادة التفكير بنظريتها الأساسية عن المازوشية الأنثوية، وقدمت حجة ضعيفة مفادها أن المازوشية «لا يمكن أن تتعلق بالعوامل المتأصلة في الخصائص التشريحية ـ النفسية وحدها، وإنما لا بدّ من تفسيرها بوصفها مشروطة، بالدرجة ذاتها من الأهمية، بمركّب الثقافة أو التنظيم الاجتماعي الذي تطورت فيه النساء المازوشيات المعينات»[105]. لكنها لم تذهب بعيدًا بما يكفي لترى أنها، هي نفسها، ظاهرة للمركّب نفسه، فقدّمت بذلك إسهامًا مهمًا للمحافظة عليه على حساب النساء.

وكانت دوتش نفسها، على الرغم من ادعاءاتها بالمكانة الفكرية، مغرمة جدًا بالقالب الأنثوي. فرسمت صورة استثنائية للمرأة بوصفها رفيقة الحياة المثالية.

> ...إذا كنّ يمتلكن خاصية الحدس الأنثوية إلى درجة كبيرة، فهن المتعاونات المثاليات اللواتي يلهمن غالبًا رجالهن، وهن أنفسهن أسعد في هذا الدور. يبدو أنه يمكن التأثير فيهن بسهولة وأنهن قادرات على تكييف أنفسهن مع شركائهن وفهمهم. إنهن الأجمل والأكثر مسالمة بين الأزواج، ويردن البقاء في ذلك الدور. من السهل التعامل معهن بكل الطرق ـ يكفي أن يحيهن المرء. أمّا جنسيًا، فهن سهلات الإثارة، ويندر

105- Horney (*op. cit.*), pp. 232—3.

أن يكن باردات؛ لكنهن بالضبط في ذلك الميدان الجنسي يفرضن شروطًا نرجسية يجب استيفاؤها بالمطلق. إنهن يطلبن الحب ونكران الذات المتوقد لنزعاتهن النشيطة.

إذا كن موهوبات في أي اتجاه، فإنهن يحفظن القدرة على أن يكنّ أصيلات ومنتجات، لكن دون الدخول في صراعات تنافسية. إنهن يرغبن دائمًا في أن ينكرن إنجازاتهن دون الشعور بأنهن يضحين بأي شيء، ويبتهجن بإنجازات شركائهن، التي غالبًا ما ألهمنها. لديهن حاجة استثنائية إلى الدعم عندما ينخرطن في أي نشاط موجه نحو الخارج، لكنهن مستقلات بالمطلق في ذلك الشعور والتفكير عندما يتعلق بحياتهن الداخلية، وهذا يعني في نشاطهن الموجه نحو الداخل. وليست قدرتهن على التطابق مع الآخر تعبيرًا عن فقر داخلي، بل عن غنى داخلي[106].

ليس هذا الوصف أكثر من مخطط عام للمرأة المقبولة، وهو، بصفته تلك يمثل قدوة مصطنعة لا يمكن الوصول إليها. لا يمكن لامرأة من هذا القبيل أن تكون شخصًا، لأنها لا توجد في شروطها الخاصة مطلقًا. لا يمكن الحديث عن أهميتها إلا بوجود رجل إلى جانبها، رجل تعتمد عليه تمامًا. ومقابل ما تبديه من إنكار للذات وتعاون وتكيّف وتماهي، نراها تلاطَف وتشتهى وتُدبّر ويؤثَّر فيها، لكن اشتهاءها يكون أحيانًا بلا طائل. إنها مساومة سيئة للرجل لأنها لا تقوم بأي محاولة لإثارته أو إثارة انتباهه، وبالتالي فهو لا يستطيع أن يتوقع أن تقوم هي بتدبيره أو التأثير فيه. يمكن للبنية كلها أن تتداعى نتيجة ثؤلول على الأنف، لأن دوتش لا تستطيع أن تتفادى كلمات من مثل جميلة في وصفتها. ما الحق الذي تملكه هذه المخلوقة حتى تطالب بحب ورغبة متوقّدين مازالت عاجزة، بحكم وضعها، عن عرضهما؟ إنها تجويف

106- Deutsch (*op. cit.*), p. 151.

فارغ متطلب ذليل. لا شيء أكثر برودة من مشهد التضحية بالذات المتقطع هذا. هذه امرأة وُلدت ليهجرها زوجها العاق في قمة نجاحه الذي ساعدت في تحقيقه، يهجرها من أجل فتاة وقحة في التاسعة عشرة من عمرها. وهذا هو النموذج الذي وصفه «علم» التحليل النفسي، مزيج من الأخلاقوية والخيال الذي لا ينيره أي شعاع من الحس السليم. لم يخضع التحليل النفسي الأحدث تحيّز دوتش الشديد لمساءلة ذات معنى، بل إن برونو بيتلهايم (Bruno Bettelheim) يرى أننا «يجب أن نبدأ بإدراك أن النساء بقدر ما يردن أن يكنّ عالمات ومهندسات جيدات، يردن كذلك، وقبل كل شيء، أن يكن شريكات لرجالهن بطريقة نسائية وأن يكنّ أمهات»[107].

ابتدع إريك إركسون (Erik Erikson) المفهوم المجنون عن *فراغ داخلي في تصميم المرأة الجسدي*، فتحة في الرأس تخفي الالتزام بالعناية بالأطفال[108]. وصرّح جوزيف رينغولد (Joseph Rheingold) مرة أخرى بوضع الكابتن المجنون في كتابه الأب، منذ وقت يعود إلى عام 1964.

> عندما تكبر النساء دون خوف من وظائفهن البيولوجية ودون رقابة العقيدة النسوية، ويدخلن تاليًا الأمومة مع شعور بالاستيفاء والعاطفة الغيرية، فسنبلغ الهدف بحياة جيدة وعالم آمن لنعيش فيه[109].

النساء اللواتي يباشرن الزواج وإنجاب الأطفال بروح متفائلة وعواطف رومانسية هنّ أكثر تعبيرًا عن خيبات أملهن، ويعاني أطفالهن أكثر من غيرهم من اهتمام أمهم المفرط بهم. لم تكن غاية

107- Bruno Bettelheim, 'Women and the Scientific Professions', *MIT Symposium on American Women in Science and Engineering*, 1965.

108- E. Erikson, 'Inner and Outer Space: Reflections on Womanhood', *Daedalus*, 1964, No. 93, pp. 582—606.

109- Joseph Rheingold, *The Fear of Being a Woman* (New York, 1964).

البيولوجيا من إنجاب الأطفال أن يكونوا تعويضًا عن إهمال كل الأشكال الأخرى من التحقق والإنجاز. ولم تكن الغاية منه أن يكون عملية أنانية وتستهلك الوقت كما هو عليه. إن إحدى أعمق آفات مجتمعنا هي العطف الاستبدادي. تثمّن النسويّات أملًا متوهجًا بأن نتائج **ماسترز وجونسون**، القائلة بأن الرعشة المهبلية خرافة، قد هزمت الشبح الفرويدي إلى الأبد، وذلك بأن أثبتا أن الرعشات الجنسية الأنثوية تنشأ في البظر. ولكن قد يجادل بعض المنظّرين بأن جميع النساء اللواتي اختبرهن **ماسترز وجونسون** هنّ منتجات طفلية لتكييف غير صحيح، وأن تكون جميع الرعشات في حالتهن رعشات بظرية لا ينفي وجود الرعشة المهبلية، وامكانية وجودها، أو وجوب وجودها. وهذه النقاشات تصل جميعها إلى الحقيقة ذاتها: ذلك أن النظام الفرويدي يصف الوضع الراهن على أنه أمنية من أمنيات الطبقة الوسطى في القرن التاسع عشر. والحقائق ليست بذات صلة بما هو أساسًا نظام قِيَم. إذا كنا سنضع أقوى قيمنا في الواقع الخارجي، فنستطيع أن نرفض فرضيات التحليل النفسي الفرودي بوصفها ثقلًا إضافيًا يضاف إلى عملية الكبت الذاتي، ونعتمد، بدلًا من ذلك، على ملاحظتنا ونتائج تجاربنا مع بيئتنا. لا تبني الفرويدية بناء اعتباطيًا وحسب، بل إنها لا تصلح نمطًا للعيش. ولا نستطيع الحصول على جميع الأطفال الذين قد نحتاج إليهم حتى نحقق شرط الصحة العقلية كما فهمها **فرويد**، مهما كان مقدار ما نريده فعلًا. لو كان على النساء أن يبقين طوال الوقت عاريات الأقدام وحوامل، كما اقترح **مارك توين**، لوجب أن ينقص عددهن كثيرًا.

كانت هناك تصريحات أخرى من جانب آباء علم النفس حول دور النساء، بدءًا من رطانة **يونغ** إلى الأفكار عن حالة السواء الإنساني المشتقة من مراقبة القرود المتعايشة مثل الأزواج في الغابة. تبحث

أنثروبولوجية من مثل مارغريت ميد (Margaret Mead) عن توكيد لنظرياتها الأكاديمية عن الجنس في مراقبتها للجماعات البدائية، حتى أنها تدافع، على الرغم من راديكاليتها الظاهرية، عن مفهوم الأنوثة السلبية. ومازال موقفها هو موقف كرافت-إيبنغ (Krafft-Ebing)، الذي يؤمن بالمرأة التي:

> إذا تطورت عقليًا بشكل طبيعي، وإذا ما تربّت تربية صالحة، فستكون رغبتها الجنسية قليلة. وإذا لم يكن الأمر كذلك، فمن شأن العالم كله أن يصبح ماخورًا، ومن شأن الزواج والعائلة أن يصبحا مستحيلين. من المؤكد أن الرجل الذي يتجنب النساء، والمرأة التي تبحث عن الرجال، غير طبيعيين... مع أن المجال الجنسي يشغل في وعي النساء مجالًا أكبر بكثير مما يشغل لدى الرجال، وهو مستمر وليس متقطعًا[110].

لو كان فرويد حيًا لأخبره كيف يفسر ملاحظته الأخيرة على ضوء السابقة. لدى النساء رغبات جنسية، وإذا كانت وظيفة من وظائف تطور الصحة العقلية الطبيعية والتنشئة الجيدة أن تدمرها، فدعونا نجرب تطورًا عقليًا غير طبيعي وأن نرفض تنشئتنا. إذا كان الزواج

110- J. Krafft-Ebing, *Psychopathia Sexualis* (London, 1893), p. 13, *cf.* Margaret Mead (*op. cit.*), pp. 209—10:

تجد الأنثى، التي تعلمت عبر عملية طويلة من التربية في طفولتها أن تثمّن تشكيلة كبيرة من الجوائز وأن تخشى تشكيلة كبيرة من العقوبات، أن استقباليتها تخضع في الواقع لدرجة كبيرة من التغيّر، مع أن تلك الاستقبالية ربما لا تتمتع إلا بدرجة ضئيلة من الدورية. وحيث تتطلب الاستقبالية منها أقل بكثير مما تتطلب من الذكر - أن جعل جسدها أطرى وأكثر استرخاء فحسب، دون أي استعداد خاص ورغبة مؤكدة كتلك المطلوبة من الذكر - فإنها يمكن أن تتعلم كيف توائم مطاوعة بسيطة مع ألف اعتبار آخر للفوز بعشيق أو بزوج والاحتفاظ به، وكيف توازن بين مزاج اللحظة ومزاج الغد، وكيف توائم استقباليتها مع نمط العلاقة برمته. يبدو أن هناك قليلًا من الشك في أن الرجل الذي تعلم طرقًا ميكانيكية متعددة لإثارة خصوصيته الجنسية حتى يضاجع امرأة لا يرغب فيها في هذه اللحظة يمارس على طبيعته عنفًا أشد بكثير من عنف الأنثى التي لا تحتاج إلا إلى استقبال ذكر تمنحه موافقات عديدة أخرى ربما دون رغبة نشيطة.

والعائلة يعتمدان على خصاء النساء، فليتغيرا أو يختفيا. والبديل ليس ماخورًا، لأن المواخير تعتمد على الزواج والعائلة في وجودهما. إذا كان مقدرًا لنا أن ننجو من رتابة الخيال الجنسي والحاجة النهمة إلى الحب والاستحواذ في جميع صوره، فيجب علينا أن نستعيد طاقتنا الجنسية في وظيفتها الصحيحة. وعندها فقط ستكون النساء قادرات على الحب. ذلك أن إيروس الخالد محبوس الآن في شراك التكافل السادي ـ المازوشي، وإذا كنا سننقذه وننقذ العالم، فيجب علينا أن نكسر القيد. وفي النهاية، ما الذي كانت دوتش تصفه في تعابيرها البلاغية المتقدة سوى هذا؟

> يتمثّل الشكل السلبي من الاتحاد التكافلي في الاستسلام أو... المازوشية. الشخص المازوشي يهرب من شعور العزلة والانفصال الذي لا يطاق، وذلك بأن يجعل نفسه جزءًا جوهريًا من شخص آخر يوجهه، ويحميه؛ شخص هو حياته وأوكسجينه. قد تكون قوة الشخص الذي يستسلم له مبالغًا فيها، وقد يكون شخصًا أو إلهًا، هو كل شيء، وأنا لا شيء، إلّا بقدر ما أنا جزء منه. فأنا، بوصفي جزءًا، جزء من العظمة، من السلطة، من اليقين. ليس على الشخص المازوشي أن يتخذ قرارات، وليس عليه أن يقوم بأي مخاطرة؛ هو ليس وحيدًا، لكنه ليس مستقلًا؛ ليس كاملًا بذاته؛ لم يولد بالكامل بعد... الشخص الذي ينكر كماله، يجعل من نفسه أداة لشخص أو لشيء خارجه؛ ليس مضطرًا لأن يحل مشكلة العيش بنشاط منتج[111].

إن علم النفس، في تقديمه الدور المازوشي على أنه الدور المناسب للمرأة، يعزز التطفيل الذي استمر منذ ولادتها. وهكذا، لا تنبثق عذاباتها من فشلها في النمو لتصل إلى الأنوثة الناضجة، بل من كفاحها ضد ما يمنعها من العيش والعمل بقواها الخاصة. لقد مورس

111- Erich Fromm, *The Art of Loving* (London, 1969), p. 20.

عليها من لحظة ولادتها ضغط لتعود إلى الرحم، وقيّدت من ساعتها الأولى إلى مهد، واستمر تقييدها حتى آخر سترة مجانين فرضت عليها. هناك طريقة وحيدة للعودة إلى الرحم، ألا وهي الموت. الضغوط التي تقيّد أفراح المرأة ورغباتها بالأشواك هي الضغوط ذاتها التي ستدمر العالم. إذا كان نصف العالم سيبقى رهينة الإله موت، فلا بدّ أن يخسر إيروس المعركة ضد السلاح الشامل. ما سباق التسلح والحرب الباردة سوى استمرار لروح التنافس والعدوان المذكران في المجال اللاإنساني لمؤسسات تديرها الحواسب؟ إذا كانت النساء سيتوقفن عن إنتاج الرجال وقودًا للمحرقة الأخيرة، فلا بدّ أن ينقذن الرجال من ضلالات استقطابهم. قد يكون الصراع طويلًا وأكثر إيلامًا حتى من الاستسلام. سيكون صراعًا في الظلام، لأن أي معرفة نتبجح بامتلاكها، علمية كانت أم لا، لا تستطيع أن تصف الإمكانية البديلة. فهل يستحق الأمر العناء؟

المادة الخام

على الرغم من جميع النقاشات حول أثر التكييف في نمو المرأة، ربما يبقى هناك شك بأن النساء يعانين فعلًا من شيء من النقص العقلي الفطري بسبب جنسهن. إذا ما أخذنا في الحسبان تحيّز المراقبين المشاركين في الاختبار بحثًا عن ميول مشكوك فيها أو مفترضة، فقد لا يفاجئنا اكتشاف وجود اختلافات جنسية «مثبتة» في بنية العقل. لكن هناك حقيقة جديرة بالملاحظة وهي أنه ليس هناك أي إثبات على وجود مثل هذه الاختلافات. وقد استمر البحث المنهجي في جنس العقل لأكثر من خمسين سنة.

> وهكذا فقد عاينتُ أسرار النساء
> وجعلتهم يرون بأي فضول تصنع،
> وأريتهم أنهن مثلنا تمامًا،
> وإن كنا من جنسين مختلفين،
> أما هؤلاء الذين كانوا أكثر الباحثين صرامة،
> فقد وجدوا أنّ النساء لسن سوى رجالًا انقلب داخلهم خارجًا
> وأنّ الرجال، إذا ما نظروا بأعينهم هنا وهناك،
> فربما يكتشفون أنهم نساء داخلهن مقلوب نحو الخارج.
>
> «أعمال أرسطو في أربعة أجزاء» 1822

من المعروف أن الهرمونات الجنسية تدخل الدماغ، لكن لا يوجد برهان على وجود ارتباط بين هذه الحقيقة الفسيولوجية والقدرة العقلية أو السلوك، على الرغم من افتراض وجود ذلك الارتباط. وكان هناك اعتقاد بأن خفة وزن دماغ الأنثى نسبيًا تنم عن قوى عقلية أقل، مع العلم أن دماغ المرأة أثقل إذا ما أخذ نسبة إلى وزن الجسم الكلي. على أي حال، ليس لوزن الدماغ أي علاقة. كما اعترف أصحاب الفكرة بسرعة عندما وجدوا أن ذلك ليس في مصلحة الذكور. إذا كان الفصّان الجبهيان مقر الذكاء، فلا بدّ من الإشارة إلى أن المنطقة الجبهية من الدماغ أكثر تطورًا لدى النساء. وبالتالي نستطيع أن نهمل ذلك النوع من القياس الحسابي أيضًا. في الحقيقة، مازال فهم الدماغ منقوصًا جدًا، حتى أننا لا نعرف ما يكفي عن فسيولوجيته ووظيفته لنستنتج الحقائق عن أدائه.

وبدلًا من محاولة استنتاج السلوك من الفسيولوجيا، سيكون من الأجدى أن نبرهن على أنماط السلوك استنادًا إلى مراقبة السلوك ذاته. لكن هناك مشكلات مرتبطة بذلك أيضًا. إذ من المستحيل التحكم بالتجارب التي تجري على مواضيع تعاني من التكييف الشواشي (chaotic conditioning) المستمر للحياة العادية. ذلك أنه لا وجود للمواضيع غير المشروطة، وتلك المشروطة منها ليست مشروطة بانتظام. إذا كشفت تلك الاختبارات دونية فكرية لدى النساء، فيمكن أن نهملها، لكنها لا تكشف ذلك على أي حال.

في عام 1966، جمعت **إليانور ماكوبي** (Eleanor Maccoby) نتائج خمسين سنة من الاختبارات في كتابها **تطوّر الاختلافات بين الجنسين** (The Development of Sex Differences) تحت طيف شامل على نحو استثنائي من التقسيمات. وكانت النتائج المتعلقة بالقدرات الإدراكية مثيرة للاهتمام على نحو خاص. فاستنادًا إلى

جيسل (Gesell) وآخرون (1940) وتيرمان (1925) تتكلم البنات قبل الصبيان. وتشير جميع الدراسات الإضافية عن تطور النطق أن البنات يتقدمن أسرع من الصبيان على الرغم من أن الصبيان يكون أداؤهم أفضل في المواقف التي تتطلب مغامرة وقلة خجل، من مثل الحديث أمام الزملاء في الصف، ولاسيما في الفئات العمرية الأكبر سنًا. ويبدو أن لدى البنات طيفًا أوسع من المفردات، على الرغم من أن الفرق لا يبدو مهمًا جدًا. الفتيات أفضل في القواعد والتهجئة، على الرغم من أن اختبارات التفكير أعطت نتائج متنوعة. وأظهرت اختبارات القراءة النمط ذاته. لقد اختبرت جميع القدرات الإدراكية غير اللفظية كالحساب والتفكير الرياضي والإدراك المكاني والتفكير المجرد والتحليل والتركيب وسرعة الإدراك الحسي والمهارات اليدوية والميكانيكية والعلمية، ولم يظهر اختلاف ذو معنى بين الجنسين، باستثناء هذا البروز الطفيف المبكر للفتيات اللواتي قد يتمتعن بهذه الميزة لأسباب تتعلق بتطبيعهن الثقافي، إذ يقضين وقتًا أطول مع الكبار، ويمارسن أكثر عادات تتم في وضع الجلوس، مع مزيد من الطاعة والسذاجة. ومن بين اختبارات الذكاء الشاملة، لم يظهر أحد عشر اختبارًا أي فرق، وأظهرت ثلاثة اختبارات فروقًا لصالح النساء، وثلاثة أخرى كشفت عن فرق لصالح الرجال. إذا ما أخذنا في الحسبان الطبيعة غير النهائية للمقدرات المختبرة والطبيعة الاعتباطية لوضع الاختبار ذاته، فيجب أن نحجم عن افتراض أي شيء حول طبيعة الأنثى بناء على ذلك الدليل، باستثناء أن جنس العقل مازال بحاجة إلى إقامة الدليل عليه[112].

هناك خلط أساسي في حالات الاختبار بين الإبداع والحصول على

112- Eleanor Maccoby, *The Development of Sex Differences* (London, 1967), *passim*, especially the 'Classified Summary of Research in Sex Differences', (pp. 323—51).

علامات جيدة في المدرسة. وفي دراسات لويس تيرمان (Lewis Terman) عن العبقري، والتي جاءت حصيلة متابعة السيرة المهنية لمجموعة من الأطفال الموهوبين، هناك تشوش كبير جدًا نتيجة مفهومه المحدود عن العبقري. يثني تيرمان عاليًا على إحدى الفتيات، واسمها سارة، ويورد هذه القصيدة دليلًا على مواهبها الاستثنائية:

العذراء

قهر الخجل أو الفن زهوها،
تمشي الصبيّة، وهمسات قلبها
لا تشي بها سوى الوردة المراوغة على خدها.
وعبر وجودها كله يتدفق
إدراكٌ ببراءةٍ سعيدةٍ
وشبابٍ أحلى لأنه عابر.

توّاقةٌ للحياة، لكنها خائفةٌ من الإمساك بها
على طوفان الحياة الهائج العنيف، حكيمةٌ رغم أنها غير متعلمة،
مدركةٌ لكل ما صُممت كي تكونه،
تستمتع بقدرها، وتؤجّله[113].

لا يشع هذا الشعر الرديء الطنّان بأي بصيرة أصيلة. كما أن التقليد الذي كتب به قد مات بوضاعة منذ مائة سنة أو أكثر. كل ما تستطيع مقطوعة أدبية كهذه أن تعكسه هو براعة الشابة سارة في التقليد. ومع ذلك، يميّز المختبرون فعلًا بعض الميول التي قد تساعدنا في فهم ما يحدث للفتاة عندما يبزها منافسوها الذكور، فهي تترك المدرسة في النهاية قبل أن تحقق مستوى لا بأس به من الحرية، أو قبل الحصول على تأهيل وظيفي. وعلى الرغم من الخلط بين الاستقراء والتربية في

113- Lewis M. Terman, *Genetic Studies of Genius* (*op. cit.*), p. 294.

عقول المختبرين، فقد رصدوا نزعة تمضي بعيدًا في شرح ما يشوّش الفتيات في النهاية:

هناك بين الأطفال الأكثر اتكالًا وسلبيةً، من أي الجنسين كانوا، نزعة نحو الأداء الضعيف في تشكيلة من المهمات الفكرية، أمّا بين الأطفال المستقلين فلديهم نزعة نحو التفوّق...[114]

لا يفترض بالرجل أن يعتبر نفسه أكثر حكمة من المرأة، إذا كان مدينًا بتلك الميزة لما حصل عليه من تعليم أفضل، بأكثر مما يجب أن يعتبر نفسه شجاعًا لأنه ضرب رجلًا مقيّد اليدين.

ماري أستل، «مقالة في الدفاع عن الجنس المؤنث»

(Mary Astell, 'An Essay in Defence of the Female Sex', 1721, p.18).

يكون أداء الأطفال الذين «يرفضون قبول السلطة» جيدًا في تشكيلة من المهمات، كما هي الحال مع هؤلاء الذين يقاومون «ضغوط الامتثال».

كانت البنات اللواتي لم تحنُ عليهن أمهاتهن كثيرًا في سنوات ما قبل المدرسة أكثر نجاحًا أكاديميًا...

يبدو أن العامل الحاسم في تطور معيار الذكاء لدى الفتيات، بمقابل [الصبيان] هو الحرية النسبية من القيد الأمومي.. حرية أن يتجولن ويستكشفن[115].

يمكن لهذا التصريح أن يفسر فشل النساء في إنتاج أعمال عظيمة في الفن وغيره. بقدر ما تفرّ الفتاة الصغيرة من تكييفها، أو ترفضه،

114- Maccoby (*op. cit.*), p. 35.

115- *Ibid.*, pp. 36, 37.

يمكن أن تتفوق في تلك الأنواع من النشاط الفكري التي تسمى إبداعًا، لكنها في النهاية إما تذعن لتكييفها، أو تصبح صراعاتها ضاغطة جدًّا إلى حدّ تعيق معه كفاءتها. لا تعرف **ماكوبي** لماذا يجب أن يؤثر تطور الجنسانية على هذا النحو الضار في أداء الفتيات، مع أنها استشهدت قبل ذلك برأي **ماك كينون** (McKinnon) عن العلاقة بين الكبت والقدرات العقلية.

> للكبت، كما يرى **ماك كينون**، أثرٌ معمم في عمليات التفكير، يتعارض مع قدرة الفرد على النفاذ إلى تجربته السابقة. فالفرد الذي يستخدم الكبت آليةً دفاعيةً لا يستطيع أن يكون «طلقًا في فحص الأفكار»، إذا ما استخدمنا مصطلح **ماك كينون**. لدى **ماك كينون** دليل على أن الإبداع يترافق في الحقيقة مع غياب الكبت (كما أُشِير من خلال اختبارات تقييم الشخصية) ويشير **بارّون** (Barron) إلى أن الأصالة تترافق مع «الاستجابية للدافع والانفعال»[116].

> من بين كل ذاك الذي قيل، من الواضح أننا لا نستطيع أن نتحدث عن الدونية والفوقية، وإنما فقط عن اختلافات محددة في القابليات والشخصية بين الجنسين. وهذه الاختلافات هي، إلى درجة كبيرة، نتيجة العوامل الثقافية وغيرها من العوامل التجريبية... إن التداخل موجود في جميع الصفات النفسية حتى أننا يجب أن نفكر في الرجال والنساء بوصفهم أفرادًا، لا على أنهم قوالب نمطية جماعية.
>
> **آنّا أناستاسي**، «*علم النفس التفريقي*»
> (Anna Anastasi, 'Differential Psychology', 1958, pp.497–8).

116- *Ibid.*, p. 44.

بالتأكيد تمضي وجهة نظر ماك كينون أبعد قليلًا نحو شرح التلاشي التدريجي لآمال المرأة الشابة، عندما تتولى مسؤولية العمليات الكبتية التي لقنها إياها أهلها ورؤساؤها في الماضي، لتتابع العمل وفق نظام الكبت بالأصالة عن نفسها. لا يمكن إثبات أن المادة الخام التي بدأت الأنثى منها أقل شأنًا من المادة الخام التي تشكل منها العبقري الذكر، لكن يبدو، استنادًا إلى مشاهدتنا، أن الفتيات لا يستطعن إثبات تلك النقطة إلا بتمرد فكري مفتوح.

القوة النسائية

ليس لفشل الاختبارات المصممة خصيصًا لكشف وجود اختلافات جنسية معينة في القدرات الفكرية بين الذكور والإناث أي تأثير في هؤلاء الذين يشككون بملاءمة النساء لتحمّل مسؤوليات معينة والقيام بأعمال معينة. فهم يعتقدون أن الاختبارات تعبّر عن المختبرين وطريقة الاختبار أكثر مما تعبّر عن الذكر والأنثى. كان د. ليفيس (Leavis) يعتقد أنه يستطيع أن يعرف جنس الكاتبة من أسلوبها، مع أن كل ما تكتبه هو، من وجهة نظره، ليس سوى محاكاة لعمل ذكوري رفيع. وهكذا، لم تكن فرجينيا وولف، في نهاية المطاف، تشكو من شيء سوى أنها امرأة. وكان من الممكن القول إن الاختبارات قد صممت، على نحو خاص، في محاولة لمعادلة أثر التكييف الجنسي، في حين أن النساء الحقيقيات في العالم الحقيقي هن موضوع تكييف دائم. لا يمكن لأي تعديل في رأينا النظري عن قدرتهن الأساسية أن يبدل طبيعة إنجازهن. يشكو الرجال من أنهم لا يستطيعون أن يتدبروا أمر النساء، وأنه يجب تفادي الجدال مع النساء بأي ثمن، لأن الكلمة الأخيرة دائمًا لهن، وغالبًا بوسائل بشعة. يا للطريقة التي يتنهدون بها «مثل امرأة»، ويوافقون جميعًا.

> تميل النساء إلى جعل عواطفهن تؤدي الوظائف التي وُجدن للقيام بها، وهكذا يبقين عقليًا أصح من الرجال بكثير.
>
> **آشلي مونتاغيو، *«تفوّق النساء الطبيعي»***
>
> (Ashley Montagu, 'The Natural Superiority of Women', 1954, p.54).

ليس كشف الجنس في العقل امتيازًا خاصًا بأبرز النقاد الأدبيين من د. **ليفيس إلى نورمان ميلر** (Norman Mailer)[117]، بل يمتد إلى أدنى مستويات الأمية: تلميذ المدرسة الذي يتذمّر من «الفتيات الحقيرات». ولأن هناك إيمانًا عميقًا بالاختلاف، فإنه يعاش أيضًا. وهو، بوصفه اقتناعًا، يصبح دافعًا للسلوك وسببًا مستمرًا للظاهرة نفسها. وهو لن يوضع جانبًا بالوسائل العقلانية. ليس هناك بالطبع أي سبب يشرح لماذا يجب أن تقيّد النساء أنفسهن بالمنطق: فقد نقرر بعناد أن نستغل **نظرية العقل المبيضية**[118].

عُرض أحد أكمل التعبيرات عن نظرية الروح المؤنثة في كتاب **الجنس والطبع** (Sex and Character)، وهو كتاب قوي وملتزم على نحو لافت للنظر، كتبه شاب اسمه **أوتو فاينينغر** (Otto Weininger)، وقد انتحر بعد بضع سنوات من نشره. يمكن أن تؤخذ حياته الألمعية العُصابية دليلًا على ما يجب أن ينجزه ازدواج الهيئة في النهاية. لقد

117- See Mary Ellman, *Thinking About Women* (London, 1969), *passim*. Mailer explains his concept of the novel as the Great Bitch and how women cannot be said to get a piece of her in 'Some Children of the Goddess', *Cannibals and Christians* (London, 1969), p. 132.

118- The term is culled from Cynthia Ozick 'The Demise of the Dancing Dog', *Motive*, March—April 1969.

حكم فاينينغر على نفسه بالانحراف والذنب والموت المبكر وذلك من خلال تقسيم الطبيعة الإنسانية وبناء حدود بين النصفين. ذلك أنه بدأ باختزال النساء إلى أجسادهن وبالجنسانية غير الواعية وبالحيوانية السلبية بعد ذلك. وبوصفه ذكرًا عقلانيًا فقد أدان ذلك العنصر الحيواني. «لا يحتفظ أي رجل يفكر مليًا في النساء بتقدير عال لهن؛ فالرجال إما يحتقرون النساء وإما إنهم لم يفكروا جديًا فيهن قطّ»[119].

لقد فكّر فاينينغر، مثله في ذلك مثل فرويد الذي تجمعه به الكثير من الصفات المشتركة، بالنساء على أنهن مخصيات بالطبيعة؛ ولأنه كان يقدّر القضيب عاليًا جدًا، فقد ظن أن ذلك ينطبق على النساء أيضًا:

> يخلق جسدٌ أنثويّ عارٍ بالكامل في الحياة انطباعًا بشيءٍ ناقص، نقصان متنافر مع الجمال...[120]
>
> الخاصيّات التي تروق للمرأة هي علامات على جنسانية متقدمة؛ أمّا تلك التي تثير نفورها فهي المتصلة بمستوى عقلي عالٍ. المرأة جوهريًا تعبد القضيب...[121]

فكّر فاينينغر بازدواجية الجنسين من مختلف جوانبها، واكتشف، مفترضًا تلك القطبية، أن الرجال لا يمكن أن يكون لديهم تشارك حقيقي مع النساء، بل مجرد رياء متبادل معرض جدًا للشبهة. أجرت فاليري سولاناس التمرين ذاته على النساء، ووجدت أن الرجال يشتهون كل ما تمثله النساء، ويسعون إلى الإذلال والتخنث على أيديهن[122]. وقد ثأرت بإطلاق النار على آندي وورهول (Andy Warhol) في الصدر.

119- Otto Weininger, *Sex and Character* (London, 1906), p. 236.
120- *Ibid.*, p. 241.
121- *Ibid.*, p. 250.
122- Valerie Solanas, *S.C.U.M. Manifesto* (New York, 1968), p. 73.

أمّا فاينينغر فكان أصدق مع ذاته، فحاول الانتحار ونجح. وتمامًا، مثلما تحتقر سولاناس الرجال لأنهم يقدّمون أنفسهم على ذلك النحو ويخفقون في العيش وفق قالبهم، يحتقر فاينينغر النساء لأن صورتهن سلبية وبهيمية، ولأنهن حتى في ذلك غير أصيلات. يحدث ادعاؤهن نتيجة مقتضيات الوضع الجنسي الذي يحسنّ استغلاله، ومن هنا يأتي النفاق والكذب الذي يميز جميع أفعالهن. ولأن المرأة تعيش حياة بديلية (vicarious)، فإنها ليست بحاجة إلى تحمل أي مسؤولية أخلاقية عن سلوكها: ولأنها لا تتمتع بالمسؤولية، ليس لديها أخلاقية ولا أنا. ونتيجة نقص الأنا وتنوع الأدوار التي تتلاعب بها النساء، فليس لهن هوية، كما قد يخمن المرء من استعدادهن للتخلي عن أسمائهن. هكذا، ليست المرأة أصيلة في أي مرحلة من حياتها[123].

يمكن تبسيط الفكرة بالقول إن فاينينغر كان يصف ما يراه في السلوك الأنثوي حوله. ولم يتمكن من إدراك أن هذه التشوهات هي ما ستصرخ النساء يومًا ما ليتحررن منها. فهو في الحدود التي أتاحتها له رؤيته رأى أن النساء كن على ذلك النحو، لكنه لم يدرك ما الذي جاء أولًا: شرطهن أم طبعهن. فافترض أن هذا الأخير قد جاء أولًا، لأنه لم يستطع تفسير شرطهن بأي طريقة أخرى.

123- Weininger (*op. cit.*), p. 274.

لقد عبّر مراقبون كثيرون عن الزعم بأن الخداع صفة جنسية ثانوية من صفات العقل المؤنث، ومن ضمنهم نسويات من مثل ماري وولستونكراف التي رأته نتيجة أساسية لانحطاط المرأة، و:

B. L. Hutchins, *Conflicting Ideals: Two Sides of the Woman Question* (London, 1913), 'Girls have been brought up on intensely insincere ideals' (p. 30)

تتضمن المساواة السياسية والمدنية بين الجنسين المساواة الأخلاقية. وهذا يتضمن النتيجة المنطقية المروّعة بأن أخلاق النساء ستكون في المستقبل نفس أخلاق الرجل الفيكتوري المسيحي المحترم ـ في أحسن تقدير. وذلك، بالطبع، يعني السقوط التام للأخلاقية المسيحية.

روبرت بريفولت، «*الإثم والجنس*»
(Robert Briffault, 'Sin and Sex', 1931, p.132).

تتكرت جميع النواقص الأخلاقية التي رصدها فاينينغر في المجتمع الفيكتوري على هيئة فضائل. ويجب علينا أن نقر لفاينينغر بفضل وصفها وصفًا صحيحًا. لكن مفاهيمه عن الأنا والهوية والمنطق والأخلاق تشكّلت من مراقبة ذلك الوضع الراهن غير المرغوب ذاته، وربما تجد النساء اليوم أن ما يعرضه فاينينغر على أنه عيوب قد يكون في الحقيقة *حريّات* ربما يبذلن جهدهن لتعزيزها. وإليكم مثال على ذلك:

> التفكير والشعور لدى النساء متطابقان، أما لدى الرجال فهما متعارضان. وفي حين تتعامل المرأة مع كثير من تجاربها العقلية على أنها إدراكات حسية غير متمايزة، فإن هذه التجارب تخضع لدى الرجل لعملية توضيح[124].

124- Weininger (*op. cit.*), p. 100.

يتبنى علماء النفس، الذين يتناولون أمور الأنوثة، بثقة تلك الفرضيات التي تقول إن إدراك النساء مختلف عن إدراك الرجال، وأنهن ذاتيات أكثر من الرجال وما شابه، على الرغم من فشل الاختبارات في إثبات أي مسوغ لها. تسترسل دوتش في إطراء قيمة إدراك النساء الذاتي الحدسي بوصفه مكملًا للموضوعية الذكرية والعدوانية العقلية.

«كل إثبات نفي»[125]. ربما نجادل بأن التوضيح مكافئ للتزوير: إذا أردت أن تعرف ماذا حدث في موقف معيّن فالأفضل أن تسأل شخصًا رأى الأمر كله وتذكّر كل جوانبه، بدلًا من اللجوء إلى توضيح استقرائي تقديري. كم هو محزن للرجال أن يتعارض الشعور والتفكير لديهم! جادل إليوت بأن القرن السابع عشر قد شهد تفككًا في الإحساس، بحيث لم يعد الذكاء مؤشرًا مباشرًا على حدة الشعور، بل إنه قوضه[126]. ترى هل من المعقول أن تكون النساء قد نجون من العملية التي أوهنت بقية الثقافة الغربية التي يهيمن عليها الذكور؟ إذا كنا نستطيع أن نستنتج أي شيء من ذلك الاحتمال المغري، فينبغي أن نفكر في أن معظم النساء المتعلمات قد قُبلن ببساطة في الثقافة الأكاديمية المذكرة، وأنهن قد فقدن القدرة على تكوين إدراكات حسية غير متمايزة. واستنادًا إلى أنتونين أرتود (Antonin Artaud)، ربما تكون أنابيس نن (Anaïs Nin) قد نجت، وأكثر من ذلك:

لقد جئتُ بأشخاص كثيرين، رجالًا ونساءً، ليروا لوحات القماش المطرز الجميل، لكنها المرة الأولى التي رأيت فيها انفعالًا فنيًا يجعل إنسانًا يرتجف كما لو أنه يرتجف امام الحب. لقد ارتعشت أحاسيسك وأدركتُ أن العقل والجسد متصلان فيك على نحو هائل، لأن تلك الروحانية الصافية استطاعت أن تطلق العنان لتلك العاصفة الجبارة في كيانك الحي. لكن العقل، في ذلك الزواج الكوني، هو ما يحكم الجسد، ويسيطر عليه، ولا بدّ أن ينتهي مسيطرًا عليه بكل الطرق. أشعر أن لديك عالمًا من الأشياء التي تتوسّل أن تولد، إذا وجد ذلك العالم من يكتب له رقية[127].

125- Definitio est negatio.

126- T. S. Eliot, ‘The Metaphysical Poets’, *Selected Essays* (London, 1958), pp. 287—8.

127- Antonin Artaud, ‘Letters to Anaïs Nin’ translated by Mary Beach, *International Times*, No. 16. Letter of 14 or 15 June, 1933.

معظم هذا هراء. قد نتوقع من مخترع مسرح الوحشية أن يرى ظاهرة الأحاسيس الموحدة، وأن يخصص فقرة يحاول فيها أن يثبت هيمنة العقل إلى الدرجة التي تدل ضمنًا على أن تلك المرأة بحاجة إلى من يكتب لها رقية! ثنائية أرتود منعته من رؤية أن حافز الرسم حسي في المثال الأول. كل ما حدث هو أن **أناييس نن** استجابت بعقلها وجسدها لحافز محسوس ومفهوم. وكان الرسم واحدًا وكانت استجابتها موحدة بالمقدار ذاته.

إذا احتفظت النساء بتجاربهن في شكلها الأصلي غير المصنّف، فقد ينجون من التقييد الكبير لفكر معيّن، أشار إليه وايتهيد (A. N. Whitehead) في كتابه **مغامرات الأفكار** (Adventures of Ideas).

> في دراسة الأفكار، من الضروري أن ينبعث الإصرار على الوضوح الواقعي من شعور عاطفي، كما لو كان ضبابًا يحجب تعقيدات الحقيقة. والإصرار على الوضوح، بأي ثمن كان، يقوم على خرافة محضة تمامًا مثل الصيغة التي يعمل بها الذكاء الإنساني. ذلك أن محاكماتنا العقلية تتمسك بالقش متوهمة أنه مقدمات منطقية، وتطفو على لعاب الشمس (gossamer) متوهمة أنه استنتاجات[128].

من السهل، عند مستوى مبتذل، البرهان على هذا الفرق في تفكير الذكر والأنثى: ليس علينا سوى أن نفكر في أب يسخر من **الأم** لأنها تحتفظ بالملح في علبة مكتوب عليها نشاء، أو بالحدس الأنثوي الشهير

128- This quotation appears in Marshall McLuhan, *The Medium is the Massage* (London, 1967) ascribed to A. N. Whitehead, and a book called *Adventures of Ideas*. I cannot recall seeing it in *Adventures of Ideas* but it does catch the drift of much that Whitehead did say, e.g. 'The Anatomy of Some Scientific Ideas' in *The Organization of Thought* (London, 1917), pp. 134—90 *passim*, or *Science and the Modern World* (Cambridge, 1927) Cap. v, 'The Romantic Reaction' (pp. 93—118) *passim*, or indeed *Adventures of Ideas* (Cambridge, 1933), pp. 150—51, 173, 184—5.

الذي ليس، في نهاية المطاف، سوى مقدرة على مراقبة الجوانب الصغيرة التافهة من السلوك وصوغ خلاصة تجريبية لا يمكن فحصها قياسيًا. أما الآن، حيث لا يُنشر قسم كبير من المعلومات بشكل جدالي على ورق مطبوع، وإنما يُستوعب بطرق غير لفظية متنوعة مثل الوسائل البصرية والسمعية، فينظر إلى التوضيح وفضائل المناقشة بمزيد ومزيد من الوضوح على أنها ببساطة طرق بديلة للمعرفة لا على أنها الوحيدة أو حتى الرئيسية. فسيطرة الحواسب على الكثير من التفكير العمودي شدّدت بقوة على الميول الإبداعية في التفكير الإنساني. كما تحمل الزيادة المفاجئة في الشغف السياسي في العقد الأخير، ولاسيما في وسط الجيل الذي تلقى معظم تعليمه بهذا الشكل غير المتمايز، شاهدًا على إعادة توحيد التفكير والشعور، وهي عملية تجري على نطاق واسع. وفي هذه الظروف، قد تصبح أي فرادة من هذا القبيل في العقل الأنثوي نقطة قوة.

لسوء الحظ، تحمل حججي جميع النواقص التي تحملها نظرة قاصرة إلى المنطق، ولا تحمل أيًا من نقاط قوته، وهذا في نهاية المطاف جزاء التعليم الديكارتي، الذي يعتبر الكثير منه امتيازًا. ها أنذا هنا، زنجية لا تستطيع أن تمارس رقصة ليندي هوب أو أن تغنّي البلوز! في هذه الأيام، التعليم نفسه يتغيّر كي لا يتناقص التفكير الإبداعي مع غرس القواعد العقلية في الذهن، وهذه القواعد لا تدرَّس الآن بوصفها غاية بحد ذاتها، بل بوصفها وسائل لغايات أخرى. ولسوء الحظ، تبدو نتيجة التغيُّر الرئيسية حتى الآن هي نفور الأطفال من دراسة العلوم، لكن العلم نفسه في النهاية سيصبح دراسة كاملة.

ومع ذلك لدى فاينينغر اتهامات أكثر جدية:

لا تستطيع المرأة أن تستوعب أن المرء يجب أن يتصرف استنادًا

إلى مبدأ؛ ولأنها لا تملك حسًا بالاستمرارية، فإنها لا تختبر ضرورة السند المنطقي لعملياتها العقلية... يمكن النظر إليها على أنها «مجنونة منطقيًا»[129].

صحيح أن النساء غالبًا ما يرفضن النقاش منطقيًا. فهنّ، في حالات عديدة، لا يعرفن ببساطة كيف يفعلن ذلك، وقد يبهرهن الرجال بقليل من السفسطة الطنانة. وفي حالات أخرى، يُفزَعن ويُقلَقن قبل أن تبدأ العقلنة. لكنه صحيح أيضًا أن المنطق ليس في معظم المواقف سوى عقلنة هدف غير منطقي. تعرف النساء ذلك؛ حتى أفضلهن تعليمًا يعرفن أن النقاشات مع وسطهن من الرجال هي سياسة واقعية متخفية. والنقاش ليس صراعًا عقليًا يفوز فيه من هو على حق، بل صراع إرادات. وليست قواعد الخطاب المنطقي أكثر صلة هنا من صلة قواعد ماركيز كوينزبري (Marquess of Queensberry)[130] بشجار في حانة. يرفض العناد الأنثوي الفكرة المذكرة المضللة القائلة بأن الرجال حيوانات عاقلة. ذلك أن المنطق الذكري لا يستطيع أن يتعامل إلا مع المسائل البسيطة، في حين أن النساء أكثر إدراكًا للتعقيد لأنهن سلبيات ومحكوم عليهن بالمراقبة وردة الفعل بدلًا من المبادرة. لقد أجبر الرجال على قمع قدرتهم على التقبل لمصلحة الهيمنة. إحدى المزايا الممكنة لتطفيل النساء هي أنهن قد يصبحن في نهاية المطاف، حسب تعبير لاوتسي (Lao-Tse)، «قناة تسحب العالم كله نحوها» حتى أنهن «لن ينقطعن عن الفضيلة الأبدية» و«يمكن أن يرجعن مرة أخرى إلى حالة الطفولة»[131]. لو أن حالة النساء كانت طفولة حقًا، وليس ما

129- Weininger (*op. cit.*), p. 149.

130- قواعد أو قوانين لعبة الملاكمة التي وضعها ماركيز كوينزبري وصارت تنسب إليه. [المترجم]

131- J. Needham, *Science and Civilisation in China* (Cambridge, 1954), Vol. II, p. 58.

اختزلنا الطفولة نفسها إليه، فلربما كانت إمكانيات جديدة أقرب إلى التحقق مما تبدو. وعندما وصف شوبنهاور (Schopenhauer) حالة النساء بأنها *طفولة أخلاقية*، لم يكن يعكس موقفه المتحيز ضد النساء وحسب، بل وضد الأطفال أيضًا. ذلك أن فشل النساء في التعامل مع المنطق بجدية له عواقب جدية على أخلاقهن. ويأتي فرويد ليضيف بريقًا إلى نص فاينينغر:

> على الرغم من أنني أتردد في التعبير عن هذه الفكرة فإنني لا أستطيع أن أمتنع عن التفكير في أن مستوى ما يعتبر طبيعيًا بالمعنى الأخلاقي لدى النساء يختلف عما هو كذلك للرجال. فأناهن العليا ليست صلبة وموضوعية ومستقلة عن أصولها العاطفية على النحو الذي نطلب أن تكون عليه لدى الرجال. لا بدّ من أخذ المزايا الطبيعية التي طرحها النقاد في كل عصر ضد النساء ـ والمتمثلة في أن حسّهن بالعدالة أدنى من حس الرجال، وأنهن أقل استعدادًا للاستسلام لمقتضيات الحياة العظيمة، وأنهن غالبًا ما يتأثرن في محاكماتهن بما ينتابهن من مشاعر التعلق أو العداء ـ في الحسبان على نحو واسع في تعديل تشكيل أناهن العليا... لا ينبغي أن نسمح لأنفسنا بأن تزيغ عن تلك النتائج تحت تأثير إنكار النسويّات المتلهفات لإجبارنا على النظر إلى الجنسين على أنهما متساويان تمامًا في المكانة والجدارة[132].

إن الطبيعة غير المنطقية لهذا الكلام مخيفة حقًا. فبعد كل شيء، هل الجنسان متساويان في المكانة والجدارة أم لا؟ وهذا يطرح سؤال: ما المكانة؟ وما الجدارة؟ يعد فرويد بأن يشرح النواقص التي لا دليل عليها في طبيعة الأنثى عن طريق تعديل لا دليل عليه في كيان لا دليل عليه، ألا وهو الأنا العليا: إذا كانت الفسيولوجيا هي القدر،

132- S. Freud, *Some Psychic Consequences of the Anatomical Distinction Between the Sexes*, Complete Works, Vol. xix, pp. 257—8.

فإن فرويد متلهف لاختراع فسيولوجيا العقل. لو أن المحاكمة لم تكن منفصلة عن الشعور انفصالًا غير طبيعي لدى الضباط النازيين، لكان من المحتمل ألا ينفذوا الأوامر الصادرة إليهم بتلك الدقة. أي نوع من النقد هو أن تقول إن النساء أقل رصانة من الرجال؟ تبدو الرصانة، بعد حربين عالميتين، وكأنها قد عاشت أكثر من قيمتها. إذا كانت «العدالة» الذكرية قد أنكرت على النساء المسؤولية الأخلاقية ولقبتهن بالملائكة، بينما كنّ يعاملن باحتقار، فمن المرجح أنهن قد صغن نتائجهن الخاصة حول الأنا العليا الرهيبة وأخلاقية الرجال الخادعة. لقد وضعت أوروبا البروتستانتية لنفسها أخلاقًا في الاستقامة لا يمكن بلوغها متحدية بذلك الرحمة السماوية، فناء الضمير تحت ثقل المسؤولية الكاملة التي لا تنتهي عن جميع الأفعال دون أن يلقى أي مساعدة، على الرغم من تحيز المعرفة وعجز الإرادة اللذين يميزان الفعل الإنساني. رأى فرويد نتائج هذا الوضع في مجتمعه، لكنه لم يستطع أن يفترض بديلًا عن الشعور بالذنب والعُصاب. إن الدعامة الرئيسية لدين من هذا النوع هي قدرة الأنا على الاستمرار في الكبت. ربما لا تكون النساء قادرات على الاستمرار في التفرج على العضوية الحية وهي تدور في حلقة عقاب الذات، لكن هذه قد تكون ميزة أيضًا وتتضمن وهمًا أقل من نقيضها.

> إن الشعور بالهوية في جميع الظروف ناقص تمامًا لدى المرأة الحقيقية، لأن ذاكرتها، حتى ولو كانت جيدة على نحو استثنائي، خالية من الاستمرارية... فالنساء، إذا ما نظرن خلفًا إلى حياتهن المبكرة، لا يفهمن أنفسهن على الإطلاق[133].

133- Weininger (*op. cit.*), p. 146.

لقد استخلص زميلي ناثان ليتس (Nathan Leites)، وهو يحمل درجة الدكتوراه، بعد مراجعة الأدبيات، أن مصطلح «هوية» لا يستخدم إلا قليلًا بما يتجاوز كونه فستانًا مزخرفًا يختفي فيه الغموض والالتباس والحشو وقلة البيانات السريرية وفقر الشرح.

روبرت ستوللر، *الجنس والجندر*

(Robert Stoller, 'Sex and Gender', 1968, p.x).

استنادًا إلى الدليل الذي يقدمه فاينينغر، الأنا شيء مصطنع، تتألف من ذاكرة النفس التي توجد في أي وقت. وهو يلاحظ برعب أنك إذا سألت امرأة عن نفسها، فإنها تفهم السؤال على أنه عن جسمها. هي لا تبحث عن تعريف نفسها بتأكيد الصورة التي تستحقها، سلوكها. لدى الرجل فكرة مؤقتة عن هويته، وهي قابلة للتزييف، أمّا لدى المرأة فهي هوية مكانية. «ها أنت ذا هنا» قالت الخادمة البيضاء **يوكو أونو**، وقدمت الهدايا في معرضها. يبدو ذلك مهمًا في نهاية المطاف. إذ ربما تحتفظ المرأة، كما الطفل، بشيء من القوة للاتصال بحرية مع العالم الخارجي. يبدو أن فاينينغر قد فكّر على هذا النحو: «ليس للأنثى الكاملة أنا»[134].

> الفعل الأساسي للأنا الإنسانية فعل سلبي- حتى لا تقبل الواقع، وتحديدًا انفصال جسد الطفل عن جسم الأم... يبرز هذا الموقف السلبي إلى الوجود على هيئة إنكار للذات (كبت) وإنكار للبيئة (عدوان)[135].

أي تفتح هذا! إذا لم يكن للنساء أنا، إذا لم يكن لديهن حس

134- *Ibid.*, p. 186.

135- Norman O. Brown, *Life Against Death* (*op. cit.*), p. 145.

بالانفصال عن بقية العالم، ولا كبت ولا عدوان، فكم سيكون ذلك جميلًا! ما حاجتنا إلى العدالة إذا كان الجميع لا يشعرون بالعدوان، بل بحنان مطلق! أنا بالتأكيد أستفيد من أساتذة علم النفس، أنحني وأنتقي كلماتهم على هذا النحو، ولكن لأجل ماذا يمكن أن تستخدم كلماتهم غير ذلك؟ لا نستطيع أن نسمح لهم أن يحددوا لنا ما يجب أن يكون، وإلا فسيكون التغيير مستحيلًا. تطلّع وايتهيد ونيدهام إلى نوع جديد من المعرفة من شأنه أن يصحح جنون العقل المحض، «علمٌ يقوم على إحساس شهواني بالواقع، لا على موقف مهيمن وعدواني من الواقع»[136]. لو لم تكن الحكمة متضاربة مع انخفاض الإحساس بالأنا، لبدا الإحسان في تعاريفه الغامضة معتمدًا على مثل ذلك التآكل في الانفصالية: أكبر خرافات المسيحية هي تلك المتعلقة بالجسد الغامض.

> الشفاء هو أن تجعل المرء معافى، كما عندما يكون سليمًا تمامًا؛ أن تصنع المرء مرة أخرى؛ أن توحّده أو تعيد توحيده؛ هذا هو إيروس في حالة الفعل. إيروس هو الغريزة التي تقود إلى الاتحاد أو التوحيد، وثاناتوس (Thanatos)، غريزة الموت، هو الغريزة التي تقود نحو الانفصال والتقسيم[137].

إن اشمئزاز فايننغر من إيروس وإخلاصه لثاناتوس يقودانه إلى التعبير عن شمولية النساء بمزيد من الكمال. وإذا ما صدّقناه فقد نظن أننا قد أُنقذنا أصلًا:

> هذا الإحساس بالتواصل مع بقية الجنس البشري هو خاصية جنسية بالأنثى، ويعبّر عن نفسه بالرغبة في اللمس، وفي أن تكون على احتكاك

136- *Ibid.*, p. 276.
137- Norman O. Brown, *Love's Body* (New York, 1966), p. 80.

مع الموضوع الذي يثير شفقتها؛ فالأسلوب الذي تعبّر به عن رقّتها هو نوع من الإحساس الحيواني بالاحتكاك. وهو يبين غياب الخط الدقيق الذي يفصل شخصية حقيقية عن أخرى[138].

انتهى الأمر بالمسكين فايننفر منتحرًا بتقطيع شرايينه في فعل أخير من أفعال الإخلاص للموت. إن لاأخلاقية النزعة الفردية واضحة في عصر باتت العزلة فيه أسوأ داء يتهدد مدننا المزدحمة. لقد شوهت مدننا نتيجة تقسيم العائلات إلى شظايا صغيرة تعيش في مساكن مستقلة بذاتها، وخلقت عددًا لا يحصى من مشكلات التداول والتعايش. ويواجَه هذا الحس بالانعزال عبثًا بالضغط من أجل امتثال دون تماثل. ويعتبر السير في الشارع خطرًا في معظم المدن الكبيرة في العالم. ولا يجد شعور المرأة الواسع تجاه الجنس البشري فرصة للتعبير عن ذاته؛ وإنما يحوَّل، كما لو بفعل السحر، وعلى نحو خيالي، إلى أعمال خيرية منظمة، تختزل فيها قدرتها على إثارة المشاعر وتخفيف الألم إلى تكلف رمزي. مازال اشمئزاز فايننفر من الاحتكاك الحيواني يعتبر موقفًا عامًا بين الأعراق الشمالية. وعلى الرغم من أن الرجل الإنكليزي العادي محشور مع أخيه في نفق المترو، فهو يزعم يائسًا أنه وحيد. أمّا التحليل النفسي، وهو أكثر أشكال الاحتكاك الحميمية فحشًا، فلا يحظى بأي احتكاك جسدي. وأخيرًا، أخذت تتشكّل صفوف خاصة في قاعات الكنائس في الضواحي التي تتظاهر بالفن حتى يستطيع الرجال والنساء أن يستعيدوا حسهم بإعادة تأكيد ذاتهم عن طريق اللمس. تأخر الأمر كثيرًا على فايننفر.

138- Weininger (*op. cit.*), p. 198.

> أيكون الانقسام بين الذاتي والموضوعي قد جرى على نحو رديء؟ أيكون متعذّرًا الدفاع عن التعارض بين عالم العلم ـ الذي يقع بالكامل خارج النفس ـ وعالم الشعور ـ المحدّد بالحضور الكلي للنفس من أجل النفس؟ وإذا أخفق التحليل الواقعي، فهل ستجد البيولوجيا منهجها في تحليل مثالي للنمط الرياضي ـ النفسي (psychomathematical)، في التفكير الاسبينوزي؟ أو ألا يمكن أن تكون القيمة والمعنى محددات جوهرية للكائن الحي الذي لا يمكن إلّا لنمط جديد من «الفهم» أن ينفذ إليه؟
>
> **موريس ميرلو-بونتي، *بنية السلوك»***
> (Maurice Merleau-Ponty, 'The Structure of Behaviour', p. 10).

لقد جاء الضغط الفكري من أجل جعل العالم برمته كاملًا مرة أخرى من صوفيين مثل لاو-تسي (Lao-Tse) وعلماء مثل وايتهيد ونيدهام وميرلو-بونتي، ومن تأملات ألمعية من نورمان براون وهيربرت ماركوز وبورخيس (Borges). لم تكن كلماتهم موجهة خصوصًا إلى النساء، لأنهم جميعًا شعروا أن قطبية الجنسين هي غربة الإنسان الأساسية عن نفسه، ولكن ما كان لأحد منهم أن يرفض فكرة أن تشجع كلماته النساء على القيام بعمل لإنقاذ الجنس البشري. ربما كانت معالجتي لمناظراتهم المعقدة جدًا قاسية، لكن الانحناء للسلطة لم ينجز قط الكثير في طريقة تغيير الأشياء. يجب على المرء، في اختراع ميثولوجيا جديدة أن يسرق كل المصادر، تاركًا الموضع الذي تسقط فيه الأفكار يعمل بوصفه البوتقة التي تنصهر فيها تلك الأفكار. معظم العيوب التي يشير إليها نقّاد النساء هي ببساطة نتائج حجبهن

عن أبرع أنماط التطبيع الثقافي وأنجعها، والتي أغدق بها مجتمعهن على قادته الذكور. إن نقاط قوتهم ناجمة عن جهل مطبق.

> ليس من الضروري أن تكون الأفكار المسيطرة واضحة دائمًا لهم تمامًا حتى تمارس نفوذًا منظّمًا وقويًا على الطريقة التي يفكر بها شخص ما ويقارب مشكلة ما. الأفكار القديمة والملائمة مثل المدن القديمة والملائمة، تميل إلى استقطاب كل شيء حولها. يقوم كل التنظيم عليها، وتشير كل الأشياء إليها. يمكن أن تجري تعديلات طفيفة على الأطراف، ولكن من المستحيل تغيير كامل البنية تغييرًا جذريًا، ومن الصعب جدًا تحويل مركز التنظيم إلى مكان آخر[139].

في مواجهة هذه المشكلة، ابتكر إدوارد دو بونو (Edward de Bono) مجموعة من التمارين لتطوير القدرة التي أسماها التفكير الجانبي (Lateral thinking). والتفكير الجانبي هو النوع الذي ينتج أفكارًا واختراعات، لا حلولًا يمكن إثباتها لمشكلات معينة. إنه ذلك النوع من حل المشكلات الذي ليس من شأنه أن يعود عليك بعلامات جيدة في الامتحان من أجل الطريقة التي اتبعتها، ولكنه برغم ذلك صحيح. كما لا يمكن نسخه بواسطة الحاسب الذي ليس عليه أن يتعلم سوى ما يقدم له وطريقة معالجته. في الحقيقة، التفكير الجانبي هو نظيرٌ أحادي البعد لأساليب الطفل في التفكير. وهكذا، يمكن للمرأة أن تزعم أنها تحتفظ بشيء من قدرات الطفل، على الرغم من أنها محدودة جدًا ومعطّلة، ببساطة لأنها لم تتلق التشجيع لتعلّم طرائق التفكير وتطوير عقل منظم. طالما بقي التعليم استقرائيًا، فسيحتفظ الجهل بتلك المزايا على التعلّم، وقد آن الأوان لتضع النساء تلك القدرات موضع الفعل.

139- Edward de Bono, *The Uses of Lateral Thinking* (London, 1967), p. 31, *cf.* A. N. Whitehead, *An Introduction to Mathematics* (London, 1911), p. 138 and William James, *Some Problems in Philosophy*, Cap. X.

يمكن شرح النقد السائد للروح الأنثوية شرحًا جيدًا من خلال المعركة التي يخوضها الذكور لكبت قدرات معينة في وظائفهم العقلية. كانت لدى النساء وفرة من تلك القدرات التي جاهد الرجال المتمدنون لكبحها في ذاتهم، تمامًا مثلما هو الحال مع الأطفال والهمج. وقيمة هذا النقد تكمن في الدرجة التي يكشف بها عن الصرامة التي ترسم بها الشخصية المثالية، وهذا يعني أنّ النقد الذكري للعقل الأنثوي لا يكشف إلا عن الذكر نفسه. أعاق الرجال في ثقافتنا أنفسهم بأن وضعوا نموذجًا مستحيلًا للكمال، أما النساء فلم يحظين بالفرصة ليخدعن أنفسهن بهذه الطريقة. لقد اتُهمت النساء بالمراوغة والنفاق منذ فجر الحضارة، وبالتالي لم يتمكن قط من التظاهر بأن أقنعتهن هي أي شيء سوى أقنعة. هذه حالة محدودة، لكنها قد تعني أن النساء كن دائمًا أقرب إلى الواقع من الرجال، وهكذا ربما يبدو ذلك تعويضًا عادلًا عن تجريدهن من المثالية.

لأن الدمعة شيء عقلي
والشهقة سيفُ ملكٍ ملاك
والأنينَ المرَّ لبلاء شهيد
سهمٌ من قوس الله الواحد الأحد.

وليم بليك، *القدس*

إذا فهمت النساء التحرير على أنه تبنّي الدور الذكري، فنحن ضائعات حقًا. وإذا كانت النساء لا يستطعن تأمين قوة توازن عمى الدافع الذكري، فسيسير المجتمع العدواني إلى نهاياته المجنونة بسرعة متزايدة باطراد. من سيحرس الملَكات الحيوانية المحتقرة المتمثلة بالحنو والتقمّص العاطفي والبراءة والشهوانية؟ ما الذي سيحمينا من مصير فاينغر؟ تبنّت معظم النساء اللواتي وصلن إلى

مواقع السلطة في عالم الرجل طرائق ذكورية غير متناقضة مع قناع الأنوثة الذي يضعنه. ومازلن يستغللن العلاقة السادية ـ المازوشية بين الجنسين، التي «ليس لنا فيها سوى الخيار بين أن نكون مطرقة أو سنداناً»[140]. ارتدت واندا (Wanda) ملابس أنثوية لتضيف حدة إلى تعذيبها لغريغور (Gregor)، تماماً مثلما حرصت السيدة كاسل (Mrs Castle)[141] على أن تبدو جذابة وهي تمضي لتوبّخ العمال بقسوة وكأنهم عنصر إجرامي وغير مسؤول في المجتمع. الأمر عائد للنساء في أن يطوّرن شكلًا من سلطة النساء الأصيلة التي لا يستطيع المدير كلي القدرة في سرواله الواسع القصير المكسر أن يسود في مواجهتها.

هناك الكثير ما يدعونا إلى الافتراض أنه عندما يكتسب البشر قوى الاهتمام الواعي والتفكير العقلاني، فإنهم يصبحون مفتونين بهذه الأدوات الجديدة إلى حد ينسون معه كل ما عداها، مثل دجاجات منومة مغناطيسيًا ومناقيرها متجهة إلى خط طباشيري. تصبح حساسيتنا متطابقة مع تلك الوظائف الجزئية حتى نفقد القدرة على الشعور بالطبيعة من الداخل، وأكثر من ذلك، الشعور بوحدة أنفسنا التامة مع العالم. تقع فلسفتنا في الفعل في الخيار بين الطوعية والحتمية، لأن ليس لدينا أي حس بكليّة الرباط اللانهائي وبهوية أفعاله وأفعالنا.

أ. إي. واطس، *الطبيعة والرجل والمرأة*،
(A. E. Watts, 'Nature, Man and Woman', 1958, p.12).

140- Leopold Von Sacher-Masoch, *Venus in Furs* (London, 1969), p. 160.

141- باربرا كاسل (1910-2002)، سياسية بريطانية، كانت عضوًا في حزب العمال البريطاني، وعضوًا في مجلس العموم، شغلت مناصب حكومية متعددة. وفي فترة الإضراب الذي تذكره المؤلفة كانت تشغل منصب وزيرة العمل. [المترجم]

سلطة المرأة تعني حق النساء في تقرير مصيرهن، وذلك يعني أنه يجب إلقاء كل أمتعة المجتمع الأبوي جانبًا. يجب أن يكون لدى المرأة مجال لتبتكر أخلاقًا لا تجردها من التفوق، وسيكولوجيا لا تحكم عليها بالإعاقة الروحية. قد تكون عقوبات تقصير كهذا مريعة لأنها يجب أن تستكشف في الظلام دون دليل. من المحتمل أن تبدو في البداية وكأنها تستبدل نمطًا من المعاناة بآخر، عُصابًا بآخر. لكن يحق لها في النهاية أن تزعم أنها قد قامت بخيار محدد هو الشرط المسبق للفعل الأخلاقي. ربما لا ترى هي ذاتها الهدف النهائي يتحقّق، لأن نسيج المجتمع لا ينحلّ في عمر واحد، لكن يحق لها أن تعبّر عن قناعتها به وتجد الأمل فيه.

> ربما يتمثّل التجديد العظيم للعالم في أن يبحث الرجل والمرأة، وقد تحرّرا من جميع المشاعر الزائفة والكره، أحدهما عن الآخر، لا بوصفهما ضدّين، بل بوصفهما أخًا وأختًا، أو بوصفهما جارين، ويتلاقيان بوصفهما كائنين إنسانيين[142].

142- Rainer Maria Rilke, *Letters to a Young Poet* (Edinburgh, 1945), p. 23.

العمل

تشكّل النساء ثمانية وثلاثين في المائة من قوة العمل في بريطانيا، وهذا يعني أن نصف النساء اللواتي تتراوح أعمارهن بين السادسة عشرة والرابعة والستين يعملن خارج بيوتهن[143]. ومتوسط أجر النساء في الأعمال الحكومية والفنية والمكتبية أقل من اثني عشر جنيهًا أسبوعيًا؛ في حين يكسب الرجال العاملون في الأعمال ذاتها أجرًا يبلغ متوسطه ثمانية وعشرين جنيهًا أسبوعيًا. أمّا متوسط أجر العامل اليدوي فهو عشرون جنيهًا أسبوعيًا في حين أن متوسط أجر العاملة اليدوية عشرة جنيهات أسبوعيًا. لكن، ليس من شأن مبدأ «الأجر المتساوي مقابل العمل المتساوي» أن يحدث فرقًا كبيرًا في هذه الأرقام بالقدر الذي ترجوه النساء. ذلك أن تشغيل المرأة يأخذ شكلًا مماثلًا للدور الذي تلعبه خارج ميدان العمل: فهي، على نحو شبه دائم، تعمل في أعمال ثانوية، خادمة في الأعمال الأهم التي يقوم بها الرجال. من بين مليونين ونصف المليون من النساء العاملات في الصناعة التحويلية في عام 1967، صنفت وزارة العمل 750 ألفًا على أنهن نصف ماهرات، كما كان 700 ألف منهن يعملن في أعمال حكومية وفنية ومكتبية، ويمكننا

143- ما لم ينص على غير ذلك، فإن الإحصاءات الواردة في هذا الفصل مأخوذة من *المجموعة الاحصائية السنوية*، العدد 105 لعام 1985.

القول بثقة إن معظمهن قد وُظفن في الفئة الأخيرة. لكن العدد الأكبر من الرجال العاملين في الصناعة التحويلية هم عمال مهرة، أو تحت التدريب ليصبحوا كذلك. لا يفوق عدد النساء الماهرات عدد الرجال إلا في ثلاث مهن، هي صناعة الألبسة والأحذية والخزف. ومن بين الملايين التسعة من النساء العاملات في هذا البلد، هناك 2 في المائة فقط في وظائف حكومية و5 في المائة فقط في مهن حرة. وهناك مليونا امرأة فقط عضوات في نقابات العمال. ومن جانب آخر، يبلغ عدد الفتيات اللواتي يتركن المدرسة في عمر الخامسة عشرة ثلاثة أضعاف عدد الفتيان، أما عدد الفتيات في المستوى (A) بين الطلاب فلا يبلغ سوى الثلث، ولا يبلغ إلا الربع بين طلاب الجامعة. وثلاثة أرباع الفتيات اللواتي يبلغن من العمر ثمانية عشر عامًا في مجتمعنا لا يتلقين تأهيلًا أو تعليمًا عاليًا على الإطلاق[144]. والنمط الذي ينشأ عن ذلك هو قوة عمل نسائية خاملة ضئيلة القيمة، ذات عمالة مؤقتة وطيّعة، لكن لا يمكن الاعتماد عليها. أكثر من نصف النساء العاملات في هذا البلد متزوجات، والافتراض الذي يستنتج من ذلك هو أن العائلة هي دافعهن الأساسي للعمل، فالعمل خارج البيت يعود على الأسرة بشيء من الدخل الإضافي من أجل منافع إضافية، على اعتبار أن ليس لديهن أي طموح آخر. والافتراضات عمومًا صحيحةٌ، لكنها مجحفة بحق فرص النصف الآخر، أي النساء اللواتي عليهن أن يُعلِن أنفسهن. حتى حين تقوم النساء بالعمل ذاته الذي يقوم به الرجال، فإن أجرهن أقل بنسبة تتراوح بين 2 في المائة و5 في المائة، لكن تصحيح هذا التفاوت لن يفعل سوى القليل لتخفيف معاناة أغلبية العاملات.

144- *Higher Education, Evidence—Part One, Volume E: 'Written and Oral Evidence received by the Committee appointed by the P.M. under the Chairmanship of Lord Robbins* (London, 1963), pp. 1552—3.

تصادف عام 1969 مع الذكرى السنوية الخمسين لفوز النساء بحق الاقتراع في بريطانيا، ولذلك، ربما، ضج المؤتمر السنوي لمجلس نقابات العمال بخطابات المندوبات الحماسية، وتعهد بمواصلة النضال من أجل الأجر المتساوي مقابل العمل المتساوي، وصولًا إلى دعم إضرابات العاملات، بل والإضراب معهن. وأشار رئيس الوزراء حينها إلى أن البلد لم يكن قادرًا على تأمين التكلفة التقديرية لتلك الزيادة في الأجر، وإلى أنها يجب أن تمنح تدريجيًا سنة بعد أخرى، في حين أوجعت حكومته رأسها لتتوصل إلى اتفاق من نوع جديد يقوم على الإنتاجية ليتم تطبيقه في هذا الوضع. لقد باتت قدرة النساء على التحريض ملموسة منذ إضراب العاملات في معمل فورد في داغينهام (Dagenham)[145]، والذي تعاملت باربرا كاسل (Barbara Castle) معه بحيلة مقززة تمثلت بتناول كوب من الشاي مع النساء ومناقشة الموضوع من القلب إلى القلب. كانت العاملات أكثر خجلًا من أن يشرن إلى أن راتب السيدة كاسل البالغ ثمانية آلاف وخمسمائة جنيه قد يكون مساويًا لراتب أعضاء الوزارة الآخرين، في حين كانت العاملات في مطعم مجلس العموم يكسبن أجرًا يقلّ بخمسين شلنًا عن الرجال الذين يقومون بالعمل ذاته، لكن أحدًا لم يشر حينها إلى أن الموظفات في الإدارة العامة لمجلس نقابات العمال يكسبن أقل من الرجال. وكان مجلس نقابات العمال قد رفض قبل سنة من ذلك فكرة تشكيل لجنة للتحقيق بوضع النساء وفرصهن في الصناعة، ورفض مجلس العموم مناقشة مشروع القانون الذي تقدمت به السيدة جويس بتلر (Mrs Joyce Butler)، وهي عضو غير وزاري في مجلس العموم،

145- كان إضراب فورد، إلى حد كبير، نتيجة جهود روز بولاند، ممثلة العاملات في النقابة. وكانت إحدى نتائجه تشكيل اللجنة الوطنية لحملة العمل المشترك، وهي المجموعة النسائية الأكثر التزامًا في الجناح اليساري.

من أجل تأسيس مجلس مختص بالتمييز على أساس الجنس بحجة «عدم توافر الوقت».

كان مؤتمر مجلس نقابات العمال توّاقًا إلى تشريع، لكن ثقته الساذجة لم تجد لها صدى لدى محللين غير متحيزين للوضع. رأى هؤلاء أن الأجر المتساوي ربما يؤدي إلى حرمان النساء من فرص العمل كليًا في حال لم يكن أجرهن أدنى من أجر الرجال، وقد يصبح عملهن محصورًا أكثر فأكثر في الفئات نصف الماهرة وغير الماهرة[146]. إن تحليل أثر التمييز في توظيف الذكور وتوظيف النساء في الإعلانات عن وظائف من شأنه في النهاية أن يجعل التمييز سريًا، وهكذا، تتقدم النساء بطلباتهن إلى وظائف غير مخصصة حسب الجنس، ولكنهن لا يملكن أي فرصة في الحصول عليها. الحقيقة المحزنة هي أنه لا يمكن إزالة التحيز والتمييز من الوجود بسن تشريع. وبالتأكيد لن تخلق القوانين نساء مؤهلات ومهتمات بأعمالهن على نحو بنّاء. وعمومًا، النساء أنفسهن غير مهتمات بالمشكلة. ويمكن نسبيًا عزو فشل النساء في توحيد أنفسهن في نقابة، وفشل المتحدات منهن في أن يكن نشيطات في نقاباتهن إلى التزاماتهن البيتية، التي اعترف بها مجلس نقابات العمال عندما سعى إلى تشكيل مجموعات حراسة لمنع إجبار النساء على العمل الإضافي أو العمل في ورديات ليلية.

146- See ‘Equal Pay for Equal What’ by Hugo Young and ‘How Equal is Equal?’ by Vincent Hanna, in the *Sunday Times*, 1.2.1970.

> إن قلة نفوذ النساء في قيادة الدولة ناجمة، إلى درجة كبيرة، عن عطالة النساء... فالنساء، ليس فقط لا يظهرن سوى القليل من الرغبة في الفوز بمكان في القيادة السياسية، بل إن الأغلبية العظمى منهن تقبل نظام التبرير الذي اخترعه الرجال لتسويغ ابتعادهن عنها. ويبدون أحيانًا، وعلى نحو مثير للفضول، أكثر عنادًا من الرجال في هذا الصدد، وأكثر مناهضة للنسوية.
>
> **موريس دوفيرغر، *«دور النساء السياسي»***
> (Maurice Duverger, 'The Political Role of Women', UNESCO, 1955, p.126).

جادلت النساء بأنهن على استعداد لقبول الإزعاجات التي يعاني منها الرجال ذاتها، لكن لم يكن الرجال مستعدين للسماح بتعريض حقوقهم المكتسبة في عمل ربات البيوت غير المأجور للخطر[147]. وهنا طُرحت فكرة إقامة رياض أطفال تديرها الإدارة والنقابات تعاونيًا في المعامل. إن إقحام الجنس والأطفال يضيف مسحةً من العبث إلى النقاشات: ففي الحقيقة، قد يميل رب العمل، الذي سيواجه مشكلات تنظيم أطفال عاملاته، بالإضافة إلى العاملات أنفسهن، إلى التمييز أكثر فأكثر، على الرغم من التفكير الرزين بأن مسيرة العاملات الكبيرة التي نظمتها الحملة الوطنية المشتركة من أجل حقوق مساوية للنساء يوم 18 أيار/مايو 1969 لم تجتذب أكثر من ألف[148]. وفي مثل هذه الحال، تجبر الناشطات على التعويض عن قلتهن بزيادة خشونتهن

147- شرحت شيرلي إنتيكناب (Shirley Enticknap) اعتراضات الرجال في نقابات العمال على فقدانهم السيطرة على ساعات عمل النساء في صحيفة *نيوز أوف ذا وورلد*، بتاريخ 1969/9/7.

148- *The Times*, 19.5.1969.

على نحو يثير سخرية بنات جنسهن ونشاطهن الهدّام. وهنا تقفز إلى الذهن حالة السيدة الأنيقة **ليليان بيلوكّا** (Lillian Bilocca)، فبفعل الجلبة التي أثارتها، ارتفع عمال شركة **هل ترولر** (Hull Trawler)، الذين أرسلوا في مراكب الصيد إلى رياح بحر الشمال الجليدية في الشتاء، إلى مرتبة الشهداء الوطنيين. زيّن وجهها الجميل الغاضب كل الصحف الوطنية، وقدّم خطابها الفظ مثالًا مدهشًا، وأجبر المعنيين في النهاية على القيام بفعل لصالح أبناء جماعتها. لا أحد الآن يوظف السيدة **بيلوكا**، وجاءت الإهانة الموجهة إليها، والتي توجت كل الإهانات، نيابة عن بنات جنسها على يد سكيبر **لوري أوليفر** (Skipper Laurie Oliver)، أمينة سر نقابة موظفي **هل ترولر**:

> طلبت مني زوجات بعض الأعضاء في نقابتي أن أصرح بأن ما قامت به السيدة **بيكولا** لم يحسن الصورة التي قد تكون لدى العموم عن زوجات صيادي السمك. فالنساء اللواتي فقدن رجّالهن في السفن الثلاث لم يمنحن فرصة قول ما يردن قوله، وهو ما نعجب به. إن فكرة تشكيل لجنة من النساء لخوض معارك من أجل الرجال هي حسبما أرى فكرة مضحكة تمامًا[149].

يفترض أن تصادق الحكومة البريطانية على الاتفاقيتين 110 و111 من اتفاقيات منظمة العمل الدولية. وهما تتعلقان بالمساواة في الأجر والفرصة للنساء، لكنها لم تفعل. وقد برر رئيس الوزراء فشل الحكومة في المصادقة عليهما بأنها أخفقت في تحقيق الشروط التي تطلبها الاتفاقية. فما الذي يمكن انتظاره في ظل وضع شبيه بحكاية البيضة والدجاجة؟ كما لو أن ذلك ليس كافيًا بذاته لإثارة السخط، إذ من غير المرجح أن تقبل صيغة منظمة العمل الدولية، لأنها تنص على *الأجر المتساوي مقابل العمل ذي القيمة المتساوية*: لقد قفز حكامنا

149- Reported in *Black Dwarf*, 10.1.1969.

إلى المنفذ الذي قدّمه لهم قرار سوق العموم (Common Market) القاضي بأنّ النساء يجب أن يحصلن على أجر مساوٍ مقابل عمل *مماثل*، وهذا يعني أن إعادة تسمية وظيفة امرأة يمكن أن تبرّر الأجر غير المتساوي الذي تحصل عليه. أحد أكثر الجوانب إحباطًا في هذا الوضع، من وجهة نظر نسوية، هو التفكير في أن الرجال هم من منحوا النساء الأجر المتساوي في النقابات التي فازت فيها النساء بذلك الأجر. ففي مؤتمر مجلس نقابات العمال لعام 1969، الذي طالب بأجر متساوٍ، لم يكن هناك سوى 51 مندوبة وأكثر من 1200 مندوب. وفي تلك الأثناء، كانت النساء اللواتي يعملن في المصارف يحصلن على حد أدنى من الأجر يقف عند مستوى 800 جنيه سنويًا، في حين كان الحد الأدنى لأجر الرجال يصل إلى 1100 جنيه، ومن النادر أن تحصل امرأة واحدة من بين كل ثلاثين حتى على متوسط أجر الرجل. أغريت النساء بالعمل جابيات في وسائل النقل بواسطة الأجر المتساوي لأنه كان من الصعب الحصول على عمال، لكن لم يكن في مقدورهن أن يصبحن سائقات أو مديرات مرآب أو مفتشات؛ وعندما تدخل الحافلات التي لا تحتاج إلى جابٍ في الخدمة، سيصرفن من العمل، أو يحولن إلى العمل في المطاعم بأجر أقل. ومع ذلك، هناك حاجة إلى ثلاثة آلاف سائق. لكن، بما أن السيد ويلسون (Mr Wilson) قال إن العاملات يمكن أن يحصلن على أجر متساو إذا ما تحمّل الرجال الأعلى أجرًا تكلفة ذلك، فقد كانت لديه الوصفة المثالية لإثارة الذعر الذكوري، ما يعني أن تستمر النساء في العمل في البيت مقابل لا شيء وفي الصناعة مقابل أجر زهيد. ومازال علينا أن ننتظر لنرى ما الذي سيعنيه قراره بمنح النساء أجرًا متساويًا مقابل العمل المتساوي على مراحل متدرجة على أرض الواقع.

لدى الحديث إلى النساء العاملات بأجر، فإنني لا أتحدث عن الجزء الأكبر من النساء البريطانيات ربات البيوت: ستة عشر مليون ربة منزل. ذلك أن ربة المنزل لا تحصل على أي أجر، على الرغم من أن مشروع قانون الملكية الزوجية الذي تقدمت به السيدة سومرسكيل (Summerskill) في العام 1964 قد كرس حقها في أن تحتفظ بنصف مخصص مصروف البيت. لا يمكن لهذا القانون أن يفيد سوى الأغنياء، لأنه لا يستطيع بالطبع أن يجبر الأزواج على أن يدفعوا مخصصًا للمصروف يبلغ ضعف ما تحتاجه العائلة فعلًا.

> ليس القصد من تعليمكن شغل الإبرة وحياكة الصوف وما شابه هو تقدير القيمة الفعلية لكل ما تستطعن القيام به بأيديكن، وهو تافه، بل القصد هو جعلكن قادرات على الحكم على ذلك النوع من الأعمال على نحو أفضل، وحتى توجّهن الأخريات عند القيام به. وهناك غاية رئيسية أخرى، هي جعلكن قادرات على ملء بعض من الساعات الطويلة التي تقضينها في البيت منعزلات عن الناس، بطريقة مقبولة على نحو ما.
>
> غريغوري، «*وصية أب لبناته*»
> (Gregory, ‘A Father's Legacy to his Daughters’, 1809, p. 59).

يجب أن يكون عدد الزوجات اللواتي يكسبن فعلًا، ويدّخرن فوق مصروفهن المنزلي قليل جدًا. وفي الحقيقة تتمتع جميع تشريعات الطلاق الهادفة إلى حماية الزوجات المهجورات بالطبيعة الغريبة ذاتها؛ فهي تنطبق بواقعية على الأغنياء فقط، وهؤلاء لا يشكلون سوى أقلية صغيرة، على ما يبدو، ذلك أن متوسط أجر الرجال والنساء في

الصناعة بالكاد يكفي للقيام بأود أصحابه. أما الذين ليسوا أغنياء فليس أمامهم خيار سواء البقاء معًا لأن زوجاتهم لا يتمتعن بأي استقلال مالي؛ فيبقى التعايش هو كل ما يستطيعون القيام به. ومن الصعوبة بمكان أن يكون لوثيقة توري (Tory)، التي تحمل عنوان «**حصةٌ عادلةٌ للنساء**» (A Fair Share for the Fair Sex) أي تطبيق مفيد على أغلبية الزوجات، على الرغم من أن المندوبات الثلاثة آلاف المتأنقات إلى المؤتمر السنوي الواحد والأربعين لنساء حزب المحافظين قد يكنّ وجدنها آسرةً[150]. وبالمثل فإن مشروع إصلاح قانون الأسرة لا ينطبق إلا على أقلية صغيرة، أمّا دعاوى الحنث بالوعد وتعويض الحقوق الزوجية والإغواء والإغراء التي يبطلها فهي أصلًا نادرة وقد عفا عليها الزمن. ومشروع قانون الملكية الزوجية، الذي يمكّن الزوجات من المطالبة بتسوية وبتعويض عن المال الموظف في بيت الزوجية أو في عمل تجاري، فكان من شأنه أن يجعل الطلاق ميزة للأغنياء أكثر من ذي قبل. كانت لجنة القانون تتحرى إمكانيات أن تطالب المرأة المهجورة بتعويض عن الضرر من **المرأة الأخرى**: ولكن تبرز مرة أخرى الحقيقة القاسية المتمثلة في أنه من النادر أن تكون **المرأة الأخرى** قادرة على تأمين المال الكافي لتعويض الضرر.

150- *The Times*, 21.5.1969.

> وأعمال الفراغ التي تقوم بها الزوجة [...] ليست استعراضًا بسيطًا للتعطل أو الكسل، فهي تحدث في جميع الأحوال تقريبًا، متخفية في شكل بعض الواجبات المنزلية أو المجاملات الاجتماعية التي تظهر، عند إمعان النظر فيها، أنها لا تهدف إلى أي غرض غير الدلالة على أن الزوجة لا تشغل نفسها، ولا هي بحاجة إلى أن تشغل نفسها، بأي عمل مربح أو ذي فائدة مادية [....] لكن الذوق الذي يعجبه القيام بهذه الأعمال المنزلية من تزيين وتنسيق، هو الذوق الذي تربى على هدي قانون من قوانين السلوك تعجبه نفس هذه الأعمال التي تشهد لصاحبتها بأنها تبذل جهودًا ضائعة.
>
> **ثورشتاين فيبلين، «*نظرية الطبقة المترفة*»**[151]
> (Thorstein Veblen, 'The Theory of the Leisure Class').

يمكن أن يصبح الزواج أقذر من أي وقت مضى إذا ما شاع هذا النوع من الدعاوى. إذ الأرجح أن تطلب **المرأة الأخرى** التي تلاحق قضائيًا من زوجها أن يقوم بالدفع نيابة عنها، وهو ما لن يكون مختلفًا عن النفقة في الواقع. عندما تعجز الأمة عن تأمين أجر متساو مقابل العمل المتساوي، فإنها لا تستطيع تأمين ما يكفي لتحرير النساء من إقطاعية الزواج المالية. لو أنشئ نوع من التأمين الوطني للزوجات ضد الهجران، لاعتبرته صحف الأحد مكافأة حكومية على الفسق. وعلى أيّ حال، على الرغم من العبء الضريبي الثقيل على الفئات متوسطة

151- أخذت ترجمة هذا المقطع كما هي من الترجمة التي قام بها محمود محمد موسى والصادرة عن الدار المصرية للتأليف والترجمة، ص57.

الدخل في بريطانيا، فإن هذا النظام غير عملي اقتصاديًا. ذلك أن ربات البيوت سيبقين ضحايا اقتصادية للنظام بكامله، لأن تخفيف التفاوت بين كلفة المعيشة والدخل الحقيقي لا بدّ وأن يكون بواسطتهن، في حين لا يمكنهن توقع أي استقلالية أو حرية حركة لتعويض تلك المشاركة.

أكثر من نصف ربات البيوت في بريطانيا العظمى يعملن خارج بيوتهن أيضًا. وبعضهن نساء مهنيات ينفقن معظم دخولهن أجرًا للمساعِدة المنزلية أو لشراء سيارة أو لدفع قسط تأمين التقاعد والضرائب؛ فعلى سبيل المثال، تكسب سيدة متزوجة تعمل مديرة مدرسة ذات حجم متوسط 1900 جنيهًا سنويًا، تدفع منها 1010 جنيهات ضرائب و110 للتقاعد و200 لمساعِدتها المنزلية و300 لسيارتها و75 لأمور أخرى كالملابس والكتب، وهكذا لا يبقى لها من دخلها سوى 205 جنيهات. كما وجدت طبيبةٌ أن مساعِدتها المنزلية تجني لبيتها من المال أكثر مما تجني هي. وفوق ذلك، يعامل موظفو مصلحة الضرائب هؤلاء النساء معاملة سيئة جدًا؛ فهم يرفضون أن يناقشوا معهن بيانات دخل الأزواج التي تتحدد الضريبة على أساسها[152]. إذا كان البلد لا يستطيع تحمّل فرض الضرائب على النساء المتزوجات باستقلال عن أزواجهن، فإنه صحيح أيضًا أن البلد لا يستطيع تحمل هدر عمل النساء المهني. ذلك أن العدد الأكبر من العاملات في مهن هن معلمات، لكن ثلثهن فقط يستمر في العمل ست سنوات بعد تأهيلهن المكلف الذي تتحمل الدولة نفقته. والطبيبات، اللواتي لا يستطيع أزواجهن أن يتحملوا عبء إعانتهن للاستمرار في العمل، لا يستطعن الاستمرار.

لا تشكل المهنيات اللواتي يكافحن للاستمرار في مهنهن بعد الزواج سوى أقلية صغيرة؛ وستسخر معظم الزوجات العاملات في

152- *The Times*, 4.6.1969.

بريطانيا من افتراض أن المساعِدة المنزلية ضرورية لاستمرار عملهن في المهنة، مع أنه واضح أن المعلمة أو الطبيبة لا يمكنهما تحمّل عدم الكفاءة في العمل نتيجة الإرهاق. حتى الأجر المنخفض للعاملات في الصناعة يمكن تبريره بمعنى منحرف، إذا فكرنا بأن أكثر من نصف العاملات يعملن بكد خارج عملهن أكثر مما يعملن بكد في ذلك العمل. فالجلوس وراء آلة، سواء كانت آلة كاتبة أو ماكينة خياطة كهربائية، هو للكثير من النساء أشبه باستراحة بعد ساعات من العمل المتواصل بكل قوّتهن الجسدية وطاقتهن في خدمة عائلة شابة. وساعة غداء السكرتيرة هي الجزء الأصعب من يومها لأن عليها خلال تلك الساعة أن تقوم بالتسوق ودفع فواتير العائلة. في تموز/يوليو 1969 قامت الزوجات العاملات بتنظيم مسيرة احتجاجية أمام مجلس مدينة إيبنغ (Epping Town) ضد زيادة رسوم الحضانة اليومية من 2.10 جنيه إلى ستة أو سبعة جنيهات، لأن ذلك كان يعني عمليًا أن تتخلى ممرضات ومعلمات مؤهلات كثيرات عن عملهن لأنه سيصبح غير مجد ماديًا. كما كشف إضراب المعلمات في عام 1970 أن وظيفة المعلمات التي لا تستطيع الأمهات العاملات الاستغناء عنها هي وظيفة جليسة الأطفال. فكثير من الزوجات العاملات يعتمدن على عمل شخص غير مدفوع الأجر حتى يتمكنّ من الذهاب إلى العمل أصلًا. وأخريات يتباهين بالطريقة التي ينجحن فيها بإدارة بيت والتمسك بعملهن في الوقت ذاته، ويقبلن لقب «العجائب العاملة» المناصر لهن في نوع من الستاخانوفية (Stakhanovism)[153] غير الرسمية[154]. كان شيءٌ من تجربة الزوجات العاملات، وقد اطلعت عليه من المصدر

153- نسبة إلى عامل سوفييتي اسمه ستاخانوف نال عدة جوائز في الاتحاد السوفييتي مقابل تفانيه في العمل وسعية إلى زيادة الإنتاجية. [المترجم]

154- See Pauline Pinder, *Working Wonders*, PEP Broad-sheet No. 512. Mrs Britain 1969 is a schoolteacher with four children.

الأصلي، مثبطًا في معظمه. فقد علّمتُ ذات مرة في مدرسة، وكانت معظم المعلمات فيها متزوجات، وكانت أحاديث غرفة المدرسات محصورة في قصص تدور حول نجاح طرقهن في منع الحمل أو فشلها، والحيل التي يستخدمنها للمحافظة على البيت والأولاد في حالة من الاستقرار والسكينة، ورغبتهن الحارة في التخلي عن كل ذلك حالما يرتقي أزواجهن كفاية في شركاتهم بحيث يصبحون قادرين على تحمّل زوجات كسولات. وفي مكان آخر، رأيتُ امرأة تعمل بكد وكيلةً صحفيةً لمخرج تلفزيوني تنهار في منتصف التسجيل لا لشيء إلا لأنها كلفت بضريبة تفوق مقدرتها.

إن اعتبار عمل النساء ثانويًا هو سمة عالمية تقريبًا؛ إذ يجب عليها في البيت أن تخفف العبء عن زوجها وأن تبني ثقته بنفسه بوصفه معيل الأسرة، وهذا جانب من ثانوية عمل المرأة خارج البيت لم يخضع للتقييم. إذ يفترض أن تكسب الزوجات أقل من أزواجهن، والويل للرجال الذين تكون نسائهم أكثر نجاحًا منهم. وحتى في العمل يجب على النساء أن يخدمن الرجال؛ فقد كان أحد الأسباب التي جعلت الوكيلة الصحفية تنهار هو أن مديرها كان متطلبًا ومتنمّرًا، وكانت حريصة على ألا ترتكب أي خطأ. إن النوع الأكثر صراحة من «التبعية في العمل» هو ذاك الذي تقوم به السكرتيرات، حيث جزء من وظيفتهن هو حماية «أنا» رؤسائهن، بل وتغطية أخطائهم. وجد مكتب ألفرد ماركس (Alfred Marks) للسكرتارية أن 80 في المائة من السكرتيرات اللواتي يكسبن أكثر من ألف جنيه في السنة مهيئات للقيام بمهمات صغيرة خارج المكتب، و74 في المائة على استعداد للقيام بالتسوق لرؤسائهن وزوجاتهم، و73 في المائة لم يكنّ يمانعن في الكذب لحماية رئيسهن المباشر من المشكلات مع مديره[155]. وقد

155- نشرت نتائج تحقيق مكتب ألفرد ماركس يوم 1969/7/19، *صنداي تايمز* 1969/7/20.

تضمّن رد على هذه المقالة في صحيفة صنداي تايمز تعليمات للفتاة الفريدة التي تمثّل السكرتيرة الخاصة المثالية، مرتبة حسب الأهمية ولكن بالعكس:

1. استخدمي دائمًا مزيل رائحة العرق؛ فأنت لست الفتاة النادرة التي لا تحتاج مزيلًا.
2. تعلّمي كيف تحضّرين شايًا وقهوةً لذيذتين.
3. لا تعطي رقم هاتف العمل لأمك أو صديقك أو زوجك أو عمتك أو خالتك.
4. استخدمي الحمّام لوضع الحمرة والماسكرا وطلاء الأظافر وتغيير الجوارب.
5. لا تضعي الأخبار السيئة فوق الرسائل الواردة.
6. اظهري دائمًا بمظهر جميل ولكن غير استفزازي[156].

السكرتيرة رمز لمكانة المدير، مثل زوجته: كلما اقتصرت واجباتها على تلبية متطلباته كانت قيمتها أعلى. فعاملة المقسم أو السكرتيرة أو موظفة الاستقبال هن نموذج للمنفعة، أما السكرتيرة الخاصة فنمط مفصّل حسب الطلب. تقدم نظرة إلى أعمدة التوظيف في صحيفة يومية رؤية عميقة إلى مواصفات المساعِدة النموذجية في عمل تجاري: فالسكرتيرة يجب أن تكون جذابة و«منظّمة جيدة وذات مزاج رائق» وحيوية وذكية ولبقة و«كفؤة وأنيقة» ومرحة؛ ويمكن للنبرة التي لهذا الإغواء أن تصل إلى أعماق لا تصدق:

> لا ليست حشرة طفيلية، بل سكرتيرة مدير متسلّط ذكية وكفؤة وحتى جميلة.
>
> أنا مسافر إلى موريشيوس لأنضم إلى خطيبتي. ومديري، رئيس

156- *Sunday Times*, 27.7.1969.

مجموعة مايفير الاستشارية الصغيرة، يندب رحيلي. هل تعتقدين أنك تستطيعين أن تكوني تلك السكرتيرة الشخصية التي تنال إعجابه؟ يأسف سكرتير الشركة بمرارة لأنه سمح لعصفوره بأن يحلّق عاليًا. أرجوكم، هل يمكن لأحد أن يثبت أنها ليست غير قابلة للاستبدال؟[157]

يشار إلى العمر في كل الحالات تقريبًا، والتنازع بين الرغبة في امرأة جذابة وامرأة كفؤة يعطي أحيانًا نتائج ممتعة. لكن لا أحد يريد امرأة ناضجة سكرتيرةً لأنه يجب المحافظة على العلاقة البَنَوية. يبدو سن الثلاثين وكأنه السقف تقريبًا. إذا أرادت سكرتيرة خاصة أن تصبح لا غنى عنها لمديرها، فيجب أن تزيد تواضعها وعبوديتها طواعية.

السكرتيرة الجيدة مكرسة للهدف الوحيد المتمثل بتعزيز مصالح مديرها بكل طريقة ممكنة... وهي مخلصة ومطيعة وحية الضمير... تساند جميع أفعاله، ولا تناقش معه قط شؤون العاملين الآخرين، وتسانده دائمًا في علاقاتها مع الزبائن...

ويجب أيضًا أن «تقوم بمداهنة ماكرة» وألّا «تعرف أفضل». هدفها أن تصبح «قطعة جميلة وضرورية من أثاث المكتب»[158].

لمَ يجب أن تخدم امرأة رجلًا بهذا الإخلاص مقابل أجر زهيد وتزيد فعلًا من قدرته على الدخل وتخفي أخطاءه؟ ولمَ يجب ألّا تتطلع إلى وظيفته وهي ترى، بحكم وظيفتها، أن عمله يسير جيدًا؟ لمَ لا تقول لها التعليمات أن تتملّق مدير مديرها، وأن تشوه بمكر سمعة مديرها بحيث يأمل الزبائن بحماسة أن يتعاملوا معها، لا معه؟ يكمن الجواب في تعاطف الرجال فيما بينهم: فالفتاة التي تكشف أن مديرها مغفل وغير كفؤ قد تفصل من عملها قبله، ومع ذلك، إذا ما أخذنا الكثير

157- من الإعلانات المبوبة في صحيفة *التايمز*، 1969/7/4.
158- Mary Hyde (*op. cit.*), pp. 91, 96, 102.

من الرياء والغدر اليومي (على الرغم من أنهما ليسا أكثر مما هو مطلوب لدعمه على نحو كاذب)، فقد تحصل فعلًا على المكافأة التي تستحقها. وإنه لأمر مغر أن نتأمل في عدد الشركات التي تديرها فعلًا السكرتيرات. قد يكون لإضراب السكرتيرات على المستوى الوطني نتائج ممتعة. تكشف ظاهرة طريفة عند المستويات الدنيا من عمل السكرتارية أن تحرير النساء يشق طريقًا خاصة به. فيوم 15 حزيران/يونيو 1969، كتب السيد **هارولد كيتمان** (Harold Quitman) رئيس لجنة شؤون المدينة إلى مجلة **التايمز** شاكيًا من وجود «نقص مؤكد في عاملات السكرتارية المؤهلات الراغبات في شغل وظائف مكتبية دائمة»، في حين كانت الوكالات «قادرة على تأمين موظفات مؤقتات فورًا». مسكين السيد **كيتمان**[159]. إذ يبدو منطقيًا في نهاية المطاف أنه إذا لم يكن في مقدور المرأة أن تتوقع ترفيعًا، فلن يكون لديها أي حافز لأن تحبس نفسها دائمًا في شركة واحدة. من الأفضل لها أن تجرب هنا وهناك، محاوِلةً ومعذِّبةً مديرين جددًا ليست لديهم أي فرصة لاضطهاد مساعِدات قد يفلتن منهم بين ليلة وضحاها. وصفت **بريسيلا كليمنسون** (Priscilla Clemenson) نظامها لبيتيكوت (Petticoat):

> إنها تعمل سبعة أو ثمانية أشهر في السنة في نحو عشرين أو ثلاثين وظيفة مختلفة. وتقوم بالادخار والتخطيط خلال هذه الأشهر، ثم ما أن تغدو جاهزة حتى توضب حقائبها وتنطلق نحو البلدان الاسكندينافية، إذا كانت تريد ركوب الزوارق الشراعية، أو نحو سويسرا، إذا كانت تريد التزلّج...
>
> وتشرح قائلة: «في أثناء الانتقال أكون شخصًا مختلفًا. أكون أكثر إثارة للاهتمام وأكثر اهتمامًا بالآخرين...»[160].

159- *The Times*, 22.5.1969.
160- *Petticoat*, 28.6.1969.

يمكن تقدير نجاح الوكالات في نشر العمل المؤقت استنادًا إلى تكاثر هذه الوكالات. فأي فتاة ضجرة من عملها تجد نفسها، وهي في الطريق إلى البيت في نفق المترو، تحت وابل من التملقات المتكررة التي تقنعها أن باستطاعتها أن تحصل على المزيد من المال وأن يكون لديها المزيد من وقت الراحة؛ لا يتطلب الأمر سوى خروجها من عالمها الممل واقتحام عالم العمل المؤقت الخالي من المسؤولية. وبالمقابل، فإن أرباب العمل المتوقَعين مجبرون على التملق والملاطفة بوعد العاملين الشباب والمكاتب البهيجة والموقع الساحر وفرصة لقاء أشخاص ممتعين، إضافة إلى مزيج حكيم من الإطراء. تبدو الشابات الفوضويات هذه الأيام غير مباليات. لا يستطيع السيد **كيتمان** وأصدقاؤه الزعم أنهم لم يطلبوا ذلك، لكنهم سيصرون على شرح صعوباتهم الراهنة بطيش القسم الشاب المؤنث من السكان، بدلًا من رؤية أن ما يعرضونه ليس مقبولًا. ويقال إن أرباب العمل يتجهون، نتيجة يأسهم، إلى النساء المتزوجات اللواتي يرجى أن تجعلهن التزاماتهن البيتية أكثر أهلًا للثقة. على الأقل لن يركضن إلى التزلج وركوب الزوارق، بل ستكون قلوبهن وعقولهن على البيت. ستفوز النساء بطريقة أو بأخرى بهذا الصراع. لكن هناك خطوات انتكاسية، إذ يقال إن النساء في أمريكا يتلاعبن برجالهن بقوة النعومة الأنثوية التي تنال ما تريد بالتملق والملاطفة لا بالتحدي. إن ملاطفة السكرتيرات السرية أصلًا حقيرة بما يكفي؛ ويبدو أن الموظفات المؤقتات قد اكتشفن طريقة في المساومة هي بالإجمال أكثر إثارةً وتقديرًا. فإذا كان المدير يريد من موظفته المؤقتة أن تبقى، فعليه أن يجد لها حافزًا، حتى يكتشف ذات يوم أن أي شيء أقل من عمله ذاته ليس كافيًا. يجب أن تستغل الصناعة تأثير دراية الفتيات اللواتي اكتسبن خبرة من العمل في أنواع مختلفة من التنظيم المكتبي، لكن ربما تضمن الخِسة والتحيز وعجز الذكور

عن تقبّل النقد ألّا يحدث ذلك قط. لسوء الحظ، لا تمتد الفرص التي تتمتع فيها كاتبات الاختزال في لندن إلى مراكز المقاطعات الأخرى، حيث لا تحصل عاملات السكرتارية على عمل، وإن حصلن فأجورهن قليلة، فيقضين وقتهن «في البيت».

الظاهرة الأكثر إثارة للكآبة في عمل النساء هي حالة الممرضات. بدأ التمريض عندما استخدمت **فلورانس نايتينغيل** (Florence Nightingale) بنات الطبقة الوسطى الفيكتورية الكسولات في عمل رحيم يبقيهن بعيدات عن الأذى، بالطريقة ذاتها التي مازالت النساء الغنيات يعملن فيها لصالح الصليب الأحمر والوكالة الدولية للإغاثة وما شابه. إن الفشل في تطوير هذه المهنة يعني أن هناك اليوم 640 ألف امرأة يعملن مقابل أجر لا يكاد يصل حد الكفاف، مع أن عملهن حيوي ويتطلب مهارة ومبادرة وتفان. لطالما كان التمريض والتعليم هما المهنتان الأكثر شعبية بين النساء، وفي الحقيقة يمكن للمرء أن يقول إنهما تقريبًا المهنتان النسائيتان الوحيدتان، لكن في حين تزايد عدد المتقدمات إلى معاهد إعداد المعلمات بأكثر من الضعف في عشر سنوات، فإن تأهيل الممرضات لم يجتذب سوى ستة آلاف أخرى، وهي زيادة لا تبلغ سوى الربع. وفي أثناء ذلك، تضاعف عدد المرضى في عشرين سنة، والحالات التي تستبقى في المستشفى أكثر خطورة، نظرًا لأن سياسة التمريض المنزلي تحظى بالدعم. تكسب ممرضة متدربة 390 جنيهًا في السنة الأولى، يبقى لها منها 240 بعد الخصم، وتنال في السنة الثانية 450 جنيهًا، وفي السنة الثالثة 480 جنيهًا. الممرضات النفسانيات يكسبن 100 جنيه زيادة في كل سنة. وعندما تلقت الممرضات زيادة مقدارها 30 جنيهًا في السنة، زيدت رسوم الإقامة في المستشفى فورًا بحيث التهمت الزيادة فورًا كأنها لم تكن. كتبت **إلسا فاريير** (Elsa Farrier)، وهي رئيسة جناح،

عن القضية إلى صحيفة التايمز في أيار/مايو 1969، بعد أن عقدت ممرضات مستشفى أوربنغتون (Orpington) اجتماعًا عامًا لتحذير المجتمع الذي يخدمنه بأنهن لا يستطعن الاستمرار بتلك الطريقة: «نحن لا نتحدث إلى المرضى كما ينبغي. وليس لدينا وقت لنتحدث إلى الأقارب عندما تراودهم المخاوف. ليس لدينا سوى القليل من الوقت لنكون إنسانيات أو لطيفات»[161].

لقد لُوث الإشباع العاطفي المتبجح الذي يمكن للتمريض أن يحققه نتيجة نقص العاملات. إذ تجد الممرضات أن عليهن أن يقمن بأعمال غير ماهرة من مثل مسح الأرض، لأن حتى المستخدمات لا يقبلن التنمر عليهن بالطريقة التي يرتضينها لأنفسهن، وهن المهنيات.

وفي غضون ذلك، تتطلب طرائق العلاج المتطورة إعدادًا تعليميًا أفضل من جانب الممرضات، ذلك أن أخطار العلاج بالدواء تعني أن ممرضة متعبة قد تجد نفسها قاتلة. وفي الحقيقة، تحصل ممرضة واحدة من بين كل ثلاث ممرضات على مستوى أعلى من المستوى الثالث في الدراسة الثانوية العادية (O-levels). وتحصل النسبة ذاتها على أقل من مستويين، وهو ما يعتبر الحد الأدنى المقبول، لأنهنّ به يجتزن اختبار مجلس التمريض العام. كما يترك ثلث الممرضات المتدربات التدريب في أثناء تدريبهن، والانطباع العام هو أن خسارتهن ليست مأسوفًا عليها لأنهن يشكلن عرضًا ثمينًا للعمل الرخيص. عندما تكمل ممرضة تدريبها، لا يحدث تغيير يذكر في شرطها، إذ ترتدي حزامًا بلون مختلف وتتابع. وفوق ذلك فالممرضات معزولات ومضبوطات بلباس موحد قديم في أثناء العمل، وبأنظمةٍ فضولية مثيرة للشبق خارج العمل. إنهن يتحملن أسوأ أشكال السلوك الأمومي من رئيساتهن اللواتي غالبًا ما يعاملنهن بلا احترام، ويطلبن منهن طاعة تامة. والعذر

161- *The Times*, 22.5.1969.

في ذلك كله هو المريض، ولكن المريض هو الذي يعاني إذا كانت الممرضة متعبة ومستاءة ومستعجلة. انفجر الوضع بكل سخريته على رؤوس الجمهور البريطاني في أيار/مايو 1969، عندما خرجت جمعية الممرضات المتّحدات، التي أسستها **الأخت فيل** (Sister Veal) إلى الشوارع، ولكن حتى عند ذلك أظهرت الرئيسة يدها الحديدية آمرةً الممرضات بعدم التظاهر في الشارع وهنّ يلبسن زي الممرضات، فأطعن الأمر. ومنذ ذلك الوقت، والصحافة الرخيصة تشنّ هجومها على **الأخت فيل** لأنها ممرضة خلصة وتنشر إعلانات للمرضى، ولكنها لا تقوم بأكثر مما تستطيع أي واحدة تتمتع بالمهارة والمبادرة القيام به. في الحقيقة لا تستطيع **الأخت فيل** أن تقود أكثر من ثلاثمائة نصيرة، إذ يبدو أن الحجة المعتادة، وهي أنها تدمر الصورة العامة للمهنة، تثني معظم الممرضات عن إثارة الرأي العام. وفوق ذلك، لا تشكل الممرضات المدرَّبات مجموعة منسجمة: فهن، من حيث المهنة، منقسمات إلى زائرات صحيات وممرضات جراحة وممرضات نفسيات وممرضات أجنحة وممرضات منطقة صحية ورئيسات ممرضات وممرضات حكوميات. ولسن جميعًا منتسبات إلى الكلية الملكية للتمريض. وتمثل اثنتا عشرة منظمة مستقلة الممرضات في مجلس وايتلي (Whitley) الذي يفاوض على أمور الأجور وشروطها؛ وفي حين كان مجلس وايتلي يمنح في أيار/مايو 1969 الممرضات 48 جنيهًا في السنة مقابل وجباتهن، بدل النظام الجائر القائم على الدفع عند تناول الوجبة (والذي تفرض فيه الضريبة فورًا)، لم يتردد الكهربائيون في 1200 مستشفى في الإضراب من أجل الحصول على شلن إضافي في الساعة، حتى يصبحوا متساوين مع العاملين خارج المستشفيات. الفكرة واضحة. أمّا الكيفية التي تستغل بها أهمية عمل الممرضات حتى يقبلن أجرًا مخزيًا فتقوم على اتهام مجتمعنا لهن بالتخلي عن

المرضى والمحتضرين، وهو يعرف أنهن لن يفعلن ذلك. فهل يجب أن ينتظرن حتى يُضرِب المرضى والمحتضرين من أجلهن؟ يبدو أن مشكلة الأكاديميين ستنتظر النظر فيها إلى أن يساندهم الطلاب في إضراب ويرفضون التعلّم. وربما يجب أن يرفض المرضى الشفاء؟ في الحالتين، تستغل الدولة متلقي خدمات الممرضات والمعلمات لتظلم الممرضات والمعلمات. لا بدّ، إذًا، من ابتكار إستراتيجيات جديدة. تبدو الزيادة الأخيرة الممنوحة لهن والبالغة 26 في المائة سخيةً إلى أن نفكر 26 في المائة من ماذا: ومازال علينا أن ننتظر لنرى كيف ستجبر الممرضات على دفع مقابل تلك الزيادة.

الممرضات خادمات ماهرات، وبذلك يشملهن النمط السائد من عمل المرأة. وتكتمل اللوحة بالبائعات في المتاجر أو النادلات أو عاملات التنظيف أو عاملات التوضيب أو عاملات الشاي. إن عمل الخادمة النهارية مرتبط جدًا بالصورة الأنثوية حتى أن حالة مضحكة سُجلت في فيينا، اضطر فيها (Alois Valkan)، وكان بحاجة إلى العمل من أجل المال ليكمل راتبه التقاعدي، إلى التخفّي بهيئة امرأة ليجد عملًا بوصفه خادمة نهارية. وفي النهاية، اعتُقل عندما ذهب إلى حمّام السيدات غير متخف، وخضع لمساءلة الشرطة التي استدعيت للتحقيق في سرقات من غرفة الأمانات[162]. يحتل الرجال المناصب المهمة حتى في المهن التي تهيمن عليها النساء؛ فهل سمع أحدكم برئيسة خدم في مطعم أو فندق؟ وكذلك، عمال القص والتصميم في صناعة الألبسة هم في الغالب الأعمّ من الذكور. ولا تخدم النساء في الشعب النسائية من القوات المسلحة جنديات، بل مساعدات إداريات وغير ذلك من الأعمال التي يكن فيها تحت سلطة الرجال. حتى المضيفات الجويات، وهنّ من بين أكثر العاملات عرضةً للحسد، لسن أكثر من خادمات

162- *The People*, 11.5.1969.

مبجلات، وغالبًا ما يرأسهن مضيف رجل. أما الحالات الأكثر إثارة للصدمة بين حالات استغلال النساء مقابل عمل بخس الأجر فهي حالة العاملات من بيوتهن، اللواتي كن موضوع فضيحة مجلة أخبار من العالم. فظاهريًا يجب تسجيل هؤلاء النساء لدى السلطات المحلية، أما في الممارسة فقد وجدت أخبار من العالم أن هذا القانون لم يكن مراقبًا، كما اكتشف مجلس الأسعار والدخول عندما أجرى المسح. فمن بين النقابات الستين التي تشمل الصناعات التي يحتمل أن توظف عاملات من البيت لم يكن هناك سوى نقابة واحدة لديها أنظمة تتعلق بهن. وهكذا، كانت شركة سوبرفوم (Superfoam) المحدودة في مدينة سكيغنيس (Skegness) تقوم بتلزيم المآزر لخياطتها بسعر 5 دايمات لكل مئزر. وكانت شركة بروك (Brock) للألعاب النارية تدفع لربات البيوت شلنًا إجماليًا مقابل لف العلب الكرتونية ولصقها. وكانت النساء اللواتي يصنعن حقائب إسفنجية بسعر 11 شلنًا للدزينة يكتفين برؤيتها تباع في محلات التجزئة بسعر شلنين و6 دايمات لكل منها. ولجعل الفكرة أوضح، كانت شركة كونواي ستيوارت (Conway Stewart) تقوم بتلزيم نوع من أقلام الحبر، التي يجب تركيبها بوضع العبوة وإحكام السدادة على أحد الطرفين ووضع الغطاء ذي المشبك على الطرف الآخر وتوضيبها في علب تحتوي كل واحدة ستة أقلام، إلى مراكز مرضى الشلل التشنجي ودور الأمراض العقلية والسجون ومراكز الاحتجاز والمدارس الموافق عليها وربات المنازل، مقابل 8 دايمات أو 9 (حسب القلم) للدزينة. ردت السيدة بولارد (Mrs Pollard)، التي تستطيع أن تركّب عددًا كبيرًا من الزوارق البلاستيكية في خمس ساعات مقابل ثمانية شلنات، على مراسل أخبار من العالم ببراءة: «أنا أنظر إلى الأمر على أنه هواية لأملأ وقت فراغي... أحب القيام بذلك». لا تكلف النساء اللواتي يقمن بهذا العمل، والماهرات أيضًا في

استخدام الآلة في حالات كثيرة، رب عملهن أي شيء من حيث الإضاءة أو التدفئة أو إجراءات السلامة، ولا يستطعن المطالبة بأي تعويض عن ضرر أو عمل إضافي، وعددهن غير معروف. ويعتقد أن في صناعة الألبسة وحدها على الأقل 15 ألف امرأة يعملن بهذه الطريقة. ويبرر المنتجون طرقهم بالإشارة إلى منافسة اليابان وهونغ كونغ: العاملة من بيتها هي عاملة جرمانية ـ ساكسونية غير ماهرة[163].

غالبًا ما تحلم الفتيات، اللواتي يبحثن عن بديل للعمل الثانوي في مهنة، بالتمثيل طريقًا للخروج. كانت معظم النساء القليلات اللواتي رسمن ملامح قرننا ممثلات، إذا كنا سنصدق **الصنداي تايمز**. لكن **مايكل كروفت** (Michael Croft)، مدير المسرح القومي للشباب، حذر الفتيات من السعي وراء هذا البديل. ففي المسرحيات الجديدة، كما لاحظ، هناك دوران نسائيان فقط مقابل كل خمسة أدوار رجالية. وفي المهنة عمومًا، أربعة أخماس العاملين فيها عاطلين دائمًا عن العمل، ومعظم العاطلين عن العمل نساء. ومع ذلك، من بين الـ4150 متقدمًا لمسرح الشباب، الذي ليس لديه سوى 200 مقعد، كان الثلثان فتيات[164]. أمّا الفتيات اللواتي يردن استغلال جمالهن فيبدو أن عرض الأزياء يقدم لهن طريقة أخرى للخروج، ولكن، حتى بعد التدريب على المشية واستخدام مواد التجميل، يجب على العارضة الطموحة أن تجمع مجموعة من الصور الجيدة وأن تدور بها على وكالات الأزياء[165]. المصورون هم من يرفع أنجح العارضات، والتصوير مهنة يهيمن عليها الرجال مع بعض الاستثناءات الجديرة بالملاحظة. وستجد عارضة عاملة أنها لا تحصل على أجرها إلا بعد أشهر من قيامها

163- *News of the World*, 20 and 27.4.1969.

164- *Daily Mirror*, 7.7.1969.

165- Suzy Menkes, *How to be a Model* (London, 1969).

بالعمل، بغض النظر عن الجهد الذي تبذله وكالتها لتحصيل المال لها؛ وفي أغلبية الأحيان، تجد نفسها بلا عمل، ما يضطرها للجوء إلى حيلٍ أكثر وضاعةً لتحقيق غاياتها. عروض العري للمجلات التي تعرض صور نساء عاريات تعود على العارضات بأجر جيد جدًا، لكن المعاملة المهينة فيها تكاد تكون غير محتملة. فهذا **بوب جوكسيوني** (Bob Guccione) من **بنتهاوس** (Penthouse) يتفاخر بأن فتياته يتناولن حبوبًا حتى تنتفخ صدورهن ومؤخراتهن، ويرسلن إلى **تانغيير** (Tangier) ليعرضن أجسامهن للشمس حتى تكتسب لونًا برونزيًا، وتُرصع أسنانهن، وتُزال شاماتهن، ويُلبّسن، وتسرّح شعورهن، وتطلى أظافرهن على حساب المجلة، ومن ثم يحصلن على 200 جنيه في اليوم لمدة أسبوع في أثناء التصوير[166]. يتم إقناعهن بالوقوف للتصوير بمزيج من التملق والخداع. ويكون ذلك عادة بالحديث عن المشاركة في أفلام، يعقبه مزيد من الوقوف للتصوير؛ فإن لم يفلح الأمر، هناك أساليب أخرى، من مثل: ها أنت، خاليةً من الشامات، وبأسنان منتظمة، وبشرة برونزية، ومنتفخة، وأمامك ألف جنيه قد تخسرينها نتيجة الضرائب المرهقة، وهكذا مزيد من الاستثمار في الصورة.

مقدمات الترفيه متحدات في نقابات، سواء كن راقصات أم مغنيات أم متعريات[167]، لكن مازال الوضع صعبًا، ولا يمكن لأي مقدار من روح الاتحاد أن يضمن الحصول على عمل أو انتظامه. لدى الفتيات اللواتي حظين بتقدير جيد من أرباب عملهن المحتملين في هذه «المهن» قصص مريعة يحكينها، معظمها مشكوك بصحتها، لكني أستطيع

166- 'The Great Nude Boom', *The People*, 1.6.1969.

167- يبدو أن المتعريات لا ينتسبن إلى نقابتهن، ولا يجرؤن على الانتساب نتيجة وفرة العاملات في هذا المجال ممن هن على استعداد لكسر أي محاولة منهن لتحسين شروطهن. متوسط دخلهن هو 6 شلن لكل ظهور استعرائي، بمعدل خمسين ظهورًا في الأسبوع، وفي شروط تعيسة جدًا. (*The People*, 22.2.1970)

شخصيًا أن أتذكر بعض قصص الإذلال التي لم أمر بها فعليًا. عندما ذهبتُ مؤخرًا لأقدم نفسي إلى منتج مسلسل تلفزيوني معروف بناء على طلبه، أو هكذا افترضت، اختلس قبلةً، ووضع يديه على صدري تعبيرًا عن السلطة التي يتمتع بها، وهو امتياز لم يتمكن من انتزاعه من أي رجل من الرجال الذين ظهروا في البرنامج ذاته. وبعد ذلك أبلغت وكيلتي بأن ترفض أي عرض للعمل يأتي منه، لكن ليست معظم الفتيات في وضع يتيح لهن فعل ذلك. على كل حال، قد تكون المغامرة أفضل للروح من العبودية الشائنة: ليس أمام الفتاة التي تعتقد أنها تمتلك موهبة حقيقية في الترفيه سوى أن تجرب حظها فيه. معظمهن يحصلن في النهاية على زوج يحرسهن عندما «يسترحن». لقد كان عمل الترفيه دائمًا قريبًا جدًا من الدعارة منذ الأيام التي كانت السيدات البارزات في دروري لين (Drury Lane) والكوميدي فرانسيز (Comédie Française) أيضًا محظيات بارزات. تتخيّل عاهرات كثيرات، سواء أطلقت الواحدة منهن على نفسها فتاة هاتف أو مضيفة أو مومس عادية، أنهن يستغللن الجنس المذكر، وربما تحافظ قدر ما تستطيع على استقلالها العاطفي، لكن دور القوّاد، مدير البغاء، أكثر رسوخًا من أن نفترض أن العاهرات قد وجدن أنفسهن يعشن نمط حياة قائم على التنظيم الذاتي. معلم القوادة في المجتمع الغربي هو هيو هيفنر، الذي اخترع بيوت دعارة يكتفى فيها بالنظر إلى العاهرات، وهي بيوت دعارة فعلًا. وكل أرنبة هي فتاة ـ أرنبة[168]. ليس قيام فتاة بالخدمة وهي تضع أذني أرنب وذيلًا بديلًا مفضلًا عن التمريض أو العمل من البيت. غالبًا ما تستغل العاملة في الترفيه جاذبيتها بوصفها موضوعًا جنسيًا حتى يصبح وضعها مواز لوضع أولئك الفتيات. ففي بحثها عن

168- (Bunny): في نوادي بلاي بوي التي أسسها هيو هيفنر تضع الفتيات ما يشبه أذني أرنب وذيله في أثناء الخدمة. [المترجم]

الحماية من الاستغلال الجنسي غالبًا ما قد تجد نفسها مضطهدةً على يدي شخص مهتم بها أكثر ممّا يمكن أن تضطهد على يد أي مدير. وربما تصبح أكثر من أي وقت مضى ملكية ثمينة لشخص آخر، حتى أن موهبتها الأصيلة قد تختفي في البهرجة الإعلانية التي تحوّلها إلى موضوع جنسي. مازالت المفاجأة تأخذ كثير من الناس حين يعلمون أن مارلين مونرو (Marilyn Monroe) كانت ممثلة عظيمة، والأكثر مدعاة للأسى أن ذلك كان شعور مارلين نفسها، وأحد أسباب موتها.

هناك، أو ينبغي أن يكون هناك، بدائل لذلك الاستغلال. أتجرأ على القول، من موقعي الأكاديمي، أني وجدت بديلًا. أنا أحصل فعلًا على أجر مساوٍ؛ وقد عُيّنت بالمفاضلة مع منافسين ذكور، ولا يمكن لأي شيء أن يمنع ترقيتي إذا سارت الأمور سيرًا طبيعيًا. ويجب أن أعترف أيضًا، مع إحساس بالذنب، أنني لم أبذل جهدًا استثنائيًا لأبلغ ما بلغته من تفوق أكاديمي. وبما أني محاضرة في جامعة إقليمية، يجب علي أن أحتمل تهريجات العاملات في الكلية، لكن من السهل نسبيًا تجاهلهن. ربما كان يجب أن أحرز تفوقًا علميًا أكثر لفتًا للانتباه مما يمكن أن يحرزه رجل للفوز بوظيفتي الحالية، لكني لا أستطيع إثبات ذلك. ربما لو كنت رجلًا لكانت عُرضت علي زمالة في جامعة كامبردج. لكن التحيزات ضد المرأة البالغة العادية التي تتابع تعليمها تستمر طويلًا نتيجة فقدان حب المغامرة والطاقة الذي يرافق بلوغ الأنثى. التحيز القائل إن النساء الأكاديميات عصابيات مُبرَّر في التجربة العملية، إن لم يكن في النظرية، لكن إذا كانت فتاة تشعر أنها تستطيع متابعة تعليمها، فليس هناك أي سبب لعدم متابعته. مازال التعليم في مؤسسات أخرى مهنة مفضلة للفتيات الذكيات، لكنها حياة صعبة وغير مجزية، كما سيسارع المعلمون إلى القول، على الرغم من بطئهم في القيام بأي شيء حيال ذلك. وجد الرجال الذين دخلوا هذه المهن

التي تهيمن عليها النساء أن شروطها ورواتبها غير محتملة، وعضوية النساء الغالبة في الاتحاد الوطني للمعلمين خاملة ولامبالية، ما جعلهم يؤسسون الجمعية الوطنية للمدرسين حتى تقوم بعمل نضالي لتحسين وضعهم. وأخيرًا، اتبع الاتحاد الوطني للمعلمين قيادته ورفض خدعة التكافؤ، بادئًا بسلسلة من الإضرابات في شتاء 1969-1970. ولا حاجة للقول إن جميع الناطقين باسم الاتحاد هم من الذكور؛ إذ من بين 44 عضوًا في المكتب التنفيذي لم يكن هناك سوى أربع نساء.

إن الفتاة التي تدرس الطب ستحصل على مؤهلها إذا بذلت ما يكفي من الجهد؛ لكن الحقيقة هي أنّ المرضى، إناثًا وذكورًا، يفضلون الأطباء الذكور. قد تدرس فتاة الهندسة المعمارية أو الهندسة، وإذا أفلحت في الحصول على رب عمل يعاملها بجدية فقد تبلي بلاءً حسنًا. وهناك دليل على أنّ النساء اللواتي يتعلمن مهنة من مثل الهندسة الكهربائية أو التشغيل اللاسلكي لا يمكن أن يحصلن على عمل[169]. يمكن أن تفوز كيميائيات أو عالمات بجائزة نوبل إذا كن باحثات، لكن من غير المحتمل أن يصبحن رئيسات مؤسسات أبحاث مهنية. وفي سعي الفتاة لتحقيق إنجازات أكاديمية لا علاقة لها بالجنس تواجه عدوًا لا يلين، ألا وهو عائلتها. فهي تواجه الاتهامات الثابتة والمناحات التي تركز على أنها بذلك التعليم تضيع ما يجعل حياتها مليئة بالمرح والمواعيد الغرامية والملابس الأنيقة، وأنها ستضيع تعليمها بعد الزواج، وما شابه. وكل ذلك الهراء الممل يضعف مقاومتها يومًا بعد يوم. أما ضغط الواجبات البيتية، التي لا يتحمّلها الشاب الذي يعيش وضعًا مماثلًا، فلا يخف إلا إذا ذهبت لتدرس بعيدًا عن الأسرة في

169- هناك شهادة على حالة فاليري سترينغر (Valerie Stringer)، وهي مهندسة كهربائية لا تستطيع إيجاد عمل (*The People*, 25.1.1970) ودالاس برادشو (Dallas Bradshaw)، وهي مشغلة لاسلكي ووجهت بتحيز البحارة ضدها على أساس أن المرأة تجلب الحظ السيء في البحر.

جامعة بعيدة، وهي حيلة قد تواجه برفض الأهل. تتأثر مصلحة الفتاة العاطفية، وإلى حد كبير، بتصرّف الرجال حيالها، حتى أنها قد تعرّض فرصها الجامعية للخطر نتيجة تورطها في علاقات عاطفية. ويمكن أن أشهد على تأثير التورط العاطفي في النساء الدارسات استنادًا إلى تجربتي الشخصية في التدريس في الجامعات. ذلك أن الرجال قد يحصلون على متعهم بأي طريقة يشاؤون وفي أي مكان يشاؤون، وقد لا يحصلون عليها قط، أمّا الفتيات فيشعرن بأنهن منبوذات إذا لم يلفتن انتباه الذكور، وتدمرهن أي علاقة لا ترقى إلى مستوى الارتباط الكامل، وطالما هذه هي الحالة، فمن المحتمل جدًا أن يتحوّلن إلى ضحايا في تحصيلهن الدراسي. قلما تلمع الفتيات، فيما يتسلل الشباب إلى مراتب الشرف العليا في الأغلبية الكاسحة من الحالات، في حين ينبغي على الفتاة، التي تريد أن تتمتع بفرصة مساوية للرجال في الأمور المهنية، لا أن تساويهم وحسب، بل وأن تبزّهم بالمعنى الإيجابي نتيجة التحيز الأصلي ضدها. وإذا كانت تشعر أنها يجب أن تحتفظ بهويتها الجنسية بأن تكون أنثوية، فيمكن لتضارب الرغبات هذا أن يعطي تأثيرات راديكالية.

مع كل ذلك، هناك قصص نجاح عن النساء، وقد آن الأوان، بعد هذه الصورة الكئيبة، لأحكي تلك القصص. تخرّجت آشا رادنوتي (Asha Radnoti) بمرتبة الشرف في علم السياسة والفلسفة والاقتصاد في جامعة أكسفورد، وكالعادة، عرض عليها مجلس التوظيف في جامعة أكسفورد الوظيفة الأنثوية المعتادة ـ التعليم. لكنها رفضت التعليم ووظائف في (IBM) وشركات استشارية أخرى في الإدارة، وعملت محللة في قسم البحث الاستثماري لدى برودنشال (Prudential). وبعد ثمانية عشر شهرًا من العمل هناك، انتقلت للعمل مساعدةً لمدير الاستثمار في شركة مصرفية استثمارية كندية، وهي حاليًا مديرة

محفظة في مجموعة استثمارية تحمل اسم (Castle Britannia Unit Trust Group)، مع مسؤولية يومية عن استثمار ما يزيد على أربعة ملايين جنيه. قضت الآنسة إيشبل وبستر (Ishbel Webster) اثنتي عشرة سنة تعمل مزيلةً للشعر في عيادة تاو (Tao Clinic) قبل أن تحصل على براءة اختراع لصيغة وضعتها لمزيل شعر رغوي اسمه سبراي أوي (Spray Away). وباعت جينيفر فيليبس (Jennifer Phillips) مسلسلها الكوميدي/ *غمز لي فقط* (Wink to Me Only).

وتوري ويديرو (Turi Wideroe) هي أول طيارة توظفها شركة طيران تجارية. بدأت السيدة نورا روثيرو (Nora Rotheroe) خادمة منزل في مدينة كامدين (Camden) ووجدت طريقها إلى وظيفة بصفة مشرفة متنقلة تجد عملًا تنظيفيًا وتقدّر التكاليف للشركة التي تعمل بها، ثمّ إلى وظيفة مديرة شركة آكم (Acme)، وهي أكبر شركة في بريطانيا في صناعة المنظفات، وأخيرًا رئيسة شركة للخدمات المكتبية المتعددة. السيدة مارغوت نيولاندز (Margot Newlands) هي أول مديرة لشركة (Thomas de la Rue International). والسيدة مارغري هيرست (Margery Hurst) مليونيرة ومديرة مشتركة لأكبر وكالة لأعمال السكرتارية في بريطانيا (Brook Street Bureau). وأنشأت فيريت كولينز (Verite Collins) شركتها الخاصة لمقدّمات وبائعات السلع البريطانية في الخارج (UnionJills)، وأصبحت مديرة شركة للوكالات والشركات التي تنظّم تلك المعارض التجارية. وتفخر صناعة الألبسة بعديد من النساء المبدعات بعيدات النظر، من مثل ماري كوانت ودوروثي تيوران وسيبيل زلكر وجينا فراتيني وروساليند ييهودا وماريون فول وسالي توفين وفيونا براون (Spectrum) وجانيت لايل (Annacat) وآليس بوللوك ولي بندر وبيبا المروّعة. وهناك ميدان آخر حققت النساء فيه نجاحًا معتبرًا هو

الصحافة والكتابة عمومًا؛ فعدد الصحافيات والروائيات اللواتي حققن تميزًا في عصرنا كبير جدًا، وهن معروفات إلى حد لا يحتجن معه إلى إدراج أسمائهن هنا. كما تتمتع النساء بحضور جيد في التلفاز، على الرغم من أن الميل الحالي هو إلى وضع ذكور محل **غريس وايندهام غولدي** (Grace Wyndham Goldie)، مديرة الأخبار في تلفزيون بي بي سي، **وكاثرين دوف** (Catherine Dove) (منتجة بانوراما) **وماري سومرفيل** (Mary Somerville) (رئيسة البث للمدارس). وهكذا، استبدلت مقدمات الأخبار برجال، وفشلت المنتجات في ارتقاء سلم الإدارة، لكن **آيفون ليتلوود** (Yvonne Littlewood) مازالت تنتج الترفيه الخفيف وموسيقى **بادي فوي** (Paddy Foy)، وأخبار **مارغريت دوغلاس** (Margaret Douglas) وباليه **ماغي ديل** (Maggie Dale). وبعد (Dame Ninette de Valois) في (Sadler's Wells)، فتحت المنتجات الباب لأخريات، **وجوان ليتلوود** (Joan Littlewood) هي إحدى الشخصيات المسرحية الأكثر تأثيرًا في عصرنا. ولدى شركة **لويد** (Lloyd's) أربعون طلبًا في سجلاتهم بعد الإعلان عن أن النساء مؤهلات للدخول في شباط/فبراير من هذا العام، وتستمر سوق الأسهم والسندات في مناقشة قبول النساء في قاعة التداولات، في حين تنتظر الآنسة **موريل بيرلي** (Muriel Burley)، وهي مرشحة منذ العام 1962، القرار الذي سيمكنها من الدخول شريكة في شركة سمسرة أو تأسيس الشركة الخاصة بها. كما جرى تعيين قاضية لأول مرة[170].

يبدو أن احتمال نجاح المرأة يقوى كلما وسعت رؤاها، وكلما زادت فرادتها في بيئتها. يضفي المجتمع على الإبداع قيمة أعلى، سواء في

170- اختياري لهذه الأسماء اعتباطي. وفي كل يوم تحيي أقسام الشركات في الصحف القادمات الجديدات إلى مواقع السلطة.

تصميم السلع المعدة للاستهلاك الكبير أو في كتابة النماذج الإعلانية أو الروايات أو في اختراع أشكال من التنظيم مصممة وفق الطلب الحالي. وتعتمد التجارة البريطانية على تصدير الأفكار والخبرات، وهذه ليست بأي حال حكرًا على الرجال. ولا يتنافر أي من ذلك مع الأنوثة، إذ حتى **ماري كوانت** (Mary Quant) سمحت لزوجها المحب بأن يحلق شعر عانتها على شكل قلب، إذا كان ذلك ما ترغبين به. إحدى قصصي المفضلة عن نجاح المرأة هي قصة السيدة **باميلا بورتر** (Pamela Porter) التي تملك شاحنة خاصة بها، تقودها مسافة 1500 ميلًا في الأسبوع مصطحبة معها في القمرة ثلاثة كلاب صغيرة. وهكذا، فالمسؤولية تقع على عاتق النساء اللواتي، لا يجب أن يساوين الرجال في سباق الحصول على عمل وحسب، بل وأن يتفوقن عليهم. ولا بدّ أن يتحوّل هذا الحافز في النهاية إلى ميزة.

الحب

المثال

إذا كان **الإله**، الذي يقال إنه محبة، موجودًا في خيال الرجال فذلك لأنهم هم من خلقه. لا شك في وجود رؤية عن حب سماوي لديهم، على الرغم من أنه من المستحيل أن نكتشف مثالًا له في الواقع. لقد تكرر العرض مثل لازمة في مواقف مليئة بالكره، لأنه بدا قانونًا من قوانين الحياة. «الله محبة». ولولا الحب لما وجد العالم. لو كان الجميع **ثاناتوس** دون **إيروس**، لما أمكن لأي شيء أن يظهر إلى الوجود. والرغبة هي علّة الحركة كلها، والحركة سمة الوجود كله. وهكذا، العالم سيرورة والتغيُّر منهجه. ونحن، في جميع الثقافات، نتشارك فكرة عن حركة خلاقة جيئة وذهابًا، تحركها الرغبة، ويكبتها الموت وقانون الترموديناميك الثاني، سواء كان الاسم الذي نطلقه عليها هو رقصة هيراقليطيسية أو موسيقى العوالم أو رقصة البروتونات والنيوترونات التي لا تنتهي. تقترب مناهج التعبير المختلفة من معرفة تلك الحركة في أي وقت، لأن العقل المنطقي يرى أنه لا بدّ من إعادة صوغ القوانين التي تسعى إلى ضبط آلياتها وتشكيلها باستمرار. وهكذا، فالطاقة والإبداع والحركة والانسجام والتطور تحدث كلها تحت درع الحب، في خيمة إيروس. بينما يسير ثاناتوس مجهدًا في المؤخرة، مرتبًا البيت، راسمًا الحدود، وهو يضع خططًا للحكم. يحب البشر، على الرغم من

دوافعهم التي لا تقاوم، إلى الحد منه واستغلاله على نحو فوضوي. يقنعهم حبهم بأن يقطعوا العهود، ويبنوا البيوت، ويحولوا شغفهم في النهاية إلى واجب.

عندما يقول الصوفيون إن الله محبة، أو عندما يقول أليستر كراولي (Aleister Crowley) «الحب هو القانون»، فهم لا يشيرون إلى الحب الذي هو قدر المرأة. وفي الواقع، يعتقد كثير من الأفلاطونيين أن النساء لم يكن قط قادرات على الحب، لأنهن أدنى من الرجال جسديًا واجتماعيًا وفكريًا وحتى في الجمال الجسدي. والحب غير ممكن بين الأدنى والأعلى، لأن طبيعتهن لا يمكن أن تحرّر حبهن من المصلحة الأنانية، سواء ظهرت على هيئة رغبة في الأمان أو المصلحة الاجتماعية، وبما أنهن أقل شأنًا، فهن أنفسهن لا يستطعن فهم مزايا الأعلى التي تستحق الحب. وبما أن الأعلى على الجانب الآخر فإنه لا يستطيع أن يحطّ من قيمة نفسه بحبّ من هي أدنى منه؛ لأنه، إن فعل، لا بدّ وأن يصبغ شعوره إحساس بالتنازل، وإلّا فإنه يشارك في الانحراف وإذلال الذات المتعمد. لا يمكن أن يحب المرء إلا شخصًا مكافئًا له، لأنّ جوهر الحب هو أن يكون متبادلًا، والأدنى لا يمكن أن يعطي ما لا طاقة له على إعطائه. عندما يرى الرجل صورة ذاته، فإنه يدركها، ويحبها، لأنه يرى في ذلك حبًا ملائمًا ومبررًا؛ ومثل هذا الحب يقوم على التفاهم والثقة والسمات المشتركة. إنه الحب الذي يشكّل المجتمعات، من أصغر الجماعات إلى أرقاها[171]. إنه الأساس

171- في عصر النهضة، نشرت روايات بسيطة عن مفهوم الحب الأفلاطوني على أنها أمورًا مألوفة. وإلى الحجج الأساسية المأخوذة من الـ (*Convivium*) [قد يكون كتابًا عن الولع بالقصف والسمر مع الأصدقاء ـ المترجم] وغيرها من الحوارات، أضيفت مدائح سيسيرو (Cicero) وبلوتارخ (Plutarch) ونظريات هيراقليطس وأرسطو. يمكن العثور على جوهر هذا الخليط في أماكن كثيرة، من كتب الكياسة، مثل كورتيجيانو (*Cortigiano*) و (de la Primaudaye's *Academie*) إلى الكتب المألوفة والكراسات الأخلاقية المعدة لاستهلاك المتعلمين حديثًا، مثل: =

الوحيد الذي تقوم عليه البنى الاجتماعية القابلة للحياة، لأنه تجلّي الخير المشترك. يقوم المجتمع على الحب، أمّا الدولة فلا، لأن الدولة مجموعة أقليات ذات مصالح مختلفة، بل ومتضاربة. والدولة، مثل أب يضبط أولادًا من أعمار مختلفة ومن الجنسين، يجب عليها أن تحقق الانسجام بين المجموعات المتحاربة، لا عن طريق الحب، بل بفرض الانضباط عليها. يشعر الإنسان تجاه ما هو مختلف عنه بالفتنة والاهتمام، وهو شعور يتلاشى عندما يتلاشى الإحساس بالجديد، ويغدو التنافر ملموسًا. هذا هو وضع النساء الأنثويات اللواتي يربطن أنفسهن إلى الرجال في مجتمعنا. ذلك أنهن مصاغات على نحو يكنّ فيه مختلفات اصطناعيًا وفاتنات للرجال، وينتهي بهن الأمر مجرد مختلفات ومعزولات في بيت كائنٍ سئمٍ وعدائي.

الحب الإنساني هو، من لحظات الحياة الأولى، تابع للنرجسية. فالطفل، الذي يدرك نفسه والعالم الخارجي وكأنهما شيئًا واحدًا، يحبّ كل شيء إلى أن يبدأ يتعلم الخوف من الأذى[172]. وهكذا، إذا ما ألقيت به في البحر فسيسبح، مثلما كان يعوم في رحم أمه قبل أن يصبح مقيّدًا جدًا. يقبل الطفل الواقع لأنه ليس له أنا.

قال الملاك الذي يشرف على ولادتي:
«أيها المخلوق الصغير المجبول بالفرح والمرح،
اذهب واعشق دون مساعدة أي شيء على وجه الأرض»[173].

= Sir Thomas Elyot's *The Boke of the Governour* (1531), Section 31, *The Booke of Friendship of Marcus Tullius Cicero* (1550), John Charlton's *The Casket of lewels* (1571), Baldwin's *Treatise of Moral Philosophy* (1550), Bodenham's *Politeuphuia* (1597) and Robert Allott's *Wits Theater of the little World* (1599).

وربما تكون مقالة باكون (Bacon) عن *الصداقة* هي الأسهل منالًا والأكثر أناقة.

172- Schilder (*op. cit.*), p. 120, *cf.* Norman O. Brown, *Life Against Death* (*op. cit.*), pp.50—51.

173- William Blake, Poems from MSS, *c.* 1810 (*Nonesuch*, p. 124), *cf.* Suttie (*op. cit.*), pp. 30—31.

حتى عندما تبدأ أناه بالتشكل، يجب عليه أن يتعلم أن يفهم نفسه انطلاقًا من علاقاته بالأشخاص الآخرين، وأن يفهم الأشخاص الآخرين انطلاقًا من نفسه. كلما تآكل تقديره لذاته، كان رأيه بأقرانه أدنى؛ وكلما تضخم تقديره لذاته، زاد ما يتوقعه من أصدقائه. لطالما كان هذا التفاعل مفهومًا، لكنه لم يحظ دائمًا بما يستحقه من اهتمام. عندما رأى آدمُ حوّاءَ في جنة عدن أحبّها لأنها كانت من ذاته، عظمًا من عظامه، وأكثر شبهًا به من أي حيوان من الحيوانات الأخرى التي خُلقت من أجل بهجته. كانت حركته نحوها النابعة من الرغبة فعل حب لنوعه هو. لطالما كان هذا النوع من النرجسية المسهبة مقبولًا على أنه أساس للحب، فيما عدا علاقة الذكر ـ الأنثى التي افتُرض فيها أن الرجل يستثار لما هو مختلف في النساء، وهكذا، فقد بولغ في الاختلافات إلى حد أن الرجال لديهم ما هو مشترك مع رجال آخرين من أعراق وعقائد وألوان مختلفة أكثر مما لديهم مع نساء بيئتهم الخاصة. إن مبدأ أخوّة البشر هو مبدأ نرجسي، لأن أسس ذلك الحب كانت دائمًا تقوم على الافتراض بأننا يجب أن ندرك أننا متماثلون على امتداد العالم.

لن تصبح أخوّة البشر حقيقةً إلا عندما يصحح وعي الكائنات الأجنبية قصر نظر الإنسان، ويدرك أن لديه ما هو مشترك مع سكان الأسكيمو والشحاذين البنغاليين والمثليين السود أكثر مما لديه مع شكل الحياة الذكية على النظام الشمسي إكس. على أي حال، ليس هناك ما يشجعنا على إطلاق اسم الحب على علاقات بين أشخاص تجمعهم اهتمامات مشتركة كلاعبي كرة القدم والموسيقيين مثلًا، ولاسيما إذا كانوا من الجنس ذاته. وإننا، في إنكارنا لوصف من هذا القبيل، نتجاهل شهادة أجسادنا وسلوكنا. إذا عانق دينيس لو (Denis Law) نوبي ستايلز (Nobby Stiles) في الملعب، فإننا نتسامح في

ذلك لأنه ليس حبًا. أما إذا رمت **كيني بوريل** (Kenny Burell) بقبلة **لألبرت كينغ** (Albert King) على خشبة المسرح، فإننا نهنئ أنفسنا على معرفة الكيفية التي نلتقطها بها. لا تقول ربة المنزل، التي يذهب زوجها إلى الفرع المحلي للمنظمة التي ينتمي إليها كل مساء، إنه يحب أصدقاءه أكثر مما يحبها، مع أنها تستاء من ذلك وكأنه خيانة زوجية.

تنبثق السجالات المتعلقة بتناغم الأشخاص الصالحين للزواج من فهم معيّن لمبدأ التكافؤ في الحب، ولكن من النادر جدًا إدراك أن الاهتمامات المتماثلة على مستوى الهوايات والكتب والسينما لا تعوض عن الفجوة الهائلة التي تبقى مفتوحة بين الجنسين في جميع الميادين. قد نلاحظ بفزع أولئك المستشارين الذين بنصحون الفتيات بأن يتبنين هوايات أصدقائهن بهدف إغوائهم عبر إظهار اهتمام زائف بشيء يحبونه. على أي حال، يبقى حب الرجل الحقيقي متمركزًا على أقرانه الذكور، على الرغم من أن ممارسته الجنس قد تكون مقتصرة على امرأته. يمكن فهم الارتباط الذكري بهذا المبدأ البسيط القائم على الانسجام بين نظراء متشابهين، وذلك المبدأ هو الحب. وعلى الجانب الآخر، فإن الخصاء الأنثوي يتسبب بتركيز مشاعر المرأة على قرينها الذكر، وبتركيز عجزها على مواجهات مع بنات جنسها. ولأن كل حبها ينبع من بحثها عن الأمان، إن لم يكن لنسلها، فلنفسها المقعدة والخائفة، فلا يمكنها أن تتوقع العثور عليه لدى بنات جنسها اللواتي تعرف أنهن ضعيفات وغير مناسبات. فالنساء لا يستطعن الحب، لأنهن لا يستمتعن برؤية بنات جنسهن نتيجة خلل في النرجسية. وفي الحقيقة، يتمثل أفضل تلخيص لانعدام الأمان الأنثوي في تقويض النرجسية الطبيعية والصحيحة عبر استخدامهن للماكياج والتنكر، وهي حيل تدركها النساء على نحو لا يخطئ. فتلك

النساء اللواتي يتفاخرن، على نحو مقيت، بحبهن لبنات جنسهن (باستثناء السحاقيات اللواتي يجب أن يخترعن مثالهن الخاص عن الحب) يتمتعن عادةً بعلاقات غريبة مع ذلك الجنس، علاقات حميمة استثنائية إلى أقصى درجة، لكنها غير مخلصة وغير جديرة بالثقة، ويسودها التوتر مهما كانت حميمة وطويلة.

نستطيع أن نتحدث عن أخوّة البشر، ونزعم أننا نشمل أخوّة النساء بها، لكننا نعرف أننا لا نشملهن بها. هناك في التراث الشعبي أقوال عن أن النساء لا يجتمعن إلا ليغتبن إحدى الغائبات عن المجموعة، فيواظبن على اللقاء لأنهن يدركن تمامًا عواقب ابتعادهن عن تلك اللقاءات. يُفترض بهذه الأقوال أن تكون مزاحًا، لكن لها أساسًا في الحقيقة المرة، كما هي الحال مع المزاح المتعلق بالحموات. لا تذهب النساء إلى الفرع المحلي لمنظمة ما، لأنهن لا يخترعن، كما يفعل الرجال، ذرائع من مثل جمع العملات أو زمالة قديمة في مدرسة ما أو نشاطات رياضية يمارسنها بلا حماس لكي يجتمعن؛ وفي سهرات السيدات تراهنّ يراقبن بوجوه جامدة، فيما الأزواج يتعانقون، ويمزحون على التعليقات التي يتبادلونها فيما بينهم باعتبار أنهم جميعًا رجالٌ بالغون. هنّ لا يعرفن شيئًا عن الحب بين الأصحاب، ولا يستطعن أن يحببن بعضهن بعضًا بهذه الطريقة السهلة البريئة العفوية، لأنهن لا يستطعن أن يحببن أنفسهن. ما نراه فعلًا، ونحن نجلس إلى الطاولات قرب الجدار، هو مجموعة من الخادمات المقنّعات المتأنقات اللواتي يتجنبن عرض حليهن لأعين الأخريات الناقدة مع أنها تعتبر رمزًا للمكانة، وقد خلعن وزراتهن وتعطرن متظاهرات بالراحة والاسترخاء، لكنهن في الحقيقة لا يشعرن إلا بالتعب. كل ما يمكن أن يحدث لتمضية المساء هو أن توقع واحدة منهن الفوضى في علاقة الحب المحيطة بها بأن تجبر زوجها على إغداق اهتمامه عليها، أو بأن تعثر على

شخص آخر يفعل. لنفترض أن الرجال لا يتركون نساءهم لينضموا إلى رفاقهم، فإن المحادثة تبقى بين رجل ورجل ولكن بنبرة أنثوية. المزاح مزاح رجال؛ والعمل والحكايات التي تدور عنه من اختصاص الرجال. وإذا لم يكن الجنس الذي انتزع من علاقة مثلية متركّزًا عليها حصريًا، لوجدت لديها سببًا للشكوى. لا أحد يشكو من أنها تمارس الجنس بلا حب، وأن لديه حب بلا جنس. هذا هو الوضع الصحيح وكل ما عداه مرعب.

ليس الأمل هو الشيء الوحيد الذي ينبع بلا توقف في الصدر الإنساني. فالحب يظهر هناك جليًا بين حين وآخر. ومازالت المشاعر الحميدة العفوية التي يحملها المرء تجاه أبناء نوعه تغيّر شكلنا بين حين وآخر، لا في علاقات أساسها الأمان والمداهنة، بل في حوادث شاذة تقوم على الثقة والتعاون في أوضاع لا تقوم أساسًا على الواجب والإكراه. ظهرت هذه الحالة الاستثنائية من الحب الحر في الرسائل الواردة إلى مجلة ذا بيبل (*The People*):

منذ ثمانية عشر عامًا انتقلت مع زوجي إلى أول بيت لنا. وبعد أسبوعين جاء جيراننا في المنزل المجاور. ظننا في البداية أنهم متحفظون نوعًا ما، وهم، بالمقابل، لم يكونوا متحمسين جدًا تجاهنا.

ولكن مع مرور الوقت، حمدنا الله على اليوم الذي جاؤوا فيه للعيش جيرانًا لنا. تشاركنا معهم الأوقات السعيدة. وكانوا مثل جدين لابنتنا. وحين كانت المشكلات تبلغ ذروتها، كانوا دائمًا جاهزين للمساعدة.

وقد عبّروا لنا مؤخرًا عن تقديرهم بطريقة مدهشة. ذلك أن زوجي غيّر عمله، فاضطررنا إلى الابتعاد مسافة تبلغ 200 ميل. وفاق وداع الرحيل كل شيء. إذ بدلًا من أن يودعونا، غيّر زوج جارتي عمله، وانتقلوا معنا إلى المكان الجديد.

صحيح أننا لم نعد جيرانًا «الباب ع الباب»، لكننا لا نبعد عن

بعضنا الآخر سوى خمس دقائق. هذه صداقة صمدت فعلًا أمام اختبار الزمن[174].

هذه الحالة الرائعة نادرة في الحقيقة، لأن الاتجاه العام في العلاقات العائلية هو أن تسير في اتجاه مضاد لهذا النوع من العاطفية التي تتجاوز العائلة. في كل مرة يفضي فيها إنسان بهمومه لشخص غريب عنه يؤكد أن الحب يوحد الإنسانية. وللتأكيد، هو يفضي بمكنونات قلبه بكلمات، لكنه، في الوقت ذاته، يُشجَّع على أن يتوقع الاهتمام والتعاطف، وغالبًا ما يحصل عليهما. يشعر محادثه أنه غير قادر على أن يفرض معاييره الخاصة على سلوك من يأتمنه على أسراره؛ وهكذا يشعر لمرة بما يشعر به شخص آخر. ليس الأسى والسوء هو ما ينتقل دائمًا بتلك الطريقة، بل أحيانًا الفرح والفخر. أذكر سائق شاحنة أخبرني مرة عن زوجته، حدثني كم هي مثيرة وذكية ومحبة، وكم هي جميلة. ثم أراني صورتها، فاحمرّ وجهي مع إحساس بالذنب، لأنني توقعت شيئًا لدنًا، أما ما رأيته فكان امرأة تعتبر بالمقاييس العامة عادية وسمينة وملابسها متنافرة. نصف الهدف من قراءة الروايات ومشاهدة المسرحيات والأفلام هو أن نشعر بالقدرة على التعاطف مع بنات جنسنا، وهي قدرة غالبًا ما تذبل تحت ضغط ضوابط الوجود الاجتماعي الفعلي وأعرافه المتنوعة. وهكذا، فحين نتحرر من الشعور بالازدراء نحو **كاميل** (Camille) أو بالغيرة من **جولييت** (Juliet)، قد نتفهم حتى قاتل الملك أو من يمارس سفاح القربى مع أمه[175]. وذلك هو الحب.

يقوم حب الأصحاب على التفاهم، وعلى التواصل تاليًا. ذلك أن

174- *The People*, 12.11.1969.

175- ربما تكون هذه إشارة إلى حكاية أوديب، الذي قتل أباه الملك وتزوج أمه حسب الأساطير أو الحكايات اليونانية القديمة. [المترجم]

الحب هو الذي علّمنا أن نتكلم، والموت هو الذي وضع أصابعه على شفاهنا. كل الأدب، مهما كان قدحيًا، هو فعل من أفعال الحب، وجميع أشكال التواصل الإلكتروني تشهد على إمكانية التفاهم. إن قوتها الفعلية على الإحاطة بالقرية الكونية لم تفهم فهمًا صحيحًا بعد. إن لعيني طفل **بيافري** (Biafran) قدرة على إيصال رسالة لا تخطئ، رسالة تتجاوز سجالات الإحصائيين والسياسيين وغيرهم من الكلبيين المهنيين وصنّاع الموت. ولكن، في حين يغذي الإعلام الإلكتروني حبّنا لنوعنا، تضع ظروف حياتنا القرب محل الشغف.

إذا كنا نستطيع أن نقدم مثالًا على الحب قابلًا للتحقيق، فسيكون شبيهًا بالعلاقة التي وصفها **ماسلو** والموجودة بين شخصيات تحقّق ذاتها. وهي تمثل توازنًا محفوفًا بالمخاطر تمامًا، ذلك أن قوى النظام والحضارة تستجيب مباشرة بالتأكيد لتحدَّ من إمكانيات تحقيق الذات. يصف **ماسلو** شخصياته المثالية مفترضًا أن لديها إدراكًا أفضل للواقع، وهو ما أسماه **هيربرت ريد** (Herbert Read) العين البريئة، مثل عين الطفل الذي لا يسعى إلى رفض الواقع. وعلاقة تلك الشخصيات مع عالم الظواهر غير محكومة بالضرورة الشخصية لأن تستغله أو يستغلها، بل بالرغبة في مراقبته وفهمه. هي شخصيات لا تشعر بالاشمئزاز؛ والمجهول لا يخيفها. إنها بلا استعداد دفاعي أو تكلّف. وأسباب الأسف الوحيدة هي الكسل وانفجارات المزاج وإيذاء الآخرين والتحامل والغيرة والحسد. سلوكها عفوي، لكنه متطابق مع قانون أخلاقي تلقائي. وتفكيرها يتمركز على المشكلة، لا على الذات، وهكذا، فهي غالبًا ما تتمتع بحس بالالتزام يتجاوز شؤونها اليومية. واستجاباتها تتعشق مع الحاضر، لا مع الحنين إلى الماضي أو توقّع المستقبل. وعلى الرغم من أنها لا تلتزم بدين معيّن نتيجة الإحساس بالذنب أو الخوف أو أي نوع آخر من الإكراه، فإن بلوغ التجربة الدينية،

التي يسميها **فرويد** *الشعور الكوني* (oceanic feeling)، أسهل عليها من المتدين التقليدي. ذلك أن العامل الأساسي في تحقيق الذات هو الاستقلالية ومقاومة التطبيع الثقافي؛ والخطر المتأصل في هذا هو الاستقلالية المفرطة أو الانحراف الصريح؛ ومع ذلك، فتلك الشخصيات أقدر على منح الحب، إذا كنا سنصدق ما قاله **روجرز** (Rogers) عن الحب، وهو «إننا لا نستطيع أن نحب شخصًا إلا إلى الحد الذي لا نكون فيه تحت تهديده».

> ... أن نطقت كلمته بمديح الأنانية: **الأنانية الصحية**، الجيدة التي تنبع من أعماق الأنفس القوية:
>
> من نفس قوية ينتمي إليها الجسد السامي الجميل الظافر والممتع الذي يتحول كل شيء من حوله إلى مرآة:
>
> الجسد المرن ذي البيان الساحر، الراقص الذي يكون رمزه وخلاصته في النفس التي تجد متعتها في نفسها[176].
>
> **نيتشه، «*هكذا تكلم زرادشت*»**

يمكن لشخصنا الذي يحقق ذاته أن يزعم أنه قادر على حب الجميع لأنّ أحدًا لا يمكن أن يهدده. وبالطبع ستحدّ الظروف من إمكانية أن يحب الجميع، لكن ستكون صدفة محضة أن تبقى شخصية من هذا القبيل أحادية الزواج تمامًا. وسيكون شريكًا غير مرضٍ من وجهة نظر أولئك الأشخاص الذين يريدون أن يكونوا تحت السيطرة أو موضع استغلال أو أن يقيموا أي نوع آخر من التعايش الإلزامي؛ وبما أن عدد الشخصيات التي تحقق ذاتها قليل بالمقارنة مع النوع الآخر من الشخصيات، فإن الشخص الذي يحقق ذاته عادةً شريك غير

176- أخذت ترجمة هذا المقطع حرفيًا من الترجمة التي قام بها علي مصباح للكتاب والصادرة عن منشورات الجمل. [المترجم]

مناسب. ولدى **ماسلو** تعليق غير متوقّع عن السلوك الجنسي للشخص الذي يحقق ذاته:

> وجدت سمة أخرى للحب لدى الأشخاص الأصحاء، وهي أنهم لم يقوموا بأي تفريق حاد في الحقيقة بين أدوار الجنسين وشخصياتهما. أي أنهم لم يفترضوا أنّ الأنثى سلبية والذكر إيجابي، سواء في الجنس أو الحب أو أي شيء آخر. كان أولئك الأشخاص متأكدين جدًا من ذكورتهم أو أنوثتهم حتّى أنهم لم يمانعوا في تبنّي بعض جوانب دور الجنس الآخر. ومن الجدير بالملاحظة، على نحو خاص، أنهم كانوا قادرين على أن يكونوا محبين سلبيين وإيجابيين في الآن ذاته... وهذا مثال على الطريقة التي تحل بها الانقسامات الشائعة في تحقيق الذات، والتي لا تبدو انقسامات صحيحة إلا لأن الناس ليسوا أصحاء بما يكفي[177].

قد يكون ما يعبّر **ماسلو** عنه أكثر قليلًا من مجرد تحيز لصالح نوع معين من بنية الشخصية، مجرد طريقة أخرى من التسوية بين **إيروس** والحضارة، ومع ذلك فنحن جميعًا منخرطين في تسوية فعالة ما. تشير مصطلحات **ماسلو** على الأقل إلى اتجاه يمكن أن نسافر فيه، وليست مجرد عرض نظري لما يمكن أن تكون الشخصية عليه إذا أنجز التحليل النفسي الهدف الذي لم يعبّر عن نفسه، أو يبرر نفسه بوضوح حتى الآن للعالم المنتظر، «حتى نعيد أرواحنا إلى أجسادنا، حتى نعيد أنفسنا إلى أنفسنا، ونتغلب، من ثم، على حالة اغتراب النفس الإنسانية»[178].

ربما يكون مفاجئًا، ولكنه حقيقي، أن **ماسلو** شمل بعض النساء في عينته عن الشخصيات التي تحقق ذاتها. وهذا، في نهاية المطاف، أمر يمكن التنبؤ به، حتى وإن كانت حججي حول تطبيع النساء الثقافي

177- A. H. Maslow, *Motivation and Personality* (New York, 1954), pp.208—46; quotation from pp. 245—6.

178- Norman O. Brown, *Life Against Death* (*op. cit.*), p. 144.

صحيحة. ذلك أن عملية القولبة الأنثوية هي، على نحو ما، واضحة جدًا، ولا يمكن لنساء كثيرات تحقيقها بالمطلق، حتى ليغدو من السهل أن يقمن ببردة فعل عليها. يحتاج الأمر مقدارًا كبيرًا من الشجاعة والاستقلالية حتى تقرر امرأة أن تصمم صورتها الخاصة، بدلًا من تبنّي الصورة التي يكافئها المجتمع عليها، ولكن ذلك يغدو أسهل وهي تمضي قدمًا. وبالطبع ستجد المرأة التي تقرر أن تمضي في طريقها الخاص أنها لا تستطيع استئصال تكييفها، ولكنها تستطيع على الأقل أن تدرك الآلية التي يعمل بها وأن تختار مواجهته، في حين قد يجد الرجل أنه كان مخدوعًا على نحو أكثر براعةً. ومن المحتمل أن تكتشف المرأة التي تقرر أن تغدو عاشقة دون شروط أن علاقاتها تنتهي بسهولة نسبية نتيجة درجة مقاومتها لمحاولات «تدجينها»، وسيكون رأي صديقاتها عادةً إلى جانب الرجل الذي كان على علاقة حب بها، والذي كان مهيئًا للقيام بما هو لائق، وهكذا. ليس هناك تمييز عادةً بين إقامتها علاقات جنسية نتيجة رغبتها الجنسية الثابتة ورقّتها واهتمامها بالناس، واقامتها علاقات إجبارية أو عجزها عن قول لا، على الرغم من أنهما مختلفان جوهريًا. وغالبًا ما يحط الناس، الذين تشعر تجاههم ببالغ الرقة، من قدر حبها، كما يُحتمل أن يتعرض تقديرها لذاتها لكثير من الهجوم الشخصي. لا يمكن لمثل هذه الضغوط أن تمر دون أثر بالمطلق. وإذا وجدت امرأة لا تكبح سلوكها نتيجة تلك الضغوط، فستجد نفسها ترد بطريقة مختلفة، فتتصرف بعنف مع أنها لا تقصد إلا أن تتصرف بعفوية، وهكذا، قد تقصر نفسها على كتابة دفاعات عن إقامة العلاقات الجنسية، أو حتى كتب عن النساء.

يجب أن ترفض النساء، لأجل الحب، الأدوار المعروضة عليهن في مجتمعنا. فالكائنات العاجزة المتقلقلة الدونية لا تستطيع أن تحب بسخاء. جاء التعبير التام عن مثال الحب الأفلاطوني، عن مثال

إيروس، على أنه قوة خلاقة باعثة على التوازن والانسجام في العالم، في الإنجليزية في قصيدة شكسبير التجريدية «**العنقاء والقمري**»[179] حيث أنهما:

أحبًا، لأن الحب بين اثنين
يوحدهما حتى ليغدوا واحدًا
واحدًا يميّز اثنين لا انفصام بينهما:
فهناك على مذبح الحب انصهر الاثنان في واحد.

القلوب بعيدة، لكنها ليست متباعدة؛
كانت هناك مسافة بين القمري وملكته،
لكن أحدًا لم ير بينهما فراغًا:
أما فيهما فكان الأمر أعجوبة.

ليست القصيدة دفاعًا عن الانتحار على محرقة زوج متوفّ، مع أنها تصف الجنازة المشتركة للعنقاء والقمري. إنها تعبير عن مفهوم الانسجام واحتفاء به، عن الاندماج والانصهار معًا اللذين لم يضحَّ بهما ولم يطمسا، تلك المعرفة غير التدميرية التي تعلّم وايتهيد من كتابات **لاو-تسي** أن يقدّرها.

هكذا كانت الملكية مروعة
حتى أن النفس لم تكن ذاتها؛
الاسم المضاعف للطبيعة المفردة
لم تكن تُدعى اثنان ولا واحد.

179- (The Phoenix and the Turtle) هناك إشارات كثيرة للقصيدة في مصادر عربية بعنوان «العنقاء والسلحفاة»، ولكن لدى الرجوع إلى القصيدة وشرحها باللغة الإنكليزية تبيّن أنها تتحدث عن الحب بين الطيور. والخطأ ناجم عن الاستعجال بترجمة (Turtle) إلى «سلحفاة» في حين أن المقصود هو (Turtledove)، وهو نوع من الطيور شبيه باليمام اسمه القمري. [المترجم]

العقل في ذاته مرتبك،
وقد رأى المنقسمَين يكبران معًا؛
لنفسيهما، ومع ذلك إمّا.. ولا
بسيطَين ومتآلفين جيدًا[180].

حب النظراء هو روح العامة، وحدة الجمال والحقيقة. لا يتعايش العنقاء والقمري بالضرورة، لأنهما يجسّدان مبدأ التعاطف الذي لا يعتمد على الاعتياد. تجدّد العنقاء نفسها باستمرار في رمادها، مثل شخصية ذات وجود متقلّب. ليس حب العنقاء والقمري هو الالتحام الذي يدوم مدى الحياة بين زوجين مرتبطين برباط مشترك، وإنما مبدأ الحب الذي يعاد تأكيده في علاقة الذات النرجسية بالعالم الذي هي جزء منه. وهو ليس وهم إلغاء الذات في هوية شخص آخر من خلال السيطرة الجنسية، لأنه حالة روحية من الفهم.

لم تظهر الروحانية في أفقنا بعد، الروحانية التي تعني نقاء طبيعة قوية ونبيلة، مع كل القوى الجديدة وغير المجرّبة التي تنشأ عنها؛ وعدم وجودها هو نتيجة طبيعية لتنوع في الاهتمامات بين الرجل والمرأة اللذين يجتمعان في الأغلب الأعم نتيجة الانجذاب العاطفي؛ ولولاه لكانا متباعدين مثل القطبين[181].

في الحقيقة، يحب الرجال والنساء بطريقتين مختلفتين، وكثير من السلوك الذي نطلق عليه صفة الحب بعيد كل البعد عن اللطف ومعادٍ للمجتمع، حتى ليجب اعتباره معادٍ لطبيعة الحب الجوهرية. يتضمن أسلوب حياتنا من **ثاناتوس** أكثر مما يتضمن من **إيروس**، لأن الأنانية والاستغلال والخداع والاستحواذ والإدمان لها في نفوسنا مكان أكثر مما للشهوة والفرح والسخاء والعفوية.

180- William Shakespeare, 'The Phoenix and the Turtle' (*The Complete Works*, ed. W. J. Craig, Oxford, 1959, p. 1135).

181- S. E. Gay, *Womanhood in its Eternal Aspect* (London, 1879), p. 4.

الغيرية

«لا يبحث الحب عن إرضاء نفسه،
ولا يعتني بنفسه أي عناية،
لكنه يمنح الآخر الراحة،
ويبني جنة في قنوط الجحيم».

هكذا غنّى أحمق من طين،
وقد داسته أقدام القطيع...[182]

تحدثت عن الحب بوصفه توكيدًا للثقة بالنفس وتوسيعًا للنرجسية لتشمل نوع المرء الخاص المدروس من زوايا متنوعة. ومع ذلك فقد قيل لنا: «ليس للحب العظيم أي رجل إلا ذاك الذي يقدم حياته من أجل صديقه». كانوا يشجعوننا في المدرسة على أن نحرم أنفسنا كي نعطي الآخرين، فكنا نمتنع عن أكل الحلويات، ونلقي نقودنا في صندوق أحمر وأصفر مزيّن بتمثال طفل أسود صغير على الجانب الأمامي لصالح البعثات التبشيرية، في حال كنا أتقياء. كان ذلك الفهم للحب يقوم على أنه تضحية عبر نكران الذات؛ إهمال الذات بتواضع وصبر وتفان.

182- William Blake, 'The Clod and the Pebble', *Songs of Experience* (*Nonesuch*, p. 66).

كانت الأنانية الأساسية في الممارسة واضحة للكثيرين منا في سلوك أتقى الفتيات، لأن هدف الممارسة النهائي كان الحصول على رحمة الرب. كان الواجب يقتضي القيام بكل فعل من تلك الأفعال للرب، وإلا فإن الوديعة السماوية لن تحوّل لحسابنا. ومع ذلك فقد كانت فكرة مغوية. إذ التقطت ميولنا المازوشية وربطتها بأوهام الإبادة. قيل لنا: هذا هو حب الأم التي تندفع بجسدها نحو طفلها عندما يتهدده الخطر، أو البطة التي تخدع الصيادين لتبعدهم عن عشها. حب نبيل وغريزي وأنثوي. تمتعت أمهاتنا جميعًا بهذا الحب، وإلا لما تجرأن على تحمّل الألم والمرض ليجئن بنا إلى هذا العالم. لا يستطيع أحد النيل من عظمة تضحيات الأم من أجل أبنائها، ولاسيما من أجلنا نحن الذين لم نحصل حتى على تعليم مجاني. كانت كل أم قديسة. كانت الوصية بالطبع أن تحب جارك كما تحب نفسك، ومع ذلك، كانت الراهبات يُطردن من الأديرة خشية احتمال أن يحببن جاراتهن أكثر من أنفسهن.

ربما تكون الغيرية مثلًا أعلى رفيعًا، لكنها خيالية لسوء الحظ. لا يمكن أن نتحرر من أنفسنا، ولا أن نتصرف في تضاد مع دوافعنا، إلا إذا كنا سنتصرف مثل بطّات، مثل مخلوقات غريزية تسعى للحفاظ على نوعها. كنا، نحن الأبناء الموجودون على الطرف المتلقي، نعرف أن تضحية أمهاتنا بأنفسهن مغروسة أساسًا في عقولنا. وكان هناك دائمًا من يحضّنا على الامتنان لهبة الحياة. تضحية قريبة من الافتداء بالنفس. وهو أمر لن نتمكن من التعبير عن امتناننا له بما يكفي، مع أننا لم نفهم قط لمَ يجب أصلًا أن يموت أحد من أجلنا. وكان علينا أن نكون شاكرين لهبة الحياة. أشارت الراهبات إلى أن الوصية بحب الأهل جاءت مباشرة بعد الوصية بحب الرب، وبما أنهن كنّ في مكان الأهل، ويعشن فقط من أجل الرب ومن أجل جيرانهن، كان يفترض بنا أن نكون ممتنين لذلك أيضًا. لكن الأبناء براغماتيون. وهكذا، سرعان

ما أدركنا أن أمهاتنا يقمن بابتزازنا تحت ذريعة التضحية بالذات، مع أنه ليس من المؤكد أنهن كن سيصبحن نجمات أوبرا عظيمات أو معبودات الجماهير في المدينة، لو لم ينجبننا. وهكذا، أشرنا في لحظات تمردنا أننا لم نطلب أن نولد، ولم نطلب أن نذهب إلى مدرسة باهظة التكاليف. عرفنا أنه كانت لديهن، ولا شك، دوافعهن الخاصة ليقمن بما قمن به معنا ولنا. وهكذا، لم تملأنا فكرة تضحية أهلنا بأنفسهم بالامتنان، بل بالاضطراب والإحساس بالذنب. أردنا أن يكن سعيدات، لكنهن كن حزينات ومحرومات، وكان الخطأ خطأنا. صرخة أم بورتنوي[183] هي صرخة كل أم، إلا إذا تخلت عن دور الشهيدة تمامًا. كنا، عندما نتعرض للتوبيخ أو الضرب لأننا نسبب القلق لأمهاتنا، نحاول الإشارة إلى أننا لم نطلب منهم الاهتمام بأفعالنا إلى هذه الدرجة. وكنّا نعرف، عندما تحمل التقارير المدرسية إدانة واتهامًا لنا، من هو الطرف الذي تسعى تلك التضحية إلى استجداء رضاه. ألم تكن هناك أي فرصة لأن نكون على الطرف المعطي في تلك المعاملات العاطفية؟ أما حين يتعلق الأمر بالراهبات، فكنا على ثقة من أنهن حين تخلين عن العالم وكرّسن أنفسهن لله ولنا، فإنهن لم يتخلين عن أي شيء أردنه بشغف، وبالتأكيد لم يتخلين عنه من أجلنا نحن اللواتي لم يكنّ يعرفننا.

ولكن، في حين قد يبقى الأبناء الذكور منفصلين نسبيًا عن دوافع أهلهم وشكاكين تجاهها، فإن الفتيات الصغيرات يكرّرن في النهاية المراحل التطورية. إن تصوراتهن عن أنفسهن مشوشة جدًا، واتكالهن المهذب قوي جدًا إلى حد يبدأن معه بممارسة التضحية بالذات في مرحلة مبكرة جدًا من العمر. ومازلن يكفّرن عن خطيئتهن الأولية

183- إشارة إلى رواية شكوى بورتنوي (*Portnoy's Complaint*) للكاتب الأمريكي فيليب روث، وهي تتحدث عن علاقة مضطربة بين شاب وأمه. [المترجم]

لأنهن ولدن، في حين يتخلين بشجاعة عن جميع الاهتمامات ويركزن على جعل رجالهن سعداء. إن إدراك الدافع الحقيقي للتضحية بالذات يوجد، على نحو ما، إلى جانب الأيديولوجيا الرسمية المتعلقة به. يسعى خبراء العلاقات العامة إلى اجتذاب الفتيات إلى مهنة التمريض تحت شعار أنها أكثر عمل مجزٍ في العالم، ومع ذلك فهي أصعب مهنة وأقلها أجرًا. إن شعور المرء بالرضا ينبع من إحساسه بأنه قام بما هو خير. وهكذا، لا ينتاب الممرضات شعور طيب لأنهن يخففن آلام المرضى فحسب، بل ولأنهن يحصلن على مكافأة صغيرة مقابل ذلك؛ ولهذا فهنّ دائمًا في وضع المعطي عاطفيًا. يستطيع أي مريض في مستشفى عام أن يخبرك كيف يترجم هذا الاستغلال للمازوشية الأنثوية على أرض الواقع. ويستطيع أن يخبرك بذلك أيضًا أي مريض قضى الليل متقلبًا من الألم بدل أن يرن جرس استدعاء الممرضة المناوبة المجهدة التي ستكيل له كلمات التوبيخ إن فعل.

في العلاقات الجنسية، يضلل هذا الخلط بين الغيرية والحب أغلبية الناس. أما اللازمة التي تتكرر في معظم الألاعيب الزوجية التي تقوم بها النساء فهي التضحية بالذات؛ وتلك الألاعيب تتراوح بين أكثرها فجاجة («لقد أعطيتك أفضل سنوات عمري») وأكثرها ابتذالًا («لم أذهب معه إلى السرير إلا لكي يقوم بترقيتك»). المكافأة التي ترجوها من تضحي بذاتها كثيرًا هي الأمان، لكن توقع المكافأة يجعلنا غير قادرين على تسمية ذلك تضحية. إنما ذلك، في الحقيقة، نوع من التجارة، نوع يجب أن تكون الأنثى فيه دائمًا هي الطرف المعطي. وبالطبع، يمارس ذلك رجال يفسرون فشلهم في القيام بأعمال مثيرة أو المخاطرة بحالة غير آمنة بالتزاماتهم تجاه الزوجة و/أو الأبناء، لكن ذلك ليس ثابتًا، إذ من الصعب أن تفكر في علاقة بين ذكر وأنثى يغيب عنها عنصر التضحية بالذات من جانب الأنثى. طالما يجب أن

تعيش النساء حياة بديلية، من خلال الرجال، فلا بدّ من أن يبذلن قصارى جهدهن ليظهرن بمظهر من لا غنى عنه، وهذا عمل يتطلب تفرغًا، يطلق عليه عمومًا وخطأ اسم الغيرية. وفي الحقيقة الغيرية، بالمعنى الضيق للكلمة، شيء سخيف. فالنساء يضحين بأنفسهن على نحو يتناسب طردًا مع عجزهن عن تقديم أي شيء سوى هذه التضحية. إنهن يضحين بما لم يملكنه قط: ذاتهن. أما صرخة المرأة المهجورة: «ما الذي فعلته لأستحق هذا؟» فتكشف فورًا الاقتصاد العاطفي الزائف الذي كانت تسير عليه. لا يكتشف معظم الرجال، إلا في الشجار، كم نساؤهم مذعنات ذلك الإذعان المنافق الكاره. من الواضح أن الغيرية الكاذبة ليست حكرًا على النساء، ولكن طالما تحتاج النساء إلى رجال ليتعيشن عليهم، وطالما أن الرجال، سواء اتخذوا زوجات أم لا، سيعيشون بالطريقة ذاتها، فستشكل تلك الغيرية دافعًا أهم لدى الإناث منه لدى الذكور. إن الوصية التي أطلقها **أليستر كراولي**[184] «افعل ما تشاء»، والتي فُهمت خطأ، هي تحذير بألا يخدع المرء نفسه بأنه قادر على القيام بعكس ذلك. إذ عندما يختار المرء بصدق مسارًا لنفسه، فلا يمكن أن يجعل شخصًا آخر مسؤولًا عنه. الغيرية هي تعبير عن لاأصالة الأنثى المستمرة في سلوكها. إنها تابع آخر من توابع الخلل في نرجسية الأنثى.

184- (Aleister Crowley 1875-1947): طبيب عيون وساحر وشاعر وروائي ومتسلق جبال إنكليزي. يعتبر مؤسس مذهب وفلسفة تيليما (Thelema) وفيها اعتبر نفسه النبي الموكل إليه إرشاد البشرية في القرن العشرين. والقانون الأساسي في هذه الفلسفة هو «افعل ما تشاء». [المترجم]

الأنانية

لكنّ حصاة من حصى الجدول
تشدو بهذه الأبيات:
«لا يبحث الحب إلا عن الذات لإرضائها،
وإلزام شخص آخر ببهجتها،
ويبتهج بفقدان شخص آخر لراحته،
ويبني جحيمًا في ازدراء السماء»[185]

إذا كانت الغيرية وهمًا، فليس معنى ذلك أن كل سلوك الحب أناني أساسًا. ليست النرجسية، التي أشرت إلى أنها أساس الحب، ظاهرة من ظواهر الأنا، أي ذلك الجزء الواعي والمدرك لذاته من الشخصية، وإنما تابع للشخصية بكليتها. وليست الأنانيّة في الحب حب شخص لآخر من نوعه، بل افتراض وحدة قائمة بين شخصين يجب فرضها وحمايتها من جميع محاولات تكييفها اجتماعيًا. إذا كان شخص ما لا يحب سوى شخصًا آخر، ولا يبالي تجاه بقية رفاقه، فإن حبه ليس حبًا، بل ارتباطًا تكافليًا، أو أنانية متضخمة[186]. افترض

185- William Blake, 'The Clod and the Pebble', *Songs of Experience* (*Nonesuch*, p. 66).

186- Erich Fromm (*op. cit.*), p. 38.

فرويد أن الحب الجنسي حصري لأن الغيرة بدت جزءًا لا يتجزأ منه، وفي الحقيقة سنرى أن معظم تجارب الزواج الجماعي تخفق نتيجة الصعوبات التي يمر بها كل شخص تقريبًا عندما يحاول أن يتغلب على الأنانية الجنسية، ولو تمتع بأفضل إرادة في العالم. إن غيرة الرجل حيال زوجته أنانية واضحة بطريقة تختلف اختلافًا ملحوظًا عن الغيرة الأنثوية. تصبح المرأة امتدادًا لأنا الرجل مثل حصانه أو سيارته. وهكذا يمكن أن تُسرق، والجريمة تكمن في السارق وليس في الملكية. وهكذا يحاول الرجال أن يستعيدوا صورتهم المتضررة عندما يُظهرون العنف تجاه الرجال الذين يرقصون مع زوجاتهم أو يرمقونهن بنظرات الغرام. ليس الافتراض بأن النساء مشوشات هو ما يثير في العادة غيرة الذكور في مجتمعنا، وإنما الافتراض بأنهن ميالات للإذعان في العلاقات الجنسية. يبدو وكأن الرجال، في معظم الأحيان، يغازلون نساء الرجال الآخرين نتيجة الرغبة في الوصول إلى الرجال، لا نتيجة الرغبة بالنساء، ومن هنا جاءت متلازمة صراع الديوك التي مازالت مسيطرة على نحو مضحك حتى في مجتمع أنغلو ـ ساكسوني في القرن العشرين. تُحدّد علاقات الحب نفسها، لدى البعض، على أساس الحصرية الغيورة. «أنا فقط أحب أن أبقى بقربها. وهذا لا يعني أنني أريد أن أتبادل معها أحاديث عظيمة. كل ما في الأمر أن إحساسًا فظيعًا يراودني حين أراها مع شخص آخر»[187]. مصطلحات ذلك الشغف كلها سلبية. تؤخذ جملة من مثل «لم أرغب أبدًا بأحد سواك؛ أنت المرأة الوحيدة التي أحببتها في حياتي» على أنها مبرر كاف لحقه المطلق في حيازتها. إذ بما أن المحب لا يستطيع العيش دون محبوبته، فيجب أن تبقى معه حتى ولو ضد إرادتها. وغالبًا ما يؤخذ ذلك على أنه حب. طالما بقيت المحبوبة، فستعامل بكثير من السخاء، ولكن ما أن

187- *Honey*, August 1969, 'She Loves me Not'.

تغادر حتى تصبح موضوعًا للكراهية والانتقام. ظهرت دلالات مثل هذا التعايش في قصة مروعة في الصحف الإيطالية. اختطف **ميو كاليري** (Meo Calleri) **ماريا تيريزا نوفارا** (Maria Teresa Novara) من بيت أهلها في آستي في بييدمونت ووضعها في غرفة تحت الأرض لا يعرف بوجودها أحد. وهناك، ظلَّ يزودها بالطعام وبالقصص الفكاهية، حيث كانت تكتب على الهوامش نوعًا من المذكرات اليومية تصف فيها أيامها في انتظار أن يأتي حبيبها إليها. لكنه ذات يوم قضى في حادث سيارة. ولم يكن أحد يعرف بعش الحب ذاك، فأخذت رهينته تعيسة الحظ تختنق ببطء، مستلقية بتثاقل وقد تزيّنت في انتظاره على السرير الضيق. صحيح وزيادة أنها لم تستطع العيش بدونه![188]

ومع ذلك، يفترض استشاري عاطفي معاصر أن الرد بالإيجاب على أسئلة «هل تشعرين أنك لا تستطيعين العيش بدونه؟» و«إذا خسرته غدًا فهل ستشعرين أن الحياة لم يعد لها معنى، وأنك لن تشعري الشعور ذاته نحو أي شخص آخر؟»[189] هو دليل على أن المرأة عاشقة، عاشقة فعلًا. إذا نظر الرجال إلى إخلاص النساء بوصفه دعامة ضرورية لأناهم، وإلى خيانة الزوجة لزوجها بوصفه العار الأكبر، وهم كذلك حتى في إنكلترا، فإن النساء مستعدات لتحمّل الخيانة الزوجية لأنهن يحتجن بقوة إلى أمان فعلي، وليس أمانًا ظاهريًا. إنهن يعانين من عذاب الغيرة لأنهن يخفن من الهجر، الذي غالبًا ما يبدو لهن أمرًا واردًا. في حين لا يتوقع أي رجل الهجر إلى أن يواجهه دليل على أن زوجته تخونه أو أنها تركته.

188- *Weekend*, 8—14 October 1969.
189- Mary Hyde (*op. cit.*), p. 70.

> حسودًا وقف الهيكل الهائل، متناقضًا مع ذاته
> في جميع أعضائه، في العذاب الأبدي للحب والغيرة،
> يدفعه **لوس** (Los) إلى الأمام المرة تلو المرة
> من شاطئ **ألبيون** كثير المنحدرات
> ساحبًا محبة القدس الحرة إلى عبودية جهنمية
> حتى أنها قد تولد في نزاعات نكران الذات جنسيًا
> وفي الكره القاتل بين **ليئه** و**راحيل**، بنات الغش والخداع
> وحاملًا صور الأنواع المتنوعة من الصراع والغيرة
> والبغض والانتقام والقتل المميت
> حتى يرفضن الحرية للذكر، لا مثل **بيولاه** (Beulah)،
> حيث تبتهج كل أنثى بأن تمنح خادمتها لزوجها.
>
> **وليم بليك، *«القدس»***

وكما جعل **كومبتون ماكنزي** (Compton Mackenzie) إحدى الشخصيات في **نساء خارقات** (*Extraordinary Women*) تلاحظ:

> لقد قال **فولتير** (Voltaire) بأنه لا يمكن لأي رجل أن يتخيل سببًا يجعل أي امرأة تتمنى أن تنام مع شخص آخر سواه؛ ولكني أعتقد أنه كان يستطيع أيضًا أن يقول إنه، بعد عمر معين، لا يمكن لأي رجل أن يتأكد تمامًا من أن المرأة التي تنام معه تريد فعلًا أن تنام معه. ولكن من اللحظة الأولى التي تنام فيها امرأة مع رجل، فإنها تفكر دائمًا بأنه يريد أن ينام مع امرأة أخرى[190].

يشعر الرجل بالغيرة نتيجة اعتداده بنفسه؛ أما المرأة فتشعر بالغيرة لأنها تفتقد ذلك الاعتداد. ذات يوم، أرادني رجل أن أعيش

190- Compton Mackenzie, *Extraordinary Women* (London, 1967), p. 107.

معه، وعندما سألته عما إذا كان سيتعامل معي بطريقة استحواذية أم لا، أكد لي أنه سيمارس الحب معي بما يكفي بحيث لا أتمكن من الرغبة برجل آخر. هذا النوع من الغطرسة هو ما يجعل الرجال غير قادرين على احتمال الخيانة الفعلية، أما استحالة ذلك تمامًا على النساء، اللواتي يتخيّلن أن ليست لديهن أي طريقة للتحكم بجنسانية رجالهن، فهي ما تؤدي إلى إحساس النساء بعدم الأمان. تدرك المرأة أن زوجها يقدّرها بوصفها شيئًا، وشيئًا مقولبًا حتى أنها لا تستطيع، هي نفسها، أن ترى ما يمنع اشتهاءه الصدر المكشوف لضيفة أخرى على العشاء، ولاسيما إذا كانت خائفة من أن يكون الصدر المكشوف أفضل تكوينًا من صدرها حسب معايير المرأة ـ القالب. بالطبع، تفترض نساء كثيرات أنهن يسيطرن على جنسانية أزواجهن، وإحدى أسهل طرق القيام بذلك هي إغراقهم بممارسة تجعلهم مدمنين عليها. أتذكّر امرأة تباهت أمامي مرة بأن لديها في السرير شيئًا لا يوجد لدي، ولهذا لا بدّ أن يكون صديق مشترك قد أحبها أكثر مما أحبني. واكتشفت في النهاية أن ما كان لديها في السرير هو الرغبة في أن تُضرب وتُهان، وهو ما دفع الصديق المشترك إلى الارتداد إلى نزعة في ذاته لطالما ارتاب بها، ما جعله تعيسًا جدًا. النساء سعيدات بأن يستبدلن الرفقة العفوية من أجل المتعة بالإدمان لأنه أكثر إلزامًا. هناك مئات الحالات في إنكلترا توافق الزوجات فيها على لبس الجلد أو المطاط وضرب أزواجهن أو التغوط عليهم أو القيام بأي شيء يطلبونه، لأن إكراههن على القيام بذلك هو مصدر إحساسهن بالأمان.

تستطيع المرأة أن تبرر لنفسها هذا النوع من التحقير على أنه شكل متطرف من الغيرية، في حين أنه أنانية متخفية، مثله في ذلك مثل معظم الأشكال الأخرى من الغيرية الأنثوية. عندما تجري النساء المهجورات خلف رجالهن الهاربين صارخات من بين دموعهن:

«لا يمكنك أن تفعل ذلك بي»، فإنهن يكشفن أن كل ما قدمنه باسم السخاء والغيرية كان جزءًا من صفقة مفترضة، كنّ بموجبها مخوّلات الحصول على مكافأة ما. إن التعبير النهائي عن هذا النوع من أنانية الحب هو محاولة الانتحار، وهذا غير مقصور على جنس بعينه، بل إن الجنسين يمارسانه. يشجع مجتمعنا إحلال الإدمان محل المتعة العفوية، ويشجع النساء تحديدًا على تعزيز التبعيات التي يمكن أن تحد من ميول أزواجهن إلى الطواف هنا وهناك وغير ذلك من أشكال عدم الاستقرار. ولكن، في حين يشجع الأخلاقويون الشعبيون الزوجة على التعامل مع خيانات زوجها على نحو غير مباشر مستغلة إحساسه بالذنب لتوطيد التكافل الزواجي، فإنهم يسمحون للرجل بسلطة كبيرة على المراقبة والتقييد، حتى على نشاطات بريئة على نحو ظاهر، حين يتعلق الأمر بزوجته. ستقدم كل مجلة نسائية تقريبًا مثالًا على هذه الآلية. والمثال الآتي مأخوذ من رسالة موجهة إلى **إيفلين هوم** (Evelyn Home) من مجلة **المرأة** (*Woman*):

> مازالت حفلة جرت منذ سنة موضوع شجار بيني وبين زوجتي. فبعد أسبوع من الحفلة، زارها أحد الضيوف، وكان قد رقص معها في الحفلة، بينما كنت في العمل. وسواء كنت محقًّا أم مخطئًا، فقد عرّجت على بيته، حيث ضحكت زوجته، وقالت إن زيارة زوجها ليست أكثر من زيارة صديق. أما زوجتي فحوّلت الأمر إلى مشهد عاصف، وقالت إنني يجب أن أثق بها؛ وإلا فإنها ستقفز إلى السرير مع أول زائر، وتعطيني سببًا حقيقيًا للقلق.
>
> أنا أصرّ على أن أيًا من الشريكين يجب ألا يستقبل ضيوفًا من هذا القبيل بعد الزواج. هل يجب أن أتمسك بذلك، أم أتبنى طريقة زوجتي في السلوك؟

لقد تأمل المسكين في هذا السؤال على مدى عام. زوجته تستقبل

زائرًا في أثناء النهار، وهو يطيل التفكير في الموضوع سنة كاملة. في الحقيقة، هو لا يفكر فيها إلا قليلًا حتى أنه يأخذ المسألة إلى زوجة الرجل الآخر، التي تسخر منه ومن شكّه بزوجته ومن حسّه بغياب الأمان ومن فرضياته المسبقة. ومع ذلك، فزوجته لا تظهر حبًا كبيرًا له، لأنها تهدده، ولا تناقش المسألة من حيث المبدأ. هذا هو الزواج، أساس المجتمع! لكن إيفلين هوم لا ترفض أخلاقية الزوج، بل تصادق على فرضياته الأساسية حول أصدقاء زوجته وتبجل العلاقة باسم الحب.

> إذا كنت غير معجب بطريقة زوجتك في السلوك، فلا تتبناها، ولكن اسأل نفسك لماذا ترحب بملاطفات رجل آخر. لا شك لدي في أن زيارته مجرد مجاملة اجتماعية، لكن من الواضح أن زوجتك قد ابتهجت بذلك الإطراء.
>
> هل تعبّر لها كثيرًا عن حبك؟ إذا كنت لا تفعل ذلك، فابدأ الآن، لأنها بحاجة إلى إعادة توكيد. وفكر في نوع الحياة الذي تعيشه. هل كنت ستشعر بالملل لو كنت مكانها؟ هل كنت ستحتاج إلى نشاط أو اهتمامات عقلية إضافية؟ فربما تحتاج زوجتك إليها أيضًا، إذا كانت ستبقى مخلصة لك بسعادة[191].

قد يضحك الأشخاص الذين يشترون الكتب من وجهات نظر من هذا القبيل، ويرفضونها بوصفها صورة نموذجية لحضارة معينة، لكن الهدف من هذا هو رفض الحقيقة القائلة إن المواقف الأخلاقية من مفهوم مثل مفهوم إيفلين هوم، التي يرشح اسمها بالحياة العائلية، هي التي تعتبرها أغلبية القارئات مقبولة كما هو مثبت بالأرقام.

الحب الذي قد يقع به شخص ما هو حب حصري؛ وكل أشكال الحب الأخرى تسبب الغيرة، بما في ذلك حب الأولاد المولودين من

191- Letter to ‘Evelyn Home’, *Woman*, 3 May 1969, Vol. 64, No. 1664.

ذلك الحب. من هنا جاء كره الحماة الذي يضرب به المثل، وهو مثال آخر على الكيفية التي تبتعد فيها الأسرة المكونة من الزوجين فقط عن النسيج الاجتماعي الأوسع. فهي بذاتها تكرار للحالة الأوديبية، وتعيد إنتاج عقدة أوديب في الأولاد، حتى كأن العائلة هي أرض المعركة لبيت آتروس (Atreus) وقد علق الجميع في الشبكة، وهم ينطلقون تدريجيًا نحو موت بطيء. لا يعيش المحبون إلا من أجل بعضهم بعضًا، وهم موتى بالنسبة للعالم الخارجي. الرجل الميت هو موظف جيد، وزوجته الميتة تجلس متوارية في ضريحها المبني من القرميد الأحمر منتظرة أن يعود زوجها إلى البيت حتى يستطيعا أن يتابعا لعبة القتل الطقسي الخاصة بهما، ولا فرق إن كان ذلك بالمداعبة أو بالتوبيخ والضرب، لأن كل رجل يقتل الشيء الذي يحبه، كما لاحظ أوسكار وايلد (Oscar Wilde) دون إحساس بالمسؤولية. توظّف التقنيات التي تستخدم لإبقاء الأطفال الصغار عند مستوى الدمى والمقعدين في حالة الحب الزواجي لمنع الوصول إلى الوحدة الأنانية. إن الحديث الطفولي، الذي يصل إلى مستوى مناداة الزوج بـ«دادي» أو «بابا» والزوجة بـ«ماما»، ومناداة أي من الشريكين بـ«بيبي» يبقي الخطاب عند مستوى سخيف تمامًا.

حتى بين المحبين، الذين ربما ينفرون من الحديث الطفولي، يعتبر تراكم أشياء وطقوس صغيرة ومهمة عاطفيًا جزءًا من أنانية الحب المشتركة. فالأشياء والأمكنة والكلمات السخيفة والألعاب والهدايا موزعة هنا وهناك مثل تعاويذ تمنع تطفل العالم الخارجي. تعمل أنانية النساء تمامًا في هذا أكثر مما تعمل أنانية الرجال، لأن النساء يعتبرن إهمال دماهن وطقوسهن أقسى. أن تتخلى عن شيء تحبه، أو أن تنادي شخصًا آخر باسم دلال يعني أنك تضع علامة لبداية نهاية العلاقة؛ فهذا شيء لا يمكن غفرانه. وفي النهاية، فإن الكثير من حيل «الأنانية

بين الاثنين» تسبب انفصال المحبين، ذلك أنه حين لا توجد روابط مرئية، لا يمكن قطع أي رابطة على نحو مرئي. (إذا لم تعطني دبوس إخائك، لا استطيع أن أعيده إليك).

أحد أكثر الجوانب إثارة للقشعريرة في أنانية الحب هو رغبة الذكور والإناث في الشعور بالفخر بشركائهم/هن. يرغب معظم الرجال في النساء اللواتي يمكن التباهي بهن أمام الرجال الآخرين، النساء اللواتي يرغب الرجال الآخرون بهن، مع أنهن خاضعات للرغبة في مالكيهن فقط.

> سيكون عارًا علي أن أعيدها إلى أهلها: سأصنع غطاء لرأسي من شعرها، وأطحن عظامها لأصنع منها ملاطًا. لن أخلي سبيلها، بل سأتزوج امرأة أخرى.
>
> ***عريس خائب الرجاء، باتّاك، سومطرة***
> (Disappointed groom, Battak, Sumatra).

يعود الكثير من الغضب الذي يشعر به الرجال عندما تعبث زوجاتهم مع رجال آخرين إلى حقيقة أن مجد الحصول على امرأة جميلة ومشتهاة قد يتلاشى نتيجة الانطباع بأنها ليست قانعة ولا سعيدة مع سيدها. إن عدد أغاني المراهقين التي تندب تقلب النساء الجميلات، وتتوق إلى دمى ورقية لا يستطيع الرجال الآخرون سرقتها، هو دليل على انتشار هذا النوع من الأنانية. إذ عندما يسلّم رجل نفسه لفتاة أحلامه، فإن إحدى رغباته الملحة هي أن يريها لأصدقائه، بينما النساء أقل اهتمامًا بذلك، لأنهن مستعدات لإهمال جميع معارفهن وكسب معارف أزواجهن. هناك أنانية مماثلة في مواقف النساء نحو الرجال فقط عندما تكون المرأة عضوًا في مجموعة، ويمكن أن

تعلن أن بعض الرجال ببساطة أكثر رخاوةً أو ابتذالًا أو تفاهة من أن تخرج معه، وليس هناك أيّ ضمان بخصوص عمق جدارتهم بالحب أو ثرواتهم أو أي شيء قد ينفع في معادلة هذا الارتباك الناجم عن الانطباع الذي يتركه الشخص لدى العموم. تسعى المرأة إلى إظهار قيمتها لأخواتها باختيار رجل ناجح وجذّاب. ربما يكون ذلك جزءًا من عملية الاصطفاء الطبيعي الذي يفعل فعله من لحظة بدء لعبة المغازلة، ومن الممكن أن ينطوي ذلك على أنانية صحية لو أن المعايير الداخلة في تلك المحاكمات لم تكن مصطنعة وتجارية ومبتذلة جدًا. قال أحد معارفي، شارحًا سبب حبه لسكرتيرته حبًا يخلب اللّب إلى حد الإيذاء بزواجه أذى شديدًا، إن عشاقًا مشهورين قد أحبوها قبله، وإنها كانت هبيّة عندما كانت الهبيّة موضة رائجة، وإنها انتقلت من سكنها في **هايت آشبيري** عندما بات من غير المناسب أن تعيش هناك. وفوق ذلك، ساقاها طويلتان، وشعرها أشقر طويل، ومظهرها أنيق، وكانت تعرف كل شيء عن حبوب الهلوسة، وقد تلقت المبادئ على يدي **ليري وكيسي** (Leary and Kesey): فكيف له ألّا يحبها؟ أمّا زوجته، التي كانت لقطةً مطلوبة منذ عشر سنوات، فلم تكن الأمور تسير معها جيدًا (وذلك في جزء منه لأنها كانت متزوجة منه)، وبالتالي فقد كان من الأفضل للجميع أن يراعي الاتجاه السائد. تنعم النساء أيضًا بالمجد المنعكس لأزواجهن المختارين. سيكون من السخف أن تتزوجي رجلًا شهيرًا أو متذوقًا للفن وتبقين لامبالية تجاه إنجازه، إذ أن كل شخص يرغب في أن ينال التقدير والمكافأة، لكن ربما يكون العالم أفضل إذا نظرنا إلى الإنجاز نظرة أكثر تنوعًا، وإذا توقفنا عن التفكير بأسْر حب الناس، وفكرنا بدلًا من ذلك بحبهم. إن عبارة «حصلت عليه» سخيفة حين نتحدث عن علاقات الحب، وكذلك الأمر مع عبارة «خسرته». فإذا ما تمكنا من التوقف عن التفكير في الحب على أساس «الأسْر»، يمكننا

التوقف عن الخوف من تحرير روابطنا مع آسرنا ومن جمالنا الناقص، ويمكننا أن نعفيه من الإصابة بالقرحة نتيجة خشيته من التفوق عليه أو الاستخفاف به. أحبت **ليليان هيلمان** (Lillian Hellman) **داشييل هامّيت** (Dashiel Hammett) طوال حياتها، واستمرت في حبها له بعد موته. لم يؤثر حبها له في حبها للناس الآخرين، ولم تفرض حبها عليه عندما لم يطلبه، ولم تستخف به، ولم تدمره بالمديح الكاذب. وعندما كان يحتضر، وقفت إلى جواره لتساعده. ليست علاقة الحب الغريبة المختلفة نوعيًا هذه سوى مثالًا على الأشكال الكثيرة التي قد يأخذها الحب إذا امتلكنا بعد نظر وخيال لإنقاذه من قوالب ثقافتنا الاستهلاكية المحتضرة.

> لا أعرف عن طبيعة الحب الرومانسي سوى القليل الذي عرفته عندما كنت في الثامنة عشرة، لكني أعرف المتعة العميقة التي تمنحني إياها متابعة اهتماماتي، وأعرف الإثارة التي يسببها انتظار معرفة ما الذي يفكر به شخص آخر، وما الذي سيفعله، وما الذي لن يفعله، معرفة الحيل التي مارسها وتلك التي لم يمارسها. أما الخيط القصير الذي حوّلته الأيام إلى حبل فهو هناك، يتدلى سائبًا بعد الموت بزمن طويل.
>
> وهكذا، فقد عاش معي آخر أربع سنوات من عمره. لم يكن ذلك الوقت كله مريحًا، وفي الحقيقة كان بعضًا منه سيئًا جدًا، لكننا بالمقابل وجدنا متعة لا تستطيع الكلمات أن تعبر عنها، وهي أننا تمكنا من البقاء معًا بعد أن قضينا سنوات كثيرة، دمرنا خلالها الكثير، ولم نصلح سوى القليل. كنت أستاء أحيانًا من تعبيرنا عن جانب منا بأقل مما يستحق، أو من أننا لم نكن نعبّر عنه إلا نادرًا، لو خمنت أن الموت لم يعد بعيدًا، لحاولت القيام بشيء ما يبقى لي فيما بعد. قلت ذات يوم: «لقد قمنا بعمل رائع، أليس كذلك؟»، فقال: «أعتقد أن كلمة «رائع» كبيرة جدًا. لمَ لا نكتفي بالقول لقد قمنا بأفضل مما قام به كثير من الناس؟»[192].

192- Lillian Hellman, *An Unfinished Woman* (London, 1969), p. 278.

إن دمغة الحب الأناني، حتى عندما يتنكر بهيئة حب غيري، هي الجواب بالنفي على سؤال «هل أريد لحبيبي أن يكون سعيدًا أكثر مما أريد أن يكون معي؟» حالما نجد أنفسنا نعمل بعقلية أن لا غنى عنا، مجهزين نمطًا من الضعف في الأشخاص الذي نحبهم، يجب أن نعرف أن حبنا تحول إلى الشكل المعترف به اجتماعيًا من الأنانية. كل امرأة تستعبدها فكرة المحافظة على نفسها جميلة، وفكرة أن تطبخ لزوجها أكلاته المفضلة، وفكرة أن تبني فخره وثقته بنفسه على حساب حسّه بالواقع، وفكرة أن تكون أقرب أصدقائه إليه، بل الصديقة الوحيدة، وفكرة تشجيعه على رفض رأي الآخرين حتى لا يجد الثقة إلا بين ذراعيها، كل امرأة من هذا النوع تربط زوجها بها بأطواق من الفولاذ ستخنقهما معًا. في كل مرة تجبر امرأة نفسها على الضحك لدى سماع نكات زوجها المكرورة، فإنها تخونه. والرجل الذي ينظر إلى امرأته ويقول: «ما الذي سأفعله من دونك؟» هو رجل مدمَّر أصلًا. نصر زوجته تامّ، لكنه نصر مُرّ. لقد ضحى كل منهما بالكثير مما جعله في الأصل محبوبًا، ليعزز التكافل الاتكالي المتبادل بينهما حتى أنهما بالكاد يشكلان معًا كائنًا إنسانيًا واحدًا.

الهوس

في الحب كما في الألم وفي الصدمة وفي البلاء.

وهكذا، فالحب حالة، حالة مؤقتة فرضيًا، حالة من الانحراف عن القاعدة.

الأعراض الخارجية لهذه الحالة هي الأرق والذهول وفقدان الشهية والتناوب بين فرط الحيوية والاكتئاب، بالإضافة إلى بريق العيون (كما في حالة الحمى) والاهتياج.

التفسير الرئيسي للذهول، الذي يقود إلى نسيان مكان وضع الأشياء والتشوش والنسيان وعدم المسؤولية، هو الهوس المستحكم بالموضوع المحبوب، الذي ربما لم يره المحب إلا عن بعد ولمرة واحدة. يشغل الموضوع المحبوب أفكار الشخص الذي يوصف بأنه «عاشق» طوال الوقت على الرغم من احتمال أن يكون ما يعرفه عنه فعلًا قليلًا جدًا. والمهووس يعزو إلى محبوبه جميع الصفات التي يعتبرها جيدةً، بغض النظر عما إذا كان الموضوع المعني يمتلك تلك الصفات أم لا. ويبني عليه توقعات لا يستطيع أي إنسان أن يحققها. وهكذا يلعب الموضوع المختار دورًا خاصًا لأنا المهووس، الذي يقرر أنه، أو أنها، الشخص الملائم أو الوحيد بالنسبة له. إذا كان المهووس ذكرًا، فيمكن لهذه

الفكرة أن تبرر درجةً من السلوك العدواني المباشر، إما على شكل مطاردة الموضوع أو استبعاد المنافسين. أما في حالة الأنثى، فلا يمكن القيام بسلوك عدواني، ويرجح أن تكون النتيجة مزاجًا سيئًا مثيرًا للكآبة ولا يمكن تفسيره، أو هروبًا إلى الهاتف وتبادل الإشاعات مع نساء أخريات حول الموضوع المحبوب، أو تصرفات هي في الظاهر رفض وازدراء للفت انتباه الموضوع إليها.

في الماضي، كان هناك اعتقاد بأن هذه الحالة تصيب الشخص من أول احتكاك له مع الموضوع:

من ذا الذي أحب حبيبه إلا من النظرة الأولى؟[193]

لكن يبدو أن طبيعة البلوى المفاجئة والحادة هي صفة من صفات الشكل المحرّم، وبما أن الهوس اعتبر أساس الزواج، جرى الاعتراف بمزيد من الحالات المزمنة المتدرجة. وكان الافتراض يقوم على أن نظرة عيني الموضوع المحبوب هي سبب العلة التي تصيب بالبلوى، وكثيرًا ما كان يشار إليها رمزيًا بسهم **كيوبيد** الذي يصيب الناظر في القلب، ويخلّف فيه جرحًا لاهبًا لا شفاء له. وفي أكثر حالات الهوى المدمر تطرفًا، اخترعت تفسيرات زائفة غير مقنعة، مثل إيمان **فيدرا** (Phaedra) بأن **فينوس** كانت تعذبها تعذيبًا خاصًا:

لم تكن هذه نارًا دفينة في عروقي،
بل كانت **فينوس**، بكامل سطوتها، تغلّ فريستها[194].

تستخدم هذه التخيُّلات كثيرًا صور الاحتراق التي تتضمن كلًا

193- Christopher Marlow, *Hero and Leander*, p. 178.

194- Jean Racine, *Phèdre*, I, iii, pp. 151—2.

هذا المقطع بالفرنسية في الأصل وترجمته مأخوذة من الترجمة العربية التي قام بها أدونيس والصادرة ضمن سلسلة المسرح العالمي الصادرة عن وزارة الإعلام - الكويت العدد 118. [المترجم]

من حرارة الرغبة ومرارة الإحباط. والمثير للسخرية، أن كل محاولة للتحكم بهذه الحالة، سواء بتجنب الموضوع الذي سببها أو بالسعي إلى فرض الإرادة على الأهواء، كان لها تأثير وضع الحطب على النار لتبقى متقدة، ما يعني أن تستمر وثّابة بعنف أشد من ذي قبل. «سيجد الحب طريقة. فهو يسخر من صانعي الأقفال». وهكذا، كان «الوقوع في الحب» سوء حظ مريع، يتضمن تصدّع أي حياة أسرية مستقرة والتضحية بالذات في حماسة غير عقلانية. استخدم راسين (Racine) مكافئًا فرنسيًا ليصف الحب بأنه شر ومرض. واستمرت القناعة بأن الحب مرض، أو على الأقل مفاجئ وضار كالمرض، في تعابير من مثل مريض الحب، كما في التخيّلات الشعبية المبتذلة.

تستفيد بعض مواضيع الأغاني الشعبية التي عاشت طويلًا استفادة مباشرة من التخيّلات التقليدية. ومازالت الموسيقى التي تُبهت مدارك شاربي الشاي في الفنادق الأنيقة، وتنساب في مشارب المياه الغازية في المنتجعات المبتذلة تعتمد على شعبية الأغاني العظيمة التي انتشرت في الثلاثينيات والأربعينيات. قد تكون الكلمات أقل شهرةً من الألحان، وخاصة لأن إيرفنغ بيرلين (Irving Berlin) وأسرته يمانعون في السماح باقتباسها، وهو ما يمكن تفهمه، ولكن من النادر أن يوجد شارب شاي أو زائر منتجع إلا ويستطيع أن يدندن شارد الذهن ألحانًا عن القمر وحزيران. هذه «الأغاني الكلاسيكية» مليئة بالإشارات إلى قلوب تخفق بشدة وعيون بهرها ضوء النجوم وغشّاها الدخان المتصاعد من فرن الشغف الذي هو القلب، مثلها مثل أي قصيدة من تلك القصائد النابضة بالحياة من القرن الخامس عشر في إيطاليا. العشاق لا تزلّ أقدامهم، ولا أحد يدفعهم، بل هم يقعون مباشرة في حضن دافئ مفعمين بالأمل بالرغم من أنهم يثيرون الحزن. يشعرون أن الأمر غريب لكنه لذيذ، وكأنهم مبتلون بوجع مبهج،

أو كأن قفّازًا ناعمًا يدلكهم. يتأوهون، ويتأسفون، وتصيبهم لحظات من الدوار، وربما لا، لكنهم حين يحبون لا يرغبون إلا بأن ينظروا إلى عيني المحبوب.

ولا بدّ أن تكون السخرية الكبرى عندما تمضي ربة المنزل وقتها في أعمال مملة مدندنةً، بشيء من الشرود، كلمات أغنية عاطفية مبتذلة جديرة بالنسيان حقًا. كم واحدة منهن تتوقف لتفكر في المعاني الحقيقية لجملة مثل «كل المحبين عميان»، أو ماذا لديهن ليلقين باللوم على ذلك «الشيء هنا في الداخل»؟ ولكن، ما الأغاني التي ترددينها، تتساءل إحداهن، عندما لا يعود قلبك يحترق بالنار، ولا يعود الدخان يعميك بلا رحمة عن حقائق وضعك التافه؟ (ما من أغانٍ تتحدث عن ذلك بالطبع).

تنكر أغنية أخرى، بسخرية، أن يكون المغني عاشقًا لأنه لا يتأوه أو يتأسف أو يصاب بالدوار. هل نحن، بعد كل شيء، بعيدون جدًا عن وصف روميو لولعه التقليدي بامرأة لم يعرفها، امرأة لم تكن مبالية قط بعروضه لها؟

الحب دخانٌ يتجمع من حرّ الزفرات،
فإذا تقشّع وصفا، برقت به عيون العاشقين،
وإذا كثف استحال بحرًا، وكانت دموع العاشقين للبحر مدادًا.
ثم ماذا هو فوق ذلك؟ جنون رشيد،
مرارة تخنق الحياة، وحلاوة تحفظها[195].

يعتبر هذا الموقف طريقة متسقة في النظر إلى الشغف الزائف، وهو مستمر في تصوير حالة «العشق» على أنها الحالة المناسبة

195- William Shakespeare, *Romeo and Juliet*, I, i, 11. 196—200 (*Works, op. cit.*, p. 766).
أخذت ترجمة هذا المقطع من الترجمة العربية التي قام بها مؤنس طه حسين، والصادرة عن دار المعارف بمصر. [المترجم]

للأزواج. ومازال مصانًا، على نحو يثير السخرية، بوصفه مثالًا على أن الحب أعمى، تمامًا مثلما صُوّر **كيوبيد** في تقليد الحب المتملق معصوب العينين. لكن هذا العمى يؤخذ عادةً على أنه لا يعني سوى رفض العاشق أن يرى معشوقه كما هو في الواقع، وأن يدرك عيوبه على وجه الخصوص.

يتجلى عجز الإرادة والعقلانية عن التعامل مع هذا الهوس في التعابير الشائعة التي تتحدث عن الحب «بجنون» أو «بجموح» أو «بهياج» أو «بكل كياني»، في حين ستكون مفارقة أن تقول إنك تحب برقة أو بثقة أو بإحساس. هناك شيء من الخلاف حول المناعة الذاتية ضد المرض؛ فيزعم بعضهم أن المرء لا يقع في الحب حقًا إلا مرة في العمر، في حين يرى آخرون أن الحب أفضل في المرة الثانية، ويرى غيرهم أن الحب الأول هو الحب الحقيقي الوحيد، في حين هناك من يرى أنه يقع في الحب كل أسبوع أو حتى كل يوم.

الجنس لهفة لحظية
أما الحب فيمسك بك إلى الأبد[196].

ومن خصائص هذا المرض الجوهرية أنه غير قابل للشفاء؛ وكان ذلك يعني أنه إذا اضطر عاشقان للانفصال في سن الشباب لأنهما صغيران جدًا أو لأنهما غير منسجمين، فالطريقة الوحيدة هي أن ينكرا أنهما مبتليان به. لا بدّ من إثبات أن «الحب» زائف لأنه لا يمكن أن يحدث لأشخاص صغار السن إلى هذه الدرجة...

أستطيع أن أتذكر **نات كينغ كول** (Nat King Cole) وهي تغطي المخططات (في وقت ما من سنوات مراهقتي الموحشة وحشة لا

196- Kingsley Amis, ‘An Ever-fixed Mark’, *Erotic Poetry*, ed. William Cole (New York, 1963), p. 444.

توصف) بقماش رقيق يصدع القلب حول ثنائي محاط بأعداء يحاولون أن يقنعوهما بأنهما صغيران جدًا على الحب الحقيقي، لأن الحب مجرد كلمة سمعا بها (مثل كل المفاهيم الأخرى التي يعرفانها). كانت حجة مفسدي البهجة باطلة بجلاء، لأنهم إذا كانوا سيجرّبون حقيقة فكرة الحب، فيفترض أن يمضوا قدمًا وأن يحبوا. مهما كانت الحجة باطلة، فإن النتيجة المضادة التي تخلص إليها الأغنية، وهي أن حبهما سيدوم على الرغم من مرور السنوات، لا تكاد تشكل تفنيدًا مهمًا.

بما أنه لا يمكن فعلًا إثبات وجود الحب، فلا يمكن إثبات أنه حقيقي. وحسنة إنكار وجوده هي أن الإنكار لا يمكن تفنيده، على الرغم من أنه، كما تدسّ الأغنية، يحتمل أن يعطي دفعة نحو الأعلى لوضع ثابت من الحب الفتي الذي يضيق العالم ذرعًا به، فانتازيا من فانتازيات **أوكاسين ونيكوليت** (Aucassin and Nicolette) التي تصمد لتدحض النقّاد.

تتنوع طرائق تشخيص هذه الحالة. فالمراقبون الخارجيون يطلقون أحكامهم بناء على مراقبة الإثارة وضعف التركيز والكفاءة أو الاستغراق المفرط بالموضوع المحبوب الذي يعبَّر عنه بالفضول والتأمل. لكن، لا بدّ من الملاحظة أن هؤلاء المراقبين لديهم اهتمام راسخ برصد العلاقات العاطفية نتيجة المتع التلصصية المعيّنة التي تمنحها تلك العلاقات، وغالبًا ما يشاركون بتلك الحالات. «كل العالم يحب العاشق». قد يشخّص المُعاني من العشق نفسه بأنه قد قلّص المرض نتيجة كثافة ردود أفعاله عندما يكون الموضوع المحبوب منتظرًا أو تحت مرمى البصر أو لا يتمكن من الحضور في وقت متوقع. وسيعاني أيضًا من الوجود الكلي لصورة المحبوب العقلية في أحلامه وفي أثناء وجباته وفي أثناء أحاديث بعيدة كل البعد عنه. وإذا بقي الحب بلا مكافأة، فإما أن تتلاشى أعراضه تدريجيًا، أو ينتقل إلى

موضوع جديد، أو يزداد كثافة حتى يصبح معذِّبًا. أيًا يكن الخيار الذي يأتي تاليًا فإنه يتوقف بدرجة كبيرة على موقف المُعاني من بلواه. كلما زادت درجة المازوشية والشك المتأصل بالكفاءة في متابعة علاقة حب حتى النهاية، زاد نأيه بنفسه إلى العزلة والعذاب العقيم. ومن ثم يجب على الموضوع المحبوب أن يتحمل وطأة المسؤولية عن وضع حرّضه بذاته، وربما يُتهم بالقسوة أو بالعبث بقلب شخص طيب. وإذا أساء العاشق للموضوع المحبوب انتقامًا لنفسه على قسوته، فسيجد أن المشرّعين يعاملونه بمراعاة خاصة، ذلك أنهم يسمحون بمعاملة هؤلاء «العاشقين» معاملة خاصة، ولاسيما إذا كانوا يعتبرون الموضوع المحبوب غير جدير بالحب. أما إذا أنكر عليه هذا الامتياز، فيبرر ذلك بحرمانه من حالة «الحب» واعتبار حالته مجرد رغبة انتقامية أو شيء من هذا القبيل.

هناك قناعة عامة بأن من غير اللائق للنساء أن يصلن إلى هذه الحالة من الهوس إلا إذا جاءت استجابة لتحريض رجل. ولسوء الحظ، فإن تقديم حالة العشق على أنها تجربة إنسانية مرغوبة وكاملة في الواقع هو من القوة إلى حد تقضي المراهقات في مكابداته زمنًا أطول من ذاك الذي يقضيه نظراؤهن الذكور. لكن الحكاية الاجتماعية تستمر في التخيّلات الشعبية بأن الفتيات يستجبن لملاطفات الذكور وعدوى الحب. أما الاختبار اللاذع للتجربة فهو القبلة الفعالة على نحو مدهش. «كانت تلكم قبلتي الأولى، وقد غمرتني بنشوة هائلة جامحة. كنت مفتونة بمارك منذ زمن طويل، والآن، مع هذه القبلة التي تبادلناها، بتّ أعرف أنه يحبني أيضًا!»[197].

الحب هو أن تكون مفتونًا بشخص ما (أوه.. أنا مجنونة بهاري!) والتأثيرات الرائعة لاحتكاك الشفة بالشفة واللسان باللسان تجلب

197- *Sweethearts*, Vol. II, No. 57, December 1960, 'Kisses can be False'.

نشوة هائلة جامحة. لكن الحب، في الحالة السابقة، كان زائفًا، على الرغم من تطابق أعراضه مع الأعراض الحقيقية: فقد حظيت بيتسي للتو بقبلة من **مارك**، «أفضل رياضي في المدرسة وأغنى شاب في المدينة! يا إلهي، كم أنا محظوظة»، لكن كان لديها صديق أفضل، هو جارها الشاب **هيو**، الذي يحذرها من **مارك** ومن أساليبه المتعجرفة المحكمة. في ثاني لقاء يستجمع **هيو** شجاعته، ويعلن عن مشاعره، ويحتضن بيتسي بذراعيه... «جعلت قبلته قلبي يخفق، واجتاحني شعور لا أستطيع وصفه... شعور أشبه بوضع سجادة من الغيوم تحت قدمي...». يبدو أن هذا هو الحب الحقيقي، أو هكذا تقول لنا الخاتمة: «لقد ارتكبت غلطةً، وأخذتها فرصة للمقارنة! ليس الحب دائمًا ما يبدو عليه، وقد تكون القبلات زائفة!»[198].

ليست الأحاسيس التي سببتها القبلتان متمايزة تمايزًا حقيقيًا. فكلتاهما وصفتا بمصطلحات أنسب لوصف تجارب الكائن الحي الشاذة تحت تأثير المخدرات: خفقان القلب وهدير في الأذنين وارتخاء الساقين؛ وفي الحقيقة، الحب هو أيضًا العقار الذي يجعل الفعل الجنسي لذيذًا في الأساطير الشعبية. فالجنس دون حب يعتبر إفراغ حيواني فظ، لكنه يصبح مع الحب مبعث نشوة وتسامٍ. من الواضح أن الغرض منه أن يؤدي وظيفة مثيرة تلقائيًا عبر التأثير في الاستجابات الجنسية اللحائية، والأرجح أنه يفعل ذلك فعلًا. وتبقى الحقيقة أن بيتسي لا تستطيع أن تميّز بين القبلتين إلا على أساس واقعي من نوع ما: ففي الحقيقة ترغب بيتسي أكثر في أن تتزوج من شخص من طبقتها، وليس لدى المرء أي اعتراض على ذلك لو أن التعبير عن هذه السياسة جاء علنًا بدلًا من تمويهها بالمقارنة بين قبلتين متماثلتين. وفي الحالتين، شروط المقارنة أكثر عرضة للهلوسة

198- *Ibid.*

منها لدافع الزواج؛ فالتركيز كله ينصب على التجاوب الأناني، وليس على التواصل بين الأشخاص المنغمسين في ذلك التقبيل.

يميّز هذا التشوش كل الأدبيات المتعلقة بتشخيص الحب الحقيقي. إذ يعمل التحيّز العاطفي ضد إخضاع الحب لأي ضابط عقلاني أو إرادي، في حين ينظر إلى الهوى الفوضوي بشك عميق. وعمومًا، يجب تحويل التلاؤم الأنسب، كما في المثال السابق، بقدرة قادر إلى التلاؤم الأكثر إثارة للرضا. الفرق الحقيقي بين الحب الحقيقي والحب الزائف، وكلاهما من مركبات الشهوة والخيال، هو أن الحب الحقيقي يقود إلى الزواج. فإذا ما قام بذلك، يمكن القبول بتخفيض مستوى الإثارة دون الاعتراف به. ومع أن الزنا والبغاء أكثر إثارة من الزواج، فإن ثقافتنا متمسكة بالعكس. ونحن، في الحقيقة، متمسكون بالقناعة بأن هذا الهوس شرط مسبق ضروري للزواج... **أهو ذنب أن نتزوج قبل أن نقع في الحب؟** كان هذا هو شعار الإعلان عن كتاب **تايلور كالدويل** (Taylor Caldwell) دع **الحب يأتي أخيرًا** (Let Love Come Last)[199]. والمفارقة أن الحب يقدّس الزواج واللقاءات المحرّمة. «الحب ينتصر على الجميع».

تحظى لاعقلانية الحب باحتفاء حماسي في القصص المبتذلة عن نساء يتخلين عن مهن باردة وعن طموحهن من أجل دفء الحب الغامر الذي يؤمّنه زوج. تقاوم امرأة مهنية ناجحة حب بائع شاب مبتدئ على مدى أشهر، إلى أن يبدأ يتصرف معها ببرود، فتبدأ الغيرة تفعل فعلها فيها، أو إلى أن يصاب بحادث، فتذهب معه في سيارة الإسعاف. وفي النهاية، «من ذا الذي يستطيع أن ينكر نداء الحب عندما ينادي؟»[200].

يُقارن الحب هنا إما بوظيفة إنسانية ضرورية (قارن: الطبيعة

199- Quoted in Albert Ellis, *The Folklore of Sex* (New York, 1961), p. 209.
200- *Sweethearts* (*loc. cit.*), 'When Love Calls'.

عندما تنادي!) أو بشخص يُستدعى إلى واجب سارّ، وهذا استمرار لأشكال مشابهة أقدم عهدًا. على أي حال، كان الهدف من الأزمات، في قصص من هذا النوع، هو أن يكشف للمعذبة غير الواعية أنها عاشقة، تمامًا مثلما يكتشف المجذوم بسكب ماء مغليّ على قدمه الخدرة. شيء من مثل هذا الاختبار مسموح به، بل إنه يوصف لأولئك الذين يشكون في أنهم عاشقون فعلًا. «لا يكون الحب حبًا فعلًا إلا إذا اختبر على أرض الواقع». يمكن أن تكون الانفصالات التجريبية مفيدة في إثبات متانة هوس ما. ابتكر بعض الخبراء في هذا النوع من المعالجة المثلية استبيانات يجب أن يطبقها المريض على نفسه، وهو إجراء لا يمكن اعتباره موثوقًا، هذا في أحسن الأحوال. وفي هذا الاختبار تتراوح الأسئلة من «هل تستطيعين تحمّل الاستمرار في الحياة إذا تركك؟» إلى «هل تجدين رائحة فمه كريهة؟» وهناك إجراء أكثر شيوعًا يتمثل بنصيحة تعيس الحب ـ وهو مصطلح ينطوي على مضامين مشؤومة إذا ما فهمه أحد يومًا ـ أن يحدد ما الذي ليس حبًا، وهذا ليس دليلًا على ما هو الحب.

ليس الحب مجرد رعشة أو متعة عابرة. وليس هربًا من الوحدة أو الملل، كما إنه ليس تكيفًا مريحًا من أجل فرصة مناسبة عملية أو منفعة مشتركة. وهو ليس شعورًا من جانب واحد، ولا يمكن جعله باتجاهين بمجرد الرغبة أو الإرادة.

يمكن عذر العاشق المراهق الذي يتبع هذه القاعدة التقريبية على شعوره بشيء من التشوش. وبالتأكيد، لقد اكتوى شعراء كثيرون، وغير شعراء، بالحب من جانب واحد؛ فالتكافؤ في الحب مستحيل تمامًا. ذلك أنه من المستحيل أن تعرف أن المتعة تنقضي قبل أن تنقضي، فإذا لم يكن هربًا من الوحدة والملل، أو ترتيبًا مشتركًا مريحًا، فلن

يكون هناك سوى سبب ضعيف لاعتباره أمنية. أما الوصف الإيجابي الذي يقدمه الكاتب ذاته فليس أقل ترويعًا:

> الحب أشياء كثيرة، هو تجاوب الطفل الصغير الراضي مع الاهتمام والحنان، وهو أيضًا فضول الطفل الأكبر سنًا الشغوف. وهو لهو المراهقين وتحليق خيالهم الرومانسي. وهو، مرة أخرى، الإخلاص الناضج الجدي لزواج ناضج...
>
> الحب لذيذ ومحيّر وعفوي، فوق كل شيء. هو ينمو على الصدق والإخلاص والطبيعية مجتمعةً مع الحس المتبادل بالمسؤولية والاكتراث. هو، في البداية، «يقع» فحسب، ولكنه، حتى يزدهر ويستمر، يتطلب القدرة الكلية للقلب والروح المفتوحين[201].

هذه محاولة رجل واحد لمواجهة أسطورة الوقوع في الحب الخطرة بوصفه أساسًا للزواج، لكنها ليست مقنعة. فمثل هذه النظرة الغامضة، وإن عميقة الالتزام، لم تلهم قصيدة حب واحدة. وتجربة الحب المخدِّر الذي يجعل العالم مكانًا جميلًا ويضع نجومًا في عينيك ويجرفك من قدميك ويصيبك في الصدر بسهم كيوبيد، لا يخفت إغراؤها بمثل ذلك النثر الرديء. مازال المس السحري يلح مثل دافع قوي لا يقاوم في خيالنا. «هل كان يحبها إلى تلك الدرجة؟» تسأل الزوجة الثانية عن منافستها الميتة. «كان مجنونًا بها»، يقولون عن الرجل الذي قتل زوجته المخلصة، وهيئة المحلفين توصي بالرحمة به. «عرفت أنه كان قاتلًا، لكنني أحببته»، تقول السيدة التي تزوجت الرجل في زنزانة المحكوم عليه. الحب، الحب، الحب.. كل ما فيه من انحراف بائس، يقنّع الأنانية والشهوة والمازوشية والخيال تحت أسطورة المواقف العاطفية، فوضى من الآلام والأفراح المحرَّضة ذاتيًا، التي تحجب

201- *Datebook's Complete Guide to Dating*, edited by Art Unger (New Jersey, 1960), p. 89.

وتقنّع الشخصيات الأساسية في إيماءات المغازلة الباردة، وفي التقبيل والمواعيد والرغبة، وفي المجاملات والشجارات التي تثير الحيوية في جدبه. «نحن لم نخلق ليؤلّه أحدنا الآخر، لكن أسلوبنا في المغازلة يزيد قليلًا على التأليه الكامل»[202]. ربما يبدو الشباب وكأنهم لم يعودوا يغرون بالخنوع المتقن، الذي كانت ماري أستل (Mary Astell)، وهي نسوية من القرن السابع عشر، تتحدث عنه، لكن جنون الحب الغامض يؤمّن الهالة الزائفة ذاتها، ويبني التوقعات ذاتها التي تتبدد حالما تصبح الزوجة الجديدة قادرة على «التفكير بهدوء في وضعها». وفي القرن العشرين، تطرح نسوية من مثل تاي غريس آتكينسون (Ti-Grace Atkinson) نقطة مشابهة على نحو أكثر فجاجة: «الحب هو رد الضحية على المغتصب»[203].

لا يستغرق هذا الوصف الحب كله، أما الهوس الممرض الذي يثير أعصاب بطلات العلاقات الغرامية العظيمة، سواء في المجلات المصورة «الرومانسية» الرخيصة، أو في الروايات أنيقة الغلاف عن المغازلات المشبوبة، فهو كذلك تمامًا. يجب أن تدرك النساء أن مهمة الأيديولوجيا الرخيصة هذه عن الوقوع في الحب هي إقناعهن بالقيام بخطوة غير عقلانية مدمرة للذات. لكن، ليس لذلك الهوس أي علاقة بالحب، لأن الحب ليس خدرًا ولا استحواذًا ولا مسًا، بل «فعلًا إدراكيًا، هو في الحقيقة الطريقة الوحيدة لفهم الجوهر الأعمق من الشخصية»[204].

202- Mary Astell, *An Essay in Defence of the Female Sex* (London, 1721), p. 55.

203- Ti-Grace Atkinson, *vide infra* 'Rebellion', quoted from an article by Irma Kurtz in the *Sunday Times Magazine*, 14.9.1969.

204- O. Schwarz, *The Psychology of Sex* (London, 1957), p. 20.

الرومانس

ربما لم يعد صحيحًا أن كل فتاة تحلم بالحب. وربما يكون لثورة البوب أثر بعيد المدى في العادات الجنسية، إذ استُبدلت العاطفة بالشهوة عبر دمج الرموز الجنسية الخاصة بأغاني البلوز لسود المدن في الثقافة التي خلقها الشباب لأنفسهم، وربما تكون الفتيات قد سمحن لمعركة جنسية حقيقية أن تحل محل الخيالات الحالمة التي استهوتني في سنوات مراهقتي. وعلى أي حال، هذه مجرد «ربما». تظهر أبحاث د. بيتر مان (Peter Mann) في جامعة شيفيلد أن النساء اللواتي تبلغ أعمارهن ما بين 25 و45 عامًا قارئات نهمات للروايات الرومانسية، ولاسيما ربات المنازل والسكرتيرات. وبعضهن يشتري عددًا من الكتب يصل إلى ثمانين كتابًا في السنة. فسوق هذه الكتب مزدهرة أكثر من أي وقت مضى[205]. **مازال الرومانس يحيا! صاحت أسبوعية المرأة** (*Woman's Weekly*) «المشهورة برواياتها» في آب/أغسطس 1969.

مقابل كل الحريات الجديدة التي يتمتع بها الشباب، مازالت أغلبيتهم اليوم تحلم الأحلام ذاتها، وتجد الحياة مليئة بالمغامرات، وتقدّر أفضل القيم التي كانت الأجيال السابقة تقدّرها.

205- طلب الناشران ميلز وبون من د. بيتر مان أن يحلل قراءهما، ونشرا تقريره تحت عنوان «القصة الرومانسية، مسح لعادات القراءة» (1969).

... ربما كانت **كاتي**، على مرجة العشب ذلك اليوم تجسد نموذجًا لقصة حب من العصر الفيكتوري. كان فستانها الأبيض المصنوع من مادة شفافة ما عاليًا عند العنق وينسدل حتى خفيها الأسودين المصنوعين من الساتان. كانت تضع ضمامة سوداء من المخمل حول خصرها النحيل، وترتدي سلسلة ذهبية قديمة ذات مدلاة، وكان شعرها الأسود مفروقًا في المنتصف... «إنها ذاهبة إلى حفلة راقصة»، قالت لي أمها... «إنها شديدة الحماس».

... مقابل كل ابنة حزينة تنفث الماريجوانا في حانة معتمة ما، هناك آلاف مثل **كاتي**، «شديدات الحماس» في أول ثوب رقص رسمي يرتدينه[206].

هذا في ظاهره رومانس. إن الأهمية التي يوليها الكاتب الذكر في هذا المقطع للفستان الملائم للرومانس، نموذجية في التشديد الذي يميّز هذا النوع من الخبرات. فالرقص هو القداس الأكبر الذي ستظهر فيه **كاتي** بكامل تألقها حتى يتودّد لها الشباب، ويهيمون بها. سيكون صديقها مسحورًا بها، وسيهيم خلفها في لباسه المسائي الداكن، وهو يضغط على يدها الباردة، ويطوق خصرها النحيل، ويدور بها في أنحاء القاعة، وهي بين ذراعيه بلا حول ولا قوة. سيثني على جمالها وعلى رقصها وسيشكرها على أمسية لا تنسى.

مازالت الفتيات الغريرات يتوافدن كل سنة في ملابسهن البيضاء النقية، وينحنين احترامًا للملكة أو العمدة أو المطران أو أي شخص كان، يضبطن إيقاع أنماطهن الخاصة بعيون مطرقة. يطلب الشباب الرقص بأدب، وتوافق الصبايا بظرفٍ، أو يحاولن اختلاق ذريعة للرفض على أمل أن يطلب شخص ألطف منهن الرقص. يجب على من يتودد إليهن أن يكون قد قدّم لهن الورود. لكن كل فتاة تأمل أن يحدث شيء

206- *Woman's Weekly*, 2.7.1969.

أكثر إثارة وأكثر رومانسية من النتيجة المتوقعة للمناسبة الاجتماعية. ربما يتقدم شاب وسيم أكثر من غيره ويشم رائحة العطر على شعرها. وربما يحبس أنفاسه بعد العشاء، عندما يتجولان على الشرفة، وقد بهرته فخامة عينيها اللتين لا تعرفان حدودًا. سيخفق قلبها، ويتوهج خداها بحمرة فاتنة. سيقول أشياء مدهشة، وسيكون رقيقًا وقويًا على نحو غريب. وقد تجد نفسها مرمية بين ذراعيه البارعتين. لن يكون أي شيء أكثر تعبيرًا عن الجنس من قبلة، لا معانقة فظة مبتذلة، بل مجرد ذراعان قويتان حولها لحمايتها من العالم القاسي، وشفتان دافئتان على شفتيها، تبعث قشعريرة استثنائية في كامل جسدها.

لا تأتي القبلات، في العالم الرومانسي، قبل الحب، إلّا إذا عرضها رجال أشرار يخدعون الفتيات البريئات وهلة من الزمن، وبعدها سرعان ما ينقذهن العاشق الحقيقي كلي القدرة. يفترض بالقبلة الأولى أن تطلق إشارة النشوة وتبادل القلوب والزواج الوشيك، وإلا كانت قبلة كاذبة. كل ذلك فج وبلا معنى، ومع ذلك فقد شكّل خرافة مئات المجلات المصورة التي تحمل عناوين من مثل العشاق وأسرار الحب وما شابه. فالحالة التي تحرضها القبلة هي في الواقع تحريض ذاتي، بالطبع، لأن عددًا قليلًا من الشفاه فقط يتمتع بإمكانيات كهربائية ومخدرة. كثيرًا ما يفاجأ شاب يحاول أن يقيم علاقة مع فتاته بنشوتها وابتهاجها، ليجد نفسه مثقلًا بعلاقة قوية غير مرغوبة خالية من الجنس بالضرورة.

وستكون القبلة، عندما تحدث، مدهشة وجميلة ولا تنسى. ستكون مثل ميمي ورودولفو[207] يغنيان لحنًا تامًا في لقائهما الأول. ربما لن يقعا في الحب كليةً من اللحظة الأولى، بل سيشعران برقة تنمو إلى

207- تقدم أوبرا جياكومو بوتشيني (Giacomo Puccini) التي تحمل عنوان (La boheme) قصة حب بين الخياطة ميمي والشاعر رودولفو. [المترجم]

أن تأتي ذات يوم تلك القبلة الهائلة! أمّا ما يلي ذلك فيجب أن يكون تجليًا ثابتًا للرقة والتقدير والإطراء والمشاعر الحساسة من جانب الرجل مصحوبة بالفروسية والكياسة في جميع الحالات. يعرف بطل الرومانس كيف يعامل النساء. ورود وهدايا صغيرة ورسائل حب وربما قصائد لعينيها وشعرها ووجبات على ضوء الشموع على شرفات يضيئها نور القمر على أنغام خافتة. لا استعجال ولا إظهار لرغبات الجسد؛ بعض الأنفاس العميقة وطبع الشفتين الحارتين على الحافة الرقيقة لياقة ثوبها وكلمات تودّد يغمغم بها لشعرها الوفير. «أشياء صغيرة لكنها تعني الكثير». الشوكولاتة المفضلة لديها، أسماء الدلال التي يناديها بها، تذكر عيد ميلادها، المناسبات السنوية، الألعاب المضحكة. ثم هناك الأشياء التافهة التي تذكره بها: عطرها، وشاحها، ملابسها الداخلية المزخرفة، مناديلها المخرمة السخيفة، هريرات في حضنها. لغز، سحر، شامبانيا، كياسة، رقّة، إثارة، افتتان، تبجيل.. لا تشبع النساء من ذلك قط. لا يعرف معظم الرجال شيئًا عن عالم الخيال المؤنث هذا، لأنهم لا يتعرضون لهذا النوع من الأدب وتجارة الرومانسية. ويخشى الرجال الآخرون عمومًا ذلك النوع من الرجال الذي يدرس هذا النوع من السلوك ويصبح محل اهتمام السيدات، سواء من أجل الشهوة أو الحب أو الطمع، ويكرهونه لأنه قوّاد أو منحرف من وجهة نظرهم. يدرس أصحاب صالات التجميل الذكور ومزينو الشعر نقاط ضعف زبوناتهم، ويعبثون معهن قصدًا، فيسمعوهن إطراءات يتعطشن إليها، ويلمحون إلى أنهن يستحققن أكثر من مجرد ذلك المصير الأسري التافه الذي يحتملنه.

إذا كانت مجلة سويتهارتس وغيرها من المطبوعات الشبيهة بها، بخيالاتها المهلوسة عن الحب، أمريكية، فهي، لسوء الحظ، تجد توزيعًا واسعًا لها في إنكلترا. هناك أيضًا أسبوعيات تافهة تحمل أسماء من

مثل ميرابل وفالنتاين وروميو وأكبرها جاكي تبيع ما يصل إلى مليون نسخة في الأسبوع لفتيات تتراوح أعمارهن بين العاشرة والسادسة عشرة، وهي تقدّم النماذج البريطانية المثالية عن الرومانس. فتيات بسيقان طويلة يلبسن أحدث الأزياء بتنانير وشعر وحشي وعيون قاتمة؛ وفي معظم الوقت يتفادين سخافة القبلة المخدرة. الرجال وسيمون وسامة استثنائية في سطور ريجنسي بك (Regency Buck)[208]، أنيقون إلى هذه الدرجة أو تلك وباردون وميالون إلى التمعن بتصميم في العيون الوامضة لنساء ذائبات. والجانب الاستثنائي هو الأهمية الفائقة التي تضفى على الولع بالأشياء. يبدو الرومانس للمراقب المستقل سريالية تقريبًا وكأنه يتمحور على التسجيلات والكتب والأشياء التافهة التي تصل، كما في إحدى الحالات، إلى مقعد في الحديقة. كيت وهاري عاشقان. وهما يجلسان على مقعد في الحديقة ويدور بينهما الحوار التالي:

«آه، يا كيت، إني أحبك أكثر من أي شيء على وجه الأرض».
فتجيبه: «وأنا يا حبيبي أحبك أكثر من أي شيء في العالم كله».

يصبح المقعد مهمًا جدًا في علاقتهما، وعندما يقرّر مجلس المدينة نقله، تندفع كيت إلى مكتب هاري في المجلس بطلب يفيد بأنهما يجلسان عليه. ويفعل هاري الشيء ذاته إلى أن يخبره رئيسه، مسّاح البلدة، أنه سيفقد عمله إذا استمر في الإصرار على ذلك. يستسلم هاري تاركًا كيت تدافع عن مقعدها وحيدة. فتأخذ الأمر على أنه مؤشر على سطحية حبه لها. لكن أحد المشاركين في إزالة المقعد، وهو شخص تدل ملامحه المصممة وشعره البايروني على أنه عاشق، يأخذ مكانه قربها. «سننقذ هذا المقعد لك، من أجل عشاق الماضي

208- رواية بقلم جورجيت هاير تعود إلى الفترة 1811-1812. [المترجم]

وكل عشاق المستقبل». تُظهر آخر صورة بطلتنا تحدّق فيه بعينين مخضلّتين، وشفتاها الطفليتان المزمومتان قريبتان من ملامحه البارزة والقوية. «لكنك ستخسر عملك مقابل لا شيء. هل.. هل تعتقد فعلًا أننا نستطيع أن نهزمهم؟» تقول، فيردّ عليها «أعرف أننا نستطيع أن نهزمهم. فالناس يستطيعون أن يفعلوا أي شيء إذا حاولوا بما يكفي من الجدية وأحبوا بما يكفي. دعينا نحاول...»[209]. *النهاية*، حتى لا نقول الكثير.

العاشق في الروايات الرومانسية هو رجل ذو طرق بارعة، متفوق بوضوح على محبوبته في جانب واحد على الأقل، لكنه عادة متفوق في جوانب عديدة، فهو أكبر منها سنًا أو أرفع مكانة اجتماعية أو ذو إنجازات أعلى أو أذكى ومتحضر أكثر. وهو متسلط، لكنه يهتم بعمق بأمر سيدته التي يحميها ويوجهها بطريقة أبوية بامتياز. كما يمكن أن يكون صارمًا ومنطويًا، بل وبغيضًا، لكن بطلات الرومانس يذوّبنه بقوة تواضعهن وجمالهن وحدها وبقوة ملابسهن الساحرة. لديه أكثر من إشارة من إشارات الخطر في فتوحاته الماضية أو سرّ يعاني منه أو ازدراء للنساء. لكن نيران الهوى تتقد تحت السطح تمامًا، ويكبتها برقته وتفهمه المطلق لحاجات البطلة العاطفية. إن أصل شخصيات من هذا النوع هو في الواقع رومانسي بالمعنى التاريخي، فأول نماذج منها قد تكون روشيستر (Rochester) وهيثكليف (Heath-cliff) والسيد دارسي (Mr Darcy) واللورد بايرون (Lord Byron)[210].

209- *Mirabelle*, 8.11.1969, 'Saturday Sit-in'.

210- روشيستر بطل رواية جين آير للكاتبة الإنكليزية شارلوت برونتي، نشرت في عام 1847.هيثكليف بطل رواية مرتفعات ويذيرنغ للكاتبة الإنكليزية إيميلي برونتي، نشرت عام 1847. دارسي أحد شخصيات رواية (Pride and Prejudice) التي ترجمت إلى العربية بعنوان كبرياء وهوى أو كبرياء وتحامل، للكاتبة الإنكليزية جين أوستن. اللورد بايرون (1788-1824) شاعر إنكليزي من رواد الشعر الرومانسي. [المترجم]

لكن حساسية **الليدي كارولاين لامب** (Lady Caroline Lamb)[211] تتغلب على الحس السليم لدى **أوستن** (Austen) و**برونتي** (Brontë). وخلقت **جورجيت هاير** (Georgette Heyer) النموذج الأصلي لعصر البلاستيك: **اللورد وورث** (Lord Worth) في رواية **ريجينسي بك**، مستغلةً بذلك النجاح الجنسي للبطل البايروني بطريقة واعية على نحو استثنائي. إنه مثال ممتاز على النموذج المقولب الذي يشبهه معظم أبطال الروايات الرومانسية إلى هذه الدرجة أو تلك، سواء كانوا شبابًا مندفعين مع حسّ بالفكاهة خاصّ بالطلاب الجامعيين وهم يهنئون البطلة على جرأتها (الأكثر مساواتيةً في التصوّر) في قصص المغامرات التي سادت في الثلاثينيات، أو **الملك كوفيتوا** (King Cophetua) والفتاة الشحاذة[212].

> كان نموذجًا للرجل الذي يسير حسب الموضة. يضع قبعته المرتفعة فوق خصلات شعره الأسود الممشوط بعناية ليبدو وكأنه فوضوي؛ وربطة عنقه من الموسلين المنشّى تسند ذقنه بعدة طيات جميلة، وفي معطفه المصنوع من قماش رمادي اللون ما لا يقل عن خمس عشرة طية وصف مزدوج من الأزرار الفضية. لم يكن أمام الآنسة **تافرنر** مفرّ من الاعتراف بأنه مخلوق وسيم جدًا، لكنها لم تجد صعوبة في النفور من الانطباع الذي يضفيه محياه. له هيئة من الغرور؛ إذ كانت عيناه، اللتان ترمقانها بسخرية من تحت جفنين ضجرين، أقسى ما رأته عيناها يومًا، ولم تكونا تشيان بأي عاطفة سوى الملل. كان أنفه مستقيمًا بأكثر مما تستسيغه. أما فمه فكان حسن التشكيل صلبًا ولكن رقيق الشفتين. وظنّت أنه كان يهزأ...

211- الليدي كارولاين لامب (1785-1828) أرستقراطية وروائية بريطانية، حازت شهرة كبيرة نتيجة علاقتها الغرامية مع اللورد بايرون. [المترجم]

212- قصة قديمة في التراث الإنكليزي مجهولة الأصل، يرد ذكرها في بعض المصادر. وهي تروي حكاية الملك كوفيتوا الذي يقع في غرام فتاة شحاذة ويتزوجها. [المترجم]

أما أسوأ ما في الأمر فهو تراخيه. كان غير مبال، سواء في تفاديه ببراعة حادثًا أو في ورطة العربة. كانت قيادته رائعة؛ لا بدّ أن تنطوي هاتان اليدان اللتان ترتديان القفاز بأناقة على قوة غير متوقعة، وهما تمسكان الأعنّة بطريقة تبدو مهملة، ولكن لمَ بحق الله، لمَ يجب أن يبدي تلك المسحة من التصنّع المفرط في تأنقه؟[213]

لا يمكن لأي شيء يقوم به مخلوق كهذا أن يكون *سخيفًا*. بمثل هذين *الجفنين الضجرين*! وبملامحه النبيلة واحتقاره الأرستقراطي اللذين فتحا أول مرة أبواب المجتمع المهذب **لتشايلد هارولد** (Childe Harold)[214]، والتهديد المدغدغ لقوة غير متوقعة! ربما نلاحظ، قبل كل شيء، أنه يوجد من خلال لباسه النظيف ـ ذلك أن **بو بروميل** (Beau Brummell)[215] كان أحد أصدقائه ـ لكنه عندما يواجه هذا المشهد...

... كانت تتمنى لو كان شعرها أسودًا؛ فكانت تظن أن شقرة جدائل شعرها بلا طعم. كان حاجباها ورموشها، لحسن حظها، غامقان، وكان في عينيها صارختي الزرقة (كما لو كانتا عيني دمية من الشمع، كما قالت لأخيها ذات يوم بشيء من الازدراء) شيء من المباشرة والاتقاد اللذين منحا وجهها كثيرًا من التميّز. قد يختصرها المرء لدى النظرة الأولى إلى آنسة من الخزف الألماني الفاخر، أما إذا تأمل فيها جيدًا فسيكتشف ولا محالة الذكاء في عينيها ومسحة التصميم الواضح في منحنى فمها[216].

213- Georgette Heyer, *The Regency Buck* (London, 1968), p. 15.

214- بطل قصيدة طويلة للورد بايرون بعنوان (***Childe Harold's Pilgrimage***). نشرت بين عامي 1812 و1818، وتتحدث عن أسفار وأفكار شاب ضجر من الحروب التي سادت في أوروبا بعد الثورة الفرنسية ولاسيما حروب نابليون. [المترجم]

215- أحد أساطين صناعة الأزياء الرجالية في عصره. [المترجم]

216- *Ibid.*, p. 5.

بالطبع يبقى ذكاؤها وتصميمها، لحسن الحظ، محصورين بعينيها ومنحنى فمها، لكنهما يقدّمان العذر لسلوكها السيء مع اللورد وورث، الذي يتكشف عن أنه الأكثر إثارة من بين جميع العلاقات المثيرة، حارسها الشاب، نتيجة خطأ مرسوم ببراعة. وهو يواجهها في هذا الثوب الساحر ـ «عباءة مستديرة ملساء من قماش فرنسي أبيض ناعم موشاة حول العنق بمخرمات مزخرفة؛ ومعطف مغلق من الحرير الناعم المضلع. وقبعة مستدقة الطرف من خشب الصفصاف مع شريطة من المخمل المخطط...»[217] ـ أخرج مرتجفًا، على نحو يعرضها للشبهة، حصاة من خفها، وهكذا يرفعها، وقد اضطرت إلى إخفاء قدمها المجورب في تنورتها، بين ذراعيه، ويدفعها بقوة داخل عربته (إذ في تلك اللحظة لم يكن أحد منهم يعرف بعلاقتهما)، حيث «أخذ خفها من قبضتها المستسلمة، وحمله مستعدًا لوضعه في قدمها». ثم، حتى يزيد في إثارة نقمتها الساحرة، قبّلها. بمثل هذه السرعة في تحقيق الفتوحات كانت القصة ستنتهي بعشرين صفحة، لو لم يكن حارسها وورث رجل مبادئ أكثر تمسّكًا بمبادئه من أن يعبّر لها عن ملاطفاته. إنها تصبح بمساعدته، التي يقدّمها بصرامة وحياء، فاتنة الموسم التي يتودّد لها الجميع، ولكنها لا تحب أحدًا (سواه). لديها دخل يبلغ ثمانية آلاف جنيه في السنة، وهو ما يشكل دافعًا لنوع واحد من طالبي ودّها؛ لكن الرغبة الشهوانية فيها هي دافع البقية، وأبرزهم أمير ويلز، الذي تعتبر تودّداته كريهة حتى أنها تصاب بالإغماء إلى درجة تحتاج معها إلى إنعاش وحمل على يد محبها الأبوي البارع، الوحيد الذي يحبها دون طمع أو مصلحة ذاتية (لأنه غني غنى خرافيًا)، بإخلاص وقوة. إنه يحميها طيلة الوقت، على الرغم من أنها لا تشعر بذلك في معظم الوقت، حتى بلوغها سن الرشد، بعد لحظة من النظر إلى وجهها،

217- *Ibid.*

يرفعها بين ذراعيه. لدى جورجيت هاير خيط من التحفظ، أو ربما الاحتشام، يمنعها من استغلال لحظات التهيج الجنسي في الكتابة، أما **باربرا كارتلاند** (Barbara Cartland) فتبالغ في تصوير المعانقات، لتكشف بذلك الكثير من حالات الاستغراق الرومانسي الكامل في الحب. ففي كتابها **أجنحة الحب** (The Wings of Love)، تقسم الاهتمام الغرامي إلى قسمين، حيث **اللورد رافنسكار**، الأربعيني الفاسق الذي يشتهي جسد **أماندا** الجميل الضئيل، ويفرض ملاطفاته الشنيعة عليه...

> ... اشتدّ تمسكه بها. وكانت شفتاه الملتصقتان بشفتيها مثل كلّابة [كذا]. شعرت برغبته تصعد فيه مثل لهب شيطاني؛ وفجأة رفعها بين ذراعيه. وقال بصوت أجش: أماندا! يا إلهي! لماذا يجب أن ننتظر؟
>
> كان يحملها إلى أريكة كبيرة في زاوية الغرفة؛ وفيما هي تصارع وتقاتل بكل ذرّة من قوّتها، أدركت كم هي صغيرة وغير مؤثرة، وأن مقاومتها لم تكن تفعل سوى أن تزيد إثارته.
>
> **أماندا! أماندا!**
>
> كانت شفتاه السميكتان على عينيها وخديها وعنقها. شعرت به يضعها مستلقية على الأريكة، وفيما كانت تقاتل بلا جدوى لتستعيد ثبات قدميها، عرفت أنها بلا حول ولا قوة. وسمعت شال عباءتها يتمزق تحت يديه[218].

البطلة العاجزة تمامًا هي الجزء الأهم في القصة، عاجزة عن مقاومة الاغتصاب (إذ كيف لمخلوقة رقيقة مثلها أن تقاوم نبيلًا ملكيًا ورغبة عارمة تجتاحه؟) وعن مقاومة أشكال مقبولة أكثر من الفتح الجنسي، على يدي الرجل الآخر، البطل الذي سيحميها من رغباته الحيوانية ومن جرائم العالم ومن حماقاته.

218- Barbara Cartland, *The Wings of Love* (London, 1968), p. 152.

استدارت نحو الباب، وفجأة ركع بيتر هارفي على ركبته قربها. نظرت إليه بدهشة وهو يرفع حاشية ثوبها الموسلين الأبيض ويمسّه بشفتيه، قائلًا:

أماندا!، هكذا يجب أن يدنو منك الرجل، أي رجل. لا أحد جدير بأن يفعل أكثر من تقبيل حاشية ثوبك، ورافنسكار قبل الجميع. هل ستتذكرين ذلك؟[219]

هذا هو نوع الرجل الذي تتزوجينه. يركع على ركبتيه، ويلوك حاشية ثوبها المتسخة، ويبقى مرشدها الأخلاقي. يتجاوز ولع الآنسة كارتلاند بالدغدغة ولع هاير بكثير، لأن أبحاث هاير في الطبيعة التاريخية تتجاوز طبيعتها الخاصة. نتيجة سلسلة من الحيل المنافية للعقل، يلتقي العاشقان على سرير في بيت دعارة، حيث يقوم بإنقاذها. وتعترف أماندا بحبها في جو أكثر احتشامًا.

ـ أماندا، أنت تجعلين الأمر غير محتمل لي. قال بيتر وقد بدا صوته مختنقًا. فردت عليه:

ـ أنت لا تريدني. فقال:

ـ سأجعلك يومًا ما تعتذرين على ذلك. يومًا ما سأقبلك حتى تصرخي طالبة الرحمة. وإلى أن يحل ذلك اليوم ـ وأدعو الله أن يأتي سريعًا ـ اعتني بنفسك يا محبوبتي الصغيرة.

أمسك بيديها ورفعهما إلى شفتيه. وبدلًا من أن يقبّل ظهرهما، قلبهما، وأحسّت به يقبل راحتيها بمزيج من التوقير والشغف النهم وهو ما جعلها ترتعش، ويرتجف جسدها كله بنشوة مفاجئة[220].

هما، في الواقع، لم يتبادلا القبل بعد، لأن بيتر قال: «إذا لامست شفتاك شفتي فلن أكون مسؤولًا عن النتائج». وفي الحقيقة، إذا كان

219- *Ibid.*, p. 47.
220- *Ibid.*, p. 137.

تقبيل اليدين يسبب الرعشة، فمن المحتمل أن تسبب قبلة فعلية الصرع. هي على مذبح الكنيسة تردد النذر الذي ربطها برافنسكار مدى الحياة عندما يكشف حبيبها أنه خائن، ويبارزه، ويأخذ مكانه إلى جانبها.

> شعرت بحبها يصعد فيها مثل لهب. شعرت بكامل جسدها يرتعش من الإثارة وبنشوة الرعشة التي اجتاحتها، لأنها عرفت أنها في غضون ثوانٍ ستصبح زوجته وستنتمي إليه إلى الأبد[221].

اشتريت هذين الكتابين من سوبر ماركت مقابل ثلاثة بنسات لأحدهما وستة للآخر، لكن لا أستطيع الزعم أن اختياري لهما كان عشوائيًا، فأنا أتذكر هذين الاسمين، **هاير** و**كارتلاند**، منذ أيام مراهقتي المليئة بالخيالات. التقيت الآنسة **كارتلاند** لابسة ثوبًا ذي طيات متعددة من الزبرجد في مناظرة جامعية موضوعها «كوني فتاة حلوة طيبة ودعكِ من الذكيات». حيث أخذت الآنسة **كارتلاند** الدور الإيجابي، كما لو كان من الممكن أن تكوني طيبة دون أن تكوني ذكية! يبدو أنها في هذه الأيام قد كرّست نفسها مستشارة عاطفية وموردةً لمركّب مثير للشهوة الجنسية قوامه العسل، وربما تشير إلى نجاح ابنتها في زواجها السعيد من أحد النبلاء. إذا كان لحركات تحرير النساء أن تحقق أي شيء فيجب أن تدرس ظواهر من مثل صناعة **كارتلاند** التي تدر ملايين الدولارات. الكتاب الثالث الذي اشتريته في ذلك اليوم اشتريته حسب الوصفة المكتوبة عليه. كان عنوانه **القلب المحبّ** (The Loving Heart)، وقد وُصف بأنه «قصة رومانسية عظيمة أخرى من المناطق النائية الأسترالية». وكان يحتوي جميع أدوات الرومانسية المجرّبة جيدًا. ففي ابتكار **غرانت جارفيس** استفادت

221- *Ibid.*, p. 191.

لوسي ووكر (Lucy Walker) من الطريقة الأبوية الإقطاعية في تنظيم مزرعة لتربية الأغنام. لم يكن بطلها غنيًا وحسب، بل ويدير جماعة من المستخدمين المخلصين، البيض وصغار السن نسبيًا، بالإضافة إلى السود والأطفال.

ومن أجل جمع عناصر قصتها معًا بتلك الطريقة التي تؤمّن الحد الأقصى من الارتعاشات العاطفية، تبتكر **لوسي ووكر** وضعًا معقدًا جدًا وبعيد الاحتمال بحيث يمكن لتلخيصه أن يستغرق وقتًا يعادل وقت اختلاقه. كل ما نحتاج إلى معرفته هو أن **إليزابيث هيتون** تقف، بوصفها خطيبة **غرانت جارفيس**، لحمايته من النساء الماكرات الراغبات فيه لدوافع تتعلق بالزواج والطموح. هنّ متوقدات الذهن ونشيطات ورائعات الجمال، أما هي فتتمتع بطبيعة ونقاء إنكليزيين إضافة إلى براعتها في تقليد الملكة في أداء وظائفها مثل سيدة في قصر شخص أسوأ من إقطاعي. حياؤها مبالغ فيه إلى حد يسبب لها المعاناة حتى أنها تنام في ليلتها الأولى في المزرعة بلباسها الداخلي على الأرض قرب الموقد، وجسد غرانت يحميها من الطرف البارد. وعندما يزور غرانت غرفة نومها في وضح النهار فإنها لا تستطيع «بسبب الحيوية التي فيها» أن تمنع «الحمرة الواضحة التي تزحف إلى خديها» على الرغم من أنها ليست وحيدة. هي ممتنة لأن «صينية الفطور توضع على ركبتيها... نوع من الوقاء الرمزي»[222]. جسديًا، غرانت حسن البنية مثل الأب ـ القضيب، و«وسيمٌ جدًا» و«عيناه زرقاوان رماديتان باردتان»، وهذا، بالإضافة إلى فمه المستقيم وفكّه المتين، «يمنحه تعبيرًا بالصلابة... واللامبالاة»[223]. تُبذل كل جهودها في الكتاب للفوز بموافقته، أما في لحظاتها الهادئة، عندما لا تكون في تعليم الأطفال

222- Lucy Walker, *The Loving Heart* (London, 1969), p. 226.
223- *Ibid.*, p. 32.

أو غسل العلم البريطاني (حقًا!) فتقع في تأمل جماله الذكري الصلب وفي أحلام يقظة مازوشية.

> ومع ذلك فقد شعرت، وهي تنظر إلى غرانت، مستندًا إلى ذلك الدرابزين ومحدّقًا في السهل المنبسط أمامه، وذلك الجرح الأبيض الناعم على ذراعه، أنه رجل وحيد برغم كل ثروته وسلطته. ولم تكن إليزابيث تعرف ما إذا كان منعزلًا بفعل مأساته الشخصية أو ثروته الكبيرة. إذا طلب منها أن تبقى بعد رحيل الآخرين، فلن تبدي أي اعتراض. كان لديها ميل إلزامي غريب لخدمته[224].

هناك في جميع الروايات الرومانسية انشغال بالملابس. يتم كل عرض جنسي وفيه تلعب الملابس دور عائق جذاب؛ كما تعتبر عبادة القدم المعروضة في تصويرات الآنسة ووكر إضافة اختيارية[225]. طبع الكتاب أربع مرات في نسخة فونتانا (Fontana)، وقد كتبت الكاتبة أحد عشر كتابًا آخر على الأقل. تأتي ذروة الدغدغة عندما ينضم غرانت جارفيس في كولومبو إلى السفينة التي تسافر إليزابيث فيها إلى ديارها في لندن.

> عرفت أنه حقيقي لأن صوف معطفه الخشن آلم أنفها، وتمكنت من الشعور بقوة ذراعيه الكبيرة وهو يشدها إليه...
>
> حدث ما لا يصدق. ذلك أن أحدهم قد عبر القارات، واجتاز البحار للحصول عليها... إليزابيث هيتون، ضاربة الآلة الكاتبة...
>
> أحنى رأسه، والتقت شفتاه بشفتيها. وشعرت إليزابيث للحظة طويلة بطعم النعيم على فمها[226].

هذا هو البطل الذي اختارته النساء لأنفسهن. وكانت السمات التي

224- *Ibid.*, p. 171.
225- *Ibid.*, pp. 53, 85—6, 91, 112, 191, 207, 228.
226- *Ibid.*, pp. 253—4.

أضفيت عليه من اختراع نساء يعشقن سلاسل عبوديتهن. هناك فكرة شائعة بين الذكور مفادها أن النساء يحببن الأرذال، لكن الحقيقة هي أن النساء يستسلمن، كما لو بفعل تنويم مغناطيسي، للرجل الناجح الذي يبدو سيد مصيره؛ إنهن يتلهفن إلى تسليم المسؤولية عن أنفسهن إلى شخص يستطيع أن يديرها لما فيه مصلحتهن الفضلى. لا يوجد رجال من هذا النوع، لكن النساء الشابات جدًا يملن، نتيجة تشتت خيالهن الجنسي، إلى رؤيتهم حيث لا يوجدون. وغالبًا ما يضفى على فتح أبواب السيارات وخداع رؤساء النُدل واختيار الهدايا وكسب المال قيمة عليا بوصفها إنجازات رومانسية: من شأن نساء كثيرات، في بحثهن عن الرومانسية، أن يضحّين بسعادة بحكمهن الأخلاقي على بطلهن. كم من ربة منزل ارتعشت تأثرًا أمام قصة تشارمين بيغز (Charmaine Biggs)، زوجة سارق القطارات، أو شبحها، التي عرفت ما هي الجوانب التي ستصوّرها، وتشدّد عليها في تلك الحياة الدنيئة والمضطربة، حين تروي قصتها للصحف[227]. فهي تكرر الحديث عن ضخامة بيغز وقوته الجسدية وجرأته، بالإضافة إلى وقاحته في قاعات المحاكم ومراكز التوقيف وموقفه المتعالي من المال وبراعته الفائقة في السرير. وقد قبلت حتى حالة زنى بلا تذمر.

على الرغم من أن القصص العاطفية تعويضية أساسًا، فإن قوة الخيال تشوّه السلوك الفعلي. وليست هناك مبالغة في قوة القناعة بأن الرجل يجب أن يكون أقوى من المرأة وأكبر منها سنًا. لا يمكنني الادعاء بأنني متحررة تمامًا من الحلم بأن رجلًا ضخم الجسم عريض الكتفين وغير ذلك من الصفات الذكرية سيعتصرني في بذلته التويدية، وينظر من فوق إلى عيني، ويترك طعم النعيم، أو لسعة هواه الجارف، على شفتيّ المتلهفتين. تزوجت رجلًا من هذا القبيل مدة ثلاثة أسابيع.

227- Run as a series by the *Sunday Mirror* 26 October—16 November 1969.

يجب فهم الانطباع بأن النساء يلبسن ليسعدن الرجال على أنه يعني أن النساء يلبسن ليخلقن انطباعًا يتماثل، كما يعتقدن، مع الدمار الذي أحدثته أماندا في فستانها الموسلين الأبيض على بيتر هارفي. يعتبر رقص الصالونات خلاصة استثنائية من جانب المجتمع لأسطورة الخضوع الأنثوي؛ تتحرك النساء إلى الخلف، منسابات في القاعة في عناق طاهر، وجوههن قريبة من وجوه الرجال، لكنها لا تتلامس في الواقع. يمكن النظر إلى هذا الرقص، الذي لا يعود إلا إلى أيام رواية ريجنسي بك لهاير على أنه تعبير عن أساليب الطبقة الوسطى، لأن أشكال الرقص الأرستقراطية كانت رسمية، في حين سمحت الأنواع الأدنى بجزء مستقل للمرأة يتضمن مستوى أقل أو أكثر من الإجهاد. لم أسمع بأي رقص شعبي، أو رقص بلدي، يسيطر فيه الرجل على حركة المرأة الذاتية. العرض المفضل لامرأة الطبقة الوسطى هو الباليه؛ فجميع القوالب الرومانسية متجسدة فيه، لأن المرأة، على الرغم من أن عروضها الفردية تتطلب قوة كبيرة وانضباط، تقفز لكنها تبدو وكأنها ترفع مثل ورقة أو كومة من زغب البجع. حتى على المستوى الاجتماعي البحت، يتضمن رقص الصالونات الناجح التناقض ذاته. فيجب أن تمارس المرأة ضبطًا جسديًا بحيث تبدو وكأنها تقاد خفيفةً في أرجاء القاعة.

لكن العملية الأهم في خرافة الرومانسية تكمن في المغازلة. إذ ليس لدى الرجال، ما لم يكونوا يستغلون عن قصد حساسية الأنثى، سوى فكرة قليلة عمّا تعنيه القبلة في العرف الرومانسي. فهي عندهم بداية، تمهيد للعلاقة الحميمة؛ أمّا لدى النساء، فهي تاج الحب الذي يجب أن يقدّم في لحظات الذروة. وفي حين لا تؤمن المرأة بذلك، فإنها كذلك لا تفهم موقف الرجل منها أيضًا. كثيرًا ما تغيب الكثافة التوقيرية عن عناقات المراهقين، على الرغم من أن الرجال الأنضج

قد يتظاهرون بها، ويتظاهرون بها على نحو غير واع تقريبًا. المراهق الأفضل سلوكًا يعانق، حتى لو لم يكن أحد يفعل في **فالنتاين** أو **ميرابل** أو **سويتهارتس**، لكن حتى حين تعترف بهذه الحقيقة، فإن المراهقة تتوق إلى الحب والرومانسية على أنها أشياء يمكن أن تحدث لها، لكنها لا تستطيع أن تسببها. يعمل الدافع إلى الاستسلام ضد الدافع إلى فرض الشكل الصحيح على الظروف، وغالبًا ما تُغرى فتاة، تزفر روحها على شفتي حبيبها الغر، بفكرة طنانة عما يحدث فعلًا. فهي تقدّم في وقت واحد أقل وأكثر مما يطلب. وتشهد المشاهد المربكة التي تأتي بعد أن يخرق الصبيان البروتوكول العاطفي على عمليات الرومانس الخيالية. إنه لدور بسيط جدًا ذاك الذي يتظاهر به بعض الشباب الأكثر كلبية قصدًا: فسرعان ما يتعلم المبتدئ الغرّ أن أفضل مسلك هو مسلك الرغبة المكبوحة الموشكة على الانفلات، مسلك يمكن التعبير عنه بقليل من التنفس الثقيل والتحديق ذي المغزى. ماذا عن مسلك **كارتلاند**، «إذا قبّلتك فلن أكون مسؤولًا عن العواقب»؟ يمكن لمثل هذا الحوار أن يكون مادة متفجرة. مقابل كل إصرارهما المحتشم على التورّد خجلًا وإزالة أي إيحاء باحتكاك إنساني أقل قوة وأقل حشمة، تمهّد **كارتلاند** و**هاير** الطريق للمغوين، لا للمحبين - بل للمغوين. ولكن في حين تجعلان عمل الرجل الوسيم أسهل، فإنهما تضعان المزيد من العقبات في طريق الرجل العادي. على الرغم من أن الرجل الرومانسي ليس قالبًا لا يتغيّر كالمرأة السلبية عديمة الشخصية، فإنه يتمتع بمزايا لا غنى عنها. فهو لا يُصوَّر قط على أنه أخرق، مع أنه قد يكون متغطرسًا أو حتى مهينًا؛ ولا يُقدّم قط على أنه عصبي أو غير واثق أو متواضع، وهو دائمًا حسن المظهر. في حالة المراهقة العشائرية، هناك صبيان لا يخرج المرء معهم قط؛ هم غير مقبولين لأنهم بشعون أو مبتذلون أو متلهفون. لا يجرّدك الفسق الحقيقي من الأهلية بقدر ما يجرّدك أي من هذه الأشياء.

يشهد المحيط والملابس والأشياء كلها على طقسية الجنس الذي يعتبر الصفة الأساسية في الروايات الغرامية. وتمامًا مثلما **العشاء المقدس** ليس وجبة حقيقية، ولا يشبع جوعًا، فإن **القبلة الإلهية** ترمز إلى صلة حميمة لا يمكن الاستمتاع بها فعليًا. يكشف تصوير **كارتلاند** لتقبيل حاشية الثوب وأزهار الزنبق حقيقة أننا نتعامل مع نوع من الديانة الجنسية. العبادة هي المطلوبة وليس الحب. هذه الطقوس ضرورية لبعض النساء حتى في الحياة الزوجية لجعل الجنس مقبولًا. دون تلك الشعائر يصبح الجماع واجبًا منزليًا آخر، وبعض تلك الحاجة إلى أجواء سحرية أقرب إلى تفسير نفور الزوجة من الجنس من مجرد المساومة الجنسية الدنيئة. للرغبة في جعل الجنس جزءًا من احتفال مهم علاقة غريبة بالبطء المزعوم في الاستجابة الأنثوية، لأن الكثير من النساء لا يبحثن في الجنس عن التحرر الجسدي، بل عن الحبور، العبادة الجسدية التي وُعدن بها في حفل الزواج. بعض ما تطالب به النساء جنسيًا هو في الواقع مطلب بتشريع طقس «الاتحاد معًا» جنسيًا، وهو ما ينفر منه الرجال لأنهم يسيئون تفسيره على أنه طلب على فحولتهم.

انتحبتُ وحاولتُ أن أتملقه. لكنه نعتني بأنني «شبقة». سأحبك بالطريقة التي أحببتك بها في سانت ريمي في القصة... وافق، لكنني كنت يائسة.

بدأت بالأرابيسك. كان كل أملي في يدي. لعوب، خفيفة، رقيقة، جسورة، بسيطة، معقدة، ملاطفة، مفاجئة، مضللة، مترددة، دقيقة، موزونة، لانهائية، بارعة، حيوية، بطيئة، ساحبة، رؤوم. هل تحب هذه، هذه الحركة الدائرية حول حلمتك؟ هناك طائر عائد من الجنوب الدافئ، **غابرييل**، يرفرف من فخذك إلى كاحلك، استمع إليه على حواف جسدك. متحركة بلا مبالاة، بإتقان، بانتباه، بفضول، بيقظة،

تتبعت اسم سانت ريمي على بشرة حبيبي. وكتبت أيضًا المرأة القديمة تلتقط الأزهار المتعفنة عندما كان السوق يغلق. جدلت فقرة طويلة من صريمة الجدي[228] حول كفليه، حول معصمه، حول أذنه. تدفق نهري اللوتسي البطيء في دمه، لكنه لم يجعل غابرييل يذهب إلى النوم. رعشة بين لوحي كتفيه، رمز على قوتي. تعريشات قاعة الرقص، قلي البطاطا في الهواء الطلق، إبطيه، مغبنه. مندفعة داخل هيولى حبيبي، تتبعت يدي تخوم ساقه فيما كنت أتنقل تدريجيًا عند كعب زوجي. معلمي العزيز، لقد شجعتني، أصغيت إلى أصوات الغابة مقطوعة الشجر: كتفه حين وثبت حوله. حكت أصابعي وأظافري عن قمر رقيق أخافته غيمة، عن غروب يُذبح، عن ارتعاشات طائر الظل وقطرات مائه. ذهبنا حينها في مشوار بطيء. آه، يا إلهي! كم كان ما كتبته من ركبته إلى مغبنه حسنًا؛ آه، يا إلهي، كان ذلك هو ديني[229].

في عمل فيوليت لوديك (Violette Leduc) تعتبر السوقية قوة. هنا تتحد القصة الغرامية الرخيصة بالتشكيلة الأعلى المسماة رومانتيكية لخلق طقس حب يقوم على مبدأ وحدة الوجود. متبعة الفكرة الرومانسية عن «الاتحاد معًا» تباشر **لاباتارد** (La Bâtarde) رحلة عاطفية أنانية على جسد زوجها الذي لا حول له ولا قوة. يمكن للمرء أن يتخيّل أي رجل وهو يشعر بقرف عميق من هذا النوع من الحذلقة، ويرغب بشيء من البذاءة المباشرة وبشيء من الاستمتاع بهذه العملية بدلًا من هذه الحاجة المنهكة للأعصاب. هناك نسخة أردأ من هذا المزيج من التفاهة والتكريس تكمن في رفض الأنثى تحمّل أفعال جنسية معينة، هي بوضوح نوعية وميكانيكية، وتتحمّل، بالمقابل، انحرافات لأنها ذات مظهر طقسي. يمكن تحقيق الكثير عن طريق التملق، الذي يعتبر نسخة من الابتهال. لا يغفل أكثر العشاق انبساطًا

228- نوع من النبات. [المترجم]
229- Violette Leduc, *La Bâtarde* (London, 1967), pp. 341—2.

عن فعل عبادة عري المرأة، والكثير من الملاطفة هو في الواقع عادة طقسية، حتى لا نذكر التكرار الشعائري لتعبير «أنا أحبك» الذي تطلبه بعض أكثر النساء فسقًا. أما المصطلح المتكرر في المجلات الجنسية عن النشوة الجنسية بأنها التجربة «الأسمى» فهو انعكاس آخر للرومانتيكية والإيمان بنوع من التضحية الصوفية في الجنس.

> لطالما تقت، مثل كثير من الفتيات الشابات، على نحو غامض، إلى «أميري الساحر» ليأتي ويوقظني بقبلته السحرية. لكن عندما حصلت على قبلتي الأولى وقبلات كثيرة غيرها دون أن أحصل على النتيجة الموعودة، أصابني إحباط شديد. ولم يحدث إلا بعد ذلك بوقت طويل، بعد الوصول إلى نشوة عميقة ومرضية، أن أدركت فجأة المعنى الحقيقي لقصة الجنية وطبيعة القبلة السحرية التي تتحدث عنها[230].

كثيرًا ما لاحظت، وأنا مصلحة جنسية شابة شكاكة، أن القبلة اللغزية في العلاقة الغرامية كانت تعتبر نشوة، لكني توصلت إلى التفكير بأن ذلك خطأ. فما يحدث في النظرة الرومانسية إلى الجنس هو أن النشوة تأتي لتدل على القبلة، وليس العكس. ذلك أن العقل المشروط بقصص الحوريات يترجم الظواهر إلى مصطلحات الثقافة الشعبية المبتذلة. إذ لن يغرى أي صبي، سبق له ومارس العادة السرية، سواء في قفاز البيسبول في عرض ساخر أو على منديل أبيض، أن يصف النشوة بتلك الطريقة الساذجة. لا ترى **ماكسين ديفيز** (Maxine Davis) التباهي في نثرها الوارد في هذا النص:

> ربما تكون فتاة ما قد درست باجتهاد الكتب الإرشادية في الزواج، وحاولت أن تستوعب أي تعليمات توافرت لها من أشخاص موضوعيين ومسؤولين. لكنها إذا لم تحظ بقبلة أو عناق، أو إذا لم تمارس العادة

230- ‘The Sexual Sophisticate’ quoted in Phyllis and Eberhard Kronhausen, *Sexual Response in Women* (London, 1965), p. 61.

السرية أو تحلم إلى درجة الذروة، فلن يكون لديها أدنى فكرة عن حقيقة التجربة الأسمى[231].

لقد أصابني دائمًا النوع ذاته من الاضطراب من الوصف في كتابات د. هـ. لورانس (D. H. Lawrence) عن التجربة الجنسية الفعلية. فهو يربط نفورًا غريبًا مع وصف ما يفعله بطله فعلًا بالتصوير الأكثر مبالغة للنشوة الكونية. إنها خطوة صغيرة من الرواية المألوفة بكل عناصرها الدينية المأخوذة من قصص الجنيّات، كما في:

بطيئًا، بطيئًا جدًا، وبرقة مدهشة، وجدت شفتاه شفتيها. وتلامس فماهما لحظة؛ بتلة زهرة مقابل بتلة زهرة... بحث فمه عنها مرة أخرى، وكان كما لو أن العالم برمته قد ابتعد عنهما وهما يقفان وحيدين فوق الغيوم في تألق أشعة الشمس، وكان شيئًا سماويًا يحيط بكل ذلك[232].

إلى:

بدت على وشك أن يغمى عليها، وهي في موضعها تحته، وبدا على وشك أن يغمى عليه وهو منحن فوقها. كان زوالًا مطلقًا لكل منهما، وفي الوقت نفسه أشق ارتقاء إلى الكينونة... التحقيق العجيب للإشباع الآني... غامرًا متدفقًا، من أعمق نبع لقوة الحياة، من أعتم وأعمق وأغرب نبع للجسم البشري، في مؤخرة الحقوين وقاعدتهما[234/233].

هذه هي النزعة الرومانسية نفسها التي ستجعل إليزابيت هيتون (Elizabeth Heaton) تحمي حضنها بصينية الإفطار، فكرة أن العضو الذكري منبع عظيم يندفع في كل لحظة بفعل دينامية غامضة.

231- Maxine Davis, *The Sexual Responsibility of Women* (London, 1957), p. 91.

232- Cartland (*op. cit.*), p. 62.

233- هذا المقطع من رواية «نساء عاشقات» للورانس مأخوذ من الترجمة العربية التي قام بها أمجد حسين، والصادرة عن دار المدى. [المترجم]

234- D. H. Lawrence, *Women in Love* (London, 1968), p. 354.

لكني لم أكن واثقة من الخطأ في ذلك إلى أن أوليت انتباهي للتخيّلات الجنسية في أغاني البلوز الحضرية التي يبدو أنها تفلت من كل احتشام نبي الجنس وتصوفه الزائف. وربما هذا هو السبب في ظهور كتّاب في أميركا يستطيعون الحديث عن الجنس بحماس ووضوح. لكن لا يستطيع المرء أن يصنف همنغواي بينهم لأن وصفه لنشوة ناجحة هو عندما تتحرك الأرض، ويبدو أن تمثيل التقليد الأقدم مازال أفضل بكثير.

يضع احتشام كتابات لورانس وهمنغواي وإثارتهما وشعريتهما الكاتبين في تقليد الرومانسيين الجنسيين، حتى ولو كانت أعمالهما تباع إلى قراء أكثر ثقافة. صحيح أن مفرداتهما أوسع من مفردات كارتلاند لكن بنى الإثارة نفسها، شريطة أن نقبل أن الجماع هو نهاية القصة وليست القبلة. وهما، بوصفهما علامات على أسلوب حياة جنسي، مضللان بالقدر ذاته. ذلك أن دور الأنثى يبقى التنقل اللغزي من حالة حبور محموم إلى أخرى، مع مهل مناسبة بينها. وربما تجدر الملاحظة هنا إلى أن لورانس وهمنغواي كلاهما قد اتهما بالعجز الجنسي. أما الآن، وقد اعتُرف بدور النساء الجنسي، فإن الحالات المازوشية في الرومانس الأنثوي تصبح أعقد وأقوى، لكنها تبقى في الجوهر ذاتها. يتوقع من النساء اليوم أن يستمتعن بالجنس، ولكن لا يتوقع منهن أن يهبطن من سجنهن في المعبد البرجوازي. بل إن الجنس يحضر إلى المعبد بوصفه جزءًا من طقس شعائري أو تجربة صوفية، هي منحة من الرجال، مثلما مُنحت القديسة تيريزا ابنة مدينة أفيلا النشوة من الرب.

لا تكون المرأة سعيدة قدر سعادتها عندما يتودّد إليها أحد ما. فعندها تكون سيدة كل ما تلقي بنظرها عليه. قبلة كل الأنظار، حتى يأتي ذلك اليوم المشهود الذي تنساب فيه على طول الممر بين مقاعد الكنيسة، متألقة في ثوبها الأبيض، جميلة مثل باقة الزهر التي

تحملها، متعلقة شبه شفافة بذراع أبيها الرجولية التي ستسلمها ليد الأب البديل الجديد. إذا كانت ذكية، وإذا كان لدى زوجها ما يكفي من الوقت والموارد، فستصر على البقاء موضع تودّد طوال حياتها؛ والأرجح أنها ستكتشف أن الزواج ليس رومانسيًا، وأن الأزواج ينسون أعياد الميلاد وذكرى الزواج السنوية، وأنهم قلما يقدمون المجاملات، وأنهم غالبًا غير مبالين. لا أحد يتملق أحدًا، لا أحد يجعلها تشعر أنها مرغوبة. وتدرك أن مشاعر زوجها جنسية أكثر منها شخصية، أو، على الأقل، تشعر أنها كذلك، لأنه قليل الاهتمام بالطقوس التي أرستها عندما كانت عروسًا متوردة. كانت علاقتها، في مرحلة المغازلة، كلها فتنة (آسرة مثل مقدمة التمهيد للحبس في جبل الزجاج) لأنها لم تكن تلتقي بزوجها إلا حين يخرجان معًا، يستمتعان بالطعام والشراب والمواعيد والحفلات، تبدو لطيفة، لا تتحدث إلا عن نفسها وعن حبيبها. وإذا أصبحت حاجتها إلى التملق القديم شديدة، فقد تتأذى جديًا. كأنّ العلاقة الغرامية هي المغامرة الوحيدة المتاحة لها، وها قد انتهت الآن. فالزواج نهاية القصة.

> يحكى للنساء منذ الطفولة، وهو ما يتعلمنه من مثال أمهاتهن، أن قليلًا من المعرفة بالضعف الإنساني وشيئًا من المكر حسن التوقيت ورقة المزاج والطاعة «الظاهرية» والاهتمام الموسوس بنوع صبياني من اللياقة ستؤمن لهن حماية الرجل...
>
> **ماري وولستونكرافت، «*دفاع عن حقوق النساء*»**

تحذّرها المجلات النسائية من أن تدع الرومانسية تتسرب من زواجها. وهي تحاول ألا «تدع نفسها تذوي»، وتحافظ على مظهرها

الشاب الجميل، وتحاول ألا تسأل زوجها كل يوم إذا كان يحبها، وترغب بقبلته الصباحية قبل أن يتركها وحيدة طوال النهار؛ كانت هذه الأشياء أقل ميكانيكية بقليل. وترى، عاجلًا أم آجلًا، مغازلتها نوعًا من الإغواء؛ وربما تلقي باللوم على زوجها في ذلك، لكنها، في الحقيقة، هندست الإغواء بذاتها. أمّا ما اعتقدت في دخيلة نفسها أنه حب وشفاه كهربائية، والحلم بحبيبها وهي تستلقي مستيقظة في سريرها، فقد أثبت أنه ليس حبًا قط. تكتشف أنها كانت فتاة رومانسية ساذجة، وأن الزواج عمل شاق. وتصبح رومانسيتها، إن لم تكن قد أصبحت فعلًا، هربًا من التفاصيل اليومية. تعالج نفسها بأشياء رومانسية صغيرة كالعطور التي لا يلاحظها زوجها مجرد ملاحظة. باتت الرومانسية الآن حلمها الخاص.

فليس: علاقة صيفية ستستمر إلى الأبد.

الآنسة لينثريك: علاقة غرامية. إنه فعلًا العطر الجديد الأكثر رومانسية، ولن تعرفي قط ما الذي فاتك إن لم تجربي شيئًا منه.

أكوا ماندا: كلمتان من شأنهما أن تغيّرا حياتك.

الآن وقد بات عليها أن تتملق نفسها، يعجّ السوق بمنتجات تستطيع أن تلاطف نفسها بها.

من زنجبار المطيبة بالقرنفل... إلى ندى الصباح الباكر في بورما... وعلى امتداد العالم، يستخدم المزيد من الفتيات **لوكس** أكثر من أي صابون آخر. فتيات جميلات ببشرات جميلة. وكما ترين، رغوة **لوكس** مدعمة خصيصًا بكريم من الزيوت الطبيعية... وهي ملطفة لتبقي جلدك ناعمًا وأملس بطريقة طبيعية. فانضمي إلى أجمل نساء العالم...

تصنع دعايات صبغة الشعر دائمًا وعين صاحبها على هروب

النساء من الواقع، فهذه الصبغة ستجعل منك امرأة *جديدة جامحة*، وستنفتح أمامك إمكانيات جديدة. وحتى حمّامك يمكن أن يصبح طقسًا رومانسيًا:

> يأتي نيو ديو (ندى جديد) بالألب إلى حمّامك. مثل زهرة أيقظها لتوّه الندى. طرية وجميلة ومستعدة لاستقبال النهار. هذا ما تشعرين به في كل مرة تستحمين بها بنيو ديو... ملء غطاءين فقط من هذا المحلول الأخضر العطر هو كل ما تحتاجين إليه لتنجرفي بعيدًا إلى عالم الطبيعة المليء بالأزهار والنضارة[235].

لكن تبقى التجربة الأسمى هي الوقوع في الحب؛ وعلى الرغم من أن تلك الإثارة الروحانية هي من الماضي، مازالت النساء مصرّات على أن يعشنها مرة أخرى. هي القصة الوحيدة التي يرغبن حقًا بسماعها. رأيت زوجة شابة على ظهر زورق في فينيسيا مع زوجها، وحسب تقديري، كانت قد تزوجت منذ بضعة أشهر على الأكثر؛ كانت منكبّة على قراءة قصة حب مصوّرة فيما يحاول زوجها عبثًا أن يتحدث معها ويلاطفها. كان الخيال، حتى حينها، أكثر فتنة من الواقع. تتناول المجلات النسائية القصة ذاتها مرارًا وتكرارًا، فتغيّر الخلفية، وتخترع توليفات من ظروف تزداد غرابة باستمرار لتنوّع في الحبكة الأساسية؛ لكن يبقى الوقوع في الحب والقبلة وإعلان الحب والزواج الوشيك مركز الحبكة. تتناول بعض القصص مواضيع إضافية عن الزنا أو الخداع أو خيبة الأمل أو الحنين، لكن تبقى الخرافة الرومانسية المنزلية لبّ الثقافة الأنثوية.

الدين الجنسي أفيون المرأة المسترَقّة. وقد أوضحت رسالة ساذجة استثنائية إلى مجلة نسائية هذه النقطة توضيحًا غير عادي:

235- From the advertising campaigns of Winter 1969—70.

هل فكرتم يومًا في مدى الدمار الذي تلحقه الاختراعات الحديثة بالرومانسية؟ لم تعد هناك حاجة للمرأة لترفو جواربه النايلون التي لا تتلف، أو لتكوي قميصه الذي لا يحتاج إلى كي. أي رجل قد يلتقط منديلًا ورقيًا يقع من اليد، أو يدحرج سلة ذات عجلات مليئة بالأشياء؟ لا حاجة لمساعدة فتاة ترتدي تنورة قصيرة في ركوب الحافلة، ولا لإشعال سجائرها لأن ولاعتها الغازية تعمل دائمًا[236].

تسمح القصة الغرامية بالعمل الشاق والعجز الجسدي والبغاء (فطلب ولاعة سجائر هو الوضع الذي يسبب الإزعاج للمشاة في الشوارع أكثر من أي أمر آخر). إذا كانت الآنسة س. أ. من ريوبيرا محقة، فيجب الحكم على الرومانسية بالموت، لكن ليس هناك دليل كبير على ذلك بالقدر الذي قد أطلبه ليكون أساسًا للتفاؤل. والملابس النسائية اليوم أكثر رومانسية مما كانت عليه في سنوات التزمت، وإذا كانت التنورات القصيرة قد زادت من القدرة على الحركة، فإن الشعر المستعار والرموش المستعارة والاحتشام الزائف في طريقة ارتداء تلك التنورات قد كبح تلك القدرة على الحركة من جديد. حتى كتاب مباشر ووثائقي مثل غروبي (Groupie) يجسّد القالب الرومانسي الأساسي في غرانت (Grant)، العاشق البارع الذي يحلّ محل جميع من أقاموا علاقة جنسية مع كاتي. فهو يخبر كاتي متى يمكنها أن تزوره، وكم تستطيع البقاء، ويطلب منها أن ترتب السرير، وأن تقوم بكل ما يطلبه منها دون تذمر، وهي تحب ذلك[237]. تقنع نفسها أن هذا هو الحب متخفيًا، كما كانت الحال مع اللورد وورث وغرانت جارفيس، وتنهي الكتاب بملاحظة مفعمة بالأمل، منتظرة أن يعود من أميركا وأن يتجول حولها موجهًا لها الأوامر. يقوم الكتاب على الخبرة، وهو غالبًا

236- ‘Woman to Woman’, *Woman*, 19 July 1969, Vol. 65, No. 1675.

237- Jenny Fabian and Johnny Byrne, *Groupie* (London, 1969).

موحش بالمعنى الإيجابي في دقته، لكن شخصية **غرانت** تزييف أصيل غير واع للشخصية الأصلية. إذا كان تحرير النساء سيحدث، وإذا كان صنبور خزان الحب الأنثوي الحقيقي سيفتح، فلا بدّ من مواجهة خداع الذات العقيم هذا. الشكل الأدبي الوحيد الذي يمكن أن يفوق الهراء الرومانسي مبيعًا في السوق الأنثوي هو الفن الإباحي الفاضح. يؤمّن التدله المدغدغ الذي تعرضه **كارتلاند** وطبقتها حاجة تخيّلية، لكن نفاقهم يقصر الإشباع على ذاك الذي يمكن الحصول عليه من التلميح: حوّل التلميح العملية برمتها وعطّلها. تبادلت وصديقاتي الصغيرات كتاب **اعترافات حقيقية** (True Confessions) مرة تلو المرة لأننا كنّا شهوانيات وفضوليات. إذا تركت **دليل ربة المنزل**[238] في الجوار، فقد لا تقرأ ابنتك قط **كارتلاند** أو **هاير** بسذاجة.

238- Rey Anthony, *The Housewives' Handbook on Selective Promiscuity* (Tucson, 1960 and New York, 1962).

موضوع الخيال الذكري

يقرأ الأطفال من الجنسين قصص المغامرات. الصغار جدًا يقرؤون المغامرات أحادية الجنس التي فيها أبطال وبطلات. أما الأكبر سنًا فيقرؤون قصصًا تقوم على الفصل بين الجنسين، تقوم مآثرها على الفتيات وحدهن أو الفتيان وحدهم. الواقعية تعني أن كتّاب قصص الفتيات لا يستطيعون أن يبعدوا الشخصيات المذكرة عن قارئاتهم اللواتي لم يبلغن سن البلوغ بعد، لكنهم يستبعدون فعلًا كل اهتمام بالجنس أو بالحب. أما فيما يخص الفتيان فاستبعاد الجنس يستتبع استبعاد كل الشخصيات الأنثوية. مازلت أتذكر القرف الذي شعرنا بها جميعًا في الصف الثامن عندما تضمنت أفلام قصص بيغلز (Biggles)[239] اهتمامًا جنسيًا على أنه من حق العشاق الذين يتواعدون. ينهي البلوغ تلك الخيالات التي تسيطر على الفتاة بأن تكون بوني (Pony)، على سبيل المثال، التي تنقذ العقيد **بوفالو بيل كودي** (Buffalo Bill Cody) بأن ترمي بحجر عبر النهر لتصيب رأس رامي سهام هندي، لكنها تعود وتنتزع رامي السهام من فكي تمساح

239- بيغلز هو الاسم المختصر لجيمس بيغلزوورث، وهو طيار ومغامر والبطل الرئيسي في سلسلة روايات بيغلز، وهي كتب مغامرات موجهة للفتيان، من تأليف (W. E. Johns).
[المترجم]

بعد مشهدين من ذلك[240]، والبلوغ ذاته يدخلها في حالات الإثارة السلبية لبطلة القصة الغرامية المطفّلة. أما الفتيان الذين يقتربون من مرحلة الرجولة، فالخيال السائد بينهم عن المغامرة يتسع ببساطة ليشمل المرأة بوصفها مأثرة: يُعترف بالجنس نوعًا جديدًا من البسالة أو الخطر. ولأن التجديد ميزة ضرورية في المغامرة، يمكن أن نتوقع تنويع الاهتمام الجنسي سطحيًا وعرقيًا وجسديًا وربما اجتماعيًا، لكن أنماط الإشباع بسيطة، ويبدو أنها تتوزع بين نمطين، **البغي العظيمة والعذراء المهلكة**.

البغي العظيمة هي امرأة مميتة، وند للبطل كلي القدرة الذي سيمارس سلطاته عليها ومن خلالها. وهي توّاقة وجشعة وذكية وخادعة، ومتقدمة خطوتين دائمًا. وليس أمام البطل إلا أن يكسبها إلى جانبه ويطلقها على أعدائه مثل مروّض الأسود، أو أن يقاتل دفاعًا عن حياته بين يديها.

> ... لم تكن تقبل بأقل من الاستسلام غير المشروط. لدى البغي العظيمة ما تحسب حساب خسارته في نهاية المطاف إذا ما تركها الرجل. وهي مثاليًا تسبب الهلاك لأي ذكر لديه ما يكفي من الجرأة ليعرفها معرفة جسدية[241].

لقد ركّب **ميلر** شخصية **ديبوره كوفلين مانغارافيدي كيلي** بعناية لتجسّد أقصى ما يمكن من سمات هذا النوع في تجلٍّ واحد. ليس **ميلر** مستقلًا تمامًا في وصفه لها، فراويه مازال يدمدم في الحلم الأمريكي الثقيل؛ وقوة الكتاب تأتي من هذا التوتر بين الجرّاح وجرحه. الأثر المميت للجنس بوصفه مأثرة، إثبات الذات بلا كلل بما يجعل التواصل مستحيلًا، المعركة القاتلة المتخيّلة، ولكن الحقيقية، بين الجنسين

240- *Penelope*, No. 194, 14 October 1969, 'A Girl called Pony'.
241- Norman Mailer, *An American Dream* (London, 1966), p. 16.

هي ما ينجو ستيفن روجاك (Stephen Rojack) منه، لكن نجاته تجعل استمرار الكتاب مستحيلًا. ليس هناك في الأسطورة الجنسية المعاصرة بدائل، إلا إذا التفتنا إلى صوت الهيبيين الواهن المكتفي بذاته. أهم حقيقة حول ديبوره هي ذلك الجانب المذكور أولًا: فكل أوصاف سبيلين (Spillane) وفليمينغ (Fleming) للنساء بأنهن نفيسات وأنيقات وغنيات وراقيات وما شابه تبهت أمام مغالاة ميلر. ينبغي أن يكشف السياق والمعنى المضمر اللعبة، مع أن ناشطات نسويات، من مثل كيت ميلليت (Kate Millett) يصررن على أن ميلر مختل عقليًا[242].

> التقيت جاك كينيدي (Jack Kennedy) في تشرين الثاني/ نوفمبر 1946. كنّا بطلي حرب، وكنّا قد انتخبنا للتو إلى الكونغرس. خرجنا ذات ليلة في موعد مزدوج، قضيت فيه أمسية جميلة. فقد أغريت فتاة لم تكن ألماسة بحجم ريتز (Ritz) لتثير فضولها[243].

وهو ما يجب التعامل معه على أنه يعني أن روجاك هو بطل أمريكي صرف ينتقل في مجال غريس كيلي/جاكلين-لي-بوفييه (Grace Kelly/Jacqueline-Lee-Bouvier) المغلق، وبقضيب يثير الاهتمام، وبكل الطرق، أكثر من كل ما كتبه سكوت فيتزجيرالد (Scott Fitzgerald). تصوير الحرب والجنس مشوّش على نحو لا خلاص منه. فالعدو شخص شاذ يجب هرسه من تحت الخصر؛ الألم ألم نظيف، ألم جيد، دليل على التدمير النظيف الجيد بلا تعفّن، لأن الحياة تولد من التعفّن. والرحم يصدر رائحة تعفّن، واليأس مصدر الحياة لدى روجاك الذي يعتبر عقله نفسه مستودع أسلحة. ديبوره ليست حربًا فحسب، بل ورياضة أيضًا.

242- Kate Millet, 'Sexual Politics: Miller, Mailer and Genet', *New American Review*, No. 7, August 1969.

243- Mailer (*op. cit.*), p. 9.

> ... كانت شهيرة في أيام عزّها، تنتقي من بين جمهور عشاقها، وتختار على هواها: سياسيون من الطبقة الأولى، سائقو سيارات سباق، زعماء المال، وحصتها المناسبة من أفضل الشبان المستهترين في العالم الغربي، كانت هي من أدخلني إلى هذه الفئة الكبيرة[244].

إن الصفات الجسدية لهذا المخلوق هي صفات النساء القاسيات الفنيات في أدب الإثارة. ما كانت بربارا كارتلاند وجورجيت هاير لتتعرفا على أولئك القاسيات الرشيقات مليئات الصدور الطويلات جميلات الشعر اللواتي يدمّرن الأبطال بنظرة واحدة. فميلر أقل تكلفًا لكن الصفات مثالية.

> كانت امرأة حسناء، ديبوره، كانت كبيرة. وكانت، بحذائها ذي الكعب العالي، أطول مني ببوصة على الأقل. وكان شعرها أسود كثيفًا جدًا، وعيناها خضراوين أخاذتين.. كان أنفها ايرلنديًا كبيرًا، وفمها عريضًا يأخذ أشكالًا متعددة، لكن بشرتها هي التي منحتها الحق في ادعاء الجمال، فجلدها أبيض حليبي، ووجنتاها مصبوغتان بحمرة خفيفة..[245]

لسنا بعيدين عن أولئك النساء المتصيدات الاستثنائيات ذوات العيون المائلة وضفائر الشعر الملتفة اللواتي يتجولن خلسة في القصص الهزلية المثيرة على رؤوس أصابعهن، منقضّات فجأة على البطل، وقد كشفن مخالبهن مستعدّات للقتل. أفواههن كبيرة، منحنية ومتألقة مثل سيوف: تركيبة عضلات أكتافهن وأفخاذهن لا تصدق، وأثداؤهن مثل الرمّان، وخصورهن مطوقة بأحزمة معدنية ضيقة مثل مراقصات الثيران الكريتيات (bull-dancers)[246]. يخترع إيان فليمنغ

244- *Ibid.*, p. 23.

245- *Ibid.*, p. 25.

246- *E.g.* Umar in ‘Umar Walks the Earth!’ *Strange Tales*, Vol. I, No. 156, May 1967, the villainess Hydra in *Captain America*, the Black Widow in *Captain Marvel*, Karnilla, Queen of the mystic Norns, who menaces *Thor*.

نساء يقدن السيارات جيدًا أو فارسات ذكيات أو راميات بارعات[247]. تجسّد ديبوره ذلك النوع من الكفاءة الأنثوية الأكثر إثارة، ذلك أنها قاتلة.

... كانت صيادة استثنائية. سبق أن ذهبت في رحلات قنص مع زوجها الأول، وقتلت أسدًا جريحًا متأهبًا على بعد عشرة أقدام من حلقها، وأردت دبًا في ألاسكا بطلقتين في قلبه (06/30 وينتشستر)... وكثيرًا ما كانت تطلق النار من مسدس على خصرها، بالأناقة نفسها التي تشير بها بإصبعها[248].

ما مصير قبيلة ديبوره من البطلات المضادات كبيرات الصدور، ممتلئات النهود، ضيقات الأوراك، ذوات السيقان المميّزة للراقصات؟ إنهن، في الميثولوجيا الأقل خجلًا، يستسلمن لقضيب الرجل الحديدي ويتلقين ضربات قوته الحيوانية في نعومة نديّة واستسلام، وإن كنّ يكرهن الرجال مثل بوسي غالور (Pussy Galore). هذا هو تايغر مان (Tiger Mann) يخضع سونيا واتكو (Sonia Wutko):

كان فمها حارًا ورطبًا وذي شغف متطلب كثيرًا، حتى أنه كان هو نفسه صمّامًا كهربائيًا يشعل انفجارًا تلو الآخر. ذاب فمها مقابل فمي، مثل مشعل كهربائي (بيل) يكاد يصرخ إذا لم يُسدّ، وكان جسدها برمته مثل إخطبوط من العواطف، يطلب ويطلب، وعندما يكتفي لوهلة من الزمن يكون ذلك أشبه برضا في استرخاء قريب من الموت نفسه.

لكن ما كنت لأمنحها ذلك الاسترخاء. طلبت، ونالت ما تريد. أرادت أن ترى كيف يكون النمر، وكان عليها أن تكتشف ذلك. عرفت عمق الأنياب والشعور بأن تكون مستغرقًا لأنها كانت مجرد امرأة تحرقها رغبة جوع مرعب، وعرفتْ، في ضوء الشمس المرعب ذاك، لأول مرة ما الذي يعنيه أن تعيش مثل واحد[249].

247- *E.g.* La Contessa Teresa di Vicenzo in On *Her Majesty's Secret Service.*
248- Mailer (*op. cit.*), p. 39.
249- Mickey Spillane, *Bloody Sunrise* (London, 1967), p. 74.

المغامرة - الجنس هي مسألة عروض مثيرة ومواد متفجرة وحيوانات برية وغوص في أعماق البحر وترويض خيول برية. يعطي الشريك الجنسي النموذجي الوعد بصراع جيد، وكلما زاد الحقد الذي تخفيه كان ذلك أفضل. واضح من الوصف الوارد في مقطع سبيلين أن المصير الصحيح للبغي العظيمة هو الموت، إما الموت الرمزي لاندفاعة الرعشة الجنسية وطمسها، أو الموت الفعلي الذي يوزعه بطل ميلر على زوجته المتوحشة بالخنق. طلبت، ونالت ما تريد.

> ابتسمت مثل حلابة أبقار، وعامت بعيدًا، ومضت. ووسط بهاء ذلك المشهد الشرقي، شعرت باللمسة التائهة لإصبعها على كتفي تطلق نبضة واهنة، لكنها لا تمحى، من المقت إلى النعمة الجديدة. فتحت عيني، كنت تعبًا ويغمرني شعور بإعياء مشرّف، وبدا جسدي جديدًا. لم أشعر بمثل تلك البهجة مذ كنت في الثانية عشرة. بدا أمرًا لا يصدق في تلك اللحظة حتى ليعجز أي شيء في الحياة عن منح السعادة[250].

قتل امرأتك مثل قتل دب أو وحش خرافي: تتسلل الرجولة من تحت سيطرة الجنس، وتنجو من الإدمان. هي عالم الرجل مرة أخرى. لا بدّ لثقافة أمة يُفصل فيها الرجال، ويربَّون في نظام إسبارطي يقوم على بذل الجهد والرياضة والنظافة، إلا وأن تعكس هذا العنصر، لكن من المخيف أن نفكر في كيف ستكون أصداؤها في التعاملات اليومية العادية غير المكتوبة بين الجنسين. فيلدا (Velda) بطلة مايك هامر (Mike Hammer) هي بغي كبيرة، لكنها تدير (شيئًا حقيرًا) لسيّدها، وتقتل من أجله، وتأتي بفريستها إلى البيت لتلقيها عند قدميه. ومكافأتها هي امتناع هامر عنها جنسيًا: ظاهريًا هي مخبأة لمكافأة ملائمة في عالم ما في المستقبل، حيث من المحتمل أن يقبل هامر بالحياة الزوجية، أما فعليًا فإن ممارسة الجنس مع فيلدا ستعني

250- Mailer (*op. cit.*), p. 36.

تدميرها. ضحك رواد السينما الرائجة من مجموعة الأسلحة القضيبية التي حملها جيمس بوند معه، ملتقطين مزحة المخرج بأن كل أداة هي شكل آخر من القضيب، لكنهم ما كانوا ليضحكوا بقوة لو أنهم فكروا في أن العكس صحيح بالدرجة نفسها، وأن القضيب قد أصبح سلاحًا.

يُستخدم القضيب ـ السلاح على نحو هجومي على **البغي العظيمة**، أما في **العذراء المهلكة** فيستخدم على نحو دفاعي. تدعى **العذراء المهلكة في حلم أمريكي** باسم **تشيري** (Cherry). وهي طاهرة وعذراء بكل معنى الكلمة، كما يدل اسمها:

> لقد وصلتُ إلى رعشة الجماع معك. لم أتمكن من ذلك فيما مضى... لم أتمكن مطلقًا. صحيح أنني وصلت إليها بكل الطرق الأخرى. ولكن، ستيفن، لم أصل إليها قط ورجل مولج بي، مولج بي تمامًا[251].

تحقيق الحب الأول مع **العذراء المهلكة** مثل **الحصار الخطر** (Siege Perilous)[252]. تشيري محاطة بمخلوقات مهدَّدة، معظمهم من بليدي النوادي الليلية الذين يتحلقون حولها وهي تغني منطلقة بخفة في نادي **فيليج**: زنوج وملاكمو مراهنات سيئو السمعة وتحريّون ومحتالون، يُقتلون برصاصات يطلقها عليهم **روجاك** من دماغه. كانت أختها تسكن شقتها قبلها، وقد قُتلت بسبب فحل شرير، اسمه **شاغو (!) مارتن**. وتبقى اللحظات الثمينة التي يقضيها **روجاك** معها هناك تحت تهديد عودة الساحر الأسود. إنه مغنّ مزعوم، لكن أي مغنٍّ! «..كنت تتوهجين عندما انتهى، كان وقع ذلك جيدًا في الأذن، لقد هيمن عليك بطل»[253].

251- *Ibid.*, p. 168.

252- في حكاية الملك آرثر، (Siege Perilous) هو المقعد المحجوز على مائدة الملك آرثر الدائرية للفارس المنذور لإيجاد الكأس المقدسة، وهذا المقعد قاتل لأي شخص آخر يشغله. [المترجم]

253- *Ibid.*, p. 172.

لقد فرَّ الفرسان الآخرون الذين كانوا يترددون على هذه السيدة؛ ولم يصمد سوى **روجاك**، لا شيء سوى قضيبه العظيم في مواجهة زنجي مجنون يحمل مدية قاتلة. وهو ينتصر بالطبع. تنخدع **العذراء المهلكة** به، وهي مستعدة تمامًا لدخول فئة الأمهات المقدسة، لكن شريرًا أخيرًا يضربها حتى الموت. القرار الحاسم الأخير في النزعة الرومانسية الذكرية هي أن يقتل كل رجل الشيء الذي يحبه؛ وسواء كانت **كاثرين** في رواية **وداعُ للسلاح** (A Farewell to Arms)، أو **الجرة الإغريقية** (Grecian Urn)، فإن «التوتر الذي يسببه كمالها» يعني أنها يجب أن تموت[254]، تاركة مكانة البطل العاشق بلا منازع. مازال هذا النمط شائعًا: لا يستطيع البطل أن يتزوج. يجب أن تكون المأثرة الجنسية هي الإخضاع، لا التعايش والتسامح المتبادل.

يمكن العثور على سمات المغامرة ـ الجنس في الحياة الواقعية، أو بالأحرى تُضخ في الحياة لأنها جزء من حالات استغراق الرجل، ويمكن الحكم عليها من التدفق الخيالي لذلك المولع بالخيال الجنسي **جون فيليب لاندين** (John Philip Lundin). تشهد المقدمة التي كتبها ر. **ماسترز** (R. E. L. Masters) على أصالة كتابه **النساء** (Women) بوصفه سيرة ذاتية بمعنى ما. يصوّر الفصل الأول خيالًا جنسيًا مفضلًا: القيمة النقدية للمفاتن الأنثوية. هناك قناعة بأن النساء يجنين المال طوال الوقت، سواء كنّ متزوجات من رجال أغنياء أو يعملن مضيفات في النوادي الراقية أو عارضات أزياء أو مجرد ماشيات في الشوارع. مأثرة **لاندين** هي الحصول مجانًا على ما يجب أن يشتريه الرجال الآخرون بسعر عال. وبالطبع، هو ليس مخنثًا يتصبب عرقًا من أجل متعة امرأة ليحصل على قوته، بل عاشقًا أهلًا لما تتوقعه المحترفات منه. الأزواج يدفعون للزبونات أو، على

254- *Ibid.*, p. 102.

نحو أدق، للمغفّلات. أما **لاندين**، بوصفه حمّالًا مجانيًا دائمًا، فإنه دائمًا في خطر، ونساؤه جميعًا يتمتعن بإثارة العذراء المهلكة وبراعة البغي العظيمة. كانت أعظم علاقاته الغرامية، إذا ما أخذنا معاييره الخاصة، هي تلك التي أقامها مع **فلورنس**، زوجة مديره في العمل، وهي تمثّل النمط الكلاسيكي للمغامرة الجنسية التي نجدها في الأدب الذكري. يشتعل الوميض من النظرة الأولى والأعراض نموذجية.

> لم تضربني أي شرارة كهربائية قط عندما دخلت لإصلاح عطل في الكهرباء بمثل تلك القوة التي ضربتني بها رؤية **فلورانس**. كان قلبي يخفق بقوة، ودمي يندفع في عروقي كما لو كنت مصابًا بالحمى، وأحسست بشيء يضغط على قلبي وتنفسي. كانت معدتي تهبط بين قدمي، كما لو أن حياتي مهدّدة. وشعرت بحيوية في خصيتي كما لو كانتا تعرفان تلقائيًا، أن هذه المرأة ستضعهما موضع الفعل[255].

تتفاقم مخاطر الزنا السري تفاقمًا لذيذًا نتيجة حرارة **فلورانس** الاستثنائية ولأن الزوج الضخم المخدوع لديه بعض «الصبيان» الذين يحرسون مصالحه. يبعد **لاندين** في النهاية. ولأنها مرغوبة عمومًا، يقع رجال كثيرون في غرامها، وهذا أمر ضروري للخيال الذكري، لأن المغامرة يجب أن تلقى ترحيب الرجال الآخرين. تفلح **فلورانس** في إقناع صبيان زوجها في أخذها لرؤية **لاندين**، حيث يجتمعان في لقاء مشبوب العاطفة في مقعد السيارة الخلفي. وعندما يطلب الصبيان منها أن تصنع معهم معروفًا مماثلًا، ويهددوها بالابتزاز، تفرّ إلى المكسيك حيث تتزوج مغفلًا آخر، مليونيرًا، بالطبع. لكنها تتركه لتطير إلى وصي متوحش آخر، إلى أمها المحتالة. ويتأكد وضعها الثابت بوصفها حبيبة **لاندين** الوحيدة عندما تكتشف أنها مصابة بالسرطان

255- John Philip Lundin, *Women* (London, 1968), pp. 60—61.

وتعود إلى زوجها الغني الأول: «لقد عرفت على نحو ما، مذ قيل لي أنها ميتة، أن حياتي لن تكون كاملة قط بدونها»[256].

> يكمن الحب، عند الكثير من الرجال في زماننا، في النوم مع امرأة مغوية، امرأة تنعم بالتوزيع الصحيح لتكويراتها وخصائصها الملائمة، امرأة يملك الرجل عليها حقًا دائمًا عبر مؤسسة الزواج.
>
> **أشلي مونتاغو**، «*التفوق الطبيعي للنساء*»
> (Ashley Montagu, 'The Natural Superiority of Women', UNESCO, 1954, p. 54).

تعتبر الفكرة عن الحياة الكاملة أساسية في الأفكار الذكرية عن الوقوع في الحب، لكنها مصطنعة تمامًا. لا يرجو الرجال أن يجدوا ابنة بالطريقة التي ترجو بها النساء أن يجدن أبًا جديدًا، كما لا يرجون أن يجدوا أمًا. بل إنهم يطمحون إلى امرأة من شأنها أن «تحقق ذلك كله»، «امرأة تستطيع أن تلبّي حاجاتي إلى التفهم والرفقة والإثارة». هناك أمر أساسي في طلبهم يتمثل بالفكرة الطنانة عن قدرة الرجل المعني على الرغبة (الحاجة) والإثارة والرفقة والتفهم. الرجل هو الثابت، وبالتالي يجب أن تكون شريكته ندًا له، أو متكيفة معه. امرأة الخيال المثيرة هي المرأة التي تخلق الرغبة، وتطلق الإمكانية الذكرية بمجرد رؤيتها ورؤية الجميع في الغرفة يحدّقون فيها. في السلوك، ينعكس أحد جوانب الخيال، على نحو دائم تقريبًا، في المتعة التي يحصل عليها الرجال من الظهور مع امرأة يشتهيها الرجال الآخرون. يظهر المدى الذي يمكن أن تصل إليه هذه الرغبة في الوصف المتطرف الذي يبتكره **جيمس جونز** (James Jones) في **اذهب إلى صانع الأرامل** (Go to

256- *Ibid.*, p. 101.

(the Widowmaker ليبرز الرغبة الهائلة في **لاكي فيدندي** (Lucky Videndi) وطمأنينة **غرانت** (Grant) في احتضانها. فبعد أن رفضت المشاركة في حفلة سباحة عارية، تنتظر حتى يخرج الآخرون جميعًا، بمن فيهم زوجها، من الماء، ومن ثم...

> ... نهضت **لاكي** فجأة، ونزلت إلى الماء. انحنت إلى الأسفل، وتقدمت نصف زاحفة نصف مجذفة بيديها وقدميها مسافة قصيرة، وجسمها كله مغمور بالماء عدا رأسها... وفجأة وقفت رافعة ذراعيها فوق رأسها في وقفة باليه كلاسيكية. كانت قد خلعت ثوب سباحتها وغدت عارية تمامًا. وبدا الماء وكأنه يتدفق منها بحركة بطيئة. وهكذا، وقفت هناك بكل حسيتها الشهوانية المتألقة: النهدان الأبيضان الجميلان، والوركان المكوران الأعجفان حتى لتبدو الفتيات الأخريات المهزولات وكأنهن آلات ميكانيكية وعديمات الجنس بالمقارنة معها. وفيما ذراعاها ما يزالان مرفوعان فوق رأسها، والماء لا يصل إلى ركبتيها، أدت مجموعة من حركات (ballonné fouetté) الكلاسيكية، حركة (pas de bourré) حقيقية باتجاههم، قامت بها كلها بجمال لافت. كانت حركة... خلقت انطباعًا بأن الساقين مفتوحتين تمامًا، ولا بدّ أن تكون قد اختارتها عمدًا. كانت هناك دعوة إلى الصمت على الشاطئ... لم يبتل الشعر الذي بلون الشمبانيا، والتمع حولها وهي تتحرك مثل ذهب أبيض[257].

ليس من العجب أن تخلب مخلوقة كهذه عقل **غرانت**، خاصة وأنها تتمتع بالموهبة الرياضية التي تتجلى بقدرتها على وضع قدميها وراء رأسها وهي تمارس الجنس. إنه بالتأكيد لمجد أن تطلبك امرأة كهذه. لتوضيح الفكرة، تصف **لاكي فيدندي** نفسها على أنها مضاجعة ـ مبدعة، والرجل الذي تقع في الحب معه مبدع، وهكذا، فوجودها المستمر بجانبه يعزز مكانته المهنية.

257- James Jones. *Go to the Widowmaker* (London, 1969), p. 282.

ألدى أي واحدة أخرى زوج مثل زوجي؟ لقد انشدّ إليّ لأنني سمراء طويلة الساقين. والآن، بعد ست سنوات من الزواج، يشعر وكأنه تغيّر، ويتوق إلى شقراء ناهدة الصدر. لم يتركني، ولم يخنّي. لأني تغيّرت، أصبح لدي الآن شعر مستعار أشقر طويل وناعم، وموسع صدر للتمارين اليومية. **ف. لادبروك، إيسكس.**

ملاحظة: إذا حصلت على جنيه فسأستغله في شراء شعر مستعار لمغنية بوب كرمى له!

بيتيكوت، 15 تشرين الثاني/نوفمبر 1969.

وإذا استخدمنا كلمات ميلر، فإنها مدخله إلى العصبة الكبيرة. مادامت هذه الأنماط من النساء تشكّل تحديًا لنا، فإننا أمام أدب إباحي ثانوي يسمسر لتخيّلات مستحيلة تميل إلى التدخل في السلوك الجنسي الفعلي نتيجة العلاقة الجوهرية بين الفحولة والتخيّلات. قد تصاب النساء بالبرود نتيجة عدم تلبية متطلبات الرومانسية، لكن الرجال يفزعون من رتابة الحياة الأسرية.

لا أستطيع العيش معك،
لأن العيش سيكون من الحياة،
والحياة هناك
وراء الجرف[258].

258- The Poems of Emily Dickinson, ed. M. D. Brainchi and A. L. Hampson (London, 1933), p. 131.

ترجمة هذا المقطع مأخوذة من ترجمة الشاعر الفلسطيني محمد حلمي الريشة، في موقع صوت العروبة. [المترجم]

أسطورة الطبقة الوسطى عن الحب والزواج

الزواج بلا حب أمر مكروه في ثقافتنا، فحياة بلا حب معاناة لاتطاق. ولا بدّ أن تكون المرأة التي تبقى دون زواج قد أضاعت فرصتها، أو فقدت حبيبها في الحرب، أو ترددت وضاعت؛ أما الرجل العازب، فمن المؤكد أنه لم يعثر على المرأة الملائمة بعد. ومن البديهي في هذه الثقافة أن يحب أحد الزوجين الآخر، في جميع حالات الزواج.

> يجب تعلّم فن تدبّر أمر الرجال منذ الولادة. فذلك أسهل مع اكتسابك الخبرة. تتمتع بعض النساء بحاسّة غريزية، لكن لا بدّ لمعظمهن من تعلم الطريقة الصعبة عبر التجربة والخطأ. وبعضهن يمتن خائبات الرجاء. وهذا يتوقف، إلى حد ما، على توزّع ما لدى المرأة من تكوّرات ومن غريزة متطورة، وإلى درجة كبيرة، على ما لديها من براعة ماكرة صرف.
>
> **ماري هايد، *«كيف تتدبرين أمور الرجال»***
> (Mary Hyde, 'How to Manage Men', 1955, p.6).

يتعاطف الناس مع أولئك الأشخاص، كالملوك والملكات، الذين

ليس سهم **كيوبيد** وحده هو ما يوجههم، على الرغم من الافتراض الضمني بأن حتى الأزواج الملكيون يعشقون. وفي الخيال الشعبي، الراهبات نساء خائبات الرجاء في الحب، أما المهنيات فنساء يعوضن عن فشلهن في إيجاد أعمق سعادة ممنوحة للجنس البشري في هذا العالم التعيس. لكن لم يكن هذا هو الاعتقاد دائمًا، حتى لو كان شيوع الفكرة يوحي بذلك. لا بدّ وأن يذكّرنا سهم **كيوبيد** أنه كان لدى الناس، منذ وقت ليس بعيدًا جدًا، تصوّر مختلف تمامًا عن الحب، تصوّر غير منفصل عن المغازلة قبل الزواج وحسب، بل ومعاد للزواج بشدة أيضًا. وحتى في العمر القصير لمفهوم الحب الزوجي، لم تكن الفكرة ذاتها دائمًا: فكثيرون من المدافعين عن زواج الحب في القرن السادس عشر كانوا سيرتعبون لو أمكنهم أن يعرفوا درجة الرومانسية والولع الجنسي اللذين يوشحان اليوم مثلهم الأعلى. أخفت التغيّرات التدريجية في الفرضيات الأساسية آثار تطور أسطورة الحب والزواج؛ كما أن المعلومات الديموغرافية عن مراحله الأولى صعبة المنال. لكننا، مع اعترافنا بكل هذه الحالات من عدم اليقين، يمكن أن نقوم بشيء من الاستكشاف التأملي.

> عمري 39 سنة، وكنت أتعرض للعقاب الجسدي من زوجي منذ أن تزوجنا قبل 15 سنة. تعامل كلانا مع مسألة العقاب هذه على أنها أمر عادي. ولم ندرك إلا مؤخرًا، بعد رؤية بعض الرسائل في مجلة «فوروم»، أن هناك أشخاصًا يعانون من عقدة الذنب نتيجة صفع زوجاتهم.
>
> أفكارنا بسيطة جدًا. فزوجي يعتقد أن الزوج، في الزواج، هو الرئيس. وأنا أوافقه الرأي، وأقرّ أن من يرتكب

خطأ يجب أن يعاقب. وكلانا يعتقد أن الطريقة الأبسط والأنسب والأنجع والطبيعية في معاقبة الزوج لزوجته على أخطائها هي أن يصفعها أو يضربها بالسوط، لكن بلا قسوة، وبلا وحشية بالتأكيد.

رسالة في مجلة «فوروم»، المجلد 2، العدد 3.

بات من الشائع اليوم أن الحب الرومانسي في الأدب الإقطاعي كان، في جوهره بغائيًا ومنافيًا للمعايير الاجتماعية. مناقشات دوروجمون (de Rougemont) وأنواعه معروفة، على الأقل في جوهرها[259]. وبات مصطلح «الحب اللطيف» فكرة مبتذلة في المذهب النقدي التاريخي. كما كانت حكايات غوينيفر (Guinevere) وايزولت (Iseult) نتاج ثقافة الأقلية المتمثلة بالطبقة الحاكمة، وكان الأقنان والخدم يعجبون بها عندما يسمعونها تروى في أغنية أو خرافة شعبية. كانت نتاج وضع إقطاعي لم تكن المرأة النبيلة فيه زوجة إلا حين يكون زوجها المحارب في البيت (وهو ما كان نادر الحدوث مهما كان حظها كبيرًا) وكانت، خارج ذلك الوقت، تحكم جماعة من الرجال، كثيرون منهم شباب يضطرمون رغبة. والنتيجة هي أنهم كانوا يشغلون تفكيرهم بخيالات عن تلك المرأة مستحيلة المنال التي لم يكن في وسعهم حتى أن يفصحوا لها عن مشاعر التودّد. كانت تستغل خنوعهم، وهو أصل الفروسية، وربما تشبع شهواتها بهم، وربما لا. أما في علاقتها بزوجها، فكانت خاضعة، تقدم له جسدها كأنه ملك له. صرخ دارسون من العصر الفيكتوري برعب من تصوير الحب الزوجي المقدم في

259- Denis de Rougemont, *Love in the Western World, cf.* C. S. Lewis, *The Allegory of Love.*

كتيبات من مثل نداء العذرية (Hail Maidenhad)[260]، وهلّلوا بفرح للمصلحين البروتستانتيين لأنهم أدخلوا أول نفحة من «الهواء النقي إلى حظيرة» النظرية الزواجية[261]. فمؤلف نداء العذرية، وهو راهب من القرن الرابع عشر، وجّه نداءه إلى العذارى اللواتي إذا كن يهوين فعلًا القراءة باللاتينية وزخرفة المخطوطات والتطريز (لا أغطية الكراسي ومناشف الضيوف، بل الأثواب الثمينة والمطرزات الفاتنة التي تعتبر الآن بين أروع الثروات الفنية في المتاحف الأوروبية)، وكتابة الشعر والموسيقى، فالأفضل لهن أن يلتحقن بمجتمع الدير الأنثوي الخالص، حيث لا يحيط بهن صخب الثكنات ووحشيتها، ولا يحكم عليهن بالولادة الخطرة والمداعبات الجلفة من زوج معتاد على الشجار مع أسيرات كافرات أو مع بغايا عسكريات إلى حد لن ينتبه معه إلى حاجاتهن العاطفية والجنسية. صحيح أنه لم يقل إن غراميات رجال الدين والراهبات أكثر إشباعًا من افتتان المرافقين الشباب ومن الإثارة المستمرة للرغبة غير المشبعة التي تشكّل القوة المحركة الكاملة للأناشيد البروفانسية، لكن يمكننا أن نستنتج ذلك. دمج رابليه عناصر الخيال الإنسانوي القروسطي عن التكيف الجنسي والفكري في ديره دير ثيليم (Theleme) العلماني المرح[262]. وصنّف راتراي تايلور ذلك العصر على أنه عصر أمومي، ومهما كان تصنيفه ملتبسًا، فمن الصحيح أن تأثير النساء في شخصية حضارة القرون الوسطى كان عظيمًا[263]، ويبدو أعظم عندما نأخذ في الحسبان أن كل

260- *Hail Maidenhad*, ed. O. Cockayne, Early English Text Society Publications No. 19 (1866), pp. 28—39.

261- C. L. Powell, *English Domestic Relations* 1487—1653 (Columbia, 1927), p. 126.

262- Rabelais, Five Books of the Lives, Heroick Deeds and Sayings of Gargantua and his sonne Pantagruel (London, 1653), Caps LII—LVIII.

263- Gordon Rattray Taylor, *Sex in History* (London, 1965), p. 138.

الثقافة التي لم تكن سريعة الزوال تمامًا كانت ثقافة أقلية صغيرة. قد يكون مهمًا هنا أن نذكر أن معظم النساء اللواتي أسهمن إسهامًا قيّمًا في ثقافة القرون الوسطى كنّ إما راهبات أو يعشن في تبتّل في الزواج أو بعده، مثل **هيلدا** (Hilda) و**الملكة إديث** (Queen Edith) و**مارغريت** (Margaret) المقدسة وبناتها **ماتيلدا** (Matilda) و**ماري** (Mary) والسيدة **مارغريت بيوفورت** (Margaret Beaufort).

كان العشيق في القلعة الإقطاعية هو المرافق غضّ العود الذي لا يُكرّس فارسًا قبل بلوغه الحادية والعشرين من العمر. وكثيرًا ما كان شبابه الأمرد وجماله يوصفان بعبارات مخنثة، ذلك أنه كان طويل الشعر، مطرّز الثياب، ماهرًا في الموسيقى غناءً وعزفًا، وفي الرقص، ونظم الشعر. وهكذا، كان محتمًا أن يرغب فتى صغير، منتزع من بين أحضان أمه ليغدو غلامًا في خدمة سيده ومن ثم معاونًا له، في عطف زوجة سيده المخلصة. كانت مطالب الجسد المراهق تضمن أن يعاني ويتعذب جنسيًا، وكان من الطبيعي أن يربطها في ذهنه بصورة سيدته المحبوبة. كان موقفه يتّسم بالخضوع والحزن والتذلل؛ لكن، مع بلوغه سنّ الرشد وتعرّفه على عالم ساحات القتال الإباحي كان ذلك الشعور القسري يتّخذ طابعًا فكريًا أكثر وأقلّ مباشرة مع تقدمه في مدارج الرجولة، ويصبح أقلّ تخنثًا وأقلّ هوسًا بالجنس بحكم الظروف. وكان الوضع محفوفًا بالمخاطر. فكثيرًا ما كانت زوجة السيد النبيل أقرب إلى تابعها الشاب في السن والمزاج، منها إلى زوجها. وكان ذلك التابع بالتأكيد أكثر جاذبية جسدية لها من زوجها الجلف الغريب. لكن إذا ما فقدت امتيازها، وعرّضت شرعية ورثتها للخطر، فالنتيجة الوحيدة هي الكارثة. كان الطلاق مستحيلًا، وعقوبة الزنا الموت، سواء جاء على شكل جريمة قتل يرتكبها الزوج تحت تأثير الغضب، أم بحكم القانون. حاول المجتمع التحرّر من هذا الخوف الشديد عن طريق التعبير عنه

على نحو يجعله خارجيًا. فكانت الحكايات عن الهوى المشؤوم حكايات تحذيرية. وكان الحب آفة، لعنة، جرحًا، موتًا، طاعونًا. والجنس نفسه خروج على القانون، إلا إذا كان للتناسل. وليس حزام العفة، وما يرافقه من رعب، سوى تذكير بالضغط الشديد الداخل في موقف من هذا القبيل. كما عمل الفصل بين الروح والجسد، الذي ميز الفكر القروسطي، على حماية الوضع القائم. ذلك أن الخادمات والعاملات الريفيات كنّ ينغمسن في الفسق بلا رحمة، أما الولع بسيدة القصر فكان يرفع إلى مستوى يشبه العبادة الدينية. وكان أدب الهوى البغائي مجموعةً من الإطلالات الخاطفة على منطقة مليئة بالمخاطر بحيث لا يتجرأ إلا المجانين على المغامرة بدخولها، فكان شأنه في ذلك شأن قصص الاستحواذ والفيتشية والانحراف الجنسي المعاصرة. وهكذا، اختُزل الحب إلى ما يبثه الكهنة في رأس رجل الدين الشاب:

> ضع نصب عينيك كم هو سيء ومجنون أن تحب، وأن تغدو شاحبًا كالشمع، وأن تصير ناحلًا ونائحًا، وأن تتملق مومسًا قذرة نتنة كريهة الرائحة، وتسلّم نفسك لها بخزي، وأن تراقب نافذة غرفتها طوال الليل، وأن تصبح عبد إغوائها، وأن تصبح رهن إشارتها، ولا تجرؤ على فعل أي شيء إلا بموافقة أو هزّة من رأسها، أن تدع امرأة حمقاء تتحكم بك، وتؤنبك، وتعاملك بفظاظة لتضل طريقك، أن تسلّم نفسك باستعداد لملكة قد تسخر منك، وتنتقدك، وتدمرك، وتتلفك. أيمكن لمن يقبل بكل هذه الأشياء أن يكون رجلًا؟ أين فخرك؟ أين ذلك العقل النبيل الذي خلق ليبدع الأشياء الجميلة والنبيلة؟[264]

لكن، كان رجل الدين الشاب كلما سعى جاهدًا إلى أخذ نصائحهم

264- Erasmus, *Two dyaloges wrytten in Laten... one called Polythemus or the Gospeller, the other dysposing of thynges and names* translated into Englyshe by Edmonde Becke, Sig.M5 verso.

باهتمام وإلى ازدراء الحب، زاد من احتمال تعرّضه للوقوع على حين غرّة أسير النظرات الفاتنة لزوجة رجل آخر عفيفة. وهذا ما حصل ذات يوم مشؤوم مع فرانسيسكو بترارك (Francesco Petrarca). قُدِّر لأثر ذلك في الأدب الأوروبي أن يستمر خمسة قرون. لم يكن بترارك عبقريًا وحسب، بل وداهية جدًا، وقد فهم بوضوح تام طبيعة شغفه، ونجح في دمجه ضمن كامل نظامه الفلسفي، وتسامى به في عملية واعية ودقيقة إلى حدّ مؤلم. أصبحت لورا وسيطة كل الحب وكل المعرفة اللذين ينفرد الله نفسه في خلقهما. جعل موتها العملية أسهل. كان حب لورا، سيدة الغار والتوباز وفرو القاقم، الأيل الأبيض، تمثال العذراء، أعظم محنة مرّ بها وأكبر نعمة. فبحمل ذلك الحب بضمير حي طوال حياته، جعل منه خلاصه. يحقق بترارك، في كل مقطوعة شعرية تقريبًا، توفيقًا بين فرحه وألمه، بين جسده وروحه، لكن أتباعه الكثر لم يكونوا بمثل ذكائه ولا بمثل حظه. قد يكون دانتي (Dante) هو الوحيد الذي حقّق النوع ذاته من التوازن الديناميكي في بياتريسه (Beatrice)، مظهرًا إيّاه بوعي في البورغاتوريو (Purgatorio) والباراديسو (Paradiso) عندما تستلم بياتريس زمام الأمور من فيرجيل (Virgil)، وتقوده إلى الرؤية المبهجة. أصبحت البتراركية عند الرجال الأقل أهمية تشذيبًا للشهوانية البغائية. وكان أحد عوامل بقاء البتراركية هو أن بترارك لم يكن يعيش في وضع إقطاعي. فلورا لم تكن زوجة سيّده، بل زوجة نظير له، مواطن في مدينة ـ دولة بيروقراطية في بنيتها لكنها غير تراتبية. ونجح بمفرده في نقل الحب اللطيف من القلعة إلى المجتمع الحضري في صيغة تمكّنه من الاستمرار في وجه تطور المجتمع التجاري والحكومة المركزية.

مع تفكك النظام الإقطاعي ظهر تآكل الدين الدوغمائي التراتبي. لقد أقامت الكاثوليكية القروسطية سلطتها على الموقف البَنَوي لرجال

الدين العازبين. وتعزّزت العزوبية بمراسيم الكنيسة لصالح الاعتدال الجنسي، لا بين رجال الدين فقط، بل حتى بين المتزوجين. سيكون متعبًا، إن لم يكن صادمًا، أن نربط المحظورات التي فرضتها الكنيسة على الجماع في إطار الزواج، قبل التناول وفي الشهر الذي يسبق عيد الميلاد والصوم الكبير وفي أيام الابتهال وأيام الصوم، أو الاستجوابات المتلهفة التي كان القسس يؤمرون بإجرائها في أثناء الاعتراف. كان الزواج محطة في الحياة أدنى مرتبة من العزوبية المنذورة والعذرية الطفلية وعفّة الأرامل. لم تكن مباركة الزواج الثاني في الطقوس الكاثوليكية مسموحة. وكان يعتبر من الأفضل لقسيس أن يتخذ له مئة عاهرة على أن يتخذ له زوجة واحدة. أما الصوفيون والقديسون الذين أجبروا على الزواج نتيجة موقعهم في الحياة، مثل **إدوارد المعترف** (Edward the Confessor)، فنذروا أنفسهم للتبتّل ضمن الزواج. وكان الانتقاص من وضع الزواج واحدًا من المسائل الرئيسية التي ركّز عليها الإصلاح البروتستانتي. فما أن ألصق الراهب الأوغسطيني **مارتن لوثر** (Martin Luther) أطروحاته الخمس وتسعين على باب الكنيسة في وتنبرغ (Wittenberg) حتى اتخذ لنفسه زوجة.

ربما تكون أفضل طريقة لفهم الإصلاح البروتستانتي هي ربطه بانحطاط النظام الإقطاعي في البلدان الشمالية التي جرى فيها. ويبدو أن مجراه في إنجلترا يعكس بوضوح تام أثر قيم الطبقة الدنيا في ثقافة الطبقة العليا. ذلك أن الفقراء لا يتزوجون لأسباب سلالية، ولا يتزوجون من خارج جماعتهم بقصد إقامة تحالفات مع نظرائهم. هكذا، لم يكن ما يجري في قصر الاقطاعي يستند إلى ما يجري في الأكواخ إلا حين كان سيّد يقرّر أن يقترن بخادمة ممتازة مثلما حدث في قصة **غريزيلدا الصبورة** (Patient Griselda) التي رواها **بوكاتشيو** (Boccaccio) في القرن الثالث عشر، واستُهلكت كثيرًا في عصر

النهضة[265]؛ ربما كان السحر الذي مارسته هذه القصة، التي تتحدث عن سيّد يتزوج فتاة فلاحة، على عصر النهضة وعلى امتداد أوروبا إشارة إلى إعادة التفكير في الزواج الذي كان مستمرًا على نحو جامد وغير رسمي. نُصّبت غريزيلدا، المنتشلة من كوخها، زوجةً متواضعة وقنوعة لسيدها. حتى عندما يتخذ لنفسه زوجة جديدة شابة ونبيلة، فإنها لا تخفف من خنوعها، بل تستقبلها، وتلبسها ملابس العرس، فتسترد في النتيجة سيدها الذي يزعم بالطبع أنه كان يختبرها. تعكس القصة الأثر العام لعادات الطبقة الدنيا في جنسانية الطبقة الحاكمة الواهنة والعصابية، وإن بمرآة مشوهة. عندما كان آدم يبحث عن المعرفة وحواء تغزل، لم يكن لعبادة السيّدة سوى القليل من المعنى. هناك إجماع في الروايات النوستالجية وربما الخرافية عن الزواج والعطاء في الزواج في إنجلترا السعيدة (Merrie England) على مديح أبناء الشعب الشباب الذي يكبرون وهم يعملون جنبًا إلى جنب في المجتمع الزراعي شديد الترابط. كان الشاب يختار فتاته من بين الفتيات المؤهلات في قريته بتوجيه محب من أهله وأهلها، ويراقب بتسامح في مناسبات المرح المسموح بها في احتفالات أول أيار وقطف البندق، سالكًا عملية طويلة من المغازلة وإعطاء التذكارات واستراق القبل إلى أن يجد مكانًا في بيته لعروسه وحاجة إلى يد جديدة تساعده في صنع

265- ظهرت القصة في الديكاميرون (Decamerone)، ولم يكن ذلك ظهورها الأول، وسرعان ما اعتمد موضوعها كتاب آخرين، مثل بترارك الذي كتب نسخة لاتينية منها، ثم ظهرت عدة إصدارات فرنسية منها في القرن السادس عشر في اندفاعات من الأغاني الشعبية والقصائد الغنائية والمسرحيات، مثل:
The Antient True and admirable History of Patient Grissel (1619), *The Pleasant and sweet History of Patient Grissell* (1630), *The Pleasant Comodie of Patient Grissill*. By H. Chettle, T. Deloney, and T. Haughton (1603), *The Most Pleasant Ballad of Patient Grissel...To the tune of the Brides Goodmorrow* (T. Deloney? 1600 and 1640).

الزبدة والجبن وحلب الأبقار وتخمير الجعة والعناية بالحملان والدجاج وفي الغزل والحياكة. كانت كتب الزراعة تدرج المواصفات التي يجب أن يبحث الشاب عنها في زوجة المستقبل: الصحة والقوة والخصوبة والاستعداد والظرف، إضافة إلى كمالها في المهارات المنزلية[266]. كان يحترمها كرفيقة، وكانا يرغبان أحدهما بالآخر شريطة أن يكون كل منهما سليمًا معافى وقويًا. أما الهوس بالحب الرومانسي فلم يكن بكل بساطة مهمًا. فإذا توافقا في العمر والمكانة الاجتماعية (وهو شرط كانت تضمنه دوطة المرأة والعقار الذي يهبه الزوج لعروسه) فليس هناك أي عقبة سوى التغيّر المفاجئ المضجر في قوانين الكنيسة ضد الاتحاد بالزواج، ولذا كان يجب شراء موافقة الكنيسة ببعض الهدايا، ذلك أن تلك القوانين حرمت، مع حلول القرن السادس عشر، جميع أبناء قرية من أهلية الزواج في حال وجود روابط دم أو روابط خيالية قائمة على النميمة أو روابط روحية بالمعمودية.

مع حلول القرن السادس عشر تحطمت هذه الصورة الرائقة، التي تشبه حالة المغازلة التي ماتزال مقبولة في أنظمة القرابة الموسعة في كالابريا الإقطاعية وصقلية، وتقلصت تحت تأثير قيود الكنيسة وابتزازاتها المتزايدة وصعود المراكز الحضرية. وزادت الحركية الاجتماعية، ولاسيما بين الرجال، من احتمال الزواج من خارج المجتمع المعروف. وباتت التغيّرات في ملكية الأرض تعني أن الرجل

266- مثال: كتاب الزواج الذي كتبه لأول مرة فيتزهيربرت:

The Boke of Husbandry...Made first by the Author Fitzherbert,...Anno Domini 1568, fol. xxxvi verso

وفيه الصفات العشر للمرأة:

1. أن تكون مرحة المزاج. 2. أن تكون ذات مكانة رفيعة. 3. أن تكون عريضة الجبين. 4. أن تكون وافرة المؤخرة. 5. أن يكون من الصعب إزعاجها. 6. أن يكون من السهل القفز عليها. 7. أن تكون طيبة العشرة في السفر الطويل. 8. أن تتحرك تحت الرجل على نحو يزيد متعته. 9. أن تنشغل دائمًا بأمور فمك. 10. أن تخضع دائمًا للجامك.

الشاب لا يمكنه الزواج قبل أن يموت والداه ويتركانه سيد ملكيته الصغيرة. وبحلول القرن السابع عشر، نشأ نمط جديد في إنجلترا؛ فقد ترافق الزواج المتأخر مع خطوبة تتبعها مساكنة. وجد بيتر لازلت (Peter Laslett) أن سجلات الأبرشية أظهرت أن حفلات التنصير بالكاد تجاري الأعراس، في حين يجب اعتبار الزواج في سن الثلاثين، في ضوء متوسط العمر، زواجًا شيخيًا[267]. لقد فقدت الكنيسة منذ زمن طويل سيطرتها على الأبرشية، ولم تكن محاكمها الخاصة ملائمة للتعامل مع نتائج قوانينها غير الواقعية حول الارتباط بالزواج والقرابة. تركت أبرشيات كثيرة دون رجل دين مؤهل، وكان الزواج بموجب القانون العرفي في تزايد. بدأ المصلحون الدينيون بصوغ أيديولوجية جديدة عن الزواج، أيديولوجية عامة ومقدسة، مقدسة إلى حدّ أن الله في عليائه احتفى بها أولًا. مُجّد الزواج على أنه أسمى حالة في الحياة وشرط الحصول على وضع المواطنة والرجولة. كما أفسحت زيادة التعليم ودخول الطباعة بالمجال أمام انتشار الأفكار النظرية والمُثل الأدبية. وجدت الحكايات الأولى عن المغازلة والزواج طريقها إلى الأشكال المكتوبة التي أصبحت تطبع للقراء الجدد نصف المتعلمين. كان معظم تلك الحكايات وعظيًا يقوم على عرض طرق الزواج ومبرراته؛ وكان بعضها تحذيريًا، وبعضها خلاصيًا، وبعضها مجادلًا على نحو مباشر. وظهرت أغان شعبية تتضمن مثال الفتاة الملائمة للزواج؛ ربما استنادًا إلى أغاني التودّد القديمة مثل جون *تستطيع أن تنادي بقراتها بأسمائها*.

كانت أي فتاة جميلة المظهر وحسنة الصحة وطيبة الطبيعة[268]

267- Peter Laslett, *The World We Have Lost* (London, 1965).

268- John Campion, *Two Books of Airs*;

لا يفكر جاك وجوان بأي ضغينة،
لكنهما يعيشان بحب وبهجة...

مرشحة بقوة لأن يخطب أحد ما ودّها، لكن كان الحب دائمًا خاضعًا لاعتبارات الملاءمة والنفع الصارمة. إذ يجب ألا يكون زوجها مسنًا أو مشوهًا أو قاسيًا أو داعرًا. لم تكن لتتزوج زواجًا وضيعًا من أجل المال لأن أبطال الأغاني الشعبية والمعجبين بهم كانوا يدينون بشدة ممارسة النبلاء المتمثلة بالتخلص من أبنائهم مثل قطيع الاستيلاد؛ ومن جانب آخر، ما كان لفتاة أن تخرج عروسًا من بيت أبيها حتى يقدم عريس ملائم نفسه بطريقة لائقة. كانت توافق على أن تعامله معاملة حسنة وتحترمه وأن تلبي بفرح رغبته في الفراش، لكن ليست هناك أي إشارة على أنها كانت تتوقع أن تتحوّل حياتها نتيجة الحب. كانت تعتبر أنها يجب أن تكون كما يظنها الآخرون، مخلوقًا جنسيًا جاهزًا للتزاوج، وعلى الأرجح كان زوجها يُختار على هذا الأساس أيضًا. وفي يوم زواجها، كان الأشابين وصديقاتها العذارى يوقظنها، فترتدي أفضل لباسها، وتُغطى بإكليل الجبل، وتتوّج بسنابل القمح، وتؤخذ في موكب إلى كنيسة القرية، حيث تضمن حماية زوجها وحصة في ثروته. وكانت مباركة الزواج تتضمن الوعد بالأطفال والتحرر من شرّ الخوف والحسد. وكان من شأن الوليمة أن تستمر اليوم بطوله، فيما الزوجان الشابان يتحرقان ليكونا على انفراد، لأن الأعراس كانت تقام في منتصف الصيف حين لا تغيب الشمس حتى الحادية عشرة؛ ثم يرافقان إلى السرير ويتركان وحدهما.

هذا ما كان يحدث استنادًا إلى دارسي فولكلور القرن السادس عشر. لكن، في أحيان كثيرة، لم يكن الواقع على هذا النحو، مع أنه قدّم المبرّر لتباهي الريف على البلاط بأنه وحده كان يعرف أسرار «الحب الحقيقي»، على أساس الألفة والتوجيه الأبوي[269]. لكن، مع

269- Nicholas Breton, *The Court and Country* (1618), *The Works in Verseand Prose of Nicholas Breton*, ed. A. B. Grosart (London, 1879), Vol. II.

اختراع الطباعة، أصبح تراث الشغف البتراركي في المتناول على نحو متزايد، وشكّل استجابة لحساسيات الشباب الذين كانت عقولهم تتأجج أصلًا نتيجة التقشف الجنسي الذي يفرضه نظام الزواج المتأخر. كان المدرّسون والوعّاظ والإصلاحيون ينفجرون غضبًا ويتأسون من انتشار الكتب والمسرحيات الداعرة؛ وحاكت الأعمال النثرية حكايات طويلة عن الفروسية التي انحدرت إلى مستوى المغامرة، وتغنّت القصائد بالبغاء ومباهج الدغدغات الجنسية. وقدّمت المسرحيات صورًا عن افتتان اليافعين والزواج السري. ونتيجة ظهور أمراض تناسلية في مطلع القرن السادس عشر، كان الشباب، في بحثهم عن نساء غير ملوثات، يجوبون الريف على صهوات خيولهم، ويتودّدون لبنات الريف ذوات الممتلكات بمقتطفات يقتبسونها من سيرافينو (Serafino) ومارينو (Marino) وأناكريون (Anacreon)[270] مشفوعة باسم بترارك العظيم الذي لم يكن قد قرأه سوى عدد قليل من الإنكليز[271]. دوّت الصحافة الإليزابيتية باستنكارات لأولئك الفاسقين الذين يغوون بنات الريف الساذجات. وأصدرت إليزابيث وماري أشدّ الأحكام على الشباب الذين كانوا يسحرون الفتيات الريفيات، ويغرونهن بالزواج، ويبددون دوطاتهن، ومن ثم يهجرونهن[272]. أصرّت السلطات الكنسية على قراءة إعلانات الزواج في أبرشيات طرفي الزواج، لكنها كثيرًا ما كانت تقرأ في الأماكن الخطأ، بل أكثر من ذلك، لم تكن تقرأ قط. وزاد الاضطراب الديني في هذه الفوضى. إذ اعتمدت الأبرشيات، المتروكة بلا كهنة معينين في مناصبهم، على قسس من الدرجة الثالثة لاعتبار الأولاد شرعيين؛ وكانت القوانين المتشعبة على نحو

270- (570؟ ـ 480؟ ق.م). شاعر يوناني اشتهر بقصائده الغزلية والخمرية. [المترجم]

271- *E.g.* Barclay in *The Ship of Fooles*, Ascham in *The Scholemaster*, Lodge in *Wits Miserie*, among many others.

272- 4 & 5 Philip and Mary c. 8, and 39 Elizabeth c. 9.

منافٍ للعقل، والتي تستطيع إبطال الزواج، تبقى مجهولة إلى أن يستحضرها طرفٌ مهتم أو أحسن اطلاعًا. وربما لن نعرف قط كم من الناس قد عانى من التشوش حيال القانون الكنسي الذي عالج كل مسائل الزواج والإرث، وتغييرات الدين الرسمي في القرن السادس عشر. ربما كان رجال الدين الإصلاحيون الذين اضطهدتهم ماري، وخيّب أملهم رفض إليزابيث الاعتراف بالزواج الكهنوتي الذي خلق أسطورة الزواج الكامل، لكن الأقليات تغيّر ثقافة الأغلبيات، وبالتأكيد كان هناك تغيير.

مع نهاية القرن السادس عشر، أصبح الحب والزواج موضوعًا مهمًا في الأدب. كانت الأسرة النووية بالتأكيد نموذجية للأسر الحضرية، وكانت نسبة أكبر من إجمالي السكان حينها تعيش في المدن، لكن كانت الأغلبية الزراعية تتبع أيضًا الاتجاه نحو العائلات الثالوثية (triadic families). ما يعني استمرار الخلاف حوله حتى ذلك الوقت، وعدم الاعتراف به موضوعًا خلاصيًا. وكانت المدينة تقتدي بالريف، حيث يقوم الزواج على التسامح والبقاء المتبادل في غرفتين، وحيث الشتاء أطول من الصيف والقلة أكثر من الوفرة. لم تكن الخطوة المشؤومة نحو الزواج بوصفه نهاية القصة، وفرضية «العيش بسعادة بعد ذلك إلى الأبد» قد سادت بعد. أحد أهم المدافعين عن الزواج بوصفه طريقة في الحياة وطريقًا إلى الخلاص هو شكسبير. ومازال علينا أن نثبت بكم ندين بما هو جيد في مثال الحب الحصري والتعايش لشكسبير، لكن هناك شيء واضح، إذ كان شكسبير منشغلًا في مسرحياته الهزلية المولعة بالجديد بإزالة حطام الرومانسية والشعائر والضلال والاستحواذ قدر انشغاله بتحقيق نهايات سعيدة، ويمكن تذليل الكثير من الصعوبات في مسرحياته عندما نستطيع أن ندرك هذا المبدأ في العمل. التنكر في ملابس شخص من الجنس الآخر هو موضوع متكرر

في كتابات **شكسبير**، لكنه نادرًا ما يعتبر أسلوبًا في الكشف وطريقة لإثارة قشعريرة عرضية. **فجوليا** (في «**سيّدان من فيرونا**») **وفيولا** (في «**الليلة الثانية عشرة**») كلاهما بطلتان متنكرتان، على توافق مع الجمهور، وهما مختلفتان تمامًا عن المعبودتين البتراركيتين **سيلفيا** و**أوليفيا** اللتين تعيشان على مستوى آخر من الشعائر والتخيّلات. يُحطّ قدر أولئك المعبودات في سياق المسرحية نتيجة طرقهن البشرية زيادة عن اللزوم، وصولًا إلى التعرّض لمحاولة اغتصاب، كما في حالة **سيلفيا**. تفوز المرأتان المتنكرتان بملابس الرجال بالرجلين اللذين تحبّان بوسائل أكثر كدًّا، لأنهما لا تستطيعان استخدام الخمار والدلال؛ ويجب أن تعرضا خدمتهما لا أن تطلبا خدمة، وتريان، في تنكرهما بزيّ الخدم، حبيبيهما في مواقف هي أبعد ما تكون عن البطولة. أما في **كما تحبّ** (As You Like It) فتجد **روزاليند** الوسائل لوقف **أولاندو** عن تشبّهه التافه بالإيطاليين وعن تشويهه للأشجار بشعره الرديء؛ فيصبح الحبّ من أول نظرة لسيدة غريبة وجّهت إليه كلمات لطيفة في يوم من أيام النصر حبًا أليفًا لفتى عديم الجنس يعلّمه أمور النساء والوقت، مكتشفًا دورها فيما هي تعلّمه دوره، فيقفز بذلك فوق حدود الأنوثة والتعليم. وفي **روميو وجولييت**، يحدث الأثر نفسه نتيجة استراق **روميو** السمع إلى اعتراف **جولييت** بالحب، فلا تعود قادرة على الالتزام بالأصول، مهما رغبت بذلك. ولأن حبهما لم يحظ بقبول مجتمعهما المريض، فإنهما يدمران، لأن الحب الشكسبيري هو دائمًا حب اجتماعي وليس رومانسيًا، بمعنى أنه لا يسعى إلى عزل نفسه عن المجتمع والعائلة والسلطة المؤسسة. يُعرض الاستحواذ، في **حلم ليلة صيف** وكأنه هلوسة أو جنون، يحرره الطقس الشائع في المجتمع. وفي **تاجر البندقية**، تنجح **بورشيا** فقط في أن تبيّن لـ**باسانيو** قيمة ما وجده فعلًا في علبته الرصاصية عندما تتنكر في رداء المحامي لتدافع

عن **أنطونيو**، صديق زوجها والمحسن إليه، بحيث يبدو أن حبها يزيد في ترابط المجتمع الذكري، لا في تفككه.

عندما يقع الخيار بين المرأة مفرطة الأنوثة والمرأة السليطة، فإن تعاطف **شكسبير** يكون مع السليطة. نساء التراجيديات كلهن أنثويات - حتى **السيدة ماكبث** (التي كثيرًا ما يساء فهمها على أنها سليطة) وخاصة **غيرترود**، التي لا تتمتع بوعي أخلاقي والعاجزة والشهوانية، ونسختها الشابة **أوفيليا** الطفلية، وأختيها الشبقتان **غونريل وريغان** اللتين تقابلهما الأميرة **كورديليا** المحاربة التي ترفض أن تداهن والدها وأن تقوّد لرغباته غير المعقولة. أما **ديدمونة** فهي أنثوية أنوثة مهلكة، لكنها تدرك ذلك، وتموت متفهمة كم خذلت **عطيل**. **كليوباترا** هي الوحيدة التي لديها ما يكفي من المبادرة والرغبة التي تؤهلها لمكانة البطلة.

لا يكمن التعارض بين النساء العاديات والنساء الأقل شأنًا بالتباين الغامض بين نساء المسرحيات الهزلية والمسرحيات المأساوية فقط، فهناك أمثلة أوضح على نساء قد يكنّ جديرات بالحب، مثل **هيلينا**، في مسرحية **كلّ شيء على ما يرام** (All's Well)، التي لاحقت زوجها في المواخير العسكرية لتفوز بالزواج والفخر، وأمثلة على نساء يجب أن يخسرن الحب نتيجة كسلهن وبلادة أذهانهن، مثل **كريسيدا**. ففي **ترويض النمرة**، يقابل **شكسبير** بين نوعين ليقدّم نظرية عن الزواج، يعرضها بالتقويم الواضح بين نوعين من التودّد في المشهد الأخير. **كيت** تكافح من أجل الوجود في عالم ليست فيه سوى امرأة تافهة، طعمٌ يجب عرض سعر له مقابل قيمة أختها السوقية الأعلى، وهكذا تختار عدم المشاركة في هذا الأمر بأن تتمرّد وتتحوّل إلى امرأة سليطة. لقد وجدت **بيانكا** طريقة النساء القائمة على المكر والرقّة المزيفة لتكسب أكثر: فهي تسعى وراء تدبير أمرها تحت مظاهر زائفة، فتتلاعب

بأبيها وخاطبي ودّها بلعبة محفوفة بالمخاطر يمكن أن تنتهي بهلاكها. وتسعى كيت إلى الهلاك بطريقة مختلفة، لكنها تتمتع بحظّ طيب استثنائي بأن تحصل على بتروشيو الذي يتمتع بما يكفي من الرجولة ليعرف ما يريد وكيف يحصل على ما يريد. هو يريد روحها وطاقتها، لأنه يريد زوجة تستحق أن يحتفظ بها. وهو يروّضها مثلما قد يروّض صقرًا أو حصانًا قوي الشكيمة، وهي تكافئه بحب جنسي قوي ووفاء شديد. ويجد لوشنسيو نفسه عالقًا مع امرأة باردة خائنة، لا تمتنع عن إهانته أمام الناس. إن خضوع امرأة مثل كيت هو خضوع حقيقي ومثير لأن لديها ما تضحي به: فخرها العذريّ وفرديتها، أما بيانكا فهي روح النفاق، تتزوج دون حماس أو نية حسنة. يمثّل خطاب كيت في نهاية المسرحية أقوى دفاع كتب حتى حينه عن الزواج الأحادي المسيحي. وهو يقوم على دور الرجل حاميًا وصديقًا، وهو صحيح لأن لدى كيت رجلًا قادرًا على أن يكون كليهما، فبتروشيو لطيف وقوي معًا (إنه لتشويه حقير للمسرحية أن نجعله يضربها ولو مرة واحدة). قد تكون الرسالة مزدوجة: فوحدهن النساء اللواتي مثل كيت يصلحن زوجات جيدات، لكن لرجال مثل بتروشيو فقط؛ أما البقية فكعكتهم عجين.

ليس في نظرة شكسبير إلى الزواج أي نزعة رومانسية. لقد أدرك أنه حالة صعبة من حالات الحياة، حالة تتطلب الانضباط والطاقة الجنسية والاحترام المتبادل والكثير من الصبر؛ وعرف أنه لم تكن هناك أجوبة سهلة على المشكلات الزواجية، وأن الافتتان لم يكن أساسًا لاستمرار المساكنة. لقد توزّعت حياته بين مرحلتين: انحلال الدولة القديمة ونمو الدولة الحديثة، انهيار الكاثوليكية واشتداد ساعد البروتستانتية الإنكليزية، والتغيّرات في تصوّر العالم المخلوق والأخلاق والعلم والفن، أي كل ما نسميه عصر النهضة الإنكليزي. وهو يعالج في الكثير من كتاباته بوضوح هذه التغيّرات ومعناها، موازنًا بين

أفكار الشرعية والقانون من جهة والتعاون والعفوية والالتزام الأخلاقي من جهة أخرى، وبين الطبيعة والرحمة من جهة والسلطة والانتقام من جهة أخرى.

كانت أيديولوجيا الزواج الجديدة بحاجة إلى ميثولوجيا، وقد أمّنها لها شكسبير. حاول علماء الأخلاق البروتستانتيون تحرير الزواج من اعتباره علاجًا ضد الزنا بأن انتقصوا من دور العنصر الجنسي فيه، وتوجهوا إلى الزوج بوصفه صديق الزوجة[273]. كان زواج الأبناء دون موافقة الأهل أمرًا غير وارد، ولكن لم يكن واردًا أيضًا أن يعترض الأهل على زواج ملائم، أي زواج يتمتع فيه الطرفان بالمكانة الاجتماعية والثروة نفسها، وهما متقاربان في العمر، وليس هناك ما يمنع أهليتهما من مرض أو إجرام. الآن وقد أصبحت الملكية التي يجب توزيعها ونقلها نتيجة الزواج أكثر قابلية للقسمة وللنقل، فإن الفتيات قد يتمتعن بمزيد من حرية الخيار، لكن على هذا الأساس نفسه، لم تعد تدابير الحماية القديمة صالحة. كان الأهل يطالبون بالحق في معرفة شيء ما عن خلفية العريس، ويخافون الزواج من غريب قد يتبيّن أنه يسعى وراء زواج ثان غير شرعي، أو أنه فقير جدًا. وكان الريف ما يزال يسخر من المدينة نتيجة الاختلافات بين زواجيهما، أما حينه فكان المجتمع الحضري ينمو على حساب الزراعي، وكان المجتمع الريفي يخسر تماسكه.

وحيث كانت الزوجة تعمل بفعالية في الإنتاج، وتساعد في الزرع والحصاد، إضافة إلى اهتمامها بعمل النساء، فإنها، بشكل طبيعي، لم تكن المستهلك الرئيسي في العائلة في ظروف الفراغ البديلي. لم تكن تُختار من أجل مفاتنها الواضحة أساسًا، ولم تكن معتادة على

273- *E.g.* the popular Elizabethan ballad, *The Brides Goodmorrow*. (The version in the B.M. dates from 1625).

استخدام تلك المفاتن لغاياتها الخاصة، ولم تكن لديها فرصة التسكع هنا وهناك، وارتداء ملابس أنيقة والقيام بأعمال مزعجة. كانت مواضيع الهزليات الشعبية عن الزواج والخيانة الزوجية هن الزوجات بنات المدن اللواتي لم يكنّ يعملن في إدارة أعمال أزواجهن معهم، واللواتي كنّ يقضين وقتهن في القيل والقال والعبث والشرب والتباهي بالأزياء الجديدة والتسبب بالأذى نتيجة نقل المواعيد الغرامية والشائعات، أو في تسلية القسيس. وهكذا، تمتعت رواية **أنطوان دو لا سال** (Antoine de la Sale) شديدة التفصيل، **متع الزواج الخمس عشرة** (Les Quinze Joies de Mariage)، بشعبية واسعة على مدى قرون، وترجمها **ديكر** (Dekker)، وحوّرها عند نهاية القرن السادس عشر[274]. لم تكن هذه الرواية مجرّد رواية تقوم على كره النساء، بل صرخة من القلب من رجل شعر أن النساء قد استغللنه طوال حياته. كانت المنافسة الجنسية أقوى في مجتمع المدينة الأوسع، وكانت الفتيات يتعلمن باكرًا كيف يعززن فرصهن باستخدام مواد التجميل وأشكال أخرى من الاستعراض الجنسي، فيبرزن نهودهن، ويضعن حشوات على مؤخراتهن لتبدو أكبر. وكانت أمهاتهن يشرفن على العملية، ويعلمن بناتهن فنون المساومة الجنسية؛ وإذا وصلت الأمور إلى ما هو أسوأ، وعرّض العبث مع شاب شهواني فرصة حصولهن على زواج مؤاتٍ للخطر نتيجة حمل في غير أوانه، كانت الأم تتدبر أمر الإجهاض أو عقد زواج سريع على أحمق على هذه الدرجة أو تلك من الغنى. وكانت توتّرات الوضع تتفاقم نتيجة القوانين التي تمنع الصنّاع من الزواج قبل انتهاء عقودهم: وكثيرًا ما كان معلم حرفة، وقد أصبح حرًا أخيرًا في الزواج، يختار فتاة نضرة ليكتشف أنه قد

274- Antoine de la Sale, *Les Quinze Joies de Mariage* rendered by Thomas Dekker as *The Batchelar's Banquet* (1603).

تزوج مخلفات جندي أو صنايعي. كانت الكثيرات من الزوجات في المدن عاطلات عن العمل، لكن، على عكس النساء في البلدان الأخرى، حيث كانت المساكن الحضرية قد تطورت في حقبة سابقة، لم يكنّ يُخفرن، ويُراقبن، ويُحبسن في البيوت، بل كان مسموحًا لهن بالتجول بحريّة وإلقاء التحية على معارفهن. وكان مركز الهزليات الفرنسية والإنكليزية هو خيانة المرأة لزوجها المرهق الذي تسيطر عليه، فيما هي لا تهتم ببيته، ولا تطبخ له[275]. كان الزوج المثير للشفقة يظن بأن شهوتها تتقد لدى رؤية أي رجل غيره، وأنها تنق، وتتملق لشراء الملابس الأنيقة لتجتذب الغرباء، وأن أول حمل يعني انحطاط صحتها وادعاء السقم الدائم. من الواضح أن هذه الصورة الموحشة مبالغة، لكن خصائص زواج الطبقة الوسطى حاضرة فيه أصلًا، فالزوجة هي المستهلك الرئيس والواجهة التي تظهر ثروة زوجها: كسولة وغير منتجة ونرجسية ومتآمرة. لقد اختيرت بوصفها موضوعًا جنسيًا، في تفضيلها على الأخريات، وأصبحت تخيّلات الاستحواذ أكثر ملاءمة لحالتها.

أولئك الخادمات اللندنيات قويات جدًا،
وهنّ لسن ما يقمن به فعلًا؛
لا يدعنك تقوم بجولة
دون كراون أو اثنين.

إنهنّ يضاعفن أكلهن، ويفتلن خصلات شعرهن،
وأنفاسهن تعطّر ما يقمن به؛
ذيولهن منقطة ببثور السفلس
وبأنك مدعو لذلك.

275- إحدى الهزليات الموجودة في الأدبين الفرنسي والإنكليزي، والتي تظهر النموذج البدائي على ذلك هي جوهان جوهان وزوجته تايب.

لذلك فالأحرى أن تعطيني الفتاة الريفية المكتنزة،
التي تأخذ الحليب ساخنًا من البقرة؛
والتي تمسّ العشب مسًّا،
نعم، تزوجيني، والشكر لك أيضًا.

لونها ناضر مثل زهرة في حزيران
ومزاجها رائق مثل حمامة وادعة،
وستسعد حبيبها بتناغم صحتها،
وتمنحه الحب بالمجان.

أغنية شعبية إنكليزية، 1719.

هذه هي الطبقة التي كانت أكثر انكشافًا للأدب الشعبي عن الزواج الخلاصي، والذي نما من تضارب القصص الغرامية البغائية للطبقة العليا والقصص البسيطة عن الزواج الفلاحي. بقدر ما كان الأدب يبقي الصفة الأساسية للزواج في مرمى النظر، كانت قصص الحب والزواج تظل نابضة بالحياة وملتبسة وذكية، لكن سرعان ما كان الحب الحقيقي يصبح شعارًا: لقد استخدمه الريف ليعني القران البريء المؤدي إلى حياة من المشقّة والسعي المشتركين؛ وأضفى عليه المصلحون الدينيون الفكرة التي انتقوها من الكتاب المقدس، «افرح بامرأة شبابك، وليروك ثدياها في كل وقت»[276]. كانت المتعة الجنسية في الزواج مقدسة، لكن كانت الغاية من الزواج أيضًا أن يكون علاجًا من الانغماس في الملذات، لأن المرأة الصالحة تقيّد هوى زوجها، وتمارس الاحتشام وكبح الشهوات ضمن الزواج، ولاسيما وهي في

276- سفر الأمثال، الإصحاح الخامس، الآيتين 18 و19. [المترجم]

مرحلة الإنجاب. إذ كان يعتقد أن الانغماس المفرط في الجنس يؤدي إلى المرض والعقم والقرف وتشوّه الذرية. ولهذا السبب كان يعتبر كريهًا على نحو استثنائي أن تتزوج المرأة ضد تقديرها السليم[277]. وكان في الأصل يعتقد أن من الخطأ الزواج من امرأة كنت «هائمًا بحبها» من قبل، امرأة ركعت عند قدميها وبكيت، امرأة كتبت لها قصائد وأغان متملقة. كتب شكسبير تعليقًا عن التباين بين ما توعد به المرأة المغازَلة وما يمكن للزوجة أن تتوقعه بواقعية في الصورة التي رسمها لـلوسيانا وأدريانا في **كوميديا الأخطاء** (The Comedy of Errors). كان من شأن خليلة سماوية أن تتقلص إلى زوجة في غضون ساعات من زفافها؛ وكانت الإلهة تجد نفسها تعمل خادمة ممتازة.

على الرغم من جميع الضغوط التي مارسها المصلحون الدينيون والشعراء وكتّاب المسرح الأذكياء والاهتمام المفرط من جانب الأهل أصحاب الأملاك للاحتفاظ بالسيطرة على السلوك الزواجي، فإن الذي سيطر هو الحب والزواج، لينتهي بانتصار تلك المادة الأدبية الرديئة: الزفاف الأبيض. يمكن العثور على جزء من التفسير في قصة ما حدث للبتراركية في إنكلترا البروتستانتية. فقد كانت السلاسل الغنائية في تسعينيات القرن السادس عشر إما بغائية بصراحة مثل أشعار السير فيليب سيدني (Sir Philip Sidney) أو تشريفية بالمطلق مثل شغف دانييل (Daniel) المصطنع بكونتيسة بيمبروك. لم يتمكن وايات (Wyatt) من الانتباه إلى التوتر الجسدي الحقيقي في ترجماته الدرامية والعامية لبترارك، لكنه لم يتوقف قط عن الكفاح مع

277- عندما تزوجت السيدة ماري غراي (Mary Gray)، وهي امرأة ضئيلة نشأت قريبة جدًا من النبالة بفضل راحتها من كيز (Keys)، وهو رجل ضخم يحمل رتبة رقيب ـ بواب وضيع المنشأ، بحثًا عن سلامتها الخاصة، كانت الفضيحة كبيرة.
(Strype, *Annals of the Reformation* [1735], Vol. II, p. 208)

هذه الجسيّة غير المهمة. لا يبذل سيدني مثل هذا الجهد. فنجاحاته الجنسية مع بينيلوب ريتش (Penelope Rich) مؤرّخة في الشعر[278]. لم تتأخر ردة الفعل على هذا الفجور في الظهور على المستوى الأدبي نفسه، وذلك في مجتمع يخوض حربًا مقدسة من أجل الزواج، بوصفه شرطًا مقدسًا ومدركًا بعمق للاختلافات في ممارسة النبالة بعد نصف قرن من الفضائح. كان البيوريتانيون يثيرون الرأي العام لفرض عقوبات أقسى على الزنا لأن الوقوف عند باب الكنيسة بملاءة بيضاء كان يعتبر من جانب بعض الأشخاص الطائشين علامة على الشجاعة والهيبة. يمكن العثور على ردّة الفعل على العنصر البغائي في الأدب التودّدي في التسعينيات في أشعار الاحتفال بالزواج التي كتبت بوصفها إقامة علاقات عامة للزواج. فشعر سبنسر (Spenser)، وهو أفضلها، كان أيضًا الأول بينها عمليًا، لأن الأشعار السابقة عليه كانت في معظمها بذيئة ولاتينية. وفيه جمع ذكريات عن الأساليب الريفية للاحتفال بالعرائس مع صور فنية من نشيد الإنشاد والإدخال الأفلاطوني لتبجيل الجمال العقلي. والنتيجة هي انتصار شعري، على الرغم من أن السلسلة الغنائية التي تمثل ذروتها كانت فاشلة. إن تبنّي الأسلوب البتراركي لوصف خطوات سبنسر المنهجية في التودّد السليم جدًا هو ببساطة خطأ، لكنه خطأ يستمر الناس في ارتكابه. يثار كرب العاشق البتراركي واستحواذه اصطناعيًا على يد خطيبته الشرعية في نوبات من السخط أو تقلّب المزاج: فالمتودّد الشرعي يدفع بنفسه إلى نوبات مصطنعة من عبوس والدها[279]. اتبع وليام هابنغتون (William Habington) نمطًا جديدًا من الزفاف البتراركي في سلسلة موحشة

278- Sir Philip Sidney, *Astrophel and Stella*, especially Sonnets xxix, xxxvi, xli, lii, lxxii, lxxvi, lxxxi, lxxxii, *cf.* Samuel Daniel, *Delia* and Sir Thomas Wyatt, Poems from the Egerton MS.

279- Edmund Spenser, *Amoretti* and *Epithalamion*, published in 1595.

اسمها **كاستارا** (Castara)[280]، لا بدّ أنها أثبتت، أكثر مما أثبت أي جدال، أن الزنا قد أثار من الإلهام أكثر مما أثار الزواج. ونجح كتّاب المسرح أكثر من الشعراء في إثبات أن الزواج هو الحد الأقصى غير الإيجابي من الحب الرومانسي، أما المصدر الحقيقي لأسطورة الزواج والعيش بسعادة إلى الأبد فهو ذلك الشكل الفني الذي اختُرع ليقتل ساعات فراغ الزوجات العاطلات عن العمل، أي روايات الحب.

أما **باميلا** (Pamela) التي كتبها ريتشاردسون (Richardson) فهي مصدر كل ذلك، لكنها تمتعت بينابيع متنوعة لتستفيد منها لوجودها الخاص. كان اختراع الطباعة يعني أن الأدب لم يعد امتيازًا للنبلاء، وأدّت تطورات التعليم تحت حكم آل تيودور (Tudors)، يدعمهم التلهف البروتستانتي إلى جعل جميع الناس قادرين على قراءة الكتاب المقدس، إلى تطوّر سوق لجميع أشكال الأدب الخلاصي، الذي تعامل الكثير منه مع الزواج وكأنه مغامرة. تعلّمت بنات التجار ذوي الأعمال المزدهرة الرومانسية من المصادر ذاتها التي تعلّمن منها استخدام السكين والشوكة وكيف يتجنبن الضراط أمام الناس. تظهر فكرة الزواج، بوصفه مأثرة، لأول مرة في قصص كتلك التي تروى عن حرفة صانعي الأحذية اللطيفة، قصص خطف الأميرات على يد صنّاع متواضعين[281]. وطورت شيئًا فشيئًا القصة بدائية الطراز عن فوز فتاة فاضلة من العامة برجل نبيل كما هي حال الخادمة الشقراء من

280- William Habington, *Castara* published anonymously in 1634. The first part deals with courtship and the second, which deals with marriage, has the epigraph *Vatumque lascivos triumphos, calcat Amor, pede coniugali.*

281- *E.g.* Thomas Deloney, *The Gentle Craft, A Discourse Containing many matters of Delight*... London...1637. Chapter 5 relates 'How the Emperours Fair Daughter Ursula, fell in love with young Crispine comming with shooes to the Court; and how in the end they were secretly married by a blind Frier'.

فريسنغفيلد (Fair Maid of Fressingfield)[282]. لم تكن روايات ناش (Nashe) وديفوي (Defoe) وآخرين من كتاب التصعلك مناسبة لقراءة السيدات. ولم تكن مول فلاندرز وفاني هيل بطلات مناسبات للجنس اللطيف. نمط محاولات باميلا هو نمط الأسطورة الذهبية (The Golden Legend) التي قاومت فيها قديسات عذراوات مكائد الشيطان ووكلائه الدنيويين ليقدمن أنفسهن كزوجات طاهرات للمسيح نفسه في الفردوس[283]. زوج باميلا السماوي هو المرافق، والفردوس هو عدة آلاف من الجنيهات في السنة. تابع ريتشاردسون القصة، لكن نهايتها الملائمة، إذا كان للرواية أن تنسجم مع بنية الخيال الجنسي، هي الدخول في الحياة الزوجية والفرح الروحي الذي لا يمكن تخيّله. لم يحاول أتباع ريتشاردسون وصف ما لا يوصف. وقد حوفظ على معظم صناعة الرواية حتى عصرنا نتيجة مكتبات الإعارة، التي تعتمد إلى حد بعيد على فئة تدعى القصص الغرامية والأدب الخلاصي عن الحب والزواج الذي كانت ربات البيوت يستهلكنه بنهم. أما الآن فيتعرض هذا السوق لمنافسة شديدة من جانب الكتب الورقية الرخيصة والسينما، والمجلات النسائية ومجلات الحب الهزلية والقصص الغرامية المصورة. عرضت مجلة نسائية على جيليان فريمان (Gillian Freeman) عملًا، مشترطة عليها أن تكون حبكة قصتها الأساسية كما يأتي:

282- The Fair Maid of Fressingfield is the subject of the subplot of *Friar Bacon and Friar Bungay* (1592) by Robert Greene.

283- كان كتاب الأسطورة الذهبية تجميعًا لقصص القديسين التي كتبت استنادًا إلى تقويم الأعياد على يد جاكوبس دو فوراجين (Jacobus de Voragine)، أسقف جنوا في القرن الثالث عشر. كان أحد أوائل الكتب المطبوعة. وقد طُبع طبعات متتالية في جميع الأماكن التي وجدت فيها مطابع، واعتبر أول كتاب مصنّف على أنه الأكثر مبيعًا على المستوى العالمي.

يجب أن تكون الفتاة في القصة سكرتيرة... ويجب أن يكون صديقها أعلى منها اجتماعيًا؛ يمكن أن يكون ابن رئيس الشركة أو مديرًا تنفيذيًا لشركة إعلانات أو طالبًا أو جنديًا أو طبيبًا شابًا. ويجب أن تنتهي القصة نهاية سعيدة، ويجب ألا يوجد ذكر للدين أو العرق، ويجب أن تقتصر ممارسة الحب على القبلة[284].

مازالت الأسطورة منتشرة على نطاق واسع كما كانت دائمًا، على الرغم من الجدل العنيف الذي يزعم أن الإباحية قد غزتها بقوة. وليس لها علاقة مؤكدة بما يجري فعليًا في معظم الحالات، لكن هذه الحقيقة نفسها لا تقول أي شيء عن السيطرة التي تتمتع بها كأسطورة. لقد اعتمدت الأسطورة دائمًا على الغنى والكرم والوسامة والروية التي يتمتع بها رجل من بين مليون رجل.

عندما يطلب منك شخص الخروج معه لتناول الغداء فالاحتمالات هي أنك امرأة خاصة جدًا في حياته. فموعد على الغداء يعني أنه لا يمانع في أن ينفق محفظة نقود مليئة عليك، والأهم أن يقضي وقتًا طويلًا جالسًا قبالتك على الطاولة، وليس لديه ما يفعله سوى أن يأكل ويتحدث. وهو يعني أيضًا أنه يتوقع أن يكون فخورًا بك وهو يتبعك وكبير الخدم إلى الطاولة.

«دليل كتاب المواعيد الكامل إلى المواعدة»
('Datebook's Complete Guide to Dating', 1960, p. 115).

284- Gillian Freeman, *The Undergrowth of Literature* (London, 1969), pp. 50—51.

هناك ما يكفي من النساء المستعدات للتباهي بأن لديهن رجلًا من بين مليون، ليقنعن الأخريات بأن فشلهن في العثور على رجل غني بما يكفي ووسيم بما يكفي وماهر في العشق بما يكفي ومراعٍ للآخرين بما يكفي هو انعكاس لقلة جدارتهن وقدرتهن على الاجتذاب. أكثر من نصف ربات البيوت في هذا البلد يعملن خارج المنزل وداخله لأن أزواجهن لا يكسبون ما يكفي لإعالتهن وإعالة أطفالهن ليعيشوا في مستوى معيشة لائق. والمزيد منهن يعرف أن أزواجهن متكرشون وقصار القامة، وليسوا رياضيين، ويشخرون، أو لهم رائحة كريهة، أو يتركون ملابسهم مرمية هنا وهناك. ونسبة كبيرة منهن لا تجد الفرح في العناق الزوجي، ومعظمهن يشكون من أن أزواجهن ينسون الأمور الصغيرة الحميمة. ومع ذلك لم تبطل الأسطورة كأسطورة. وهناك دائمًا ظرف مخفف: الحكومة أو الضرائب المرتفعة أو العمل الذي يقتضي الكثير من الجلوس أو المرض أو ربما غلطة بسيطة أو فشل في الحالة الفردية يمكن أن يستحضر ليفسر ابتعادها عن المعيار الأسطوري. لدى معظم النساء اللواتي اتبعن توجيه الأسطورة إيمان بأنهن سعيدات على الرغم من الصعوبات اليومية، ويواظبن على تأكيد ذلك في تناقض صارخ مع الحقائق، لأن الاعتراف بخيبة الأمل يعني الاعتراف بالفشل والتخلي عن أي مسعى. لا يخطر في بالهن قط البحث عن سبب تعاستهن في الأسطورة نفسها.

كانت نساء الطبقات الدنيا دائمًا يعملن، سواء خادمات أو عاملات في المعامل أو خياطات أو خادمات لأسرهن، ويمكننا الافتراض أن أسطورة الطبقة الوسطى لم تكن تسيطر على عقولهن بالقوة ذاتها. لكنها حقيقة محزنة أن معظم عائلات الطبقة العاملة تتبع نمط «التقدّم» و«التحسين الذاتي» نحو صفوف الطبقة الوسطى. وفي الكثير من الحالات، يعامل عمل الزوجة على أنه بديل مؤقت، إسهام

في شراء بيت أو تأثيثه. أما الزوج كلي القدرة فيتطلع إلى اليوم الذي تستطيع زوجته فيه أن تبقى في البيت وتتجب الأطفال. والأطفال أيضًا يعتبرون، وإن لم يكونوا قادرين على إدارة الأمر على النحو ذاته، أن الأم يجب أن تبقى في البيت حتى يبقى مريحًا للأب والأبناء. وفي بعض الحالات المتطرفة، يمكن أن يعترض الزوج حتى على رؤية زوجته تنظف الأرض لأن تلك إهانة لرومانسيته الذكرية. وكثيرًا ما يكون عمل زوجته مجرد وسيلة تؤمّن له الملكية أو الرهن اللازم لقبوله مرة وإلى الأبد في الطبقة الوسطى؛ وخلف ذلك تكمن الأسطورة آمنة مطمئنة.

حفل الزفاف هو الطقس الرئيس في منظومة أساطير الطبقة الوسطى، وهو يؤدي وظيفته بوصفه مدخلًا رسميًا للزوجين إلى مكانتهم في الطبقة الوسطى. هذا هو المعنى الحقيقي للادخار من أجل الزواج. يكافح الزوجان الشابان لرسم صورة عن الحياة المريحة التي سيجبران على العيش طبقًا لها في السنوات التالية. قد تكون القرارات المتعلقة بتكلفة الاحتفال أقل أهمية من اختيار المتجر الذي ستشترى منه الأشياء. فكلما ارتفعت المكانة الطبقية التي تستطيع العائلات أن تدعيها لنفسها، تستطيع أن تنتزع المزيد من الهدايا في حفلات تقديم الهدايا للعروس وما شابه. فطلب قائمة المشتريات من أغلى مخزن في المدينة يحبس الزوجين وعائلتيهما المتشابكتين بين قوسي الاستهلاك الكبيرين. والنتيجة هي تجارة كبيرة ورضا متبادل. تؤكّد مخازن هارودز للعروس أن كل ما عليها فعله هو «اعثري على العريس، ونحن نتكفل بالباقي». وبعض المخازن تمطر الفتيات اللواتي أُعلنت خطوبتهن في الصحف بوابل من الدعوات لشراء مشترياتهن من عندهم.

... عندما أصبحت [المرأة] عالة نتيجة تنظيم الرجل الاجتماعي والاقتصادي، وعندما أصبح [الرجل]، نتيجة ذلك، ينتقي ويختار... توجب على المرأة أن تمارس السحر طوال حياتها؛ فهي لم تستخدم الفنون السلبية المتأصلة في جنسها فحسب، بل وكانت تتوهج بكل الحلي الصغيرة المتألقة التي تعتبر من الأمور المساعدة للرجل في تودّده، والتي استغنى عنها عندما مكّنه تفوقه الذي اكتسبه بمساعيه المهنية من القيام بذلك. لقد انتحلت المرأة، بدافع الحافز الجديد في أن تكون جذابة، وبإضافة الحلي إلى مجموعة تعاويذها، موقفًا عدوانيًا تقريبًا من التودّد...

و. آي. توماس، *الجنس والمجتمع*،
(W. I. Thomas 'Sex and Society', 1907, p.235).

تبلغ مبيعات أحد المخازن في لندن مليوني جنيه أو ثلاثة ملايين سنويًا في هذه التجارة، وذلك نتيجة التلاعب بأمّ العروس أساسًا. كما تتوقع مخازنُ أغلى قائمةَ مشتريات تعود عليها بإيراد يبلغ 500 جنيه، على الرغم من أن المخزن الأغلى يجد، ويا لغمّه، أن نصف الضيوف فقط يشترون هدية الزواج من عنده[285]. النمط الحقيقي مقرّر سلفًا على أساس أن العروس هي من يبدأ كل هذا الاستهلاك المثير ويتحكم به، تمامًا لأن فستان العروس ومجوهراتها وملابس الضيفات ستقرر موضة المجموعة كلها، وبالضبط لأن صديقتها قدّرت نجاحها في رهانات الزواج بحجم الماسة التي ارتدتها لدى الإعلان عن خطوبتها

285- *Sunday Times*, 3.8.1969, 'Making Money out of Marriage'.

أول مرة. وتلعب صناعة الأفلام والمسرحيات وكتب الزواج دورًا في المحافظة على عامل الاستهلاك العالي، ففيها تكون كل البيوت دافئة ومضاءة، وكل زوجة رشيقة وأنيقة، وكل زوج ناجح.

> ليس مفاجئًا حقًا أن نسمع عن عدد الرجال الذين لا تصل نساؤهم إلى نشوة مُرضية. وبمناسبة ذكر الهزازات[286]، يمكنني أن أضيف أن ليس من الضروري أن يتخذ شكل القضيب الذي من الصعب إخفاؤه إذا ما وقع بصر أبناؤك عليه. لدينا جهاز **بيفكو** (Pifco) نموذجي، وهو خيالي حقًا. أتحدّى أي رجل يزعم أن زوجته لن تصل إلى ذروة رائعة إذا ما أثير بظرها بواحد من هذه الأجهزة.
>
> ر. و. (تشيشاير)، **فوروم**، المجلد 2، العدد 8
> R. W. (Cheshire).

تنتشر الأسطورة بلا جهد مثل الأمل البائس في الفوز بالرهان. تستطيع أي امرأة رثّة مرهقة، تقرأ عن زوجة مليونير في صحيفة **صندي تايمز**، أن تحلم بأن لديها «ثلاثة أولاد وطباخة/مدبرة منزل ومربية وعاملا تنظيف وبستانيان وسيارة رولز ـ رويس وسيارة فيات وسيارة للموظفين وحوّامة وبيت ريفي في **تشيشاير** وشقة لندنية في **بيلغرافيا**» و«اشترى لي زوجي حقيبة صغيرة جميلة من جلد التمساح ذات سلاسل تنسجم مع معظم الأشياء. وأنا، بالطبع، لا أعرف كم كلفت. كما أهداني معطفًا من فرو المنك ذا لون بني غامق، صناعة

286- (vibrator): جهاز يعمل بالبطارية وله شكل القضيب الذكري، يصدر لدى تشغيله اهتزازات تؤدي في النهاية إلى إثارة النشوة الجنسية لدى المرأة. يمكن باختصار أن نقول: عضو ذكري آلي. [المترجم]

ماكسويل كروفت (Maxwell Croft)، يمكن استخدامه في مختلف المناسبات... وأنا، طبعًا، أشتري ملابس البيت وفساتين النوم من **فورتنوم** (Fortnum). ليست لدي أي فكرة كم تكلف. فأحيانًا يقدمها زوجي لي هدية، وهذا يسعدني جدًا... زوجي ماهر في اختيار المجوهرات»[287]. لكن كل شيء سيفسد إذا كان لدى المرأة الصغيرة الحسودة التي تقرأ **صندي تايمز** فكرة عن سكرتيرة الصناعي التي تذكّره بذكرى زواجه السنوية، وتتسل في وقت الغداء ومعها شيك لتحضر قطعة اختارها مدير المبيعات لدى الجواهرجي. يبدو الحب وكأنه يهلك تحت وطأة الصعوبة، أو يصير خفيًا، حتى أن الزوجة الشجاعة تقول «أعرف أنه يحبني. هو لا يقول الكثير، وقد تجاوزنا عمر الملاطفة وتلك الأشياء. لكنه لن يفعل أي شيء يؤذيني أو يؤذي الأولاد». من السهل أن نتخيّل أن الحب يبقى في كوخ تزيّن الأزهار بابه، أو في بيت في **تشيشاير** مع طباخة/مدبرة منزل ومربية وبستانيين وعاملي تنظيف، حيث سيدة البيت دائمًا معطرة وجميلة، مكسوة بمواد جميلة من **فورتنوم**، مطمئنة وسعيدة بين ذراعي زوجها المنتصر المحبتين.

لكن ذلك ليس حقيقيًا، ولم يكن كذلك قط، أما الآن فبالتأكيد لن يكون كذلك.

> نعرف جميعًا أن الرجل ينظر غريزيًا إلى المرأة من أجل العقاب. إنه إحساس طبيعي يولد من علاقة الأم والطفل. أنا شريكة راغبة في دافع زوجي المتكرر إلى التأديب، لا بسبب الإثارة الجنسية التي تسببها العملية نفسها، بل أيضًا لأن مساعيّ في هذا المجال تقابل بمكافأة وافرة بطرق أخرى. فقد اكتشفت أن زوجي يتمتع برغبة نهمة

287- *Sunday Times*, 15.6.1969, ‘First Catch your Millionaire’.

لإرضائي، لا في الأمور الجنسية فقط، بل وفي أمور المنزل العامة. لقد تحمّل المسؤولية عن العمل المنزلي والتسوّق والغسيل وكي الملابس. ليس عليّ سوى أن أذكر أنني بحاجة إلى رف جديد، أو أن الفرن يحتاج إلى تنظيف، أو أن غرفة بحاجة إلى تزيين، لتجدي الأمر مقضيًا بأسرع من البرق. وأنا الآن أشجّعه على الاهتمام بفنون الطبخ.

أنا مقتنعة، لا من تجربتي فقط، بل ومن زواجات أخرى، أن زوجي ليس شاذًا. أنا واثقة من أن تسعة أزواج من أصل عشرة سيجيبون بالإيجاب فيما لو سألتهم زوجاتهم عما إذا كانوا يحبون أن يضربوا.

السيدة ل. ب (إيسكس)، **فوروم**، المجلد 2، العدد 3

العائلة

البطّة الأم وذكر البطّ الأب وفراخ البطّ الصغيرة. تبدو لنا الأسرة التي يحكمها الأب ويعيلها، وتغذّيها الأم وتنشئها متأصلة في النظام الطبيعي. وفي حين تنشئ الغوريلا الأمّ أولادها، وتعتني بهم، يقف الغوريلا الأب حارسًا عليها، مدافعًا عنها في وجه أخطار البرية. حتى حين لم تكن البرية تحمل أي أخطار، كان آدم يحفر وحواء تغزل وكان **الإله** الأب أباهما، وكان يمشي معهما عند الشفق مادامًا طيبين. أما حين أساءا الفعل فقد طُردا من الجنة، وأسّسا عائلة خاصة بهما. تقاتل أبناؤهما كما يتقاتل الأخوة، وحلّت جريمة القتل في العالم. وفي مكان ما في **أبوكريفا** (Apocrypha)[288]، اندست **ليليت** (Lilith) المهلكة التي عرضت الحب والفسق، وهدّدت بنية العائلة. عاشر أحفاد آدم بنات شهوة الجسد. أسطورة أصل العائلة الأبوية في **العهد القديم** غامضة: فالأب محبٌ للانتقام، والأمّ تابعة له، ويرتكب الأخوة الجريمة الأولى، القتل حبًا بالأب، فيما تومئ المومس من خارج سجن الحياة العائلية. لكن المسيحية الحديثة طورت من هذا المصدر نموذجها

288- أربعة عشر سفرًا من أسفار «العهد القديم» من الكتاب المقدس، لا يعترف اليهود والبروتستانت بصحتها، على حين يقول الكاثوليك بصحة أحد عشر سفرًا منها، ويعتبرونها جزءًا من التوراة. [المترجم عن المورد الأكبر]

الخاص عن الأسرة النووية واعتبرته منعكسًا في القانون الطبيعي. تعكس بنية الدولة، المعتبرة بسذاجة أنها ليست أكثر من مجموعة عائلات، المبدأ الطبيعي: الملك/الرئيس أب كريم، لكنه عادل، لعائلة كبيرة. واعترفت الكنيسة أيضًا برأس واحد يقوم مقام الله نفسه. كان الرجل هو الروح، والمرأة هي الجسد: كان الرجل هو العقل والمرأة هي القلب؛ كان الرجل هو الإرادة والمرأة هي العواطف. تعلم الصبيان دورهم الذكري من أبيهم، وتعلمت الفتيات دورهن الأنثوي من أمهن. يبدو الأمر واضحًا وبسيطًا وثابتًا. كان الأب مسؤولًا عمن يعيلهم؛ كان يملك الملكية وينقلها لابنه البكر مع اسمه. كانت سلسلة القيادة من الأكبر سنًا إلى أفقر التابعين كاملة.

ومع ذلك فما يبدو جوهريًا ومحتومًا هو محض مصادفة. فالعائلة أبوية النسب تتوقف على تخلّي النساء الحر عن حق الأبوة للرجال، لأن الأبوة ليست علاقة جوهرية: إذ لا يمكن إثباتها إلا سلبيًا.

> تقوم العائلة الفردية الحديثة على عبودية الزوجة المكشوفة أو المخفية... فضمن العائلة الزوج هو البرجوازي، وزوجته تمثّل البروليتاريا.
>
> **فريدريك إنجلز، *«أصل العائلة»***
> (Friedrich Engels, ‘The Origin of the Family’, 1943, p. 79).

ليس من شأن أي احتراس، مهما كان شديدًا، أن يضمن تمامًا أن يكون أي رجل والد ابنه.

أما من طريقة أمام الرجال ليكونوا
سوى أن تكون النساء نصف عاملات؟ نحن جميعًا أبناء زنا...[289]

289- William Shakespeare, *Cymbeline*, II, v. 1—2 (*Works op. cit.*, p. 1024).

عندما كانت هناك ملكية لتوريثها وشرعية للمحافظة عليها، كان لزامًا إحاطة النساء بالحراس، وإبقاؤهن في مكان واحد، والمحافظة على فضولهن الطبيعي ودافعهن للحركة والتعبير قليل التطور قدر الإمكان. كان حزام العفة، الذي يضعه البارونات المحاربون حول زوجاتهم عندما يذهبون إلى الحرب، شعارًا خارجيًا على عقم الصراع، محاولة لتأمين سدّ للرحم. في هذه الأيام، تطلب النساء الثقة، ويعرضن تأكيدهن الحرّ حول الأبوة، باحترام العقد الذي قمن به والذي يضمن لهن الحماية والطعام والسكن مقابل ضمانهن بقاء الذرية الشرعية.

العائلة التي تقام عندما يضع الشاب عروسه في مسكن مستقل ليست في الحقيقة مصممة جيدًا لأداء وظائف ضمان الأبوة.

الزوجة تُترك وحيدة معظم اليوم دون مرافق، وهكذا، فدرجة الثقة المطلوبة أكبر. ليس في المنزل الحديث خدم ولا أقرباء ليحرسوا مصلحة الزوج، ومع ذلك يبدو طبيعيًا ولائقًا بوصفه النتيجة المنطقية لجميع الأشكال الأبوية الأخرى التي سبقته. في الحقيقة قد تكون العائلة القائمة على الزواج الأحادي، التي يسميها علماء الأنثروبولوجيا وعلماء الاجتماع الأسرة النووية، هي أقصر نظام عائلي وجد حتى الآن. في الأزمنة الإقطاعية كانت العائلة من النوع الذي يسمى العائلة المتفرعة (stem family)، وفيه كان رئيس العائلة هو الأب الأكبر سنًا، وكان يحكم عددًا من الأبناء وزوجاتهم وأبنائهم. وكان العمل في الأسرة يقسم حسب مكانة المرأة المعنية، فكانت البنات غير المتزوجات يقمن بالغسل والغزل والحياكة، وكانت الزوجات المنجبات ينجبن الأطفال، ويهتممن بالرضع، والزوجات الأكبر سنًا ينشئن الأطفال ويؤدبنهم، ويُدرن شؤون الطبخ، أما أكبر زوجة فكانت تشرف على حسن سير الأمور برمتها. لم تكن العائلة تعرف العزلة التي تجعل من الأسرة التي

تعيش في فيلا من القرميد الأحمر عصابية. كان هناك احتكاك، لكنه لم يكن ليتحوّل إلى جزء من الكرب الانطوائي الشديد الذي يعاني منه الأزواج المعزولون في مواجهتهم حين يعيشون على انفراد. وكان من الممكن مواجهة مشكلات العائلة بصراحة في اجتماعات العائلة، وكانت قرارات الأكبر سنًا تحترم. ولم يكن الحب الرومانسي، بوصفه دافعًا للتعايش، يتمتع إلا بأهمية قليلة. كانت رغبة الرجل تقتصر على الرغبة في التناسل مع امرأة تنسجم مع عائلته. ولم يكن هناك كبير مجال لخيبة الرجاء والاستياء والملل. وكان الأطفال يستفيدون من هذا التنظيم الذي مازال مستمرًا في أنحاء من اليونان وإسبانيا وجنوب إيطاليا. حيث لدى أحد ما، كالجدّ أو أحد الأعمام أو العمات، دائمًا الوقت للردّ على الأسئلة أو حكاية القصص أو تعليم مهارات جديدة أو الذهاب إلى صيد السمك. فما أن يتعلم الأطفال المشي جيدًا حتى تلقى على عاتقهم مسؤولية ما ـ الاهتمام بالدجاجات أو برج الحمام أو بخروف أو جدي. لم يكونوا يرسلون إلى النوم في غرفة مظلمة فيما الكبار يتحدثون في غرفة المطبخ، بل يسمح لهم بالبقاء والاستماع والتعلم إلى أن يغفوا بين ذراعي أحد ما. ثم كانوا يجرّدون بهدوء من ملابسهم، ويوضعون في السرير دون إيقاظهم. لم تكن هناك فجوة عمرية لأن الأسرة كانت تضم كل الفئات العمرية. عندما عشت في قرية صغيرة في جنوب إيطاليا، رأيت عائلة من هذا النوع تعيش معًا بانسجام على الرغم من الفقر الشديد وغياب معظم الرجال للعمل في ألمانيا، وكان أطفالهم أسعد أطفال رأيتهم في حياتي وأقلّهم خجلًا ونزقًا. وبما أن القرابة كانت تربط جميع العائلات المجاورة، فقد بدا المجتمع متماسكًا بقوة. كانت مقتضيات ذلك العيش الجماعي قد خلقت صلات وعادات قوية، وكانت تحترم دائمًا. كنا سنكابد الجوع لو لم نتبادل مع العائلات القريبة ما لديها من فائض من سلع معينة مقابل ما لدينا من فائض من سلع أخرى، لأننا لم نكن نستطيع تأمين

ما يلزم من المال لشراء الغذاء بالأسعار الباهظة التي يفرضها ملّاك الأراضي في السوق المفتوح.

يمكن للعائلة المتفرعة أن تؤمّن مصدرًا للتلاحم معادٍ لسيطرة الدولة، لأنها ثابتة، وولاؤها الأقوى هو لذاتها. عندما يُمارس المبدأ في تحدٍّ للسلطة المؤسسة، يمكن أن يصبح نموذج عائلة المافيا الشائن. وقد تضمّنت شعائر الشرف العائلي مظاهر معادية للمجتمع كالثأر ومؤامرة الصمت، لكن هذه لم تكن مهمة إلا حين يتعرض المجتمع العائلي المحلي للتهديد من جانب السلطة السياسية. أدرك المحررون الأمريكيون بسرعة الأهمية التنظيمية للمافيا في صقلية؛ لكنّ ما لم يدركوه هو أن نوع التلاحم الذي سعوا إلى الاستفادة منه أصلًا ينطوي على مفارقة تاريخية وغير قابل للحياة اقتصاديًا.

لقد سرّعت آثار التصنيع والتمدين المتمثلة بتغيير نمط الاستقرار السكاني، وما تطلبه ذلك من حركية في قوة العمل، انحلالَ العائلة المتفرعة التي انحطّت في أوروبا الغربية في وقت ما قبل القرن السادس عشر. ذلك أن التغيّرات في شروط ملكية الأرض وانحلال السلطة المحلية ومركزية الحكومة والأسيجة وتطور الإيجار النقدي وغياب مالك الأرض، كلها لعبت دورًا في تطور الأسرة النووية، ولكن لم يحدث إلا مؤخرًا أن انحدرت الأسرة النووية إلى هذه البقية من الحياة المشتركة التي هي عليها الآن. عندما كان الجزء الأكبر من المجتمع العامل يعمل في عائلات كبيرة، وعندما كانت البنات غير المتزوجات والأبناء العازبون يعيشون في الأسرة، وعندما كان الأبناء والبنات كثيرًا ما يرسلون للعمل لدى أسر أخرى، كانت العائلة عضوية ومكشوفة للتأثيرات الخارجية. لم يكن الأزواج والزوجات يستطيعون أن يستغرقوا كثيرًا في اهتمامهم بعلاقاتهم التي تدعمها بقوة القوانين المناهضة للطلاق والرأي العام وحجم العائلة الذي لا ضابط له. كان الآباء

المسنّون يبقون ضمن الأسرة، ويحظون عندها بالرعاية. لكن لم يعد هناك مشاريع عائلية، ولا ميراث يجب تطويره وخدمته. استتبعت كثافة المجتمع الحضري غربة عن الجيران المباشرين، وقادت الحاجة إلى إيجاد عمل الأبناء إلى خارج الحدود المباشرة للعائلة. وزاد التعليم في تغريب العائلات، ولاسيما عندما خلق التعليم الإلزامي جيلًا أكثر تعلمًا من آبائه. كما يعمل التوسيع التدريجي للتعليم جيلًا بعد جيل على زيادة هذا الأثر. وحين أخذ إبسن (Ibsen) وستريندبرغ (Strindberg) يكتبان مسرحياتهما التراجيدية المنزلية، كانت العائلة قد أصبحت سجنًا، يصارع الصغار فيه للإفلات من قبضة الكبار الميتة، وتقلّص المجتمع الخارجي إلى رجل الشرطة والطبيب والقسيس، وبات الخدم غرباء وأعداء طبقيون. كانت الفضيلة البيوريتانية قد أنتجت الرياء والإحباط والأدب الإباحي. وكان الزوج والزوجة يرقصان رقصة القتل اليومي. وتحول الأب ـ الحامي، الذي لم يعد قادرًا على تولّي أي مجال آخر من مجالات التفوّق أو البراعة، إلى حكم أخلاقي على الرغم من عدم ملاءمته لهذا الدور: كانت الزوجة دمية مولعة بالمكائد، خائبة الأمل من زوجها ومشوّشة ومغتاظة من كسلها وتفاهتها. لقد دارت متلازمة الترف البديلي[290] (syndrome of vicarious leisure)، التي يصفها فيبلن، دورة كاملة. وكانت الانشغالات ذات الطبيعة النسائية الواضحة خالية من المعنى أكثر من أي وقت مضى. بات غيظ شركاء الزواج مدمّرًا على نحو واضح إلى حد البدء بسنّ قوانين تسهّل عملية الطلاق في معظم البلدان الغربية. وبدأت النساء المطالبة بالحق في العمل خارج الخدمة المنزلية، ووصلت الصناعة المتوسعة إلى حدّ أصبحت معه بحاجة إليهن، ولاسيما مع سلب الحرب العالمية الأولى

290- يترجمها محمود محمد موسى في الترجمة المذكورة آنفًا بـ«الترف بالتبعية» أو «الترف بالإنابة» [المترجم]

للقوى البشرية. أصبح عدد النساء العازبات أكبر، وهو ما فاقم مشكلة كانت موجودة منذ منعطف القرن. قسمت البيوت فيكتورية الطراز الكبيرة تدريجيًا إلى وحدات أصغر. واستجابة لمتطلبات الإسكان عالي الكثافة تكاثرت الشقق. وانتقل عدد متزايد من وظائف الأسرة الكبيرة إلى الدولة: رعاية المسنين والمرضى والعاجزين والمتخلفين عقليًا.

عائلة الستينيات صغيرة ومستقلة ومرتكزة على ذاتها وقصيرة العمر. ينفصل الشاب عن أبويه بأسرع ما يستطيع، باحثًا عن فرص للتعلم والعمل.

> لو كان الزواج الأحادي الصارم أساس الفضيلة، لذهب تاجها إلى الدودة الشريطية التي تملك جهازًا تناسليًا مذكّرًا ومؤنثًا كاملًا في كل حلقة، أو جزء، من جسمها الذي تتراوح حلقاته بين خمسين ومائتي حلقة، والتي تقضي كل حياتها متلاقحة في كل حلقاتها مع نفسها.
>
> فريدريك إنجلز، *أصل العائلة*

يقضي الأولاد معظم وقتهم في المدرسة، والآباء في العمل. أمّا الأم فهي قلب العائلة الميت، فتنفق ما يكسبه الأب على سلع استهلاكية لتزيين البيئة التي يأكل فيها، وينام، ويشاهد التلفاز. ويميل الأولاد على نحو متزايد منذ الحرب إلى تكوين مجموعات أكثر حيوية خاصة بهم، مفترضين خصائص قبلية من لباس وسلوك شعائري. حتى الفتيات يملن إلى الذهاب إلى العمل والسكن في بيت مستقل مع فتيات أخريات في المباني الضخمة التي تضمّ شققًا صغيرة على أطراف المدن الرئيسية. ليست الزوجة مهمة، بوصفها زوجة، إلا حين تنجب الأطفال الصغار وتربّيهم، أما الظروف التي تؤدّي فيها هذا العمل المهم

والاضطراب الموجود حول الطريقة الصحيحة في أدائه فتزيد من عزلتها عن المجتمع وتقوّي العلاقة الوالدية في تلك السنوات المبكرة.

الفتاة العاملة التي تتزوّج، وتعمل فترة من الزمن بعد زواجها، ثم تتقاعد من أجل التناسل، لا تكاد تكون مجهّزة لعزلة الأسرة النووية. وبغضّ النظر عمّا إذا كانت مستمتعة بالعمل الحقير الذي تمارسه، سواء كانت ضاربة آلة كاتبة أو بائعة أو نادلة أو موظفة، فإنها على الأقل تتمتع بشيء من حرية الحركة إلى هذه الدرجة أو تلك. يتقلّص أفقها إلى البيت ومركز التسوق ومشاهدة التلفاز. إنها تبالغ بالعناية بولدها والاهتمام به في أثناء النهار، حتى إذا ما عاد زوجها من العمل، فإنها تسرع في طرد الطفل من عالم الكبار إلى سريره، حتى يتمكن الوالد من الاسترخاء. ويزداد الموقف الأوديبي، الذي يتضاعف دائمًا في الزواج، كثافة إلى درجة كان من شأن فرويد نفسه أن يجدها مرعبة. الأب حقًّا منافس وغريب. يمكن أن تتنمّر الأمّ على الطفل في أثناء النهار وأن تلاطفه بالدرجة ذاتها: أما الأكيد فهو أنه يحظى بكثير من اهتمام الشخص الوحيد الموجود بالكامل تحت تصرفه.

> تنسجم العقدة المعروفة في المدرسة الفرويدية، التي يفترضون أنها عقدة عامة، أقصد عقدة أوديب، أساسًا مع عائلتنا الآرية أبوية النسب ذات السلطة الأبوية المتطورة، والتي يعززها القانون الروماني والأخلاق المسيحية، وتؤكدها الظروف الاقتصادية الحديثة للبرجوازية الغنية.
>
> برونيسلاف مالينوفسكي، *الجنس والكبت في مجتمع متوحش*
>
> (Bronislaw Malinowski, ‘Sex and Repression in Savage Society’, 1927, p. 5).

ليست العلاقة الحميمة بين الأمّ والطفل مستمرة وصحية. فالطفل يتعلم أن يستغل وجود أمه الدائم فيزعجها بالأسئلة والمطالب التي ليس لها أي عواقب عليه، ويحرجها أمام الآخرين، ويبتزها لتشتري له الحلوى ولتحمله. والاتكال لا يعني الحب. موقف الطفل من المدرسة، التي تبعده عن أمّه بعد خمس سنوات من الحميمية القسرية، متناقض مثل موقفه من أمّه. فهي مرحّب بها طالما هي خلاص، أمّا عندما تصبح متطلبة فإن الطفل يجد أنه يستطيع أن يتلاعب بأمّه وبالمدرسة ضد بعضهما. يمكن أن تؤدي الغيرة التي تشعر بها الأمّ تجاه المدرسة، ومحاولة المدرسة إرساء شيء من التنظيم على الطفل في معارضة الأمّ، إلى أوضاع محفوفة بالخطر. طبيعة هذه العلاقة بين الأمّ والطفل المعادية للمجتمع جلية جدًّا لمعلمي المدرسة، ولاسيما حين تصبح المسألة مسألة انضباط أو معالجة اضطراب عاطفي[291].

تجد الزوجة ـ الأمّ التعيسة نفسها معادية للمجتمع بطرق أخرى أيضًا. فالبيت هو عالمها، وهي وحيدة هناك. وتريد من عائلتها أن يقضوا وقتًا معها لأن أهميتها الوحيدة تكمن بالعلاقة مع تلك المجموعة شبه الخيالية. تكافح لتبقي أبناءها قريبين منها، فتفرض عليهم القيود، وتنتظرهم، وتتطفّل على أمورهم. وهم ينسحبون شيئًا فشيئًا نحو حالة من عدم التواصل وشيء من الاحتقار المقنع. تتوسّل إلى الزوج ألا يخرج مع أصدقائه، وتتعجب من أنه يستطيع أن يقف تحت المطر المنسكب في ملعب كرة القدم، لكنه يكون أكثر تعبًا من أن يصلح السطح أو يجزّ العشب في يوم مشمس. تئنّ وتندب من أنه لا يهتمّ بمواهب الأطفال، ومن أنه يلقي بذلك كله على عاتقها، ومن أنّ أحدًا لا يتحدث إليها، ومن أنها جاهلة، ومن أنها قد أعطت أجمل

291- Some evidence of this can be gained from the Plowden Report, summarized in the *Sunday Mirror*, 8.3.1970.

سنوات عمرها إلى مجموعة من مثيري الشغب العاقّين. السياسة لغز، ولغز مملّ أيضًا؛ الرياضة دليل على فشل الرجال في أن يكبروا. أفضل شيء يمكن أن يحدث هو أن تنطلق من جديد من حيث تركت، وأن تعود إلى العمل في وظيفة كانت مجرد بديل مؤقت عندما بدأتها، ولا يمكن أن تتوقّع فيها أي ترقية ولا أي مكافأة ولا أي توسيع لآفاقها، لأنه مازال من الواجب تلبية مطالب الأسرة. يصبح العمل من كل الأنواع منوّمًا. فهي تنظّف، وتحوك الصوف، وتطرّز، وهكذا دواليك.

تعاني النساء، اللواتي يجابهن نزعة الأسرة النووية إلى الانعزال عن الصلات الاجتماعية، من صعوبات خاصة. فها هي آن آلن (Anne Allen) تتحدث عن ذلك في حديث مع شابة متزوجة في *صنداي ميرور*:

> تقول: «انظري! لدينا نحو دزينة من الأصدقاء الجيدين فعلًا. أشخاص قريبون مني أكثر من أي شخص في عائلتي. أشخاص أحبهم أكثر وأعرفهم أكثر.
>
> لكن ما الذي يحدث؟ يجب علينا أن ننظّم أنفسنا حتى نلتقي. وعلى أحد ما أن يجد جليسة أطفال. وأصدقاؤنا يشعرون أنهم ملزمون بإعداد عشاء لذيذ لنا.
>
> وبعد ذلك، إما أن يمرض الصغير، أو يشعر أحدنا أنه متعب، وتتمنين لو أنك لم ترتبي للأمر كله. أو أننا نستمتع جميعًا إلى حدّ نشعر معه أن من المحزن حقًا أن ننفضّ من السهرة باكرًا.
>
> لكن فكّري فحسب كيف ستكون الحال لو أن مجموعة من الأصدقاء تعيش في بناء واحد أو في شارع واحد. يمكن أن يحدث هذا.
>
> هناك مهندسون معماريون يعملون على مبنى أو مبنيين مصممين خصيصًا على نحو يكون لكل شخص جزء صغير خاص به ومكان واسع جدًّا للمعيشة المشتركة.

> شخصيًا، لا أحتمل المشاركة الجنسية، وسأكون في مثل سوء أمي فيما يخص التشارك في المطبخ. فأنا أثمّن خصوصيتي جدًا.
>
> لكن تمرّ علي أوقات كثيرة أشتهي فيها الحديث مع أحد ما في النهار. أو عندما أكون وحيدة عندما يتأخر زوجي في العمل ليلًا. أو عندما نتجادل، أنا وهو، وأرغب في الابتعاد ساعة من الزمن.
>
> أنا ببساطة لا أستطيع التفكير بأي طريقة قد أعيش بها إلا مع زوجي، ويحيط بنا معظم الأصدقاء المقربين. وفي نهاية المطاف، يصبح آلاف الأشخاص أصدقاء مقربين مع جيرانهم. ولا نفعل في هذه الحال سوى عكس الآية»[292].

ذات يوم، كان الجميع يعيشون في بيت مليء بالأصدقاء وفيه أماكن واسعة مشتركة، حيث الشوارع مليئة بالأصدقاء لأن ثبات المجتمع كان يعني أن الجميع يعرفون بعضهم بعضًا كما يعرفون التاريخ العائلي لكل منهم. لكن لذلك النظام عيوبه، إذ كان عدم الامتثال لما هو سائد أمرًا غير محتمل، وكان لانتباه المجتمع الثابت إلى أفعال الأفراد مساوئ صارخة أكثر من محاسنه. صحيح أنه لم يكن من الممكن في ذلك المجتمع أن تنطرح سيدة عجوز أربعة أيام أسفل الدرج مكسورة عظم الورك، لكن أيضًا لم يكن في مقدور المرأة أن تقيم علاقة حب ممنوعة أيضًا. في هذه الأيام، يعيش البشر أقرب إلى بعضهم من أي وقت مضى، لكنهم يعيشون في عزلة مزدحمة. فالأبراج السكنية تضم عشرات وعشرات العائلات الصغيرة التي يوجد بينها الكثير مما هو مشترك، لكنهم يعيشون غرباء عن بعضهم بعضًا. تنغلق أبوابهم الخارجية على عالم خاص لا يمكن أن يتواصلوا عبر الممرات الفارغة والمصاعد إلا للشكوى من الضجة التي يصدرها كل منهم. ولا تتعرف النساء اللواتي يراقبن أبناءهن وهم يلعبون في ساحات

292- *Sunday Mirror*, 23.11.1969, 'Let's All Cuddle'.

اللعب المشتركة إلى أهل الأطفال الآخرين إلا حين تتطلب نوبة من الغضب بين الأطفال تدخّل الأهل. وكثيرًا ما تعني المنافسة أن تتمسك كل عائلة بوهم التفوّق العرقي أو الأخلاقي أو الديني أو الاقتصادي أو الطبقي. ويندب مخططو المدن من أن ساكني الأبراج لا يتعهدون بالمحافظة على المساحات المشتركة نظيفة ومبهجة، ويشكو ضحايا إعادة الإسكان هذه من أن الأبراج تسبب أشكالًا خاصة من القلق تتعلق بالارتفاع والحصر في أماكن ضيقة. ونتيجة حركتهم صعودًا وهبوطًا في المصاعد فإنهم لا يرون بعضهم البعض الآخر، ولا يستطيعون النظر عبر نوافذ بعضهم البعض الآخر، ولا أن يتجاذبوا أطراف الحديث من مداخل بيوتهم فيما ينظفون عتبات البيوت. أما المحاولات المصطنعة لإثارة الحميمية فيما بينهم فلا تجدي نفعًا. تحافظ النساء بحسد على انفصال أسرهنّ خائفات من جميع أنواع الفساد المتخيّل على أطفالهن وطريقتهم في الحياة والاعتداءات من الغرباء. ترفض ربة منزل آن آلن إمكانية المشاركة الجنسية، لكنها على الأقل تفكر فيها علنًا. تحمي جماعة القرابة علاقتها الجنسية عبر قيود على سفاح القربى ليس لها تبرير أولي في المخاوف من نتائج التزاوج ضمن جماعة ضيقة، وهي نتائج لم تكن معروفة للمشرعين الأوائل الذين شرّعوا القوانين المناهضة لسفاح القربى. ربما لا تخاف النساء القاطنات في أبراج سكنية عن وعي من آثار العلاقة الحميمة مع نساء غريبات، لكن التوتر قائم. قد يكون من الممكن تجنّب فشل تلك الحياة الجماعية عبر وضع حانة وغسالة ذات حصالة في كل كتلة بناء، أما اقتصاديًا فيبدو أنه لا بدّ من التشارك في الأعمال التي يتضاعف تعبها إذا ما جرت في كل شقة ضيقة على حدة، إذا أردنا أن تكون النتيجة تفاعلًا عضويًا حقيقيًا.

اعتبرت النتائج المعمارية للأسرة النووية كارثية عمومًا: فلقد

شوّه الانتشار الأخرق للأبنية الشريطية ولمساحات من الشقق الشبيهة بصناديق صغيرة مظهر جميع مدننا. وصيانة تلك المساحات باهظة التكلفة، ومن الصعب ترتيب أمر الوصول إلى الخدمات. أما المدافعون عن الإسكان عالي الكثافة فيحتجّون بالمزايا العملية والمريحة لهذا الإسكان. لكن ما لا يدركونه هو أن الأسرة النووية تشنّ الهجوم عليهم؛ فلا يستطيع أي مقدار من دراسة أبعاد الجسم الإنساني ومتطلبات راحته في الأثاث المستخدم، ولا أي توجيه للوحدات السكنية النظيفة والكفوءة نحو الضوء والدفء والإطلالات المفتوحة أن يقضي على الشك الذي تشعر به الوحدة الأوديبية نحو الوحدات الأخرى المشابهة لها. لا تستطيع ضغوط الاستبطان (introspection) الزواجي وإجهاداته أن تحتمل أفقًا أوسع. أحد البدائل هو أن يتصرّف صاحب العمل مثل الأب، كما يحدث في القرى المبنية خصيصًا في أميركا حيث يُؤمّن لموظفي الشركات سكن حسب دخلهم وموقعهم، ويُشجعون على البقاء معًا. فتصبح الزوجات زوجات المهنة أو زوجات الشركة. «الوجود معًا» منتشر على نحو واسع. لكن لا يمكن تخيّل نتائجه على المدى الطويل، من وجهة نظري على الأقل. يصبح كل جانب من جوانب الحياة العائلية واقعًا تحت هيمنة الشركة؛ فلأن الرجل المنحوس يحصل على عمله استنادًا إلى تقويم للشخصية يتعلق بعائلته كلها، ينبغي عليه أن يؤدّي دور الشركة في جانب من جوانب حياته الشخصية. حتى أداؤه الجنسي قد يصبح مسألة عمل: فقد رسم ماسترز وجونسون النموذج المتعي. لم يعانِ أي قنّ يتلوى تحت وطأة قانون حق الليلة الأولى، ويسلّم أبناءه لخدمة سيده الاقطاعي، أسوأ من هذه المعاناة. فهذا الرجل مدين بروحه لمخزن الشركة، وليس أمانه إلا كأمان أي عامل منجم باحث عن الذهب أو عبد محرر. لقد تحقّقت النتيجة المنطقية المتمثلة بسيطرة التشغيل على حركة العمل. ويتوقف استمرار أمانه على سلوك

عائلته برمتها؛ والنتيجة المرجوة هي الثبات التام وقابلية تصرفاته للتنبؤ. وهذا هو السبب في أن الأزواج الجامعيين يتمتعون بمستوى من الطاقة الجنسية أدنى من الآخرين لأنهم أصبحوا جرذانًا بيضاء سمينة في مخبر نظيف، لا بسبب قرب نسائهم، كما زعم **ليونيل تايغر** (Lionel Tiger)[293]. لقد خصى رب العمل **بيغ دادي** (=الأب الكبير)، وهو الشبح الذي يحوم فوق مسرحية **من يخاف من فرجينيا وولف** (Who's Afraid of Virginia Woolf)، أبناءه. لكنّ الروح البشرية غير قابلة للإتلاف، وإذا كانت المجموعة ستشكل الضمير الخاص، فإن الإثم الذي يستطيع أن يصيبها بالعجز يجب أن يكون إثمًا جماعيًا، بحيث لا يستطيع أحد أن يخبر بيغ دادي عنه. إن الشكل الذي أخذه الانحطاط الأمريكي هو، في المقام الأول، السكر الجماعي الذي يعتبر الطريقة الوحيدة للسلوك غير المراقب، ووصل في النهاية إلى تبادل الزوجات الذي يعتبر صيغة القرن العشرين من سفاح القربى:

> خريف عام 1962، كان الزوجان[294] قريبين على نحو فاضح وانتشائي. كان **فرانك ومارسيا** مبتهجين من وضعهما معًا كل تلك المرات دون أن يسعيا وراء ذلك. وكان **جانيت وهارولد** يتندران سرًا على حيل العاشقين الآخرين التي أصبحت مكشوفة الآن. وبدأت هذه الدعابات تتسرب إلى أحاديثهم الرباعية...
>
> بدأ الأزواج الآخرون يطلقون عليهم لقب آل آبلسميث (Applesmiths)... «ألا تشعرون بذلك؟ هذا خطأ جدًا. فنحن الآن فاسدون فعلًا. جميعنا»[295].

293- Lionel Tiger, *Men in Groups* (London, 1969), pp. 209—10.

294- يرجى الانتباه إلى أن كلمة زوج ترد في هذا السياق بمعنى ثنائي، أي الزوج والزوجة. وفي هذا الموضع الزوجان هما ثنائيان كل منهما مؤلف من زوج وزوجة [المترجم].

295- John Updike, *Couples* (London, 1968), pp. 138, 141, 150.

دافع بعض الكتّاب دفاعًا جديًا عن تبادل الزوجات في «مجلات العلاقات الإنسانية»، من مثل فوروم، واعتبروه طريقة لبعث الحيوية في زواجات أصابها الوهن. من شأن السلوك التشاركي، ولكن السرّي، أن يجمع بقوة أي مجموعة في نوع من المؤامرة، لكن قد يكون من الصعب تحمّل النتائج. فتغيير الشركاء هو فعل غير عفوي تمامًا، وبعيد جدًا عن تقلبات الرغبة الجنسية الحقيقية؛ ليس أكثر من متغيّر في الرقصة الرباعية. والجنس، في تلك الصفقة، هو الذي يعاني: إذ يصبح الشغف فسقًا. فالقيام بالتغيير وفق صيغ الحصول على المتعة يخفي الملل، لكنه لا يسترد الحياة. فالجنس في مثل تلك الظروف يصبح شكلًا من أشكال التواصل أقل أهمية باطراد، ويغدو شيئًا فشيئًا شكلًا من التسلية، مثل لعب البينغو والآلات ذات الحصالة والهولا هوب واليويو، مجرد لهو. تسلية عادية سهلة. ليست بريئة، بل محسوبة؛ ليست ديناميكية، بل محتواة. وعندما يشجّع بيغ دادي هذه البذاءات، يصبح حتى الجنس تحت رعايته الكريمة. يُسمح للفأر الأبيض فاتر الهمة جنسيًا والمغذى على نحو مفرط بقضاء فترة قصيرة في قفص فأر آخر لتنشيطه. يمكن فرض التماثل الجنسي بهذه الطريقة: يمكن أن يطبق السيد جونز على السيدة جونز ما تعلّمه من السيدة سميث، وهكذا دواليك. تغمر الحياة العائلية العامة الجميع.

آن آلن هي ربة منزل إنكليزية ليبرالية عادية حساسة. وهي تتابع، ملقية نظرة إشرافية على محادثتها الشابة:

> أجدها فكرة جذابة نوعًا ما نظريًا. أما عمليًا فلا يمكنني التفكير في دزينة، أو حتى نصف دزينة، من الأزواج الذين أرغب في أن أكون قريبة منهم إلى تلك الدرجة. أو الذين يرغبون في أن يعيشوا بتلك الطريقة معنا...
>
> لا أحب الطريقة التي يربّون بها أولادهم. أعطي أولادي مصروف جيب أقل أو أكثر، ما قد يؤدي إلى شجارات بينهم.

أكره الطريقة التي يملؤون بها مطبخهم بروائح طبخ غريبة أو بقذارة. أو أشعر بعيونهم الخرزية على تدبيري المنزلي المتوسط نوعًا ما.

لكن الأهم من كل ذلك، هو أنني ذات نزعة تملّكية على نحو لا يد لي فيه ولا أمل، وإذا خرج زوجي مع امرأة حسناء من الجوار كلما صرخت عليه، فيمكن أن أرتكب جريمة[296].

> إن العائلة، بوصفها وحدة اجتماعية، تعني الفرد الذي تحركه غرائزه الفردانية الأكثر عدوانية؛ إنها ليست أساس المجتمع، بل نقيضه. لم ينشأ المجتمع الإنساني من مجموع المصالح الفردانية المتعارضة، وما كان له أن ينشأ منها. إنه مدين بنشوئه إلى الغرائز التي طمست الغرائز الفردانية التي تشكلت بالعواطف الملزمة للاعتماد المتبادل والولاء والتضامن والإخلاص وجماعة أكبر من العائلة الأبوية ومن طبيعتها القادرة على التوسع غير المحدود.
>
> روبرت بريفولت، *«الأمهات»*
> (Robert Briffault, 'The Mothers', 1931, p. 509).

آن آلن أشبه بربة المنزل البريطانية العادية منها بالشابة التي تحدثتُ إليها، وأكثر طبيعية بكثير من زوجات المهنة أو زوجات الشركة أو الزوجات المتبادلات. هي لا تشعر بالعار حيال طبيعة عائلتها المعادية للمجتمع، مع أنها ربما قالت أيضًا أنه لم يكن هناك زوج واحد يمكن أن تحتمله في تلك الأحياء القريبة، ولا الكثير من الأزواج الذين

296- *Sunday Mirror* (*loc. cit.*).

كان لديها أي حسّ بالحميمية معهم. إن مصطلح زوج (ثنائي) نفسه يتضمن الوحدة المغلقة المؤلفة من ذكر وأنثى: وهي، بذلك، لم تتكلم عن عائلات. هذا عمليًا ما صارت العائلة النووية إليه. تشير المجلات النسائية بحسرة إلى أن الأطفال قد يكون لهم تأثير هدّام في العلاقة الزوجية، وأن انشغال الزوجة الشابة بأطفالها واستنزافها في ذلك قد يتضارب مع حقوق زوجها عليها. أي فكرة هذه؛ عائلة يهدّدها أطفالها! لقد زاد منع الحمل من أنانية الزوجين: أمام الأطفال الذين يأتون إلى الحياة بتخطيط مسبق نمط عليهم التوافق معه؛ أما الأطفال الذين يأتون بلا تخطيط فلديهم على الأقل حسنات المصادفة. فأولًا وقبل كل شيء، هم جاؤوا إلى الحياة أحبَّ أهلهم ذلك أم لا. في الأسرة النووية المحدودة، يكون الأهل أساسيين، والأطفال ملك الأهل يعاملونهم بطريقة هادفة مستجدة لديهم. لقد ازدادت حدة الفجوة بين الأجيال في هذه العائلات حيث يجب ألا يزعج الأطفال أهلهم، وحيث يتم التخلص منهم في أماكن عيش خاصة بهم في أوقات معينة من اليوم، غرفهم الخاصة وما شابه. أي شيء أقل من ذلك هو قذارة. يجب ألا تنجب المرأة من الأطفال أكثر مما تستطيع ضبطه، والضبط يعني اهتمامًا كاملًا معظم اليوم، ثم العزل. وهكذا يجب إدخال جليسة الأطفال إلى البيت خلسة، لأن الصغير إذا اكتشف أن أبويه خارجان من البيت، فسيصرخ. أفكر في البيت القذر المؤلف من غرفتين في **كالابريا** حيث يدخل الناس ويخرجون بحرية، وحيث لم أسمع أي طفل يصرخ إلا لأنه يتألم، وحيث تغنّي العمّة البالغة اثنا عشر عامًا قرب البئر أثناء الغسيل، والأب العجوز يسير في بستان الزيتون وحفيده على ذراعه. لقد فقد الأطفال الإنكليز براءتهم، لأن دروسهم الأولى كانت في كيفية استغلال عبدهم الراشد. فالأب المعقم هو خصي في حريم أطفاله. وللتوكيد، لاحظت أن منع الحمل الكفؤ ضروري للمتعة

الجنسية، وأن المتعة الجنسية ضرورية، لكن منع الحمل لأسباب اقتصادية أمر آخر. إن الحجة القائلة «لا نستطيع أن نربّي أكثر من طفلين» هي حجة جديرة بالازدراء، لكنها مقبولة في مجتمعنا أكثر من تلك القائلة «إننا لا نحب الأطفال». الأب العقيم مقيّد إلى الأبد بما لديه من أطفال، وعدد هؤلاء ثابت، ويمكن التنبؤ به أكثر من أي وقت مضى، وهؤلاء الأطفال مقيّدون به على نحو أكثر إحكامًا. وعبارة «لا نستطيع أن نربّي أكثر من طفلين» تعني فعليًا «إننا لا نحب سوى أطفال الطبقة الوسطى النظيفين المؤدبين الذين يذهبون إلى مدارس جيدة، ويكبرون ليصبحوا مهنيين»، لأن الأطفال يفلحون في استنزاف كل رأس المال المتاح لتلك الغاية، أيًا تكن النسبة التي يمثلها من دخل الأسرة الكامل، تمامًا مثلما يتمدّد العمل المنزلي ليملأ كل الوقت المتاح. الوالد المعقم هو الحيوان المدجن النهائي. تتضمن الثقافة الذكرية نزعة قوية ضد التدجين، على الرغم من أن الرجال لا يستطيعون إلا بصعوبة أن يمرّوا بالتجربة التي دربت النساء عليها. يوجد وهم الشريك الكامل جنبًا إلى جنب مع الشعور بما تعنيه العائلة لفتى في مرحلة النمو.

> الزواج هو الشيء الوحيد الذي يخيفني حقًا. إذا وفقت بالفتاة الملائمة، فأفترض أن الأمر حسن، لكني لا أستطع أن أتخيّل نفسي صاحب بيت وزوجة. أحب الشعور بأنني حرّ، أن أذهب حيث أشاء، وألا أضطر للقلق. هذا أحد الأمور الجيدة في ألا يكون لك صديقة، لأنك تكون حرًا في أن تخرج وترفّه عن نفسك مع الأصدقاء. أما وجود صديقة فيقيّدك.
>
> كلما خرجتَ مع فتاة أكثر، تورطّت أكثر. أنا أخاف من الخطوبة. إذ من شأنها أن تقضي علي، لأنني لن أفسخ خطوبتي قط، فهذا ليس عادلًا للفتاة. الكثير من المراهقين يسارعون للزواج...
>
> في المرة القادمة التي أقيم فيها علاقة مستمرة مع فتاة، سأوضح

منذ البداية أنني أريد قضاء ليلة كل أسبوع مع الأصدقاء بحرية. عندما تخسر كل أصدقائك، تكون قد علقت بالفتاة، وبلعت الطعم[297].

بلعت الطعم، علقت، انتهى أمرك! تورّطت تعني تشربكت وأصبحت مقيّدًا.

يحصل معظم الرجال على أفضل عمل يستطيعون الحصول عليه، العمل من أجل الترقية، وعندما يصلون إلى مرحلة يكسبون فيها ما يكفي من المال، يلتقون بفتاة، ويتزوجونها. ثم يجب عليك أن تشتري بيتًا وسيارة، وهكذا تقيّدك السلاسل بقية عمرك. وعندما تصل إلى الخامسة والثلاثين تشعر بالخوف من تجربة أي شيء جديد إذا كنت ستخسر أمانك. ومن ثم فإنه يعني أن تعيش متأسّفًا على أشياء أردت أن تفعلها[298].

لقد كشفت رؤية هؤلاء الشباب الخالية من الأوهام عن وظيفة وحدة العائلة الأبوية في المجتمع الرأسمالي. فهي تجمّد العامل، وتبقيه عرضة للخطر، ليبقى معذّبًا برؤية الطمأنينة أمام ناظريه دون أن يحققها. وهي تحكم عليه بنمط مضبوط من الاستهلاك الذي يلتزم به التزامًا شاملًا. والتزامه نحو عائلته الصغيرة ورب عمله، وليس نحو مجتمعه. وحسب معلوماتي، لم يُحلّل تأثير ضغط الزوجات في المضربين عن العمل حتى الآن. إذ غالبًا ما تكون المسؤولية عن العائلة هي ما تجعل المضرب عن العمل يقوم بفعل متطرف: إذا استطاع أرباب العمل أن يصمدوا زمنًا أطول، فذاك الضغط ذاته هو ما يعيده إلى العمل. لا تثق الزوجات بوقت فراغ أزواجهن؛ وكثيرًا ما تفضّل الزوجة أن يكسب زوجها أقل على أن يتسكّع في الشوارع مع أصدقائه، ويتورّط في المشكلات. جاء أحد أكثر الانتقادات الموجهة إلى العائلة

297- Charles Hamblett and Jane Deverson, *Generation X* (London, 1964), p. 43.

298- *Ibid.*, pp. 48—9.

في المجتمع الصناعي إثارة للحزن من مشهد زوجات عمال المناجم الذين طُردوا من عملهم نتيجة إغلاق المناجم، حيث رفضن الحلّ القاضي بدفع أجورهم دون أن يعملوا، لأن أزواجهم سيحومون حول البيت طوال اليوم دون القيام بأي شيء، أو سيتسبّبون في إزعاجات مع أصدقائهم. وتؤدّي فتيات كثيرات وظائفهن المعادية للمجتمع في مرحلة مبكرة جدًا، فيقيّدن بحدة مرافقة أصدقائهن لأقرانهم مقابل التفضّل عليهم ببعض المسرّات الجنسية. ليس هذا كله ذنب أنانية النساء، لأن المجموعات الذكرية التي تهددها لا تقبل بها إلا في ظروف خاصة وبصفة خاصة. فهي لا تستطيع أن تلعب لعبة رمي السهام، ولا أن تشرب البيرة، ولا أن تركل كرة القدم. إن ارتيابها بهذه الأعمال لا يأتي من أن الرجل قد يعاشر نساء أخريات في صحبة أقرانه، بل من معرفة أنه يستمتع بتلك الأعمال، ويعتمد عليها على نحو لا تكون متعته معها ولا اعتماده عليها. هي لا تغار من مسراته الجنسية، بل من تحيّز ولعه الجنسي والمتعة الأكبر التي قد يحصل عليها من «الوجود» مع الرجال. يجب أن تعيش كل زوجة عارفةً أن ليس لديها شيء آخر سوى البيت والعائلة، في حين بيتها هو القاعدة التي يمكن أن ينسحب إليها محاربها ـ الصياد المتعب، ويعبّر بأسوأ أساليبه وبأقل أحاديثه تسلية، فيما هو يلعق جراحه، ويستعد بالغسيل والحمام وزوّادة الطعام لغارة أخرى.

من الواضح أنه لا يمكن لأي امرأة تفكّر بأبسط شروط تحرير نفسها لتستمتع بالحياة، وتبدع تعبيرًا عن إمكانياتها، أن تقبل بمثل هذا الدور. ومع ذلك، فالزواج يقوم على هذه العلاقة البَنَوية لزوجة تحمل اسم زوجها، وتفصح عن دخلها في بيانه الضريبي، وتعيش في بيت تعود ملكيته له، وتتجول في الأماكن العامة بوصفها شريكته مرتديةً خاتمه في إصبعها في كل الأوقات.

> ... توقيع عقد الزواج هو أهم صفقة تجارية تشتركين بها يومًا... ولا بدّ أن يعمل أحد الزوجين بوصفه المدير المطلق للأسرة؛ والأفضل أن يكون الزوج، مع أن مؤهّله الوحيد لهذا الموقع أحيانًا هو القوة البهيمية... والأطفال، عندما يأتون، هم الاستثمارات الجديدة التي تقوم بها الشركة؛ ويجب أن ينظر المديرون إلى الأمر على أساس وجود عائد جيد على الأصول المستثمرة.
>
> **سايروس فولرتون، «*السعادة والصحة في الأنوثة*»**
> (Cyrus Fullerton, 'Happiness and Health in Womanhood', 1937, pp. 40–41).

ليس التبديل في التفصيل تبديلًا في أي شيء آخر. فالزوج الذي يوافق على أن يلبس خاتمًا، وعلى أن يكون حسابهما المصرفي مشتركًا، وعلى أن يكون البيت مسجلًا باسميهما معًا، لا يقدّم أي امتيازات جدية لاحتياجات زوجته الشخصية. فالطبيعة الأساسية للمؤسسة تفرض نفسها في النهاية. والحقيقة القائلة إن هذه الامتيازات هي امتيازات لا تستطيع المرأة أن تطالب بها لنفسها تتضمن نتائجها الخاصة التي تقتضي منها عرفانًا بالجميل وعبودية طوعية. ومع ذلك، إذا كانت المرأة ستنجب أطفالًا، وإذا كانت البشرية ستستمر، فأي بديل قد يكون هناك؟

وحتى نبدأ، إن مسألة استمرار البشرية ليست مسألة إنجاب أجيال مستقبلية، بل مسألة الحدّ منها. والخطر الفوري الذي يتهدّد البشرية هو خطر الفناء الشامل في غضون جيل أو جيلين، وليس إخفاق الجنس البشري في التناسل. لم تعد المرأة الباحثة عن أنماط بديلة من الحياة

ملزمة أخلاقيًا بأن تدفع دينها للطبيعة. وتلك العائلات التي يستبدل الأبوان فيها نفسيهما بولدين ليست أفضل العائلات لنمو الأطفال، لأن العُصابات الناتجة عن وضع أوديبي مكثف أسوأ في الحالات التي تكون العلاقة مع الأهل مسيطرة أكثر من مشكلات التكيّف مع مجموعة نظيرة من الأخوة والأخوات. ليس هناك أي سبب لأن تعتبر جميع النساء أنفسهن ملزمات بالإنجاب سوى التحامل الأخلاقي على النساء اللواتي ليس لديهن أطفال بأنهن يتهربن من المسؤولية. فالمرأة التي تنجب ولدًا ليست ملزمة تلقائيًا بتربيته. ذلك أن معظم المجتمعات تؤيّد تفويض المربيات بتربية أطفال النساء اللواتي لديهن واجبات حكومية. وعادة تسليم الأطفال للمربيات لم تؤدِّ إلى سلالة من المضطربين عقليًا. إذ أن الطفل يجب أن يحظى بالعناية والاهتمام، لكن ليس من الضرورة أن تأتي تلك العناية وذلك الاهتمام من شخص واحد حاضر دائمًا. بل إن الأطفال أكثر عرضة للتشوّش نتيجة تغيير المكان من تعرّضهم له نتيجة تغيير الأشخاص المحيطين بهم، وأكثر عرضة للكرب نتيجة الخلاف أو المشاعر السيئة بين البالغين في بيئتهم من تعرّضهم له نتيجة عدم ألفتهم بالأشخاص. يمكن تهذيب مجموعة من الأطفال على يد امرأة أو اثنتين يقمن طوعيًا بالعمل بنجاح أكبر من اضطهادهم على يد امرأة واحدة تجد نفسها ضجرة منهم ومفروضة عليهم. ليس البديل مأسسة الوظائف الأبوية في صيغة بيروقراطية ما، وليس شيئًا باردًا واتفاقيًا مثل مزرعة أطفال، بل البديل عائلة عضوية يستطيع مجتمع الأطفال فيها أن يندمج مع مجتمع البالغين في شروط من الحب والاهتمام الشخصي. العائلة التي نفهمها على أنها طريقة مختارة من الحياة يمكن أن تصبح هدفًا في ذاتها وإنجازًا من نوع إبداعي، لا على أنها شرطًا ضروريًا للوجود في نظام ما.

إذا تمكّنت النساء من النظر إلى إنجاب الأولاد على أنه امتياز

يجب العمل من أجله، لا على أنه واجب أو قدر لا مفر منه، وإذا تغيّرت الطريقة التي قد يعمل بها الرجل من أجل الحق في أن تكون له عائلة، فقد ينمو الأطفال دون عبء الامتنان على منحهم حياة لم يطلبوها قط. تمتنع نساء لامعات عن الإنجاب لأن الإنجاب نفسه اعتبر عملًا يتطلب التفرغ التام؛ وربما كان الظن أنهن عاقرات وراثيًا. قد تكون النساء اللامعات، في وضع تستطيع المرأة فيه أن تسهم بطفل لأسرة تستحوذ على اهتمامها في جزء من الوقت، وتترك لها حرية التردّد على مجالات أخرى، أكثر ميلًا إلى الإنجاب. لقد فكّرت مليًا لبعض الوقت في مسألة إنجاب طفل لا يعاني من عصاباتي وفي الصعوبات التي سأواجهها في التكيّف مع زوج ومطالب الحياة العائلية. وهكذا، تطوّرت لديّ خطة، لم تكن بأي شكل من الأشكال مخطط عمل، وأصبحت نوعًا من الحلم. يجب ألا ينمو أي طفل، كما فكّرت، في الجو الحصري الذي تفرضه شقة في مدينة، حيث فرصته في أن يمرّن أعضاء جسمه ورئتيه قليلة؛ لكني، في الوقت ذاته، يجب أن أعمل في المدينة حيث تتوافر المواد اللازمة لعملي وسوقها. يجب ألا ينمو أي طفل وحيدًا مع فتاة مستاءة عزباء تكافح لتعمل بجد لتعيل نفسها وتعيله. أعدت التفكير بالأطفال الذين عرفتهم في **كالابريا**، وفكرت في خطة لشراء بيت ريفي في إيطاليا، بمساعدة بعض الصديقات اللواتي يعانين من مشكلات مشابهة، حيث نستطيع البقاء هناك عندما تسمح الظروف، وحيث يمكن أن يولد أطفالنا. ويمكن لآبائهم ولأشخاص آخرين أن يزوروا البيت أيضًا كلما سنحت لهم الفرصة، ليستريحوا، ويستمتعوا بوجود الأولاد، ويعملوا قليلًا أيضًا. ربما يستطيع بعضنا أن يعيش هناك فترات طويلة نوعًا ما، طويلة قدر ما نريد. ويمكن أن تهتم عائلة محلية بالبيت والحديقة، وتعيش في البيت. ويكون للأطفال منطقة للاستكشاف والإشراف عليها، ويمكن أن يتعلموا مهارات مختلفة منا جميعًا. لن يكون

فردوسًا، لكنه سيشكّل مجتمعًا صغيرًا يحظى بفرصة للبقاء، وبعدد من الآباء والأمهات وعدد وافر من الأدوار ليختاروا من بينها. ومن الممكن تفادي الجانب الأسوأ من الحياة الجماعية (في كيبوتز)، خصوصًا لأن الأطفال لن يلزموا بالامتناع الصارم عن التجريب الجنسي مع نظرائهم، وهو تقييد غير طبيعي كانت له عواقب خطيرة على أطفال تلك الجماعيات. أن أكون قادرة على الوجود مع ابني وأصدقائه فذلك امتياز وبهجة يمكن أن أسعى إليهما. وإذا كان ضروريًا فليس الطفل مضطرًا حتى لأن يعرف أنني أمّه بالرحم، ويمكن أن أقيم علاقات مع الأطفال الآخرين أيضًا. وإذا ما عبّر ابني عن رغبته في أن يجرّب لندن ونيويورك أو أن يذهب إلى مدرسة رسمية في مكان ما، فيمكن تجريب ذلك أيضًا دون التزام.

سيعاني أي ترتيب جديد يمكن لامرأة أن تبتكره من سيئة أنه غريب: فالأطفال لن يُنشؤوا مثل بقية الأطفال في عصر يقوم على التماثل. هناك مشكلات الشرعية والجنسية التي يجب مواجهتها. لقد خلق مجتمعنا أسطورة البيت المفكّك الذي يعتبر مصدر الكثير من الأمراض، ومع ذلك فالبيت غير المفكّك، الذي كان يجب أن يتفكّك، هو مصدر توتّر أكبر، كما يمكنني أن أشهد من التجربة المُرّة. كان من شأن البنية العضوية المشتتة لأسرتي البديلة أن تتمتع بحسنة أن تكون بيتًا غير قابل للتفكّك من حيث أنها لم تقم على الأكتاف الواهنة لفردين مرتبكين يحاولان أن يطبّقا خطة متناقضة. من شأن هذا المجتمع الصغير أن يمنح حالته الطبيعية الخاصة، ويمكن تشجيع الاتصالات الأخرى مع الحضارة، ولكن قد يحدث أيضًا أن يجد هؤلاء الأبناء من المستحيل عليهم أن يندمجوا مع المجتمع وأن يصبحوا أشخاصًا غير تقليديين أو فصاميين. وهكذا لن يكونوا مختلفين جدًا عن الأطفال الآخرين الذين عرفتهم. إن فكرة الاندماج مع المجتمع،

وكأن المجتمع متجانس على نحو ما هي ذاتها فكرة زائفة. هناك ما يكفي من الأشخاص غير التقليديين الذين يرسمون أساليب حياة مختلفة لأطفالي حتى يشعروا أنهم ليسوا أكثر عزلة من أي أقلية أخرى ضمن الأغلبية المفترضة. في عصر الحاسب، قد يبدو التفكك أعلى قيمة من الاندماج.

> من وجهة نظر بيولوجية، أن يعيش الذكر والأنثى معًا على نحو مستمر هو وضع غير طبيعي جدًا.
>
> روبرت بريفورت، *«الخطيئة والجنس»*
> (Robert Briffault, 'Sin and Sex', 1931, p. 140).

قد يجادل بعض الساخرين بأن أطفال أسرتي سيكونون توّاقين إلى إنشاء عائلات «طبيعية» على أساس أن ذلك جزء من ردة الفعل المضادة الطبيعية. ربما. عندما أواجه بمثل تلك الاحتمالات الشكاكة، لا يكون لديّ سوى التجريبية ردًا. لم يكن باستطاعتي، ماديًا، أن أنجب طفلًا بأي طريقة أخرى، إلا بالصدفة وضد رغبتي، وهي حالة ما كان لي أن أقبل فيها أي مسؤولية عن العواقب. أتمنى أن أكون قادرة على الظن بأني قد فعلت أفضل ما لدي.

إن الغاية من الأسرة العضوية هي تحرير الأبناء من سيئات أن يكونوا استطالات لأهلهم بحيث يستطيعون أن ينتموا مبدئيًا لأنفسهم. قد يقبلون الخدمات التي يؤديها البالغون لهم طبيعيًا دون أن يرسوا تبعيات لهم. وربما يكون أمامهم مجال للبدء بأعمالهم الخاصة، ولأن يحددوا أسلوب تعلمهم ومداه. وربما يصلون إلى حد الاستياء من غربتهم، لكن زبما يستاؤون، في ظروف أخرى، من أن يكونوا أشخاصًا عاديين؛ يستولي الأولاد، وقد واجهتهم مشكلات التكيّف،

على أهلهم وتنشئتهم ليكونوا ملائمين كأكباش فداء. ليس أمام الأهل أي خيار سوى أن يستمتعوا بوجود أطفالهم إذا أرادوا أن يتجنبوا حلقة الاستغلال والاتهام المضاد. وإذا أرادوا أن يستمتعوا بوجودهم، فيجب أن يهيئوا وضعًا تكون تلك المتعة فيه ممكنة.

قد تبدو مؤسسة العائلات العضوية ذاتية التنظيم عودة إلى الفوضى. الفوضى الحقيقية أكثر خصبًا من فوضى الأنظمة المتضاربة الهدّامة بالتبادل. عندما تكون الوراثة قد تفسخت والبيروقراطية هي القاعدة حتى تغدو الثروات الوحيدة هي كسب السلطة والحركية، فمن السخف أن يكون على العائلة أن تستمر في النمط أبوي النسب. من السخف أن يكون على البشر أن يعيشوا بكثافة أشد من أي وقت مضى، فيما يزعمون أنهم مازالوا في كوخ تحيط به حديقة. من السخف أن يضطر البشر إلى قطع عهد على أنفسهم مدى الحياة في حين أصبح الطلاق ممكنًا دائمًا. من السخف أن تكون العائلات مضطرة للادعاء أنها سوية فيما الارتباك حول معنى الأبوّة ووظيفتها يعني أن الأطفال الذين يفصل بينهم عقد في الولادة أو ميل في المكان يمكن أن ينشؤوا على نحو مختلف تمامًا. هل نرضع رضاعة طبيعية أم لا نرضع رضاعة طبيعية؟ متى ندربهم على استخدام المرحاض وكيف؟ هل نعاقبهم، إذا كان يجب أن نعاقب؟ هل نكافئهم؟ من السخف أن يكون هذا العدد الكبير من الأطفال مضطر للعيش في بيئات يكون وجودهم نفسه غير مرغوب فيه. ومن السخف أن يكون الأطفال مضطرين إلى الخوف من البالغين من خارج العائلة المباشرة. جيل إكس[299]، فجوة الأجيال، المودز (Mods)، الروكرز (Rockers)، الهيبيّون (Hippies)،

299- (Generation X): هو جيل الأشخاص الذين ولدوا تقريبًا بين العامين 1965 و1980 في البلدان الغربية، ولاسيما في الولايات المتحدة، وغالبًا ما ينظر إليه على أنه خائب الأمل (متحرر من الوهم)، متشائم ولا مبال. [المترجم عن إنكارتا]

اليبييّون (Yippies)، الرؤوس الحليقة (Skinheads)، الماويّون، فاشيّو أوروبا الشباب، متمردون بلا قضية، أي أسماء راعية يستطيع جيل أهلهم أن يجدها لهم، والشباب يتّهمون كبارهم بفرضية زائفة عن السلطة حتى يخفوا تشوشهم. النزعة إلى تخريب الممتلكات العامة والجزمات ذات الرؤوس الحديدية والمخدرات وأعمال الشغب المتعلقة بكرة القدم، كلّها أعمال فوضى، لكنّ محاولات السلطة المؤسسة للتعامل معها أكثر فوضوية. يتحدّى الحدث الجانح النظام أو أحد الأنظمة التي يفترض أن تتعامل معه وتفشل دائمًا. الوضع الراهن فوضى متنكرة في هيئة نظام: يحتشد أبناؤنا ليعبّروا عن جماعة متناسقة بشعائر وانتظام، وهو ما يمكن أن يقود إلى عمل أحمق من سلطة الولاية. لا تتجرأ شرطة كاليفورنيا على الاصطدام مع **ملائكة الجحيم** (Hell's Angels) الذين يستهزئون بقانونهم الجزائي عبر رفض القيام بالأشياء التي ربما كان أهلهم سيقومون بها لو تمتّعوا بتلك السلطة. وكان **الفهود السود** (Black Panthers) يعبّرون عن السخرية ذاتها. الأسرة مفككة أصلًا: لقد تفوقت التكنولوجيا على النزعة المحافظة. والطريقة الوحيدة التي تستطيع الدولة ـ الأب التعامل بها مع أبنائها الخارجين على السيطرة هي سحقهم وإطلاق النار عليهم في الشوارع أو إرسالهم إلى حرب ما، إلى الفوضى المطلقة.

وصف رايش (Reich) العائلة القهرية التسلطية بأنها «جزء لا يتجزأ من الدولة التسلطية والمجتمع التسلطي، وفي الوقت ذاته شرط لازم لهما»[300]. والدولة، كالعائلة، تكذّب ذاتها بتشوشها وإباحيتها على الرغم من أنها في النهاية تتدخل لتمارس سلطتها على نحو فوضوي. في إنكلترا، يُحتوى «إفراط» الشباب، ويُسمح لهم بتصريفه إلى أن يصبح من الممكن التحكم به ومعاقبته بتعقل، بحيث لا يُؤجَج القطاع

300- Wilhelm Reich, *The Sexual Revolution* (New York, 1969), p. 71.

الشاب من السكان على نحو غير ملائم. والنتيجة فوضى سياسية واجتماعية: «بريّة جنسية». إن عدم وجود شكل للأسرة التي حلمت بها، عدم وجودها قانونيًا يقيها من فوضى الولاءات المتضاربة، ومن الأنظمة التعليمية المتضاربة، ومن الأحكام المتضاربة. لن يُوجَّه طفلي مطلقًا لأن التوجيه الذي يقدّمه له المجتمع يسعى إلى توجيهه إلى الخلف وإلى الأمام وإلى الجانبين في الوقت ذاته. وإذا كان لنا أن نستعيد الصفاء والبهجة في الحياة، فيجب أن نستمع إلى ما يقوله أطفالنا لنا بطريقتهم الخاصة، لا أن نفرض عليهم صورتنا المشوهة في عائلاتنا المجنونة.

الأمان

ليس هناك شيء اسمه الأمان. ولم يكن هناك قط. ومع ذلك، فنحن نتحدث عن الأمان وكأننا مؤهلون له؛ ونفسّر العُصاب والذُهان على أنهما ناتجان عن انعدام الأمان. وعلى الرغم من أن الأمان ليس من طبيعة الأشياء، فإننا نخترع إستراتيجيات لخداع القدر ونسميها على اسم إلهها الهادي: تأمين أو ضمان أو ضمان اجتماعي. نوظّف أجهزة أمنية وندفع لحراس الأمن. ومع ذلك فنحن نعرف أن العالم يحتفظ بقوى كارثية لا يمكن توقعها ولا يمكن تعويض أضرارها. نحن نعرف أن أنظمة الراتب التقاعدي والمعاش ليست دليلًا ضد تذبذب العملة الحديثة. نحن نعرف أن المال لا يمكن أن يعوّض عن خسارة ساق أو عمر من الصداع أو الجمال المجروح، لكننا نرتّب أمورنا على هذا النحو تمامًا. إننا ندرك على نحو مبهم أن بقاءنا تحت رحمة القدر يزداد كلما أنشأنا المزيد من الدفاعات في وجه المجهول. النقود في المصرف وبيتنا الخاص والاستثمارات هي كلها امتدادات للمساحات التي يمكن أن نتضرر منها. كلما زاد الراتب التقاعدي الذي يراكمه المرء، صار مهدّدًا أكثر بخسارته. كلما تعهدت الدولة أكثر بحماية الإنسان من المرض والفقر، زاد حقها في التضحية به من أجل الخير العام، وبتدمير بيته وقتل حيواناته، وبوضع أطفاله في المستشفى أو

أخذهم إلى بيوت مقبولة؛ كلما زاد عدد الاستمارات الحكومية التي يظهر اسمه عليها، زاد عدد الفرص في أن تشوّه سمعته في الأماكن الرفيعة. خُدع جون غرينواي (John Greenaway) بأسطورة دولة الرفاه، وسمح للوهم أن يعذّبه قبل أن يبلغ الثامنة عشرة من العمر.

لا أشعر أنني آمن جدًا، وأرغب في أن أتزوج يومًا ما. أفترض أن ذلك من أجل الأمان.

يجب أن تشعر بالأمان أولًا وقبل كل شيء. إذا لم يكن لديك مال في المصرف، فلن تشعر قط بأنك متحرر من الهم...

ليست المسألة أنني أعاني كثيرًا من غياب الأمان في البيت، بالعكس، لدي بيت جيد. أنا ببساطة لا أستطيع الشعور بالأمان نتيجة حالة العالم...

أعتقد أنني إذا كنت محظوظًا بما يكفي لأجد عملًا مضمونًا يعود عليّ بدخل جيد فعلًا، فسأصير مثل البقية. إذ من المدهش ما يستطيع قليل من المال في المصرف وبيت لطيف أن يفعلاه لك. فعندها تبدأ التفكير بشراء سيارة والمحافظة على حديقة بيتك مرتبة وبتأمين على الحياة وبجهازي تلفاز، ولا يبقى لديك وقت للانشغال بالقضايا الكبيرة، كعدد الناس الذين يعانون من الجوع في أفريقيا.

يمكن أن يكون الأمان قاتلًا، ويفسد عقلك وروحك. لكن أتمنى لو كان متوافرًا لي[301].

ربما يكون المكان الوحيد الذي يستطيع المرء أن يشعر فيه بالأمان هو سجن ذو إجراءات أمنية مشدّدة، اللهم باستثناء التهديد الوشيك بإخلاء السبيل. لا بدّ أن تكون مشكلة النزعة النكوصية قد بيّنت للشباب، مثل جون غرينواي، أي فكرة عن الأمان هي تلك الفكرة، لكن ليس هناك أي مؤشر على أنه سيفهمها. فالأمان هو عندما يكون

301- Hamblett and Deverson (*op. cit.*), pp. 41, 111.

كل شيء مستقرًا، عندما لا يكون من الممكن أن يحدث لك أي شيء؛ الأمان هو إنكار الحياة. البشر مجهّزون على نحو أفضل للتعامل مع الكارثة والصعوبة أكثر مما هم مجهزون للتعامل مع أمان لا يتغيّر، ولكن طالما أن الأمان هو القيمة الأعلى في مجتمع ما، فليس أمامهم سوى فرصة قليلة لتقرير ذلك بأنفسهم. من المتفق عليه أن الإنكليز واجهوا الحرب على نحو رائع، وكانوا أكثر بهجة وإقدامًا وودًا تحت التهديد اليومي بالقصف مما هم عليه اليوم في زمن السلم الحميد، حيث ننأى بأنفسنا عن القلق حيال هذا العدد الكبير من الناس الذين يكابدون الجوع في أفريقيا كي نستطيع احتمال السياسة البريطانية في نيجيريا. لم يدرك جون غرينواي أن معقله الآمن ينطوي على فرص جديدة للتهديد. أطلق الإليزابيتيون على هذه الظاهرة اسم القدرة على التغيّر (mutability)، وتحسّروا على انقضاء كل ما كان عادلًا ومعمرًا بنوع من التيه السوداوي، وهم يرون في رقصة العناصر الهرقلية غاية سماوية وتقدّمًا نحو الخلود الأفلاطوني في عالم مثالي من الأفكار[302]. لا يستطيع غرينواي أن يصل إلى هذا النوع من التجرّد الفلسفي؛ كما لا يستطيع أن يتبنّى قدرية الفلاح الذي يهزأ به دائمًا تقلب الفصول. هو يؤمن بوجود شيء اسمه الأمان: أن رب عمل ما قد يدفع له أقل، لكنه يضمن له التعيين في وظيفة مضمونة، وأنه قد يسمح له بأن يعيش ويموت في البيت ذاته إذا ما دفع مقابل ذلك، وأنه يستطيع أن يلتزم بزوجة وعائلة ضمانًا ضد الهجر والوحشة.

أغرب شيء في وهم الأمان في القرن العشرين هو أنه قد تشكّل في عصر اتصف بأكبر تهديد. فلم يحلم أحد قط، قبل العصر الذري،

302- *E.g.* Edmund Spenser, *Two Cantos of Mutabilitye* published in 1609 'parcell of some following Booke of the Faeire Queene' which was never completed.

بكارثة وشيكة الحدوث إلى هذا الحد وعصية على السيطرة على شكل حرب شاملة. يبدو كما لو أن على البشر أن يتخلّصوا من تهديد ما ليحلّ آخر محلّه. يصبح المرض أعقد؛ واحتمالات العدوان والتدمير تتجاوز أشد أحلام البابا غريغوري (Pope Gregory) جموحًا. تحرّم اتفاقية دولية استخدام الغاز السام، فلا بدّ، إذاً، من تطوير الحرب الجرثومية. وهكذا دواليك. يمثل انعدام الأمان في الحياة البشرية عاملًا ثابتًا، وأفترض أن الجهود لإزالته ثابتة أيضًا.

يخلط غرينواي أمن الحياة والممتلكات بالأمان العاطفي، ومن الصعب تبيّن كيف كان يستطيع أن يفعل غير ذلك. إن جزءًا من الغموض في استخدامنا للفكرة هو الإيحاء باللوم في لقب «غير آمن» عندما يطبّق على الشخصية. علاوة على ذلك، يُفترض أن النساء يحتجن خصوصًا إلى الشعور بالأمان، وإعادة توكيد الحب والدعم بوسائل الراحة البيتية. يُنظر إلى النساء اللواتي يرفضن الزواج على أنهنّ يتحدّين عدم الأمان، ويواجهن شيخوخة موحشة وفقرًا وانحطاطًا مرجّحين. لكنّ الأزواج يموتون، والمعاشات غير كافية، والأولاد يكبرون، ويذهبون بعيدًا، وتصبح الأمهات حموات. عمل النساء، متزوجات كنّ أم غير متزوجات، وضيع وقليل الأجر. حقّ النساء في الملكية مقلص، ومقلص أكثر إذا كنّ متزوجات. كيف يمكن للزواج أن يحقّق الأمان؟ على أي حال، الزوج ملكية يمكن أن تضيع أو تسرق، والزوجة المهجورة في عمر لا يزيد على الثلاثين إلا قليلًا، وعندها طفلان، أكثر وحشة بكثير وأقل أمانًا في مسؤوليتها من المرأة غير المتزوجة، سواء كان لديها أطفال أم لم يكن. تزيد القوانين التي تجعل الطلاق أسهل من انعدام أمان الزوجة. إن الهزء بانعدام الأمان العاطفي هو انتقاد لرفض المرأة أن تخدع نفسها بأنها لا تستطيع تحمّل الهجر؛ إنه لمن الصعب فعلًا أن تعتمد على علاقة غير مؤكدة، علاقة من شأنها أن تصبح

أوهى إذا ما أُخضعت لاختبارات إعادة توكيدها. يعد قدّاس الزواج المرأة بالأمان: فالزواج للمتدينين رمز سرّي مقدّس، والأمان أمان في السماء حيث يمكن أن يتّحد الزوج والزوجة؛ أما بالنسبة للنساء اللواتي يفهمنه نوعًا من عقد مدى الحياة لإدارة الذات من طرف رجل واحد، فهو وثيقة غير مُرضية بوضوح. إذ يجب أن تكتب الضمانات والتعويضات في مستهل العقد كما هي في عقود الإدارة، ثم سيكون له على الأقل قيمة الوثيقة التجارية. ليس للرمز السري المقدس في عصر إلحادي أي قيمة إطلاقًا. وسيكون من الأفضل لكل الأطراف المعنية لو كانت الطبيعة التعاقدية أوضح[303].

حتى لو قام الزواج على عقد ينص على ضمانات وتعويضات، فإنه لن يؤمّن الأمان العاطفي. وستكون قيمته في أنه لم يُنصّ عليه، بحيث أن النساء لن يشجّعن على الاستناد كليةً إلى وضع لا يتمتع باستمرارية حقيقية. فربة البيت عاملة بلا أجر في بيت زوجها مقابل الأمان الذي تتمتع به بوصفها عاملة دائمة: وبرهانها هو برهان الخلف (reductio ad absurdum) لحالة الموظف الذي يقبل أجرًا أقل مقابل استمرار تشغيله. لكن الموظفين الذي يحصلون على أجر أقل هم الذين يمكن التخلي عنهم بسهولة وهو ما يحدث فعلًا، وهكذا هي الحال مع الزوجات. ليس لديهن مدّخرات ولا مهارات يمكن أن يساومن عليها في مكان آخر، ويجب أن يحملن وصمة طردهن من العمل. البديل الوحيد أمام العامل والزوجة هو أن يرفضا التفكير في طعم الأمان وأن يساوما صراحة. وحتى تقوم المرأة بذلك يجب أن تتمتع بنوع مختلف من الأمان، ذلك الأمان الشخصي الذي يمكّنها من اعتبار عدم أمانها حرية لها.

303- أظن أن عقدًا يوقّع بين رجل وامرأة حول شروط التعايش بينهما سيعتبر بموجب القانون عقدًا لغاية غير أخلاقية، ومن ثمّ لن يكون ملزمًا بموجب القانون (!)

يُطلب من النساء أن يمارسن فضيلة الأمان الشخصي حتى ولو كنّ لا يتمتعن بها، لأنهن يفترض ألّا يشعرن بالتهديد في زواجاتهن، وألّا يتخذن تدابير لضمان مصالحهن، على الرغم من أنهن يقمن فعلًا بكل هذه الأمور. الاعتماد على الذات ضروري نظريًا ضمن الزواج بحيث لا يوجد منطقيًا أي سبب للقبول بأمان وهمي يجب التخلي عنه إذا قُدّر له أن ينتهي. الجزء الأضعف من الشخصية هو الذي يبحث عن الأمان نتيجة الخوف وعدم الكفاية والإعياء والقلق. ليست النساء مغامرات ولو بالحد الأدنى من مغامرة الرجال. تميل الزوجات إلى الحد من أعمال أزواجهن، ولاسيما إذا كانت تتضمن مخاطر، وبالتالي تصبح فرص الإنجاز والبهجة والمفاجأة محدودة.

> للزواج ـ وجود بيت وزوجة وأولاد ـ مكانة مهمة جدًا في الحياة. لن يكتمل الرجل دون هذه الأمور، لكني لا أؤمن بأن يقيّد المرء نفسه حتى يكون قد فعل شيئًا خاصًا به أولًا.
>
> يحصل معظم الرجال على أفضل عمل يستطيعون الحصول عليه، ويعملون من أجل الترقية، وعندما يصلون إلى مرحلة يكسبون فيها ما يكفي من المال، يلتقون بفتاة ويتزوجونها. ثم يجب عليك أن تشتري بيتًا وسيارة، وهكذا تقيّدك السلاسل بقية عمرك. وعندما تصل إلى الخامسة والثلاثين تشعر بالخوف من تجربة أي شيء جديد إن كنت ستخسر أمانك. وهذا يعني أنك ستعيش بعد ذلك متأسفًا على أشياء أردت أن تفعلها[304].

هكذا رأى **مايك راسل**، المراسل في وكالة **أنباء إدنبرة المسائية**، والبالغ 21 عامًا من العمر، الزواج والأمان في عام 1964. كان ما حدّده هو وظيفة الزوجة المتمثلة بتثبيت زوجها في مكانه في الآلة التجارية. تبرّر دولة الرفاه وجودها بوعد الأمان، وتجبر العامل على التأمين ضد

304- Hamblett and Deverson (*op. cit.*), pp. 48—9.

قلقه هو وضد أي حادث قد يصيبه وذلك باقتطاع أقساط من أجوره من أجل شيخوخته ومرضه، وفي الوقت ذاته باستخدامها بعضًا من دخله لتستمر بتطوير أكبر تهديدات لاستمرار وجوده باسم الدفاع. المرأة شريك في هذا القمع. تدعم مطالب البيت والرهن ودفعات الإيجار أو الشراء تلك النزعات المجمّدة في عمله والتي تعمل ضد رغباته في السيطرة على عمله وضد أي اهتمام بفعل مباشر. إذا ما حافظ الرجل المتزوج على المستوى الصحيح من التعويض، وإذا ما كانت شذوذات وضعه غير ظاهرة جدًا، فإنه عامل طيّع ويمكن الاعتماد عليه. يمكن من خلال التلاعب بمخاوف عدم الأمان الناجمة عن المهاجرين والاستياء من تجميدات الأجور وصفقات الإنتاجية، لمحافظ ماكر أن يحوّل الطبقة العاملة إلى أردأ أنواع المحافظين.

> الحب بطبيعته الخاصة زائل. وسيكون البحث عن سرّ يجعله دائمًا غريبًا غرابة البحث عن حجر الفلاسفة أو الدواء الشامل: وسيكون اكتشافه عديم الجدوى على حد سواء أو بالأحرى مدمرًا للجنس البشري. أقدس رباط في المجتمع هو الصداقة.
>
> **ماري وولستونكرافت، «*دفاع عن حقوق النساء*»، ص56-57**

إذا كانت النساء سيرفضن أدوارهن في هذا النموذج، ويأخذن عدم الأمان على أنه حرية، فلن يكنّ في وضع أسوأ من ذلك بكثير. أما الساخرون فيعتقدون أن الأزواج غير المتزوجين هم غالبًا أفضل اقتصاديًا في المعاملات الضريبية وما شابه من الأزواج المتزوجين. أما روحيًا فالأفضل للمرأة ألّا تؤخذ على أنها أمر مسلم به. من الواضح

أن العلاقات غير الرسمية يمكن أن تكون ملزمة أكثر من العلاقات الرسمية إذا تطورت أنماط الاستغلال المتبادل، وهي عادة تتطور، لكن إذا كانت النساء يستطعن أن يحتفظن بصحبة عفوية وكأنها مثالية، فيمكن تخفيف الآثار المفسدة للتعايش. يمكن أن تبقى الحالة مفتوحة وقادرة على التطور نحو ميادين أغنى. كما أن الزنا لا يتضمن أي تهديد إذا كانت النساء واثقات من أن العلاقات التي استمتعن بها مُرضية فعلًا، وليست مصانة فحسب برقابة الاحتمالات الأخرى. ليست أي وحدة أكثر وحشية من تلك التي يشعر المرء بها وهو قريب جدًا من شخص لم يعد يتواصل معه. فكثير من ربات البيوت اللواتي يحدّقن في خلفية الصحيفة التي يقرؤها الزوج، أو يستمعن إلى صوت تنفّسه في السرير، هنّ أكثر وحدة من أي عانس في غرفة مستأجرة. إن الشعور بالوحدة الذي يعاني منه الأشخاص المتوحدون ينشأ، في جانب كبير منه، من الارتياب والأنانية، وليس من فشلهم في الدخول في ترتيب زواجي. تقدّم صفقة الزواج ما لا يمكن تقديمه إذا ظننّا أنها تقدم الأمان العاطفي، لأن ذلك الأمان إنجاز فردي.

يحطّم الحب التملكي التوازن العاطفي نتيجة ما ينطوي عليه من إغواء، ويترك ضحاياه عرضة للخطر مرة أخرى. في كل يوم، ترتكب النساء البائسات الخطأ الأوّلي المتمثل بالتضحية بمسؤوليتهن عن أنفسهن، لكنهن يلقين باللوم على الرجال لأنهم تركوهن لبؤسهن وعزلتهن. ومع ذلك، ما كنّ ليصبحن أسعد لو بقين متزوجات. عندما يتودّد رجل لامرأة، فإنه يكافح ليجعل من نفسه شخصًا لا غنى عنه، مثله في ذلك مثل أي امرأة لأي رجل: بل قد يقرّر أن يجعلها تحبل ليحطم اكتفاءها الذاتي. أما المرأة، التي تكافح لتظل شخصًا كاملًا ولتحبّ حبًا نابعًا من كمالها لا من نقصها، فقد تبدو صعبة. وربما تشعر بأن تكيّفها المبكر يشدّها نحو الاستسلام، لكن يجب أن تتذكر

أنها كانت أصلًا محبوبة لذاتها؛ يجب أن تتمسك بذاتها وألا تسمح بأن تتحوّل إلى امرأة لجوجة وعاجزة ونزقة ومغلوبة على أمرها. قد لا أكون كبيرة بما يكفي لأدلّ على أن المرأة المعتمدة على ذاتها محبوبة دائمًا، لكن لا يمكن أن تكون وحيدة طالما هناك أشخاص في العالم يحتاجون إلى فرحها وقوّتها، أما في تجربتي، فقد كان الأمر كذلك دائمًا. المحبّون الأحرار في أن يذهبوا عندما يشعرون بالقلق يعودون دائمًا؛ والمحبّون الأحرار في التغيير يبقون على جمرة الشوق متأجّجة. الحقد المرّ والقذارة اللذان يسببهما الطلاق مجهولان في الحالات التي لا يصبح فيها الأفراد توائم سيامية. المحبّ الذي يأتي إلى فراشك طوعًا يرجّح أن ينام معك وذراعاه تحيطان بك طوال الليل، أكثر مما يرجّح أن يفعل ذلك عاشقٌ ليس لديه مكان آخر يبيت به.

الكراهية

الاشمئزاز والقرف

ليس لدى النساء سوى فكرة ضئيلة عن مدى كره الرجال لهن. يستطيع أي فتى شبّ عن الطوق في بلدة صناعية إنكليزية أن يصف مدى تعوّد الفتيان على الذهاب إلى قاعات الرقص المحلية والتسكع طوال الليل إلى أن ينجح في «تطبيق» فتاة ما، وذلك تحت ضغط الدافع الجنسي الصرف. لكن، كلما كانت الفتاة أسهل منالاً، كان اشمئزازه منها أعلى، ذلك أنه يحمّلها مسؤولية الإحساس بالذنب الذي خلّفه لديه ذلك التفريغ الرخيص لطاقته الجنسية. فيقول بمرارة: «كان مشوار إلى موقف الباص كافيًا لجعلها تداعب قضيبي». أما الفتاة فتفعل ذلك بلا عواطف وبإذعان وعجز، على أمل أن تولّد الراحة التي تتخيّل أنها تمنحنها له شيئًا من الحب والعاطفة التي تحميها. أما إذا كانت الفتاة أكثر تهوّرًا، فسيقضي الشاب وطره منها وهي مستندة إلى جدار، أو مستلقية على معطف جلدي ملقى على الأرض في أحد مواقف الدراجات في وولوورث. لكنّ قضاء الرغبة على هذا النحو البارد لا يحقق الكثير من الإشباع العاطفي. «كانت مداعبة القضيب في تلك الأيام كافية كما لو أنها مضاجعة»، لكنّ الشاب بعدها يصبح فظًا، ويستعجل الفتاة إلى موقف الباص متلذذًا فقط بمشهد إخبار الآخرين عن غزوته. وكان، في اللحظات التي تلي القذف مباشرة، يشعر

بتقزّز قاتل. «لأني عندما انتهيت منها، انتهيت وكفى. لكنني أردت أن أخنقها هنالك في سريري، وأن أذهب من ثم إلى النوم»[305]. جميعهم مفلسون، يعيشون في البيت مع أهلهم؛ وحتى لو أقاموا علاقة ثابتة مع فتاة واحدة، فإنهم يتبرمون منها دائمًا مثلما يتبرمون من أي عمل روتيني قاتل، ويقضون الوقت في تذمّر وشجار. لكنهم، بطريقة جذلة وعرضية، يجدون التحرّر في العراك مع أي عصابة أخرى من الفتيان الذين يبدون مناسبين للشجار. ويستخدمون الخديعة في عراكهم، إذ ينقضّون على أعداء غير متأهبين، ويضربونهم بوحشية على وجوههم أو رقابهم، ويفرّون قبل أن يتمكن أولئك من الردّ بالمثل، وقد أخرسهم الهجوم الوحشي المباغت.

كانت النساء الوحيدات المثيرات لاهتمام هؤلاء الفتيان العنيفين هنّ النساء المتاحات، ولم تكن الفتيات غير المتاحات يحظين بتقدير كبير في نظرهم، لأنهم يعتقدون أنهن يستبعدنهم رغبة في الحصول على شروط أفضل في صفقة يقمن بها، وهذه الفئة هي فئة العاهرات، أما الفئة الأخرى فهي فئة الخبيثات. والرجل محكوم بأن ينتهي أمره مع واحدة من هذه الفئة أو تلك. وهو ينظر إلى الزواج بنوع من الشؤم، فعاجلًا أم آجلًا ستجد نفسك مربوطًا إلى الأبد بهذا النظام، تمارس عملًا لا آفاق له لتحتفظ بامرأة ذاوية وأولادها الصاخبين في مسكن غير ملائم في بلدة موحشة طوال حياتك الطبيعية. وسرعان ما تنحطّ قدرتك على العراك، ويكون المهرب الوحيد أمامك سريع الزوال، ساعة أو ساعتين في حانة، وهذا لا يتكرّر إلا بقدر ما تسمح لك ربة البيت بالذهاب إلى هناك. وهكذا، ينظرون إلى الجنس على أنه خرابهم، عبودية حقيرة تفرضها النساء عن غير قصد.

305- Frank Reynolds as told to Michael McClure, *Freewheelin' Frank* (London, 1967), p. 86.

يحق للمرء أن يشك فيما إذا كانت الحروب بين قرود البابون وحشية ومؤذية إلى هذا الحدّ للذكور والإناث حين تكون تلك القرود حرة.

باول شيلدر، *«أهداف الإنسان ورغباته»*
(Paul Schilder, 'Goals and Desires of Man', 1942, p. 41).

افترض الرجل الذي وصف ذلك لي أن جميع الرجال يشعرون بالقرف بعد الانتهاء من ممارسة الجنس. وكان واثقًا من أن البرودة التي يظهرها الرجال بعد الجماع هي اشمئزاز فعلًا. ولم يستطع أن يتذكر أنه مارس جنسًا خاليًا من القرف إلا مع امرأة واحدة. من السهل القول إن هذه حالة استثنائية من الوسوسة، حالة ناشئة عن الخسارة التي يشعر بها الشخص لكرامته الإنسانية، وهي ناتجة عن السأم والقيود المفروضة. لكن، حين تستتبع درجة معقولة من الغنى استبعاد العناصر غير الجمالية في اللقاءات الجنسية، يمكن أن يخفّ القرف، أما مادام الجنس مختلس وقذر فلا بدّ وأن يغلّف شيءٌ من الشك العميق العلاقةَ بموضوع الاهتمامات الجنسية. ويمكن أن يؤدي في الحالات المتطرفة إلى العنّة في الزواج، لأن مكانة الزوجة يجب ألا تنحط.

عندما أخبر فريويلنغ فرانك (Freewheelin' Frank) **مايكل ماك كلور** (Michael McClure) في عام 1967 أنه لم يعد يفكر في النساء بوصفهن «قذرات وبذيئات» منذ أن أخذ عقار (LSD) الذي يسبّب الهلوسة، فإنه لم يكن يقول الحقيقة كاملة. ذلك أن ثورة **ملائكة الجحيم** عكست القيم الجمالية التقليدية، بحيث فرضوا على أنفسهم

أبغض الطقوس الجنسية كاحتفال بالقرف:

> حين نتحدث عن لعق الفرج، فإننا نجعله يبدو قذرًا وبذيئًا قدر ما نستطيع، إلى حدّ يجعل أحدًا ما يتقيأ. نساء **ملائكة الجحيم** هنّ نساء شبقات مستعدات للقيام بأي شيء يتعلق بالجنس. كانت الواحدة منهن، في ذلك الوقت، وهي حائض، وفي أثناء دورتها الشهرية وتنزف فعلاً. وكان الاعتبار أنها كلما زادت قذارة، زادت مكانتها لدى عضو المجموعة الذي يلعق فرجها أمام الجميع ـ ستة أعضاء على الأقل ـ وكيف يتعامل مع الأمر، فيما الجميع يتفرّجون... أحيانًا، كان عضو يتقيأ وهو يدفع دفعًا إلى القيام بذلك[306].

بعد خروج **إلدريدج كليفر** (Eldridge Cleaver) من سجن **سان كوينتين**، أخذ يغتصب النساء «على نحو واعٍ ومتعمّد ومقصود ومنهجي».

> يتملّق كثير من البيض أنفسهم بفكرة أن شهوة الرجل الأسود ورغبته نحو فتاة الأحلام البيضاء هي انجذاب جمالي صرف، لكن لا يمكن لأي شيء أن يكون أبعد عن الحقيقة من ذلك. فدافعه غالبًا من طبيعة حقيرة وحاقدة وعنيفة وخبيثة إلى حدّ لا يمكن لأي شخص أبيض أن يجدها متملقة إلا تحت ضغط شديد[307].

إنه لوهمٌ فارغٌ أن يعتبر الاغتصاب تعبيرًا عن رغبة لا يمكن التحكم بها أو نوعًا من الاستجابة القهرية لانجذاب قهري. يمكن لأي فتاة تعرّضت للضرب والاغتصاب أن تحكي كم كان مثيرًا للسخرية أن يكون رد المعتدي عليها حين تطلب منه سببًا لاعتدائه عليها: «لأني أحبك» أو «لأنك جميلة جدًا» أو أي هراء من هذا القبيل. فالفعل اعتداء قاتل ناجم عن الاشمئزاز من الذات يمارس على الشخص الآخر المكروه.

306- *Ibid.*, pp. 55, 7, and 12—13.
307- Eldridge Cleaver, *Soul on Ice* (New York, 1968), pp. 16—17.

لا يعرف الرجال أنفسهم عمق حقدهم. هذا الحقد الذي يُتلاعب به بمقالات مثيرة في المجلات المصممة للمغفّلين الذين يعانون من مشكلات في الرجولة والتي تباع بأسعار عالية في استراحات محطات الوقود. من مثل «كيف تكتشف النساء المتلهفات للجنس» التي يكتبها **أليكس أوستن** في مجلة **ميل** (Male)، ويتابع ليصف عددًا من الطرق غير الضارة، مثل خلع فردة الحذاء، أو إظهار شهية قوية للطعام، وهو ما يدل على شهوانية مخفية لدى النساء[308].

> عندما امتصت نقي عظمي
> واستدرت نحوها بتراخ وقبلة،
> لم أجد قربي سوى
> حقيبة جلدية ينزّ منها القيح!
>
> **بودلير** (Baudelaire)

يصف **باري جاميسون** (Barry Jamieson) في مجلة **ستاغ** (Stag) التكتيكات الخفية التي يتبعها «**المخادع المستعد: أفضل أصدقاء زوجتك**»[309]. يهدف هذا النوع من المقالات إلى الدلالة على أن العالم مليء بالفاسقات المنحلّات المتخفيات خلف قناع واه، واللواتي سيرحبن بأكثر أشكال التودّد فظاظة على الرغم من إنكارهن متكلف الاحتشام. أولئك النساء متوفّرات وسهلات وعاجزات عن مقاومة الإغراء. وهنّ يستأهلن كل ما ينلنه.

308- 'Eager Females—How they reveal themselves', *Male*, Vol. 19, No.6, June 1969.

309- *Stag*, Vol. 20, No. 5, May 1969.

> إذا ما فكرنا بطبيعة الجنس العمومية وخصائصها، في جميع العصور منذ هبوط الإنسان حتى الآن، فقد ندرك جيدًا أنها لم تكن شريرة جدًّا وحسب، بل وكانت الأدوات الرئيسية والأسباب المباشرة للقتل والوثنية ولعدد كبير من الذنوب لدى الكثير من الرجال البارزين رفيعي المستوى...
>
> *تحليل موجز للنساء*
> (‘A Briefe Anatomie of Women’, 1653, p. 1)

يتصرف نوع معيّن من الرجال وفق هذا الشكل من التمييز المتخيّل، فيهمس بكلمات بذيئة للنساء المارّات في الشارع، ويضحك من خزيهن واضطرابهن، إذ يفسر ذلك على أنه دليل على إحساسهن بالذنب نتيجة الرغبات البهيمية السرّية التي عزف على أوتارها. وفي كثير من الأحيان لا تلتقط النساء الرسالة التي يغمغم بها المعابث، لكن نبرة الصوت والنظرة الخبيثة جليّتان. يرسل الرجال الذين يروزون النساء بنظرات وقحة في الباصات والأنفاق، ويخشخشون بما في جيوبهم من عملات معدنية، الإشارة المليئة بالكراهية ذاتها. أيًا يكن الوهم الذي يقنع الرجال بملاحقة نساء غافلات عنهم في شوارع المدينة المزدحمة فإنه ينبع من الافتراض نفسه عن الحرارة الحيوانية والرغبة الفطرية بالفسق، تلك الرغبة المتخفية تحت مظهرهن الخارجي المحتشم. شهوة النساء السائبات ليست متمايزة، إنها استثارة وحشية تبقى مزعجة ومقرفة بعد الحساسية الأولية التي تولّدها استجابة الذكر لمطلب الأنثى. وكذلك، تتضمن المقالات التي ذكرتها أوصافًا لمسالك النجاة من التورّط مع هذا النوع من البغايا

الشهوانيات. مهما كانت رغبة النساء في رفض هذه الصورة عن جنسهن وجنسانيتهن كبيرة، فإنه يبقى صحيحًا أن **ملائكة الجحيم** لا يشرن إلى نقص في «الماماتـ» الملائكيات اللواتي يحدث أن يحتللن فصلًا بكامله، على الرغم من أن النساء الملائكيات ذوات المكانة هنّ «السيدات المسنّات». هناك نساء يبحثن عن الفسق بالدأب نفسه الذي يسعى به الرجال إلى دفعهن إليه، على الرغم من أن دافعهن يختلف كثيرًا عن أوهام مجلتي **ميل** وستاغ، وعددهن أقل بكثير مما تفترضه تلك الأوهام. لقد عملت صورة **فريويلينغ فرانك** (Freewheelin' Frank) العامة جيدًا، حتى أنه واجه أكثر من حصته العادلة، وكانت النتيجة ما يمكن أن نتوقعه.

... ثم ضغطت ذقني على عنقها، واعتصرتها بقوة. فأصيبت بخوف شديد جعلها سعيدة. ثم أخذت أغنية «لقد ذهب الجميع إلى القمر» تتدفق من المذياع. فسألتها: «هل تعرفين أين نحن؟» فقالت:

«مارس الحب معي». فقلت لها بغضب شديد:

«يا عاهرة». وأصبحت باردًا تجاهها، واستدرت إلى الجانب الآخر، وأخذت أستمع إلى الموسيقى... كنت أحيانًا أنقلب على ظهري في الليل، فأراها مستلقية إلى يساري بعينين مفتوحتين على وسعهما كما لو أنها ميتة. وكان ذلك يساعدني على العودة إلى النوم. وكانت ترغب في العودة إلى النوم. رغبت مرة في أن تذهب في مشوار. فقلت لها: «اذهبي، وأغلقي الباب وراءك».

أنا لا أحب النساء، وأحتقرهن. لم أعد أحاول إرضاءهن. وينتابني الغضب إذا رأيتهن حولي فترة طويلة من الزمن. أشعر كما لو أني أرغب في أن أستدعيهن، وأطردهن من العمل[310].

يُنظر إلينا على أننا في مكان ما بين التبوّل والتغوّط، وبما أن

310- Reynolds (*op. cit.*).

هاتين الوظيفتين الاطراحيتين تعتبران مقززتين بطبيعتهما، فإن الوظيفة الأخرى المتمثلة بالقذف تعتبر مثلهما. ويطلق على خروج السائل المنوي غير الإرادي في أثناء النوم اسم التلوث الليلي، ذلك أن المادة نفسها لزجة ودبقة ذات لون أبيض ورائحة لاذعة، مثل شكل من المخاط أكثر إثارة للقرف، إذا كنت تعتبر المخاط مقرفًا. يجد البشر طرقًا استثنائية للهرب من تكيفهم، حتى أن المرء قد يرى سيدًا محترمًا يرتدي قبعة أسطوانية على متن القطار وهو «ينكش» أنفه بشرود، ويأكل ما يعثر عليه هناك، ولكن إذا ما نبّهناه من شروده، وانتبه إلى ما يفعل، فستكون النتيجة إحساسًا بالحرج الشديد والعار والخزي والقرف وحتى التقزز. من السهل، عندما تنتقي مسارًا عبر بريّة الأعراف الجنسية، أن تصاب بالتلوث من مستنقع القرف، ويمكن أن تتحرّر من نشاط إلزامي باعث على العار بأن تعزو كل ما فيه من عار وإلزام إلى شريكك.

لقد أغرتني المرأة، وأنا أكلت.

عندما يشعر الرجل بالعار من الاستمناء، ويسعى للتعويض عن ذلك بأن يكمن للنساء لتصريف طاقته الجنسية، فإن العار الذي يفترض أن يرافق الاستمناء يحال إلى المرأة، وهكذا، لا يختلف الأمر كثيرًا بين الحالتين إلا بأن الاحتكاك هنا يتم مع عضو أنثوي والقذف يتم داخل المهبل. ينظر الرجل إليها كما لو كانت وعاء يفرغ فيه سائله المنوي، أو كما لو كانت نوعًا من المبصقة البشرية، ثم يتحوّل عنها بقرف. طالما أن الرجل غير متصالح مع جنسانيته، وطالما يصرّ على النظر إلى المرأة بوصفها مخلوق جنسي فقط، فسيكرهها، على الأقل في جزء من الوقت. وكلما كان كره الجنس أكثر هستيرية، كان التعبير عن التقزّز أشد. ليس من الضروري أن نستشهد بالقيود القروسطية على

قبول النساء في الكنيسة والقرابين المقدّسة المطلوبة للقيام بذلك، على الرغم من أن الأمثلة ذات قيمة نابعة من أنها مدهشة ولا تصدّق. جرت في عصر النهضة محاولة ما لفهم الإحساس بالشهوة وآثارها.

إنفاق الطاقة الروحية في اليباب المخزي
هو الشهوة في تأججها، وإلى أن يتم إشباعها
يكون الإنسان كاذباً، قاتلاً، طافحاً بكل ما يستحق اللوم
متوحشاً، مبالغاً، سيئاً، قاسياً، ليس أهلاً للثقة
فور تذوق متعتها سرعان ما نلفظها
نقتنصها في حالة لا يتحكم فيها العقل، سرعان ما تنتهي
ويحل جنون الكراهة، كالسنارة في الحلق
وُضعت عمداً لتجعل طاعمها مجنوناً
مجنوناً بملاحقتها، مجنوناً بمطاردتها
متطرفاً في اقتناصها واعتناقها
فهي النعيم عند ممارستها، فإذا بَلَغَتْ ذروتها، جاء الندم العميق
لقد كانت قبل ذلك، الفرح الموعود في أعطاف الحلم
هذه الأشياء كلها يدركها العالم تماماً، ورغم ذلك لا يعرف أحد بالتحديد
كيف ينأى بنفسه عن الجنة التي تقود الناس إلى هذا الجحيم[311].

كان شكسبير على حق في المساواة بين قوة دافع الشهوة وكثافة القرف الذي يتبعها. كانت أولى ظهورات مرض الزهري في أوروبا أكثر دراماتيكية من عمليات المرض الحالية، كما ساعد الجهل بطبيعة العدوى في إضفاء صبغته على المواقف من الجنس. وليس من النادر أن نرى لدى الشعراء القروسطيين صورة عن الاستمتاع الحيواني

311- William Shakespeare, Sonnet cxxix (*Works, op. cit.*) p. 1124.
ترجمة هذا المقطع مأخوذة حرفيًا من ترجمة بدر توفيق والمنشورة في الموسوعة الشعرية للآداب العالمية. [المترجم]

الصحي مثل تباهي زوجة الحمّام (Wife of Bath) الساذج بالطريقة التي كانت تجعل أزواجها يكدحون. أصبحت المتعة نفسها، عند كثير من الإنسانيين، ملتبسة، واعتبرت مطاردة الموضوع الجنسي خادعة، حتى حين كانت السيدة تثبت أنها كيّسة، لأن المتعة لم تكن مكافئة لخيالات الدماغ الذي تثيره الشهوة. لكن كلما زاد سعي الأفلاطونية الجديدة إلى الحطّ من قدر الجنس والإحساس والمدركات الحسية، زاد ازدهار التجريبية واندفاع الرغبة الجنسية، المشوّهة أو المتسامية أو المنحرفة، في تجليات غريبة. مازالت الرغبة تعكّر نهاية قصيدة شكسبير، وضراوة تركيب الجملة ذاته دليل على قوة الشهوة المستمرة. لم يستطع أي من المرض أو المثالية أو القرف أن يحجب في النهاية طاقة الإليزابيتيين الليبيدية، والذين كانوا، في نهاية المطاف، مجبرين على التغوط على نحو شبه علني، وعلى أن يعيشوا بلا استحمام تقريبًا، وعلى أن يأكلوا طعامًا تعافه حواسّنا، بحيث ما كان لهم أن ينجحوا في البقاء لو أنهم ابتلوا بشيء من النياقة التي تميّز إنسان القرن العشرين.

بعد الجنس تكون كل الحيوانات حزينة عدا الديك والمرأة[312]. لقد طوّر الرومانسيون الفرضية التي طالما وُجدت في الكتابات الأيروتيكية والقائلة إن المتعة الجنسية الفعلية أدنى بالضرورة من خيالات الشهوة المتأججة، فجعلوا منها تصريحًا تامًا بتفوّق الألحان غير المسموعة على الألحان المسموعة. كانت قصص الغرام العظيمة هي تلك التي يضع الموت نهاية لها، أو تلك التي لم يستمتع أصحابها بها نتيجة حظر آخر. كان الانفصام بين العقل والجسد، الذي ربما تخيّلوا أنهم استمدّوه من أفلاطون، قد تكرّس فعليًا في حساسية الأوروبيين، ثم برّره ديكارت. إن الميل الرومانسي نحو البطلات المحتضرات هو في

312- باللاتينية في الأصل. وهو مثل ينسب إلى غالن (Galen) وهو طبيب يوناني من القرن الثاني قبل الميلاد. [المترجم]

حد ذاته تجلّ للقرف الجنسي وكره النساء. فتخيّلُ امرأة محتضرة يعادل قتلها، والمرأة التي يُضحّى بها على مذبح الفناء يمكن الاستمتاع بها بشعور مرعب. وكان العاشق البايروني العظيم، المكتوي بالنيران المروعة لحب محرم يوجع دماغه، ويجعّد شفته، ويغذّي اللهب الباهت في عينه، يبطل متع كل الحوادث الفعلية حالمًا بما لا يمكن أن يتحقق. ولم يكن الافتتان السرمدي بامرأة تعذّر وصالها سوى رفض في الواقع للمرأة التي أمكن وصالها. حتى صور شاعر أحدث عهدًا مثل **ديلان** (Dylan) تحتوي على نوعين من الشخصية المؤنثة: سيدة الأراضي الواطئة ذات العينين الحزينتين، الفتاة الطاهرة والحصينة من الريف الشمالي، *إلى كالوس* (to kalos)، وبقية النساء البشريات المضطربات الوضيعات. تشكّل هذه النسخة الخام من الرومانسية أساس التمييز بين نوعين من الفتيات، وهو تمييز منتشر عمومًا في مجتمعنا، ولاسيما في تلك الأحياء التي لم تنجح الأخلاق الجنسية الرائدة فيها في إخفاء القرف أو التخلص منه، بوصفه شعورًا عصابيًا غير ملائم. تعلم أي امرأة تذهب إلى السرير مع رجل للمرة الأولى أنها تخاطر بأن تُعامل باحتقار. إذ قد يتركها عشيقها المختار ويرحل، وقد يدير لها ظهره، ويغطّ في النوم، أو يتظاهر بالنوم؛ وقد يقتضب في حديثه في الصباح أو يكون جافًا، وقد لا يتّصل بها مرة أخرى. وتأمل ألا يتحدث عنها باحتقار مع أصدقائه. إن الكلمات المستخدمة لوصف النساء اللواتي لا يمانعن في مضاجعة رجال توّاقين إلى مضاجعتهن هي النعوت المحوّلة التي يُنعت بها الاشمئزاز من الجنس الذي لم ترفعه الوقاية الجمالية والخيال الرومانسي إلى مكانة رفيعة. والخروج من الحب يعني عند الكثيرين في هذا المجال خبوّ الهالة وتأكيد حقائق العلاقة الجنسية الجافة.

يدرك الرجال المثقفون أن هذا القرف هو إسقاط لشعور بالعار، فلا يتركون له أي فرصة، لكن بما أنهم قد خضعوا للتدريب ذاته على استخدام المرحاض، وخضعوا لعملية التهذيب ذاتها التي خضع لها ضحايا القرف والاحتقار الكاملون، فمازالوا يشعرون بشيء من الوخز. مازالوا يقولون «يا عرص» عندما يريدون توجيه إهانة شديدة؛ ومازالوا يجدون الشتائم التي تدخل بها كلمة «فرج» هي الأكثر إهانة مما يجود به قاموس الشتائم. وكذلك تثير كلمات مثل «لاحس الفرج» و«ابن القحبة» و«مصّاص الإير» شعورًا بالإهانة. وإجبار الرجل على أداء دور امرأة في مجامعة جنسية هو أقصى إهانة يمكن تخيّلها. ولا يفعل اكتشافه المرعوب أنه يستمتع بهذا الدور سوى زيادة الأمر سوءًا. لا توجد طريقة لتقدير مدى هذا الشعور في مجتمع متحضر مثل مجتمعنا، فالناس يميلون إلى التقليل من شأنه حفاظًا على تقديرهم لذاتهم، لكن لا يشعر أحد بالحرج من الاعتراف بالقرف المرافق لاتصال جنسي غير شرعي، على الرغم من أنه يمكن الجدل بأن الجنس، إذا كان أمرًا جيدًا، فيجب ألا يكون مقرفًا إذا مورس كثيرًا أو مع أشخاص مختلفين.

> أنا ميّال إلى الاعتقاد بأن هذا القبول بالتفوق الأخلاقي، الذي يبدي الرجال العاديون استعدادًا عاليًا للتنازل عنه (للنساء)، هو رشوة على شكل تملّق وتودّد لتهدئة الجنس في ظل التجريد من الامتيازات الحقيقية الذي من شأنه أن يضعهن فعلًا على قدم المساواة مع الرجال: خاصة

313- Dean Swift, 'Cassinus and Peter', *The Poems of Jonathan Swift*, ed. Harold Williams (Oxford, 1937), p. 597.

وأن هؤلاء الرجال الأكثر تأدبًا مع النساء على المستوى الشخصي، والذين يطلقون عليهن ألقاب «ملائكة» وغيرها، يكنّون لهنّ في السر، كما وجدت، أعظم احتقار.

ماك غريغور آلن، *«الفصل الفكري لدى الرجال والنساء»*
(J. McGrigor Allen, 'The Intellectual Severance of Men and Women', 1860, p. 23).

مازالت الحجّة المحنكة هي أن الاتصال الجنسي غير الشرعي يحطّ من قدر الجنس، ويجعله مبتذلاً وغير شخصي وما شابه، لكن، مازال ذلك النوع من الكآبة الذي يشعر به الرجال، الذين أجبرتهم الظروف على إقامة علاقات من هذا القبيل، كالموسيقيين المتجولين، هو في الواقع ذلك القرف القديم ذاته. قليلون هم الرجال الذين يستطيعون، بعد إقامة علاقة عابرة مع امرأة، أن يتحدثوا على نحو إنساني مع النساء اللواتي لبّين رغبتهم. وتظنّ نساء كثيرات بأسف أن فنونهن الجنسية المتقنة وفهمهن المرهف لحاجات شريكهن المتنوعة وسخاءهن الجنسي قد استتبعت مباشرة في النهاية اشمئزاز شريكهن ونفوره. ربما نجد تفسيرًا للاعتداء والقتل الجنسيين في عجز الرجال عن التخلص من عوائقهم مع المرأة الجميلة الصالحة للزواج، ورعبهم وخوفهم مما تجبرهم الرغبة في النهاية على القيام به. الجانب الأسوأ في الدعارة هو أن كثيرًا من العاهرات يجب أن يتحمّلن الشعائر البهيمية التي يجدها الرجال المتحضرون ضرورية لتفريغ طاقتهم الجنسية. وتزعم عاهرات كثيرات أن هذه هي وظيفتهن الاجتماعية. أما الفتيات تعيسات الحظ اللواتي يُعثر عليهن مخنوقات بجواربهن ومغتصبات

بقوارير زجاجية فهنّ ضحايا الفيتشية والاشمئزاز الذكريين، ومع ذلك لم تصرخ أي امرأة قطّ بعد مثل هذا الاعتداء على جنسها: «لماذا تكرهوننا إلى هذه الدرجة؟» مع أننا أمام كراهية فعلية.

كانت الصدمة والذعر اللذان سبّبهما كتاب **آخر خروج إلى بروكلين** (Last Exit to Brooklyn) ناتجين، في جانب منهما، عن الإحساس بالذنب لدى القرّاء الذين أدركوا ظاهرة معاملة **ترالالا** الوحشية في القبول الشائن لنهايتها: إذا كشف أطباء المشرحة تلك الأمور المرعبة التي يكتشفونها في الجثث التي ينتهي مصيرها إليهم فقد يتشكّل لدينا دليل على استمرار كراهية الفرج في مجتمعنا.

... ثم جاء أربعون وربما خمسون آخرون، وضاجعوها، وعادوا في رتل، وشربوا البيرة، وصرخوا، وضحكوا، وصرخ أحدٌ ما أن رائحة السيارة باتت كريهة من كثرة المضاجعة في داخلها، فأُخرجت **ترالالا** والمقعد من السيارة، ووُضعا في فسحة الأرض، حيث استلقت هناك عارية على المقعد، وظلالهم تخفي بثراتها وطفح جلدها، وكانت تشرب وتنقر باليد الأخرى على ثدييها، وأقحم أحدهم علبة البيرة في فمها، فضحكوا جميعًا، فشتمت **ترالالا**، وبصقت كسرة سن من أسنانها، فدفع أحدهم علبة البيرة في فمها مرة أخرى... ثم ركبها الشخص التالي، لكنّ شفتيها كانتا مجروحتين هذه المرة، وسال الدم على ذقنها، ومسح أحدهم جبينها بمنديل مبلل بالبيرة، وناولها أحد ما علبة أخرى من البيرة، فشربتها، وصرخت حول نهديها، وكُسر سنّ آخر من أسنانها، واتّسع الجرح في شفتيها، وضحك الجميع، وهي نفسها ضحكت، وشربت المزيد فالمزيد، وسرعان ما فقدت وعيها، فصفعوها عدة مرات، فهمهمت، وأدارت رأسها، لكنهم لم يستطيعوا إنعاشها، فاستمروا في مضاجعتها وهي مستلقية هناك على المقعد في فسحة الأرض فاقدة وعيها، وسرعان ما ملّوا من هذه القطعة الميتة، فتفرّق أفراد المجموعة، وعادوا إلى ويليز ذا غريكس وإلى قاعدتهم، أما الفتيان الذين كانوا

يراقبون، وينتظرون دورهم، فوجّهوا الغضب الناجم عن خيبة أملهم إلى **ترالالا**، ومزّقوا ملابسها إلى خرق صغيرة، ووضعوا بضعة سكائر على حلمتيها، وتبوّلوا عليها، واستمنوا فوقها، ودفعوا عصا مكنسة في فرجها، وعندما أصابهم الملل تركوها مستلقية هناك بين الزجاجات المكسورة والعلب الصدئة والحجارة المكسرة في تلك الفسحة من الأرض، ومضى جاك وفريد وروثي وآني إلى سيارة أجرة وهم يضحكون، ومالوا باتجاه النافذة عندما مرّوا على طرف فسحة الأرض، وألقوا نظرة وافية على **ترالالا** المطروحة هناك مغطاة بالدم والبول والمني مع بقعة صغيرة تتشكل على المقعد بين ساقيها من الدم المنساب من مغبنها...[314]

معاقبة، معاقبة، معاقبة لأنها كانت موضوع الكراهية والخوف والقرف، من خلال فوهاتها السحرية، فرجها وفمها، يا لـ**ترالالا** المسكينة. لا تلعب النساء دورًا في الجرائم الناجمة عن الاشمئزاز الجنسي، حتى حين تُرتكب على أجساد الرجال. يجب على أي حركة من أجل تحرير النساء أن تفهم مضامين هذا الوضع.

استمرت كراهية الفرج في حضارتنا في ألوف التجليّات الصغيرة التي ينكر أصحابها معظمها. كما أن المقت الشديد لشعر العانة في الصور الجنسية، وهو أمر يثبته اختيار الوضعيات التي تقلل المساحة الظاهرة من الأعضاء التناسلية، يأتي، في جزء منه، نتيجة القرف من العضو نفسه. تشعر نساء ذوات تجربة كبيرة، مثل كاتبة **غروبي** (Groupie)، ممن يبتهجن ويتباهين بمهارتهن في مداعبة القضيب الذكري بأفواههن، حسب كلمات **الآنسة فابيان**، أن لعق الفرج يجب أن يكون أقلّ إمتاعًا، وأنهنّ لن يطلبنه من أي رجل يمارس معهن الحب[315]. كما تشعر نساء أخريات بالحرج من أن يلعق رجل فرج الواحدة منهن،

314- Hubert Selby, *Last Exit to Brooklyn* (London, 1966), pp. 82—3.
315- Jenny Fabian and Johnny Byrne, *Groupie* (London, 1969).

ويعتقدن بثقة أن الرجال يجدون ذلك مقرفًا. وغالبًا ما ينتابني الشعور نفسه دون قصد مني، ولا أستطيع الزعم أن ذلك بمجمله ناتج عن أنه عملية حميمية جدًا أو أنها غير شخصية إلى حدّ بعيد. الإفرازات المهبلية موضوع الكثير من القصص الشعبية؛ كما تتلاعب الحملات الإعلانية الضخمة عمدًا بهواجس النساء حول تقبّل الطعوم والروائح الطبيعية لترويج مزيلات الرائحة ومعطّرات المنطقة الفرجية. حتى وصل الأمر حدّ تنكيه نوع من مزيلات الرائحة المهبلية بنكهة النعناع البري لخلق وهم بالعذوبة والبريّة. كما طُعّمت أنواع أخرى بنكهة زيت النعناع. يوصف المهبل كما لو أنه مشكلة تمنع بعض اللطف من أن يصبح وشيكًا. وفي الحقيقة، إن الاستخدام المفرط للأدوات الناضحة التي تحتوي على إضافات كيميائية مؤذٍ لتوازن العضوية الطبيعي داخل المهبل، ومع ذلك لم يتجرأ أي طبيب على إدانتها علنًا. ربما تفكر النساء التواقات إلى التصالح مع أنفسهن، وإلى فهم كم هنّ بعيدات بالفعل عن ذلك، في ردود أفعالهن على اقتراح أن يتذوقن إفرازاتهن المهبلية على أصابعهن، أو في أن يتذوقن أنفسهن طازجات على فم عاشق. وعلى الرغم من موقفي الداعي إلى تغيير القناعات، لا بدّ لي من الاعتراف أنني قد شعرت بقشعريرة عندما أخبرتني إحدى السيدات اللواتي أهديت هذا الكتاب إليهن بأنها قد ذاقت طعم دم طمثها على قضيب عشيقها. ليس في ذلك الدم ما يرعب ولا ما يسمم؛ فأنا أمصّ إصبعًا نازفًا، ولن أتردد في تقبيل شفة نازفة، ومع ذلك... إن العلاج الوحيد لتلك المخاوف اللاعقلانية هي التجريبية الأساسية التي تأتي عن بساطة.

إن القرف المكبوت من الأعضاء الجنسية هو السبب في أن الكثير من حالات الحكّة والالتهابات في منطقة الفرج قلّما تُفحص فحصًا صحيحًا، وفي أن نساء كثيرات لا يعالجن أنفسهن معالجة صحيحة

في حالات صحية يعتبرنها مزمنة وعصبية أو أخلاقية في منشئها، إلى أن تصبح تلك الحالات غير قابلة للعلاج. كما أن حالات العدوى بالطفيليات التي لا يمكن الشفاء منها تعود جميعها إلى مزيج من الخوف والخرافة وقذارة الأطباء. إذ يمكن أن تكون الاضطرابات القضيبية عادية مثل قدم الرياضي، وكذا الحال مع الاضطرابات المهبلية. ويجب في كل حالة إجراء الفحص. إن الربط الزائف بين التهاب الفرج والرغبة الجنسية المفرطة هو سبب آخر من الأسباب التي تمنع التعامل مع الحكّة الأنثوية بجديّة. وهناك، إلى جانب هذا الوهم عن الحكّة الحارقة للفرج الشّره، أفكار أخرى تتعلق بلون الأشفار وبنيتها الصحيحة، وهي تؤثّر حتى في تصورات الأطباء. إذ يُعتقد أن فرج المرأة الغرّة العفيفة وردي اللون ناعم الملمس، وأن بظرها لا يكاد يبرز، وغشاء الأشفار عندها أملس ورقيق. أما تلك الحمرة الأرجوانية لدى النساء ذوات البشرة السوداء فهي موضع شك، وصلابة نسيج الأشفار تعتبر إشارة على الإثارة المفرطة أو الاستمناء أو الانغماس في الملذات.

استنادًا إلى الفرضيات الاعتباطية عن لون الأشفار وبنيتها، اكتشف الأطباء في أمريكا عند منعطف القرن العشرين مئات الحالات من الاستمناء، وعالجوها بأشد ما يمكن تخيّله من بربرية، أي باستئصال البظر[316]. لم يقترح مثل هذا العلاج للاستمناء الذكري قط، ومع ذلك فقد كان خصاء النساء يمارس فعليًا في كثير من الحالات. لم تكن هذه الممارسة، في أبسط أشكال الفيزيولوجيا، مبررة لأن الأعصاب التي تغذّي البظر تغذّي أيضًا بقية المنطقة المهبلية الشرجية، وهكذا يمكن نقل الاستمناء على نحو طبيعي جدًا إلى أماكن أخرى، هذا إذا

316- R. L. Dickinson and Laura Beam, *The Single Woman* (London, 1934), pp. 18, 252, 258, 262, 264.

كان يحدث أصلًا، أو يحدث كثيرًا على النحو الذي ذكره الأطباء، وإذا كانت له الآثار الضارّة التي تخيّلوها في كامل العضوية كالنهك العصبي وفقدان الشهية واضطرابات ضغط الدم والوهن وهلمجرًا. إن الدافع المقنع الوحيد (ونقول دافع لأننا لا يمكن أن نتحدث عن سبب منطقي له) وراء هذا العلاج هو كره الفرج. وختان الفتيات، الذي يتضمن أيضًا خياطة جزء من فتحة المهبل لدى بعض القبائل البدائية، له هذه الوظيفة العقابية والدفاعية أيضًا.

ويصبح نقص التقدير العام للعضو الأنثوي عجزًا لدى النساء عن تقدير ذاتهن. وهكذا يسترقن الأمور المتعلقة بأعضائهن ووظائفهن استراقًا وخفية، لكنّ الأكثر إثارة للرعب هو ظاهرة النساء اللواتي يسعين إلى الحطّ من قدرهن من خلال معاشرة من هم أدنى منهن مكانة ودعوة عشاقهن إلى إساءة معاملتهن. فقد بُني فيلم إيطالي مسلّ جدًا على قصة امرأة إيطالية ثريّة تمارس الجنس مع سائقها عندما تسكر، وتتوسّل إليه أن «*استدع خادمتك*»[317]. إن الكثير من الأمور الكريهة والقاسية التي يمارسها الرجال على النساء يأتي بتحريض من النساء. يمكن العثور على الدليل الأكثر إثارة للرعب عن كره الفرج في الحالات التي تقوم بها النساء أنفسهن بإدخال أجسام خطرة في المهبل ومجرى البول[318]. تتضمن تواريخ أولى الحالات المرضية المسجلة لدى أطباء النسائية أمثلة على نساء أدخلن صنّارات حياكة ومخارز في المثانة وتسبّبن بقتل أنفسهن نتيجة ذلك. حتى روّاد علم الأمراض النسائية لم ينخدعوا باحتجاجاتهن الزاعمة أن حوادث نزوية قد وقعت. حين كانت الجراحة في بداياتها، كان سوء معاملة من هذا القبيل قاتل عادة. وليست حالات هذا العنف الواقع على النفس نادرة

317- بالإيطالية في الأصل. [المترجم]

318- *Ibid.*, p. 231.

حتى في زماننا هذا. بل إن الكثير من الاضطرابات الطمثية ينشأ عن العجز عن قبول الأنوثة والعمليات المرافقة لها. في كثير من الحالات التي تبتلع فيها فتاة حمقاء أملاح إبسوم والمشروبات المسكرة، وتسلق نفسها في حمام ساخن، لا يكون ذلك مجرّد محاولة للإجهاض بقدر ما هو عقوبة لنفسها على جنسانيتها. كما يشكّل الاشمئزاز من الذات عاملًا مهمًا في الشبق المرضي الذي يعتبر عادة إذلالاً ذاتيًا قهريًا. ويشير علم النفس الشعبي إلى ذلك في لغته الخاصة بأن لديهن صورة ذاتية متدنية[319].

النساء مفسولات الدماغ حين يتعلق الأمر بالصورة البدنية التي يجب أن يتمتعن بها حتى أنهن قلّما يخلعن ملابسهن ببهاء، على الرغم من القصة الشعبية ذات الصلة بالموضوع. وغالبًا ما يتصرفن بطريقة اعتذارية عن أجسادهن التي ينظرن إليها بالمقارنة مع ذلك الموضوع البلاستيكي للرغبة الذي تبثّه وسائل الإعلام. فصدورهن ومؤخراتهن هي دائمًا أكبر أو أصغر مما ينبغي، أو شكلها غير ملائم أو ناعمة زيادة عن اللزوم، أو أذرعهن مشعرة جدًا أو بارزة العضلات أو نحيلة جدًا، وسيقانهن إما قصيرة جدًا أو ضخمة جدًا، وهكذا دواليك. وليس كل ذلك الاعتذار محاولة للحصول على إطراء، بل إنهن يعتذرن فعلاً. والإطراء الحقيقي هو تأكيد ضروري فعليًا على أن تلك العيوب غير موجودة، وليس فقط أنها غير مهمّة. لا تريد المرأة التي تشكو من أن مؤخرتها متدلية أن يقال لها: «أنا لا أبالي، لأني أحبك»، بل أن يقال لها: «يا حمقاء، ليس فيها أي مشكلة؛ إنها مثالية، ويمكنك أن تريها كما أراها». وهناك ملاحظة شائعة تتمثل بأن النساء يحاولن دائمًا أن يسبّلن شعرهن إذا كان أجعدًا، وأن يجعدنه إذا كان سابلاً، وأن يقيّدن

319- *E.g.* Albert Ellis and Edward Sagarin, *Nymphomania* (London, 1968), pp. 45, 54, 59, 103—4, 118—9, 122-3.

نهودهن إذا كانت كبيرة، وأن يكبّرنها إذا كانت صغيرة، وأن يصبغن شعرهن بلون داكن إذا كان فاتحًا، وأن يصبغنه بلون فاتح إذا كان داكنًا. ليست جميع هذه المعايير مفروضة بفعل شبح الموضة، بل إنها تعكس عدم الرضا عن الجسم كما هو، وهي تعكس رغبة شديدة في أن يكون مختلفًا، لا على نحو طبيعي، بل على نحو موجّه ومصطنع. إن الكثير من الوسائل التي تتبنّاها النساء ليست تجميلية ولا تزيينية، بل إخفاء لما هو حقيقي ناجم عن الخوف والنفور. قد تساعد الإضاءة الخافتة والملابس الداخلية المزيّنة بعدّة طبقات والمشروبات والموسيقى في إخفاء «أشياء رديئة»، أشياء يمكن أن تكون مقرفة إذا ما ظهرت عارية تمامًا تحت نور قوي. إن سيطرة النموذج المقولب العامة هي أهم عامل في كراهية النساء من جانب الذكر والأنثى. وإلى أن تتمكن المرأة، كما هي، من انتزاع هذا الشبح البلاستيكي من خيالها وخيال زوجها، فستستمر في الاعتذار وفي إخفاء نفسها، في حين تتقبل كرش زوجها المتدلّي وطبقات اللحم المتدلّي حول عنقه ورائحة فمه الكريهة وغازاته ولحيته نابتة الشعر وصلعه وكل ما عدا ذلك من بشاعة دون شكوى. يطالب الرجل في تعجرفه بأن يُقبل كما هو، ويرفض أن يبذل جهدًا لمنع ما ينمو في جسمه من تشوّهات مثيرة للحزن قد تجرح الحساسيات الجمالية لدى زوجته. لكنّ المرأة، من جانب آخر، لا تستطيع أن تقنع بصحتها ونباهتها، بل يجب أن تبذل جهودًا فائقة لتظهر على نحو لا يمكن أن يوجد دون تحريف متقن لعمل الطبيعة. هل كثير أن نطالب بإعفاء النساء من الصراع اليومي للوصول إلى جمال فوق إنساني من أجل تقديمه لمداعبات زوج بشع بشاعة غير إنسانية؟ يفترض بالنساء ألا يعرفن الشعور بالقرف، أما الحقيقة المحزنة فهي أنهن غالبًا ما يشعرن به، ولكن ليس من الرجال؛ بل من أنفسهن، أسوة بالرجال.

الإهانات

يوم 18 كانون الأول/ديسمبر 1969، في قضية ريجينا ضد همفريز، اتَّهم مستشار الملكة السيد فريسبي الدفاع بمحاولة إظهار الآنسة باميلا مورو (Pamela Morrow)، التي اتُّهم المدعى عليه باغتصابها، بأنها «خفيفة العقل»[320]. يبدو من غير المعقول أن يتّهم محامون في القرن العشرين فتاة بأنها شريرة خبيثة من الجحيم، مثل تلك التي امتطت ظهر المسكين توم في مسرحية الملك لير وضربته بوحشية[321]. لقد انحدر معنى الكلمة إلى ظل شاحب لما كانت عليه في السابق من قوة، ربما نتيجة استخدامها المشوّش في صيد الساحرات، لكن منشأها يبقى صحيحًا. إن عنصر صيد الساحرات ليس بعيدًا عن المحاكمات التي يُطلب فيها من فتيات غير بريئات تمامًا أن يقدّمن دليلاً ضد أعضاء البرلمان، وهناك ربما يكون في استخدام السيد فريسبي للتعبير أكثر مما كان يدركه هو نفسه، لكننا قد نتبع هذا النمط من الإضعاف عبر الاستخدام غير المميِّز لتعابير هي موضع استنكار شديد. فكلمة «عفريتة» تستخدم أيضًا لتدلّ على تجلّ شيطاني مباشر ذي رهبة خاصة؛ أما الآن فهي ببساطة تعني امرأة لا تبدو

320- *Evening News*, 18.12.1969.

321- William Shakespeare, *King Lear*, III. iv. 117—22 and IV. i. 62—3 (*Works, op. cit.*, pp. 926, 930).

بأحسن حالاتها. وكانت كلمة «راكبه عفريت» تعني الحالة التي تتعرّض فيها روح شخص ما للتعذيب في أثناء نومه على يد أرواح شريرة، ولم تكن تعني زوجًا معرّضًا لنقد دائم. لطّف عجز ضحايا تلك الإهانات في النهاية من تلك التعابير المهينة نفسها: فقد بدأ تعبير «سليطة اللسان» في أغاني المغامرات بمعنى إلهة شرقية أما الآن فهو أيضًا يعني «امرأة نقّاقة». لقد أضعف الاستخدام غير المميّز قوة كلمات من مثل «broad = فلتانة» ـ المشتقة أصلاً من «bawd= قوّادة» ـ و«hoyden= مستهترة» و«wanton = فاسقة» و«baggage = مومس» و«fright = مرعبة» (وتعني أصلاً قناعًا مخيفًا) و«tart = بغي» التي بدأت بوصفها تعبيرًا منحرفًا عن التعلق، وأصبحت تستخدم للإهانة، أما الآن فهي مهينة إهانة خفيفة[323/322].

ولسوء الحظ فإنّ التخفيف من حدّة الإهانات بفضل المبالغة الهستيرية لا يشكّل الظاهرة الأكثر شيوعًا في لغة كره النساء. هناك كثير من التعابير الأخرى التي كانت أصلاً تنطبق على الرجال والنساء معًا، لكنها اكتسبت معنى خبيثًا نتيجة التمييز الجنسي. وهكذا، لم تصبح كلمة « harlot= بنت هوى» مقصورة على النساء حتى القرن السابع عشر، ولا يوجد لها نظير ذكري في فترة المعايير المزدوجة. وكانت كلمة «bawd» تنطبق على الجنسين حتى بعد عام 1700، ولم تعد كلمة «hoyden» تنطبق على الرجال. وفي الأصل كانت كلمة «scold= سليطة» شتيمة اسكتلندية، ويمكن أن نتنبأ الآن أنها تعني

322- حاولنا أن نقارب الكلمات الواردة في هذه الفقرة وفي عدد من الفقرات والمواضع في هذا الفصل مقاربة وظيفية أكثر منها ترجمة دقيقة، بحيث نؤدّي الوظيفة التي يرمي إليها النص. [المترجم]

323- The sources for this section are mainly the *New English Dictionary* (Oxford), and Wentworth and Flexner's *Dictionary of American Slang* and E. Partridge, *Smaller Slang Dictionary* (London, 1961), and Farmer and Henley, *Slang and its Analogues* (London, 1890).

«امرأة نقّاقة». يمكن أن يكون « Witches = السحرة» من الجنسين، لكنها حين تستخدم بمعنى «شمطاء» لا توجّه إلا للنساء بقصد الإهانة. كانت كلمة « chit = فرفور» في الأصل تعني صغير أحد البهائم، وصارت تعني الطفل، وهي الآن تعني فتاة حمقاء.

لقد كان للعداء الطبقي أثره أيضًا في المفردات الدالة على مكانة المرأة. إذ نتج عن عدم ثقة الطبقة الأدنى بالتصنّع والتأدّب استخدامات ساخرة لتعابير مثل «مدام» و«ليدي» و«دام» و«دوقة»، وتحضر بتغيير مناسب في المضامين التي تحمّل بها كلمات تطلق في اللهجة المحكية على نساء يثرن تداعيات مثيرة للازدراء مثل «wench» و«quean» و«donah» و«dell» و«moll» و«biddy» و«bunter» (وكانت ذات يوم تعني تاجر الملابس المستعملة والسجّاد العتيق، أما الآن فتعني عاهرة دائمًا). أحدث حالة ابتكر فيها احتقار العمل الوضيع تعبيرًا جديدًا لإهانة النساء هو استخدام كلمة «scrubber» لنعت فتاة غير متمسكة بأهداف الفضيلة. لو رسمت هذه الحركات اللغوية رسمًا شاملًا وتفصيليًا لرأينا أمامنا خريطة تصوّر تطوّر المعيار المزدوج وانحطاط النساء. طالما أن مفردات الأكواخ والقصور منفصلة، فإن كلمات من مثل «wench» و«madonna» لا تتصادمان، وعندما تفعلان، فإن المفهومين كليهما يعانيان، والمرأة هي الخاسرة. كلما زادت كراهية الجسد، بحيث يمقت أولئك العاجزون عن إنكار الوظيفة الجنسية تلك الوظيفة ويخشونها، زادت التعابير المهينة التي نجدها في لغتنا.

عندما كانت معظم فتيات الطبقة الأدنى يكسبن قوتهن من العمل خادمات في المنازل، ويكافحن للبقاء بريئات من الاستغلال الجنسي على يد ذكور الأسرة، كانت لغة الشجب أكثر انشغالاً بزلّات العمل، واعتبرتها مكافئة للزلّات الأخلاقية. كما أدى مفهوم النجاسة أو

القذارة، وما يتضمنه من معنى الوسخ والدنس، إلى زيادة كبيرة في الكلمات البذيئة من مثل امرأة قذرة وفاسقة وخرقاء ورخوة وسائبة ووسخة ونجسة وملوّثة. وهكذا، تسحب كلمة نجاسة نفسها الجزء الذكري من معناها لتصبح أنثوية حصرًا.

مجموعة الكلمات الأكثر إهانة في ما يستخدم ضد النساء هي تلك التي تحمل شحنة القرف الذكري العُصابي نحو الجنس غير الشرعي أو العرضي. اخترعت **عودة النظام الملكي** (Restoration)، التي أنضجت حصاد الإهانات المتزمتة ضد النساء الخليعات، كلمة جديدة تمامًا ذات منشأ مجهول لوصف السيدات الكيّسات، وهذه الكلمة هي: *البغي كلية الحضور* (ubiquitouspunk). وأضافت تخيّلات الأمراض التناسلية بعدًا جديدًا إلى اللغة، فكانت النساء المريضات يوصفن بأنهن سفن نارية أو حجر الكبريت أو الخروف المزركش أو ماجنات أو سلال داعرة أو مبتورات الذيل، على الرغم من أن بقايا البراءة الحسيّة قد استمرت فترة من الزمن طويلة بما يكفي لمنحنا ألقابًا قديمة مثل حزمة السرير ومروّضة الخيول الحسناء، إضافة إلى الاستخدام الساخر لكلمات من مثل «عاهرة» و«مومس» والتي لم تكن دائمًا لاذعة في استخدامها. تشير التعابير الأكثر ألفة في استخدامها الحالي إلى المرأة على أنها إناء لتفريغ النفايات، ما يعكس القيمة التي ينظر بها الرجال إلى سائلهم المنوي، أو على أنها منحلّة أو شختورة أو بالوعة أو «خَبَث» وهو أحدث وأشنع لقب مأخوذ من معنى آخر. تتلاشى الحيوية حتى من هذه الكلمات، فالنساء أنفسهن يستخدمن كلمة من مثل «كيس» بلا تمييز، مع أنهن يمتنعن عن استخدام تعبير «كيس النضح» (douche-bag) الأصلي الواضح أو التعبير العامي الذي يحمل القافية ذاتها «لبّادة المسح» (toe-rag).

ربما تكون كلمات من مثل «خنزير» أو «لحم الخنزير» أو «كلب» قد

جاءت نتيجة الكآبة التي تعقب ممارسة الجنس على نحو غير مُرض، لكنها أيضًا تفقد فعاليتها نتيجة الاستخدام الواسع لها مثل كلمة «بهيمة»، ويجب استبدالها باستمرار. المفردات الدالّة على الجنس اللاشخصي موحشة على نحو خاص. إذ من قد يرغب في أن «يشقّ شقفة طيز»؟ أو «أن يحصل على خضراواته»؟ أو «أن يمط قطعة جلد»؟ أو «أن يضرب شقفة بطن أو كعكة»؟ أو «خذها بعيدًا»؟

سيكون أمرًا لا يطاق لو أن المهبل وحده هو ما يُستخفّ به باستخدام تعابير مثل: لحم وقط ومنتوف وضيّق ومستدق وذيل، لكن في بعض اللهجات الفظّة، يُشار إلى المرأة نفسها بكلمات من مثل: فسخ أو شق. كما يُستخدم الرمز الشعري الذي يشير إلى الكل بدلالة الجزء، ويا للتعاسة، عند الإشارة إلى النساء على أنهن تنانير أو كشاكش أو قطعة من الفرو أو جزء صغير رطب.

جميع هذه التعابير ميتة ولحمية ولاإنسانية، ولأنها كذلك فمن السهل الاستياء منها، لكن تعابير التحبّب التي تخاطب بها النساء هي أيضًا بلا روح ومهينة. التخيّلات الأساسية الكائنة خلف هذه التعابير، مثل: عسل وسكر وطبق لذيذ وفطيرة حلوة وكرزة وكعكة وفرخة وحمامة، هي تخيّلات ذات صلة بالطعام. وإذا كانت امرأة ما طعامًا، فعضوها الجنسي هو أيضًا للاستهلاك، على شكل قدر عسل أو فطيرة أو كعكة مدوّرة. كما أن هناك عددًا كبيرًا من الكلمات المأخوذة من عالم الدمى، مثل: دمية وطفلة وحتى طفلة ـ دمية. وهناك الكلمات التي تطلق على الحيوانات اللطيفة، مثل: صوص وعصفور وهُريرة وحَمَل، وهي ليست بعيدة جدًا في المعنى عن بقرة وكلبة ودجاجة وحيوانة وإوزة ومهرة وخفاش وغراب وعجلة وثعلبة، إضافة إلى نعت ثعلب الملتبس على نحو باهر والذي خرج من غيتو شيكاغو. تفقد التعابير المأخوذة من عالم المأكولات سحرها عندما نفكّر بمدى قربها من

التعابير الفظّة، مثل: سمكة وحمل وكعكة ولقمة في الشوكة وملفوفة وخضراوات ولحمة وخبز، وهي تعابير تطلق تحديدًا على أعضاء الأنثى التناسلية لكنها غالبًا ما تمتدّ لتشمل المرأة ذاتها. من يرغب بأن يسمى: أرزاق ناشفة أو بطاطا أو بندورة أو لفت؟

كانت هناك مجموعة جميلة من الكلمات التي تصف، دون استنكار أو قرف، النساء اللواتي عشن خارج القوانين الجنسية المقبولة، لكنها تلاشت من الاستخدام الحالي. واحتلّت الساحة كلمات مزدرية مباشرة، مثل عشيقة ومومس الهاتف، محلّ كلمات امرأة مغامرة وامرأة من العالم وامرأة متعة وخليلة ومحبوبة وصاحبة ومحظيّة وامرأة عالموضة. عندما أطلق فرانك زابا (Frank Zappa) ميثولوجيا الغروبي، بوصفها كاهنة الحب الحرّ العليا والالتماس الجماعي للمتعة، كان يقصد أن يبقى التعبير بعيدًا عن صبغة الازدراء[324]، لكن، بعد أقلّ من ستة أشهر، كان معظم النساء اللواتي يحمن حول الموسيقيين يعامل هذا اللقب على أنه إهانة، على الرغم من الدعاية الواسعة. إنّ قدر التعابير اللطيفة عن أشياء ليست لطيفة أن تفقد وظيفتها بسرعة نتيجة ترابطها مع حقيقة ما ترمز إليه، بحيث يجب استبدالها هي ذاتها بانتظام بتعابير لطيفة عنها. ليس أمرًا مبالغًا به أن نتخيّل أن تتحوّل كلمة «خطيبة»، التي تعني في المجتمع المتساهل «خليلة»، إلى كلمة محرّمة إلا إذا سايرت الأيديولوجيا السلوك بأعجوبة ما.

إن أقسى ذمّ للنساء الخليعات لا يأتي من الرجال. فالمؤسسة الأنثوية، التي ترى أن أساليبها في المساومة الجنسية معرّضة للخطر نتيجة إهمال النساء اللواتي يقدمن أنفسهن برخص، أكثر صخبًا في إدانتها لهنّ. كثيرًا ما تهين النساء الضّالات أنفسهن بمزيد من العار

324- *Rolling Stone*, No. 27, 15 February 1969.

والاتهامات المضادة، فيحقرن أنفسهن بتدني تقديرهن لأنفسهن أكثر مما يحقّرنها بسلوكهن. إن الجانب القهري من هذا السلوك هو النتيجة المباشرة للكبت في التعليم؛ إذ تنشدّ النساء إلى الفجور الجنسي لأنه يبدو محرّمًا ومثيرًا، لكن الثمن الذي يدفعنه مقابل هذا الانحراف باهظ جدًا. فالنتيجة هي شبق مرضي وظيفي، وصفه ناثان شيف (Nathan Shiff) في كتابه **مذكرات حورية** (Diary of a Nymph). ترفض المرأة في هذه الحالة أن تتحمّل المسؤولية عن تصرفاتها، وتعزو أفعالها إلى ذات أخرى تسيطر عليها. وهي لا تستطيع الاختيار بين شريك جنسي وآخر لأن إرادتها معطّلة، حتى أن مسارها مرسوم لينتهي بدمارها الذاتي. تصف **كريستين** بطلة **شيف** الجنس بأنه قذر ودنيء، وتتوق إلى الشعور بأنها متحررة منه، وبـ «أنها عادت نظيفة مرة أخرى»[325]. وتظهر أعراض تحقير الذات نفسها في نوع من الرسائل التي تظهر بانتظام في صفحات الرسائل في المجلات النسائية. «أشعر أني دنيئة جدًا، وأحسّ بالعار...»؛ «كنت متقززة جدًا من نفسي إلى حد وجدت معه أني لا أستطيع الاستجابة لحب زوجي. والوضع الآن أسوأ. لقد قرأت عن المرض الجنسي وأنا أخشى أن أكون مصابة به...»؛ «لقد أحببت زوجي دائمًا، لكنني منذ ثلاث سنوات أقمت علاقة قذرة، فسامحني عليها... ثم تعرّضت لإغراء شديد مرة أخرى من رجل آخر...»؛ «أعرف أن من المستحيل أن أغيّر ماضيّ، لكني تعلّمت درسي، وأشعر بالأسف على ما حدث منذ ذلك الحين...»[326]. لم تسأل أي من المحرّرات المسؤولات عن الرد على الرسائل لماذا كانت العلاقة قذرة جدًا، ولا لماذا يجب الشعور بالأسف حيالها، ولا ما هو الدرس الذي تعلمته، ولا لماذا الشعور بالعار ليس متكافئًا، ولا ما الذي

325- Nathan Shiff, *Diary of a Nymph* (New York, 1961).

326- Letter to 'Mary Grant', *Woman's Own*, 19.7.1969, and to 'EvelynHome', *Woman*, 15.3.1969, and to 'Mary Marryat', *Woman's Weekly*, 2.7.1969.

تصفه المرأة فعلاً حين تتحدث عن الإغراء. وبدلاً من ذلك، ينصحن جميعًا المرأة بأن تستمر بقبول شعورها بالذنب وبأن تجد كفّارة في تجديد نكرانها لذاتها. أما في زاوية القصص «الغرامية الحقيقية» فتذمّ النساء أنفسهن بلا رحمة على قيامهن بخروقات طفيفة للقانون الجنسي - «كان أمرًا مرعبًا، وأشعر أني لن أعود نظيفة مرة أخرى. مطلقًا. أنا أحطّ من أن أستحق الحياة. شعرت بالعار بكل معنى الكلمة. كنت بالكاد أعرف ذلك الرجل. كيف أمكنني أن أكون رخيصة إلى تلك الدرجة؟»[327].

أما فيما يخصّ الفتيات المتعلمات، فالاستهزاء الأشد تأثيرًا هو ذاك المتعلق بـ «الانفلات الجنسي»، الذي يُعرّف تعريفًا خاطئًا حتى أننا سنضطر، لأسباب عملية، إلى اعتبار الفتاة «منفلتة» عندما تعتقد هي أنها كذلك. كشفت أحاديث غايل غرين (Gael Greene) مع فتيات الجامعة أنهن يُجِزن الجنس بين أشخاص تربطهم علاقة حب، لكنهن يعتبرن أي نوع آخر منه «انفلاتًا»، وهو مرض متخيّل شديد القوة في آثاره حتى أنه، حسب د. غراهام بلين (Graham B. Blaine)، السبب الأكثر شيوعًا لطلبهن مساعدة طبيب نفسي[328]. والفتيات الفخورات جدًا بميولهن إلى الزواج الأحادي، لا يتردّدن في استخدام أقذع الألفاظ التي تقوم على الإهانة الجنسية ضد النساء اللواتي لسن مثلهن. فينعتنهن بـ«لوح تثقيب[329] الحرم الجامعي» أو بـ «حذاء قديم مهترئ»، كاشفات

327- 'Love Needs no Words', *New Romance*, No. 3, November 1969 and 'When Someone Needs You', *True Story*, No. 565, December 1969.

328- Gael Green, *Sex and the College Girl* (London, 1969), p. 111, quoting a Queen's University Conference on Mental Health, reported in the *New York Times*, 19 May 1963.

329- (punchboard): لوح فيه ثقوب كثيرة صغيرة وفي كل ثقب قطعة صغيرة من الورق. يشتري المشارك في اللعبة رقم حظ ويسحب ورقة من تلك الأوراق ليرى إن كان قد ربح جائزة. [المترجم]

عن إيمانهن اللاواعي بأن الجنس يتلف النساء ويستهلكهن[330]. جاءت آخر كلمة عن القوة المهلكة لفكرة «الانفلات» على لسان جيم موران (Jim Moran) الذي يكافح ضد المعيار المزدوج في **لماذا يجب ألّا يتزوج الرجال** (Why Men Shouldn't Marry): «ليس لاستخدام هذه الكلمة [انفلات] سوى وجه تحريري واحد. فهو يحدّد المستخدم على أنه مؤيّد للعذرية، معقّد، طهراني متزمّت»[331].

وجّه موران كلماته أساسًا إلى الرجال، لكنّ النساء أولى بالانتباه إليها. فإذا ما أرادت النساء أن يقدّرهن الرجال تقديرًا أفضل، فيجب أن يقدّرن أنفسهن تقديرًا أعلى بكثير مما يفعلن. يجب ألّا يسمحن لأنفسهن بالاستجابة للإغواء، أما في حالة الشلل الأخلاقي النابعة من ذاتهن، فقد فعلت الثقة بحسن نيّة المغوي فعلها دون إرادة منهن. يجب ألا يقفزن من سرير إلى سرير في بحث عن الحب على نحو مضلل للذات ومثير للشفقة، بل يجب أن يفعلن ما يفعلن عن عمد، دون احتشام زائف أو حياء أو ابتزاز عاطفي. طالما تعتبر النساء أنفسهن مواضيع جنسية فسيستمررن بالتلوي تحت سوط احتقار الرجال، والأسوأ من ذلك أن يفكّرن في أنفسهن بعار واحتقار.

تمتدّ قلّة احترام الموضوع الجنسي حتى إلى الكلمات التي تدلّ على حقيقة الأنوثة البسيطة. فالأنثى والمرأة ليسا تعبيرين مهذبين؛ إذ كان يقال لي، حين كنت طفلة صغيرة، أن أستخدم دائمًا كلمة سيدة أو سيدة صغيرة. ينتج فرط الاحتشام صيغًا مضحكة من مثل الجنس المقابل. يتبيّن احتقار النساء في أصفى أشكاله في استخدام صفات مؤنثة بوصفها إهانة للرجال الجبناء أو العاجزين. «أنتَ بنت»، يقول اللندنيون بنبرة تنطوي على أعمق الاحتقار. ربما تفكر النسويات

330- *Ibid.*, pp. 45—6, and 111—13.
331- Jim Moran, *Why Men Shouldn't Marry* (London, 1969), p. 43.

في عزو الجنس المؤنث غير المبرر إلى أشياء ومخلوقات غير معيّنة الجنس، كما في هذه الترويسة التي حددت وحش لوتش نيس (Loch Ness Monster) بأنه أنثى، «إذا كانت نيسي هناك، فأمامها صدمة صوتية قادمة». يمكن أن نستنتج الدافع الكامن وراء هذا العزو من سادية السياق.

قد تخدع الصبايا والنساء الجميلات أنفسهن حيال مقدار الإهانة الموجهة إلى النساء، معتقدات أن الإهانة لا تطالهن طالما هنّ جميلات. من السهل الادعاء أن صفير الذئاب هو إيماءة من إيماءات التقدير وأن الإطراء مديح أصيل، لكنها ليست كذلك. تغتاظ النساء الجميلات أحيانًا من الفرضية العامة القائلة إنهن حمقاوات، لكنهنّ عمومًا يستسهلن استغلال أوهام الرجال. ليس على المرأة إلا أن تغادر القالب المرسوم لها لتجد نفسها عرضة لكل أنواع التمييز والإهانة، على الرغم من أنها قد تقلّل منهما حتى تحافظ على صحتها العقلية. فالمرأة غير الجميلة مثل الكيس. وليس هناك في التخيّلات الشعبية سوى القليل من الحالات الوسط. فإذا كانت بدينة على نحو غير مقبول فهي توصف بأنها ضخمة وغير مرغوبة وسخيفة. والمرأة النحيلة على نحو غير مرغوب فتوصف بأنها ضامرة وعجفاء، وهكذا دواليك. وإذا كانت ساقاها غير جميلتين فهما مريعتان. وإذا كان جسدها يوحي بكثير من القوة وسرعة الحركة فهي صعبة وخشنة وغير أنثوية. وإذا كانت كفوءة ومقتدرة أو طموحة فيفترض أنها قد أخفقت في تحقيق الإشباع بوصفها امرأة عادية، ويصل الأمر إلى حدّ القول إنها تعاني من خلل في الغدد أو من انحراف جنسي.

إن قولبة الموضوع الجنسي هي فقط أحد القوالب المستخدمة لإخفاء الحقائق الإنسانية المتعلقة بالأنثى. وهذا النمط ليس خاليًا من الإهانة. يتخيّل نوع معيّن من الذكور أن النساء يتباهين طوال

الوقت بأنفسهنّ حتى يؤججن حواسّه، ومن ثم يرفضنه، وأنهن بذلك يكوّنّ ذواتهنّ الناقصة. وهو يتخيّل أن النساء لا يعانين من استغلال الحساسية الذكرية المفرط. ظهرت المقتطفات الآتية في كتاب لتعليم الجنس أعيد نشره مؤخرًا في إنكلترا، وعنوانه **الجنس السليم والشهواني** (Sane and Sensual Sex).

لا يحبّ الرجل دائمًا (كما قد تظنّ المرأة) أن يراها عارية تمامًا. وهو ليس بالضرورة تواقًا لرؤيتها في سراويل داخلية قصيرة أو قصيرة جدًا أو في حمالة الثديين فقط. وهو لا يفقد صوابه حين ترفع الريح تنورتها، وتظهر كل ما ترتديه تحت التنورة. وهو لا يستمتع بثدييها الوافرين المندلقين من فتحة فستانها، أو اللذين يصارعان ليشقّا طريقهما مندفعين من كنزتها الضيقة. كما لا يجد متعة خارقة في رؤية مؤخرتها تتأرجح مع حركة وركيها أو داخل تنورتها التي تتماوج حولها كاشفة وفرة من السجف الخفيفة.

لكن الفتاة والشابة العادية تعتقد أن هذا نوع من التنويم المغناطيسي الجماعي للرجل العادي. وهي تفرّ من فكرة أنها الجنس مجسّدًا، وأنها موضع شهوة كل رجل تقع عينه عليها. وأن لا غنى عنها حتى يحقق طمأنينة عقله وجسده. تدلّل قوانين معظم البلدان الأنثى وتلاطفها منذ أن تكون في الثالثة عشر من العمر حتى أنها تحميها من كل نظرة خبيثة وفاسقة، من كل قرصة لمؤخرتها أو فخذها لا ترغب بها أو لا تطلبها.

وهكذا تكبر كل أنثى وهي تعاني من عقدة مريم العذراء، مقتنعة أنها لا تمسّ، إلى أن تعطي موافقتها[332].

لا يدهش المرء حين يكتشف أن مؤلّف هذا الخليط العجيب من التوق والقرف يقضي مقدارًا غير متناسب من الوقت في الثناء على

332- Gilbert Oakley, *Sane and Sensual Sex* (London, 1963), p. 51.

الملابس الداخلية المزركشة، ويغضب من هيمنة النساء المتخيّلة في الأمور الجنسية.

ستكون للمرأة دائمًا اليد العليا لأنها تعطي في حين أن الرجل يأخذ. وهكذا، فستزدري دائمًا من يستعرض جسده، وتدّعي أنها لا تهتم بمفاتن الرجل الجنسية، وتنكر عليه حقه في أن يلبس لباسًا أنيقًا وجذابًا، سواء لباسًا خارجيًا أم داخليًا.

وذلك لأنها تعتقد أن الإغراء الجنسي والسحر والغموض والفتنة هي امتيازات تخصّ جنسها وحده.

وقد أراد لسهمه الأخير أن يكون قاتلاً. «لكنّ جسم الرجل أنسب لارتداء الملابس من جسم المرأة إذا ما اعتنى به. وهو يبقى قويًا وفعّالاً بعد أن تفقد المرأة كل أثر جنسي بزمن طويل»[333].

> يقع معظم الرجال في هوى وجه جميل، لكنهم يكتشفون أنهم ملزمون مدى الحياة بغريبة بغيضة، فيتناوبون بلا نهاية بين ورشة للعمل ومطبخ ساحرة.
>
> **شوبنهاور**

لا تغفل النساء الجميلات قطّ عن أنهن يتقدمن في العمر، حتى ولو كانت العملية في بدايتها، فذهاب الجمال قد يكون أصعب من أي قالب أنثوي آخر، ذلك أن حتى النساء اللواتي لم يطالبن قط بإعجاب الذكور يعانين من قوالب مؤذية تسيطر على حقّهن في التفرد. وهكذا، توصف الفتاة المجتهدة الصريحة بأنها طالبة عديمة الشخصية وعديمة الجنس، وتُصوَّر ربة المنزل على أنها رأس مغطّى بملاقط الشعر ولا شيء آخر، تضع المئزرة وتجادل، وتنقّ، ولا يمكن الاعتماد عليها في

333- *Ibid.*, pp. 52—3.

المطبخ ولا في موازنة الأسرة ولا في اختيارها للملابس ولا في سيارة العائلة. ومع تقدمها في العمر، تصبح الصورة كريهة أكثر؛ فهي تغدو سمينة، ويتضّخم ثدياها ويتدليان، ولا تفارق ملاقط الشعر رأسها، وصوتها عال وأكثر إلحاحًا؛ وتتحوّل أخيرًا إلى أكثر الصور الأنثوية إثارة للكره، أي أمّ الزوجة، الحماة الحاضرة في كل مكان. وأخيرًا، لا بدّ حتى لطفلة ـ زوجة من أن تكبر، وأن تتوقف عن الهمهمة والتباكي، ويبدأ الاستهزاء الذكري من اللحظة التي تهجر فيها مركزها البَنَوي المحبّب، وتبدأ بإدارة منزلها. «وبعد ذلك تعصب الفتاة الجميلة عيني زوجها حتى لا يرى أنها تتحوّل من فراشة إلى يرقة»[334].

اندفع فيليب وايلي (Philip Wylie) في سعار بلاغيٍّ يدرك بدقة الظهور المتكرّر لكره المرأة في أمريكا، إلى حدّ أن السخف في حجته الفعلية لم يمنع ظاهرة زائفة، هي ظاهرة «المامية» (Momism)، من الظهور. كما تخلّى كثير من الرجال الأذكياء عن فهمهم ليشاركوا، مثل جيمي بورتر (Jimmy Porter)، في ترف ذمّ النساء المنفلت من عقاله. فعلى سبيل المثال، يصرّح وايلي أن منح النساء الحق في الاقتراع مسؤول عن الفساد السياسي في أمريكا.

> لقد تلازم حضور الـ«ماما» اللطيف الأول إلى صندوق الاقتراع تقريبًا مع بداية حقبة جديدة غير مسبوقة من الوضاعة السياسية وجنوح الشباب وانتشار العصابات ونزاع العمال ووحشية الاحتكارات والانحطاط الأخلاقي والفساد المدني والتهريب والرشوة والسرقة والقتل والمثلية الجنسية والسكر والضيق المالي والفوضى والحرب. لاحظ ذلك[335].

لا يمكن بالطبع أن يكون جادًا. فمثل هذه الأشياء لا يمكن قولها إلا

334- Philip Wylie, *Generation of Vipers* (New York, 1942), pp. 187—8.
335- *Ibid.*, pp. 188—9.

من باب التندّر، لكنها جادّة على أي حال. والملعب الأبلغ في التعبير عن مشاعر الرفض المتعلقة بالنساء هو قسم المزاح:

> قُوبلت الزوجة الشابة بمشهد غريب عندما عادت إلى البيت. كانت أمها هناك تقف على كرسي، وقدماها في سطل ماء. كان أحد أصابعها موصولاً بمأخذ الضوء، وسلكان متصلان بجانبي رأسها. وكان هوبي يقف متّزنًا عند عدّاد الكهرباء ويده على مفتاح الكهرباء.
>
> «آه، لقد وصلت في الوقت المناسب لتري هنري وهو يعالجني من الروماتيزم!» صاحت الأمّ السعيدة[336].

ليست الحقيقة المتمثلة في أنه لا يوجد مثل هذا النوع من مخازن المزاح ضد الأب ناتجة عن أن النساء لا يتمتعن بحس الفكاهة، على الرغم من أنه يمكن عمومًا تفسير الأمر على هذا النحو. أما كيف تمكّنت النساء من تحمّل الاستهزاء الذي لا نهاية له دون أن يتمتعن بحس الفكاهة فهو أمر يصعب شرحه. هناك نوع آخر من الإهانات الفكاهية التي تشارك فيها النساء بقسط وافر وهو سخرية الفنانين البشعة المملة من نقاط الضعف الأنثوية. بعض الفصول التي يؤدّيها ممثلون في ملابس النساء هي احتفالات مُحبّة بزخارف أنوثة بلا جنس، ويجب أن تكون ذات قيمة في إشارتها إلى ما يجب أن تقوم به الأنوثة الصغيرة في الجنس الفعلي، وكم منه يمارَس زيفًا وبقصد الفتنة فقط. لكنّ الكثير منها تقدّم نماذج كاريكاتورية خادعة على نحو خبيث عن أصناف أنثوية تسدّد النظرات الغرامية وتقلّد مداهنات النساء ورياءهن فيما هي تنافس المفاتن الأنثوية. النساء متفرجات على نوعي التسلية ويضحكن ويصفّقن متى كان ذلك مطلوبًا.

336- *Best Mother-in-Law Jokes* compiled by J. D. Sheffield (London, 1969), p. 1 and *passim.*

تستطيع أي امرأة أن تتابع هذا التحقيق في إهانة جماعة النساء لها، لكن ليس هناك معنى كبير لإثارة بارانويا أنثوية إذا لم توجد بدائل. إن شرطًا أساسيًا للحدّ من الممارسة الشائعة المتمثلة بالتقليل من شأن النساء هو أن تتوقف النساء أنفسهن عن الاستجداء. ترسم النساء في ملابسهن وتكلفهن صورة كاريكاتورية عن أنفسهن، ويقدّمن أنفسهنّ تحت أسماء سخيفة وطيش متعمد، ويبالغن بترددهن وعجزهن، ويختلقن كل أنواع الحيل البارعة التي سيضطررن يومًا ما إلى التخلّي عنها. يجب أن يستفدن من الثناء الحقيقي على النساء الذي يظهر في الثقافة المعاصرة، وإن على نحو متقطع. عندما غنّى أعضاء فريق **تروغز** (Troggs) مدائحهم في أغنيتهم **الشيء البري** (Wild Thing)، أو عندما احتفلت فرقة **فاميلي** بأغنيتها **امرأة الجيل الثاني** (Second Generation Woman):

آخر ما عليك فعله
هو أن تقنعها بحبك
لست بحاجة إلى ذلك

فهي تعرف متى يكون الوقت ملائمًا
وتأتي إليك دون قتال
لأنها ترغب في ذلك[337].

عندما فعلن ذلك فتحن إمكانيات جديدة في الصورة المرسومة للأنوثة، صورة لم تعد مطوّقة بالقلوب والزهور والمجوهرات. **فلونغ تول سالي** (Long Tall Sally) و**موتورسايكل إيرين** (Motorcycle Irene)[338] هما مجرّد حالتين فرديتين، وليستا قالبين، وعلى الرغم

337- From the single ‘Second Generation Woman’ Reprise RS23315 published by Dukeslodge Enterprises.

338- عنوانا أغنيتين رائجتين في الخمسينيات والستينيات. [المترجم]

من أن فتيات من الريف الشمالي وإلهات مجرّدات أخريات مازلن يتفوقن عليهما عددًا، فإنهما على الأقل قد وصلتا. وقد آن الأوان لأن نلتقيهن.

التعاسة

إن تحمّل الألم المبرّح أسهل من تحمّل التعاسة. فالمرأة المتزوجة من شخص وحشي أو سكّير أو منحرف تحظى بتعاطف العالم معها بالإضافة إلى الرضا المازوشي. وتعاسة المرأة المهجورة الجليّة دون حاجة إلى الإعلان عنها، والتي تبرّر لجوءها إلى المخدرات والشراب والجنس مع الغرباء بالجريمة التي ارتكبها المجتمع ضدها، ليست أجدر بالشفقة من التعاسة الجوفاء اليومية التي تعاني منها النساء اللواتي ليس لديهن ما يشكون منه. يمكن العثور على دليل على هذا النوع من المعاناة الكئيبة على أي وجه أنثوي يتقدم به العمر: فالتجاعيد التي تشوّه وجوه النساء هي خطوط الإجهاد والكبت، خطوط الهمّ، لا خطوط الانشغال. عندما تكون النساء مسترخيات يكون من السهل قراءة تقاسيمهن المتعبة، لكن ما أن يشعرن أنهن مُراقَبات حتى يصفّين عيونهن، ويرفعن ذقونهن، ويتظاهرن بصفاء لا يشعرن به في الحقيقة. إن التحيّز ضد الثورة أو الشكوى من جانب النساء المتزوجات قوي جدًا: فالتعبير العلني عن الملل أو الغيظ بقصد الترويح عن النفس يعتبر خيانة كبيرة وعقوقًا وعملًا لا أخلاقيًا. هناك اعتراف بأن الزواج عمل صعب يتطلب تعديلًا دائمًا، «أخذًا وعطاء»، لكن ليس هناك اعتراف كثير بأن الزوج ـ المعيل هو الثابت وأن المرأة هي المتغيّر.

«لا مشكلة في وقت النهار، إذ أكون مشغولة. لكن المساءات من الثامنة إلى منتصف الليل، حين أجلس وحيدة أحوك الصوف أو أشاهد التلفاز، تجعلني أشعر كما لو أنني سجينة».

«لأن زوجي يعمل في المكتب المحلي، فإن خروجي، إذا ما خرجت، يكون مع أختي، أو إلى الصفوف المسائية. وبالتأكيد صحبة رجل مدة ساعة في الليل ليست كافية؟ أشعر كما لو أنني سندريلا عصرية، ولا أستطيع أن أحتمل اثنتي عشرة سنة أخرى على هذا النحو. هناك نقص في جليسات الأطفال، ومن الصعب تنظيم خدمة هنا لأنه لا يوجد سوى عدد قليل جدًا من الأمهات اللواتي وضعهن مثل وضعي في الجوار».

دعينا نواجه حقيقة واحدة: زوجك لن يتغيّر بعد اثنتي عشرة سنة. لا يستطيع أن يرى أي ضير في سلوكه، وكلما شكوت أكثر زاد استعداده للهرب من توبيخاتك إلى أمان حانته. ومع ذلك تستطيعين أن تغيّري نفسك. فكّري أولاً في فضائل زوجك العديدة، ثم تأكدي من أن الوقت الذي تقضينه معه مبهج جدًا بحيث يكره أن يفارقك.

وأخيرًا، أعيدي تنظيم حياتك الاجتماعية. فإذا ما دعوت صديقاتك إلى لعب الورق أو إلى وجبة بسيطة مرتين في الأسبوع، فهنّ لن يحللن محلّ زوجك، لكنهن بالتأكيد سيبعدن تفكيرك عنه. وتذكّري أنه لو كان بحّارًا، على سبيل المثال، لكان يمضي سنوات بعيدًا عنك. تصالحي مع فكرة الزوج الغائب، وربما إذا بدأ يدرك أنك لا تلاحظين غيابه كثيرًا، فقد يكون أكثر استعدادًا للبقاء في البيت[339].

إن إنجاز المرأة الوحيد الذي يستحق الذّكر هو إسعاد زوجها ـ من المفهوم أنه قد يكون مشغولاً بأمور أخرى أهمّ من انشغاله بإسعادها. وعندما يبدأ غيظها بمضايقته، فإنه يدرك أنه ربما يجب أن يتكلم إليها أكثر، وأن يصطحبها خارج البيت أكثر، وأن يشتري لها الأزهار

339- Letter to ‘Evelyn Home’, *Woman*, 2.8.1969.

والشوكولاتة، أو يعبّر لها عن الإطراء في المناسبات. وهذا لا يتطلب منه الكثير في نهاية المطاف. أما إذا كانت قد نكصت إلى فتور الشعور والعصبية المميزين لمتلازمة ربات المنازل، فلن تكون في الحقيقة قادرة على الحديث، ومتعبة إلى حد لا تستطيع معه الخروج، وتشعر أن الزهور ليست سوى رشوة وخداع لها.

> أنا محلّ إعجاب لأني أقوم بالأمور على نحو جيد. أطبخ، وأخيط، وأحوك، وأتحدث، وأعمل، وأمارس الحب على نحو جيد جدًا. ولهذا فأنا مادة ثمينة جدًّا. وسيعاني جدًا من دوني. وأنا وحيدة معه. أنا منعزلة عزلة الأبدية، وأحيانًا غبيّة مثل مرهم متخثّر. ها ها ها! لا تفكري! تصّرفي كما لو أن كل الفواتير مدفوعة.
>
> **كريستين بيلسون، *«يمكن أن تلمسني»***
> (Christine Billson, 'You Can Touch Me', 1961, p. 9).

النقّ وزيادة الوزن والشيخوخة المبكرة هي علامات خارجية على التعاسة، وهي منتشرة كثيرًا بين النساء في مجتمعنا إلى حدّ أنها لا تسترعي الاهتمام. يراود النساء إحساس بالذنب حيال كل تلك الأمور؛ فهي الذنوب الكبيرة التي ارتكبنها بإهمال أنفسهن. وهنّ يخترعن أعذارًا لتفسير نزقهن وتعبهن بأمراض، ويزعمن وجود أمراض لا توجد إلا حين يجعلنها توجد؛ الصداع وآلام الظهر وفقدان الشهية والروماتيزم. ربات المنازل اللواتي يعانين من آفة ربات المنازل الفعلية، أي تلك «البثرات النازفة الكبيرة التي تظهر على أيديهن وأذرعهن» التي لاحظتها بيتي فريدان (Betty Friedan)، أقلّ عددًا بكثير من النساء اللواتي لا يبدين أي علامة خارجية من ذلك

القبيل على توعكهن[340]. والإحصاءات المتعلقة بأعداد النساء اللواتي يخضعن للجراحة نتيجة شكاوى بطنيّة دون أسباب عضوية مرعبة. ويمكن أن نخمّن حول بعض الإحصاءات الحقيقية لو أمكننا أن نطّلع على نتائج أبحاث السوق التي تجري لصالح شركات تُسوِّق «المتعة» و«النشاط» و«الطاقة» و«الحيوية» و«الملاءمة» و«السعادة» و«التوهّج الداخلي» والتي من شأنها أن «تساعدك على التمتّع بالحياة» و«تبهجك بلا حدود» وتجعلك «مسترخية وواثقة من نفسك وتوّاقة لتدبير أمور الحياة» و«تساعدك على أن تكوني نفسك مرة أخرى». المنتجات التي يمكن ترويجها بهذه الطريقة خالية في معظمها من العقاقير التي تسبب الإدمان، على الرغم من أن الطريقة الماكرة التي تعرض بها المسكنات على النساء، بوصفها شكلاً من العلاج النفسي الذي يكافح الاكتئاب والنزق بالإضافة إلى الألم، مليئة بالمخاطر. لا توجد إحصاءات في هذا البلد عن الإدمان على الأسبرين والكودائين لأنهما يباعان بلا وصفة طبية. ولا توجد حملة عامة لتنبيه النساء إلى خطر الساليسيلات[341]. تظهر متلازمة ربات منازل نموذجية في الأقسام المخصصة لتقديم النصائح المهنية في الصحف النسائية:

> قد يبدو ما أعاني منه مشكلة لك يا د. ميريديث، لكني أشعر دائمًا بالتعب، ومن ثم بالوهن. وبما أن لدي خمسة أولاد (ثلاثة منهم في المدرسة) فيمكنك التخمين أن لدي الكثير مما أقوم به. أشعر بأني متعبة جدًا حين أستيقظ، ولا أستطيع التفكير في كيفية التغلب على

340- Betty Friedan, *The Feminine Mystique* (New York, 1963), pp. 20—21.
نشرت دار الرحبة كتاب بيتي فريدان مترجمًا إلى العربية بعنوان **اللغز الأنثوي**. [المترجم]

341- ذكر تقرير في **الأوبزرفر** حول صناعة الأدوية المرخصة (1970/1/4) أن من بين 50 مليون جنيه منفقة سنويًا هناك 15 مليونًا أنفقت على المسكنات، و6 ملايين على المقويات والفيتامينات وستة ملايين ونصف على الإعلان.

ذلك، دعك من كيف أبدأ بالعمل. أقوم بالحد الأدنى من العمل المنزلي، وأحيانًا لا ألبس أصغر أطفالي ملابسه إلا قبل عودة زوجي إلى البيت في المساء بقليل، ولا أفعل ذلك إلا لأنه يغضب جدًا إذا رأى الطفل على حاله.

يقول أني مصابة بداء التعب.

كم أحسد النساء اللواتي يستطعن أن ينهضن في السادسة صباحًا، ويفعلن كل شيء، ويشعرن أنهن في قمة العالم. أتمنى لو أني أستطيع أن أفعل نصف ما يفعلن؛ أنا الآن محبطة فعلاً، ولا أشعر بأني أحاول على الإطلاق. لقد أخذت أفكاري مؤخرًا تخيفني؛ وكل ما منعني من تنفيذها هو التفكير بأطفالي الذين أحبهم حقًا على الرغم من أني لا أظهر ذلك.

الأمر كله يكمن هناك؛ الشعور بالذنب، لأن أدب النساء مليء بالمديح للنساء الستاخانوفيات اللواتي يصرخن: «انظروا كيف أفعل المستحيل بجدارة: الجميع يحبونني!»، الشعور بعدم الكفاءة الذي يتحوّل إلى مرض ووهن، كما تعبّر عنه، العلاقة الشاذة مع زوجها، وهو ناقدها، ومشاعرها الملتبسة نحو أطفالها، والتي لا تبدّدها العبارة التي تصرح بها، والتي يجب أن تكون: «أنا أحب أطفالي فعلاً (لكني لا أشعر بذلك)».

ردّ إيفلين هوم نموذجي، ولن يشكرها أي طبيب ممارس عليه، على الرغم من أنه من الصعب التفكير في أي بديل عملي.

أنت محقة تمامًا؛ هذه حالة تحتاج إلى طبيب، أنا متأكدة من ذلك. اذهبي إلى طبيبك، واشرحي له كل شيء، الإرهاق والاكتئاب والكسل؛ فهو يستطيع أن يساعدك.

وتشجّعي. فهناك نساء كثيرات لديهن أقل بكثير من خمسة أطفال

وزوج نقّاد، ومع ذلك يشعرن بأسوأ مما تشعرين، ويقمن بأقل مما تقومين به. أنت على ما يرام، سوى أنك متوعكة (!). عالجي أمر صحتك أولاً وستأخذ المشاكل الأخرى مكانتها الطبيعية[342].

حسنًا، يتوقف كل شيء على الطبيب إذًا. افرض أنها قوية مثل ثور، ولا تعاني من نقص الحديد؟ وافرض أنه عالجها بالمنشطات والفيتامينات؟ افرض أنه طلب منها أن تتوقف عن العويل وأن تتدبر أمرها مع الوضع، وهو عمل ليس الأطباء بالمجمل عاجزين عنه؟ افرض أنه اقترح عليها عطلة لا تستطيع الأسرة تأمين المال اللازم للقيام بها، أو قد تتحول إلى إخفاق تام لينتهي الأمر بها تؤدي عملاً أصعب وتعافه نفسها أكثر؟ لن تحدث معجزات. ربما تستطيع أن تجرّب كأسًا أو كأسين من الخمر المنشط؟ والأرجح أن يصف لها طبيبها، إذا ما ألّحت عليه بما يكفي، حبة السعادة، أو حبوبًا منشطة أو مضاد اكتئاب أو منبّه. ذلك أن الصحف الإنكليزية تعجّ دوريًا بتقارير ملتبسة عن زيادة الإدمان على المنبهات والمهدئات بين ربات المنازل.

قدّر برنامج تلفزيوني ظهر مؤخرًا أن أكثر من مليون امرأة في بريطانيا اليوم مدمنات على المهدئات. يبدو ذلك منذرًا بالخطر لأولئك الذين لم يتناولوها قط، أما نحن، المدمنين عليها فعلاً، فنعلم كم الأمر مروّع بالفعل. واظبت شخصيًا على مدى أكثر من عام على نوع من الحبوب موصوف على أنه مضادٌ للاكتئاب ومرخي.

بدأت باستخدام المهدئات في الوقت الذي ذهبت به إلى طبيب الأسرة طالبة منه النصيحة حول مشكلة تتعلق بزواجي.

كما ظهرت الرسالة الآتية في مجلة فوروم تحذيرًا لنساء أخريات قد يتبعن المسار الوردي المتمثل بمعالجة أعراض حالة لا تحتمل. فقد

342- Letter to 'Evelyn Home', *Woman*, 22.3.1969.

استخدمت السيدة ج س مؤونتين من الحبوب بكل براءة، لتكتشف فيما بعد أنها تعاني من أعراض الانسحاب:

> عندما نفدت المؤونة الجديدة فكّرت في محاولة الاستغناء عن تلك الحبوب. أحسست في اليوم الأول أنني عصبية قليلاً، لكن بعد تناول شيء من الشراب في المساء هدأت أعصابي. وفي اليوم التالي، كان الوضع أسوأ. كنت نزقة جدًا في تعاملي مع زوجي وأولادي. عانيت من سرعة في خفقان القلب ومن تعرّق راحتي كفّي. مع مرور الأيام، لم يعد هناك أي شك في أنني أصبحت مدمنة على المهدئات. وكان علي أن أتناول المزيد من الحبوب وحسب.

ذهبت السيدة إلى طبيب آخر حتى يشفيها من الإدمان، لكنه أعطاها المزيد من الحبوب. وهكذا أمّن لها الإدمان، على الأقل، مشكلة أكثر إلحاحًا وغير معقدة بالمقارنة مع وضعها الذي لا يطاق. لكنّ قصتها بلا نهاية:

> كان عليّ أن أستمر في تناول مهدئاتي حتى أتوقّف عن القلق بخصوص همومي الجديدة. أنا اليوم لا أستطيع تخيّل حياتي دون حبوب بأكثر مما يستطيع الكحولي أن يتخيّل حياته دون شراب. كنت أتحدث في الأسبوع الماضي إلى صديقة تذهب إلى طبيب نفسي. وكانت تخبرني عن معجزة التحليل النفسي، وكيف أن طبيبها قد ساعدها. قضيت معها بضع ساعات، ولاحظت في غضون ذلك أنها ذهبت إلى حقيبتها مرتين، وتناولت حبة صغيرة. كان بإمكاني أن أقسم أنها ذات حبوبي. وهي تظن أن تلك الحبوب معجزات صغيرة. لم أكلف نفسي عبء أن أشرح لها مدى عبث تلك الحبوب[343].

343- *Forum*, Vol. II, No. 8, pp. 69—70.

ثم شرحت الآنسة سيمونز، المتزوجة من المنتج - المخرج الهوليوودي ريتشارد بروكس (Richard Brooks): «كنت أشعر بوحدة مريعة حين يكون ريتشارد بعيدًا يعمل في أفلامه. كان الأمر كما لو أنك تنظرين إلى الشاشة. كنت مدمنة على التلفاز والشراب.

«هذا خليط مشؤوم. كنت أكتفي بأن أجلس هناك أشاهد التلفاز وأشرب، والأولاد في السرير. ليلة بعد ليلة.

«جميل أن تكوني مع الأولاد. تريسي الآن في الثالثة عشرة وكيت في الثامنة. لكن بالطبع لهما أصدقاؤهما.

ويمكن أن يكون الأمر موحشًا جدًا، أن تجلسي هناك وحدك في بيت كبير في الليالي. وهكذا أصبح الشرب مشكلتي الكبيرة».

أخبار من العالم، 5 نيسان/أبريل 1970

ذكر السيد **مايكل رايمان**، وهو عامل في الطب النفسي في وحدة معالجة الإدمان على المخدرات في مستشفى **أول سينتس** (All-Saints Hospital) في بيرمنغهام، أنه شاهد على مدى إحدى عشرة سنة أعدادًا متزايدة من ربات المنازل (لكنه لم يقدّم أرقامًا) تتردد على العيادة لمساعدتهن على التوقف عن تناول كميات كبيرة من المسكنات والمهدئات والمنبهات. واعترف أن معدل نجاحهم في معالجة هذه الحالات كان منخفضًا بوضوح. وفي النهاية، كان موقفه أخلاقيًا، كما هو الموقف المهني دائمًا. إذ تحدّث عن نساء يتناولن الحبوب المنوّمة «لأنهن لا يستطعن النوم أو مواجهة العروض الجنسية من زوج متّقد الرغبة» (قبول الفكرة المعاكسة لهذه الأخيرة لا يخلو من براعة)،

نساء «يعشن على المهدئات لمواجهة أبسط أزمة منزلية»، نساء «يتناولن كبسولات مضادة للاكتئاب لمساعدتهن في يومهن الباهت والموحش». «لقد كان من المعروف أن المدمنات على المهدئات، على سبيل المثال، يندفعن إلى علبة الحبوب لدى أدنى اضطراب، كنسيان البطاطا على الغاز حتى تحترق، أو رؤية لمبة مكسورة، أو التأخُّر عن موعد الاستحمام الأسبوعي».

هو لا يتأمل في السبب الذي يجعل النساء قادرات على الوصول إلى تلك الحالة التي تصبح الأمور التافهة فيها أمورًا لا يمكن تحمّلها. ليس من المفاجئ أنه لم يحقّق سوى تلك النسبة المنخفضة من حالات النجاح، إذا كان هذا هو مستوى التحليل الذي تخضع له تلك النساء[344]. أشارت **لجنة غلاسكو لدى الجمعية الملكية الاسكتلندية لمنع معاملة الأطفال معاملة قاسية** إلى أن عددًا متزايدًا من أمهات غلاسكو يتناولن المخدرات «للهرب من الواقع»، وهذا نشاط آخر مشبوه أخلاقيًا[345]. ليست حياة ربات المنازل حقيقية، بل إنها إشكالية ومواربة، فلقد احتكت النساء بأنواع كثيرة من أنواع الحياة، ولم يعد في مقدورهن العودة إلى الحبس بين أربعة جدران والعيش مع أطفال وحدهم دون إجهاد. ليس رفض قبول هذه الحياة على أنها حياة مجزية رفضًا لقبول الواقع. كل هذه الأعراض من التعب والكسل و«النرفزة» كما يطيب للنساء أن يسمّينها، هي أعراض النهك العصبي، وهي ذات منشأ سايكوسوماتي معقّد كما يشير الاسم. ولا يمكن أن يكون أي مقدار من الدواء المباشر فعالاً إلا إذا أمكن أيضًا غسل دماغ النساء ليخدعن أنفسهن بأن لكدحهن الرتيب والمتواصل في البيت غاية ما أو أنه يؤدّي خيرًا ما. ليس لعمل ربة المنزل أي نتائج، إذ يجب ببساطة

344- *The People*, 23.11.1969.
345- *The Times*, 9.5.1969.

القيام به مرة أخرى. ليست تنشئة الأولاد مهنة، لأن الأولاد يكبرون بالطريقة ذاتها تمامًا، سواء أُنشِئوا أم لا. يظهر الارتباك بخصوص درجة التنشئة الضرورية، والعدد الكبير من الأخطاء التي يؤكد الجميع للأمّ غير الشكاكة أنها سترتكبها، وقد ارتكبتها، إذا لم تسر الأمور سيرًا حسنًا، أنها بلا إرشاد وأنها فوق ذلك محمّلة بالمسؤولية.

> ... أعطِ وجودهن هدفًا ما، ووقتهن شيئًا من الانشغال الحقيقي، وإلا فإن النكد الناجم عن خيبة الأمل والفتور الذي يسببه الكسل يفسدان طبيعتهن بالتأكيد...
>
> من إحدى رسائل شارلوت برونتي (Charlotte Brontë)

غالبًا ما تتخيّل النساء أنهن سيكنّ أقل تعاسة لو كنّ أغنى. ربما يكنّ بحاجة إلى جليسة أطفال أو إلى خادمة أو إلى عطلات طويلة أو إلى أن تكون همومهن المالية أقل. لكن هناك دليل على أنه كلما كانت المشكلات المقنّعة أقل كان الإجهاد على المشكلة المركزية المتمثلة بالعلاقة الزوجية نفسها أعلى. في الثقافة الغربية قد يكون الشخص الذي يمثّل قمة النجاح هو رائد الفضاء؛ ويمكن لزوجة رائد الفضاء أن تنعم بالمال والمجد المنعكس عنه. ورائد الفضاء هو الأرستقراطي الأمريكي، إذ يطير الرؤساء للقائه، وهو يصلّي نيابة عن الأمة واقفًا على سطح القمر، ولا بدّ أن يحتوي بيته على كل ما يمكن للمال والتخطيط أن يؤمّناه. لكن قيل إن طبيبًا نفسيًا في وكالة الفضاء الأمريكية (ناسا) يقول إن كيب كينيدي (Cape Kennedy) هي أخصب تربة في العالم للطلاق. فالطلاق يقع هناك بالتأكيد بمعدل يبلغ ضعفي المعدل الوطني. وإدمان ربات المنازل على الكحول هناك أعلى منه في أي مكان آخر في أمريكا باستثناء واشنطن. «يبدو أن صناعة الفضاء

تسلب من الرجال عاطفتهم». لا يخلو التدريب المقصود على تخفيض حساسية روّاد الفضاء من المشاكل؛ فهم قد يتحكمون بأنفسهم على نحو رائع على القمر، لكنهم يفعلون ذلك في كل مكان آخر أيضًا، بما في ذلك في سرير الزوجية، إذ من المتّفق عليه أن تكون درجة النشاط الجنسي في كيب كينيدي منخفضة جدًّا[346]. قد نأخذ جمعية الحاسوب في كيب كينيدي على أنها التطوّر المنطقي لنزعات فوضانا المنظمة على نحو متزايد، حتى في إنكلترا الفقيرة والمتخلفة حيث لا يستطيع الناس أن يؤمّنوا المال اللازم للطلاق. لا يمكن لزوجة رائد الفضاء أن تكون سمينة وغير أنيقة، وهكذا يجب أن تعبّر عن تعاستها بالسكر والانفلات الجنسي، وهي على الأقل عادات تساير الموضة وتكلّف المال. في إنكلترا، يرجّح في ربة منزل «مهمَلة» و«مضطهَدة» و«ضجرة» و«وحيدة» أن تأكل كثيرًا، كثيرًا من الأشياء التافهة. لقد أدركت الدعاية للشوكولاتة والبسكويت في إنكلترا مؤخرًا وظيفة الأكل التهرّبي. ما قيل لنا أن نتوقعه من هذا المزيج الذي تصنعه الآلة هو «إحساس خاص بالتذوق» و«انفجار» وإثارة، وتخيّلات أماكن حالمة. وتعد الإعلانات التلفزيونية عن نوع من السكاكر بالهلوسة والنشوة. وبالتأكيد كلفة قطعة من شوكولا مارس أقلّ من كلفة الطلاق.

تتجلّى الثورة النسائية بأشكال غريبة وملتوية، وأعظم ضريبة هي تلك التي تفرضها المرأة على نفسها. فهي تجد نفسها تبعد زوجها عنها بالنقد الهدّام، وتصدّ محاولاته لممارسة الجنس معها، لأن كل تلك المحاولات تبدو على نحو ما خطأ.

346- *News of the World*, 6.7.1969.

أستاء من حقيقة أن زوجي لا يريد أن يمارس الجنس معي كثيرًا، لكني في المرّات النادرة التي يمارسه معي أستاء أكثر، وأشعر بالبرود نحوه لأني أشعر أنه يقوم بمحاولة واهية ليزعم أنه ما يزال هناك شيء بيننا، أو أنه لا يخرج مع امرأة أخرى في ذلك الوقت (أنا واثقة من أن له بضعة صديقات). غالبًا ما نتشاجر حول ذلك؛ أحيانًا ينكر الأمر، وأحيانًا يقول إنني أدفعه إلى النساء الأخريات لأنني باردة معه. ولكن كيف تستطيع امرأة أن تشعر بالحرارة نحو رجل لا يقول لها ولا يفعل أي شيء رومانسي؟

السيدة س. ت، مجلة فوروم، المجلد 2، العدد 2.

مازال البرود الجنسي مشكلة رئيسية، لكن الدراية ببنية الأنثى ورعشة الجماع التي تنتابها لن تغيّر في الأمر شيئًا. النساء سيئات التكيّف نتيجة تكييفهن على قبول الواقع ورعشة الجماع الجنسيان. غالبًا ما يذكر الرجال أن زوجاتهم بدأن يعانين من البرود الجنسي مع أنهنّ كنّ يستمتعن بالجنس في أيام الزواج الأولى. ليس الحب الجنسي مسألة رعشة أو رومانسية: فالزوج والزوجة، اللذان يدنو أحدهما من الآخر منطلقين من قطبيهما المتعاكسين، يخطئ أحدهما الآخر في الظلام، ويتعلقان بالأوهام. كما تؤثّر وسائل منع الحمل سلبًا في جنسانية المرأة. ومن المرعب أن نفكر في أن الواقي الذكري مازال وسيلة منع الحمل الأكثر شيوعًا. ومازال زوج بريطاني من بين كل خمسة أزواج يمارس الجماع المبتور. ويستخدم مليون وربع مليون امرأة إنكليزية حبوب منع الحمل، وهذا لا يعادل ثمن عدد ربات المنازل.

وحتى حين يستخدمن الحبوب، لا تُحلّ جميع المشاكل. ففي كل أسبوع تورد الصحافة تحقيقًا عن قصة مرعبة من قصص حبوب منع الحمل، قصة عروس تموت نتيجة الانسداد التاجي بعد أسابيع من زواجها. قصة في أخبار **من العالم** مفادها أن جمعية تنظيم الأسرة تحذّر من أن 400 ألف امرأة ممّن زوّدتهن الجمعية بحبوب منع الحمل يعانين من مجموعة مؤلفة من 50 تأثيرًا جانبيًا[347].

يقول البروفيسور **فيكتور واين** من مستشفى **سانت ماري** في **بادنغتون** إن تناول الحبة قد يؤدي إلى الانسداد التاجي واضطرابات الكبد والبدانة والاكتئاب[348]. وعندما يقول ذلك، فقد نبدأ بتصديقه، على الرغم من أني أستطيع أن أشهد أن طبيبي قد سخر من الفكرة عندما شكوت من وذمات وفتور حين كنت أتناول الحبة. ناقش عدد من الرسائل في مجلة **لانسيت** (Lancet) في صيف 1969 مسألة الاكتئاب الذي تسبّبه الحبة، واعترفت أن هرمون الحبة قد أثّر فعلاً في إفراز التريبتوفان «وهي مادة كيميائية تتعلق بالنظام الغذائي وضرورية للصحة وتؤثر أيضًا في التحكّم بالمزاج»[349]. لقد فعل سحب ستة عشر نوعًا من الأسواق الكثير لنساء يستخدمن الآن أنواعًا أخرى. مشكلة اللولب أنه غير آمن تمامًا إذ يصل معدل عدد المرات التي يفشل فيها في منع الحمل إلى 20 في المائة من الحالات، وقد يمثّل جسمًا غريبًا مزعجًا في الجسم. كتبت السيدة **مونيكا فوت** (Monica Foot) في مجلة **صندي تايمز** رواية مرعبة عن إجهاض تلقائي بلولب

347- *News of the World*, 30.11.1969 reporting the compilation of the Family Planning Association's publication, *The Pill and You*.

348- Professor Victor Wynn is in charge of the Alexander Simpson Laboratory for Metabolic Research at St Mary's Hospital in Paddington (reported in *The People*, 14.12.1969), *cf.* research by Dr Anne Lewis and Mr Masud Noguchi reported in the *Observer*, 15.6.1969.

349- Reported in the *Observer*, 20.7.1969.

قوسي الشكل، فتلقّت الشتائم على صراحتها[350]. الواقي الأنثوي مصدر إزعاج، ويمكن أن تشعر المرأة به، ومبيدات النطاف تؤثر في إفرازاتها وفي الإحساسات اللمسية للغشاء المحيط. وعلاوة على ذلك، يستطيع الرجال أن يسحبوه إذا كانوا مصرّين على التلقيح. طالما أن النساء مضطرات إلى التفكير في منع الحمل كل يوم، ويقلقن من حبوب منع الحمل والواقيات الذكرية ووسائل منع الحمل من كل الأنواع، ويقلقن في كل مرة يقترب فيها موعد الدورة الشهرية، فسيظهر المزيد من اللاعقلانية في سلوكهن. ولا شك في أن مشكلة التوتر الطمثي، وهي مشكلة عامة تقريبًا قد تفاقمت لدى المرأة المعاصرة، ويزيد النهك العصبي المضاف في حدتها. يا للتعاسة، يا للتعاسة، يا للتعاسة.

عدد النساء اللواتي يحاولن الانتحار أكبر من عدد الرجال، وعدد النساء في مستشفيات الأمراض العقلية أكبر من عدد الرجال[351]؛ هناك مئات الأطفال الذين يتعرضون للأذى على يد أهل يائسين كل سنة، وهناك حتى حالات أطفال وصلوا إلى الموت على يد أمهات مخبولات[352]. اكتئاب ما بعد الولادة هو متلازمة معروفة؛ وقد عانى منها بعض النساء فترة تصل إلى سنة بعد ولادة الطفل. تجد الحالات القليلة الفضائحية المتمثلة بضرب الأطفال أو قتل الأزواج طريقها إلى الصحافة. أما غالبية النساء فيجرجرن أنفسهن من يوم ليوم في حالة من الانحطاط وفقدان الشعور، آملات أنهنّ يقمن بما هو صواب، ويتوقعن الحصول على مكافأة يومًا ما. تنتظر الزوجة العاملة أن يكبر الأولاد، ويبلوا بلاءً حسنًا ليعوّضوها عن كدحها، لكنها تراهم يفعلون

350- *Sunday Times*, 1.6.1969.

351- Dr W. J. Stanley, in *The British Journal of Social and Preventive Medicine*, November, 1969.

352- *Vide* ‘78 Battered Children’. Report of the NSPCC (September 1969), and *Sunday Times*, 30.11.1969.

ما يرغبون، ويبتعدون، ويدخلون في عادات غريبة، ويرفضون أهلهم. أما الزوجة العاطلة عن العمل فتتجشم، وقد بلغت منتصف عمرها، عناء الذهاب إلى الكليّة لتختار دون عناية كافية فروعًا دراسية، وغالبًا ما تتعاطى أمور المعرفة بالطريقة الخطأ وللأسباب الخطأ. فأمّي، بعد أن أزعجت ابنتها البكر ودفعتها إلى الهرب من البيت (وهي حقيقة أخفتها على مدى سنوات بالحديث عن ابنتها كما لو كانت موجودة، في حين لم تكن تعرف أي شيء عمّا تفعله)، اتبعت دروسًا في رقص الباليه، على الرغم من العبث الواضح في تلك المحاولة، ودرست المحاسبة، وأصرّت على دراستها بعناد على الرغم من رسوبها سنة بعد سنة، واختبرت الدين، ومارست التزلج، وأخيرًا تعلّمت اللغة الإيطالية. لقد فقدت في الحقيقة منذ زمن طويل القدرة على التركيز لقراءة رواية أو صحيفة. كان كل نشاط هاجسٌ يستحوذ عليها طوال فترة ممارسته؛ وكان بعضها لا يستمر أكثر من شهر، وهذا النوع الأخير أكثر من أن يحصى. لقد قاومت التلفاز، وقاومت التدبير المنزلي والحياكة، وهي المخدرات المعتادة. ولم تلعب ألعاب البينغو أو الهاوسي (bingo or housie-housie)، ربما نتيجة استعلاء الطبقة الوسطى. ولم تقع في هوى كلب أو ببغاء أسترالي، ممّا يحدث مع نساء أخريات.

وبالطبع لا تنجو العازبات من التعاسة الأنثوية، نتيجة الضغط المريع الذي يمارس عليهن من أجل الزواج بوصفه مقياسًا للنجاح الأنثوي. إنهن يبدّدن الوقت، ويحلمن بأعمالهن التي لا أفق لها، وهنّ بائسات صراحةً لأن عموم الناس تعتبرهن كذلك. إن ظاهرة النساء العازبات اللواتي يكرّسن حيواتهن لأهلهن المسنين، والتي ليس لها نظير لدى الذكور، لا تفهم فهمًا تامًا إذا لم نفكر في عنصر العزل الذاتي الذي يلهم تلك النساء. والسخرية من العوانس والنساء ذوات الوجوه الحادة ليست عمومًا تعبيرًا عن التحيّز، لأن تلك النساء ينضحن

فعلاً بالغيظ وعدم التسامح والإشفاق على الذات. وكالعادة، هي حلقة مفرغة.

بناء على صعوبة الزواج، بوصفه طريقةً في الحياة، والصعوبات الأكبر التي تواجهها العنوسة، لا بدّ أن تعتبر النساء السعادة إنجازًا إيجابيًا. وفي النهاية، أعظم خدمة يمكن للمرأة أن تقدّمها لمجتمعها هي أن تكون سعيدة؛ إن درجة الثورة واللامسؤولية اللذين يجب أن تظهرهما لتكسب السعادة هي المؤشر الوحيد الأكيد على الطريقة التي يجب أن تتغيّر بها الأمور، إذا كان هناك أي مبرر على الإطلاق للاستمرار في أنها امرأة.

الغيظ

لا تولد التعاسة دون غيظ. هناك اعتراف شائع بوجود معركة دائرة بين الجنسين، لكنها، كالكثير من الحقائق الأخرى التي لا نجرؤ على التفكير فيها مباشرة، لا تُذكَر عمومًا إلا بنوع من الفكاهة. وهذه المعركة عامة وجدية على نحو قاتل، على عكس المناوشات المعزولة التي تخوضها حركات تحرير النساء مع المؤسسة الذكرية. وسواء دارت في البيت أو في الخارج، فإنها دائمًا معركة التحامية دون قواعد أو أعراف ونهايتها الموت.

> لقد حضرت جنازته عدة مرات، على الرغم من أنه لا يعرف ذلك. في كل مرة أبدو فيها فاتنة في بذلتي السوداء الضيقة وخماري الأسباني المخرّم. ولقد أعدت الزواج في كل مرة من رجل غني جدًا بعد انقضاء فترة لائقة، وأصبحت مشهورة نتيجة النظرة الأثيرية على وجهي الشاحب الجميل.
>
> **كريستين بيلسون، *«يمكن أن تلمسني»***

إننا نشاهد تلك المعركة طول الوقت، لكن قلّما ندركها على حقيقتها، حتى حين نكون هناك نخوض غمارها بأسناننا وأظافرنا.

ولأن للرجال اليد العليا، فإنهم عادة يلزمون أنفسهم بمستوى من الرحمة أعلى من ذاك الذي لدى النساء على أرض المعركة. لا يدرك الرجال أنهم منخرطون في صراع حتى الموت إلى أن يخسروا ذلك الصراع، ويواجهوا النتائج المدمّرة التي تخلص إليها المحكمة الشرعية، وعندما يصيبهم الغمّ من حماقتهم في إهمال دفاعاتهم فإنهم يطلقون تنفيسًا صاخبًا لاقتناعهم بأن العالم يُدار لمصلحة نساء سلّابات وبلا رحمة. وتعرف المرأة المنتصرة أن نصرها باهظ التكلفة.

يعبّر الغيظ النسوي عن نفسه بأشكال مدهشة. والوضع الأكثر إثارة لهذا الغيظ هو الحفلات. فالحفلات في مجتمعنا قلّما تكون مناسبات للابتهاج العفوي، بل تنظَّم لغاية معينة: كالتعريف بوافد جديد إلى المجموعة، أو التشديد على أهمية حادثة ما، أو للتعارف. إنها وقت لتقف وتُؤخذ في الحسبان. يأخذ الرجال النساء إلى الحفلات، فيكنّ منذ البداية في وضع غير مؤات. ينشأ تماسك المجموعة من علاقات الرجال؛ ويحافظ على النظام عبر الاعتراف بالفروق الطفيفة في المراتب. يفترض بالنساء أن يدركن بسرعة هذه الفروق وأن يعزّزن ببراعة صورة أزواجهن في المجموعة. تعرف كل امرأة تصل شابكة يدها بذراع مرافقها ما هو دورها، ومع ذلك فإنها، بحكم العادة، تفسد الوضع الاجتماعي وتخرّبه بعدد من التكتيكات المدهشة والغامضة. والتكتيك الأوضح، الذي تمارسه عادة النساء غير المرتبطات بعلاقة جدية مع مرافقهن، هو إثارة المنافسة الذكرية عبر مغازلات بارعة إلى هذه الدرجة أو تلك. قد تبدو امرأة وكأنها تستخدم هذا الأسلوب بلا وعي؛ إذ قلّما تكون مسيطرة عليه تمامًا، ومع ذلك فهو فعّال جدًا. وقد تستفيد، في ممارسة هذه اللعبة، من التوترات الموجودة أصلاً في مجموعة الذكور، وتفاقمها. وأفضل رهاناتها هو استغلال الخيلاء

الذكرية التي تدفع مرافقها إلى استعراض «درّته الثمينة» أمام أقرانه لتقييمها. فقد تشير بدهاء إلى أنه جلف (لأن كأسها فارغ منذ ساعات دون أن ينتبه)، أو إلى أنه لذيذ محبّب (وهذا يعني رأس بلا تفكير)، وقد ترحّب بالحكايات التي تحكى عنه؛ أما إذا كانت لا تبالي به حقًا، فقد ترفضه بصراحة مفضّلة أحد أصدقائه عليه، والأفضل أن يكون ذلك الصديق أقرب أصدقائه أو أكثر منافسيه نجاحًا. أما النساء المرتبطات ارتباطًا أوثق فلا يستخدمن تلك الأساليب إلا باعتدال، لأنهنّ قد نصبن بطارية كاملة من المدفعية الصغيرة، نوعًا من الموت البطيء الناجم عن ألف ضربة تُسدّد باستمرار إلى الضحية المنتقاة. إلقاء الطرائف من جانب الزوج محاولة خطرة، لأن زوجته ستشهق، أو ستخبر الجميع أنها قديمة، أو أن **ماكس بايغريف** يلقيها على نحو أفضل بكثير؛ ولن تضحك مهما حدث. وإذا كان زوجها روح الحفلة، فستفتر همتها، وتطالبه بنكد أن يعود بها إلى البيت، أو ستقع تحت تأثير المشروب بسرعة غريبة إلى حد تستطيع معه أن تحوّل نفسها إلى «فرجة». وإذا كان يلهو، فستهمس في أذنه أنه سكران، وأنه يتصرف بحماقة، أو ستذكّره أن عليه أن يقود السيارة إلى البيت؛ وإذا ما ظلّ مقاومًا لها، فستتهمه بأنه يحملق في كل امرأة جذابة في الغرفة. كل هذه النزعة التدميرية تنشأ من إدراكها الباهت بأنها ليست هناك إلا بوصفها ملحقة بزوجها: وهي لا تشعر بالراحة في الأجواء الاجتماعية. كل ما كانت مستعدة له حين لم تكن مرتبطة هو أن تدبّر لنفسها علاقة، أما الآن وقد حصلت عليها، فإن كل ما تبقّى لديها من فطنة ومن قدرة على الحديث يأخذ بالتلاشي. تشعر أنها غبية وربما عتيقة: لم يسبق أن استمتعت في الواقع إلا حين كانت موضوعًا للمنافسة والتملق، وهي لا تعرف كيف. رؤية زوجها يحوم في المكان تثير احتقارها. وهي تراهن أنه كان سيستمتع أكثر لو لم تكن موجودة، وهو تخمين كثيرًا

ما يكون له أساس في الواقع. إذا لم تهجم بطريقة مخادعة على نحو ما، فبالتأكيد لن يكون لطاقتها أي مخرج. إنها ممسوحة ومطموسة، وتتهامس صديقاتها القديمات فيما بينهن كم هي مقموعة منذ أن تزوجت، أو انتقلت لمساكنة صديقها أو أيًا يكن الأمر. لو كان بإمكانها أن تقلب وضع الحفلة التقليدية وأن تتألق على نحو يضرّ بزوجها (وعلى حسابه على الأرجح) فستنتزع شيئًا من الانتقام المرّ فيما بعد، انتقامًا مرًّا كأي شيء يمكن أن تبتكره بذاتها. من الأفضل أن تبقى هادئة حتى النهاية أو أن تجرّب آخر أسلوب ابتزازي، وهو أن تنسلّ من البيت، وتتركه يتساءل عمّا يجري معها. تتبنّى معظم النساء ذريعة الفصل حتى يستطعن شنّ الحرب من منطقة محمية.

لقد رأيت تكتيكات أكثر دراماتيكية تعتمد في تأثيرها على الجمهور الذي يشهد الوضع. أعرف امرأة كانت تلجأ إلى المرحاض في الأوضاع التي لا تستطيع معها أن تحرز تقدمًا، وتكسر كأسًا زجاجيًا، وتدوس مترنّحة على الشظايا وهي تصرخ إلى أن يحطم رجل قوي الباب ويحملها خارجًا في فوضى مثيرة. واستثارت فتاة أخرى ضربة قوية على وجهها مستخدمة الحيلة البسيطة المتمثلة بالصراخ الهستيري إلى أن تتلقى تلك الصفعة، وبعد ذلك صرفت كل طاقتها محاولة أن تلقي بنفسها من أعلى الدرج، مما اضطر كل الرجال الموجودين هناك إلى المساعدة في منعها. وكانت فتاة أخرى تتأثر بسرعة وعلى نحو يثير الشبهة بأي مقدار صغير من المشروب، فتخلع ملابسها فيما يتوسل إليها رفيقها أن تهدأ، ويزعم بقية الموجودين في الحفلة أنهم يشاهدون سلوكًا متحررًا. هذا جزء من الإستراتيجية الأوسع الموحية بأن ذكورة الزوج لا تلبّي مطالب سيدته، وهذا شكل متطرف وبوهيمي من المغازلة.

إن جهل معظم النساء وعزلتهن يعنيان أنهنّ عاجزات عن تبادل

حديث طبيعي، فمعظم تواصلهن مع أزواجهن هو تواصل يقوم على صراع القوة. والنتيجة هي أن الزوجات، حين يحضرن حفلات الغداء، يفسدن الحديث المتحضّر حول المسائل الحقيقية، ويحوّلنها إلى شجارات شخصية. وهناك عدد وافر من المضيفات اللواتي يتمنين لو أنهن لم يضطررن إلى دعوة الزوجات. وهناك عدد لا بأس به ممّن ينتهزن فرصة غياب الزوجة لدعوة الرجل إلى الغداء لأن المسكين لا يستطيع فعل ذلك بنفسه (ظاهريًا). لكن يجب ألا يؤخذ ذلك على أنه إشارة إلى أن ليس للرجال دور في هذه المعركة. لكنّ تكتيكاتهم فوقية ورعائية في تعاملها مع محاولات المرأة المشاركة في الحديث، إذ يضعون ملاحظاتها جانبًا أو يتجاهلونها، فيما يبالغون في كياستهم مع النساء الأخريات، ويفرطون في امتداح طبخهن (كما لو أنهم يتضوّرون جوعًا أو يتناولون طعامًا فاسدًا دائمًا في البيت)، ويوجّهون سخرية مُحبّة إلى المرأة الصغيرة وهلمجرًا. ولأن الرجال في وضع أفضل، لا يضطرون إلى أساليب حادة أو قذرة أو لا اجتماعية، وهذه الحقيقة، في حدّ ذاتها، يمكن أن تدفع المرأة إلى الجنون والعدوان المباشر. أتذكّر إحدى طالباتي التي تعبت جدًا من معاملتها برعائية في أحد اجتماعات الاتحاد في الجامعة، حتى أنها رمت رئيس الجلسة بعلبة بيرة مليئة. واكتمل رضاها الزائل بإدراكها النهائي أنها قد خسرت في جميع الحسابات.

إن المسرح الحقيقي للمعركة بين الجنسين هو المنزل العائلي، على الرغم من الفظاعات التي ترتكب في الأوضاع الاجتماعية؛ فهي في المنزل تدور على نحو متواصل. ونتيجة ظلم الوضع واستحالة القيام بأي عمل مؤثر، يجب على المرأة أن تعبّر عن مكنونات صدرها بالكلمات وأن تشتم مثل مومس حقيقية، مثل الخدم في المطابخ، لأنها، كما فسّر هاملت من أمثولته الخاصة، تفتقد إلى الضغينة لجعل

الظلم مرًّا. ليس الاعتداء اللفظي انعكاسًا لحسد القضيب، بل النتيجة الحتمية للعجز الذي أُقنعت به. لكنّ عقم التوبيخات والتكرار الذي لا ينتهي للشكاوى الزائفة ذاتها (وهي زائفة لأنها لا تعرف ما هي شكواها الحقيقية) يسبب صخبًا متزايدًا واستخفافًا مرعبًا بالمعنى الحقيقي لما تقوله. وتصبح هجماتها أكثر تدميرًا وأقل اغتفارًا، إلى أن تدرك بطريقة لا رجاء منها أنها تدمر بيتها بيديها، لكنها تكون عند ذلك قد أصبحت عاجزة عن إيقاف التعامل بوحشية مع وسطها المحيط. وتسمع السلسلة الحقيرة المؤلفة من اتهامات تبدأ بـ «أنت أبدًا لم...» و«أنت دائمًا...»، وتدرك أن معظم ما تقوله جائر وغير ذي صلة، لكن شيئًا ما خطأ على نحو مروّع، وكيف يمكنها أن تعبّر عنه بطريقة أخرى؟ ويزداد إحساسها بالذنب؛ وتتقلص كل يوم قدرتها على الانفصال عن وضع يدفعها نحو الشيخوخة، ويغيّرها على نحو يتخطى الإدراك. تضعف أحيانًا، وتعترف أنها لا تعرف ما بها. فيقترح عليها زوجها أن تتناول حبة دواء، فتستأنف المعركة الضارية من جديد بانتقادها غباءه وتحجّر فؤاده تجاه وضعها المثير للرثاء، وهكذا دواليك.

تقبل ربة المنزل الحياة البديلية على أنها قسمتها في الحياة، وتتخيّل أنها ستكون سندًا ودعامة لزوجها في مساعيه النبيلة، لكنّ غيرتها، التي لا تعترف بها، تقوّض قدرتها على تثمين ما يقوله لها عن طموحاته وما يلاقيه من صعوبات. فهي تقلّل من شأنه، وتفنّد نصف واعية قراراته الصعبة، وتوبّخه على مخاوفه من الفشل، فيتوقف عن إخبارها أي شيء. وتصبح أسئلتها عن «يومه في المكتب» مجرد شكليات. ولا تستمع إلى أجوبته بأكثر مما يعير وصفها يومها الموحش أي انتباه. وفي النهاية يتوقف الحديث بينهما. فالأمر لا يستحق الحديث. هو لا يجد طريقة لفهم إحباطها، إذ تبدو حياتها له سهلة جدًّا. وهي بالمثل تشعر أنه لا يمكن أن يعرف كم أيامها مروعة.

يصبح الحديث مجرد صراع قوة. هي تعارض نتيجة قوة العادة. إذ لماذا يجب أن يكون دائمًا على حق؟ على حق دائمًا؟ وينخدع الرجال بالوضع لأنهم لا يمكن أن يقتنعوا أن مسألة ما هي مجرد ذريعة لنوع آخر من المواجهة. أتذكّر خلافًا دار بين والديّ حول حسنات شجرة ضخمة كانت تصارع للنمو أمام بيتنا مباشرة وسيئاتها. تكبّد والدي عناء تقليب الأمر على جميع جوانبه، وقرّر في النهاية أن من الأفضل ترك الشجرة تصارع فترة أطول من الزمن لأنها كانت قد تعرّضت لأذية نتيجة إنشاء البيت، ويمكن أن تتحسّن في موسم آخر. أما أمي فقد كانت توارب رافضة أن تواجه المسألة مباشرة إلى أن قرّر الوالد قرارًا قاطعًا بأنه ضد قطعها. خرجت أمي في اليوم التالي، وأزالت لحاء الشجرة على شكل دائرة حول جذعها ليصبح موتها مؤكدًا، ما يستدعي قطعها في نهاية المطاف. كان والدي قد قرّر في وقت سابق على ذلك أن الحياة في البيت لا تطاق؛ فأخذ يقضي وقتًا أطول فأطول في النادي، ولم يعد يرجع إلى البيت إلا للنوم. لم تحتج والدتي على ذلك لأنه منحها فرصة التسلّط على الأطفال، وصارت تستغلهم في تجريد والدي كليًا من حقوقه. لكنّ نساء كثيرات يضعن قيودًا ثقيلة على استجمام أزواجهن نتيجة الغيرة. ويأتي الاعتراض تحت مبررات عديدة، منها ما يتعلق بالمصروف، ومنها ما يتعلق بالوحدة (وهي غالبًا حقيقية)، ومنها ما يتعلق باقتحام الغرباء للبيت، ومنها ما يتعلق بالمساعدة في جوانب من إدارة البيت. تنجح نساء الطبقة العاملة في تقنين استجمام الزوج بشدة، فيخصصن له المال بعد أن يأخذن المصروف من جيب الزوج عندما يعود إلى البيت في آخر الشهر مع راتبه. أحد التحديات القليلة التي تواجهها دولة الرفاه هو رفض الأمان الذي يمثّله القمار، كما تعارض الزوجات بشدّة هذا الشكل من الترويح عن النفس، ويقمن بدورهن في تثبيت أزواجهن ضمن النظام. كما

ويعارضن قدر المستطاع الترويح عن النفس بالسكر، وتكون أسبابهن أحيانًا وجيهة، أما، في أغلب الحالات، فهي ليست كذلك. إن درجة السكر التي تنتقدها النساء بحدة خفيفة جدًا إلى درجة لا تكاد معها تذكر. ويكون الكثير من العنف الذي يوقعه متعاطو الخمر بنسائهم نتيجة توبيخاتهن المنطوقة والصامتة لهم. ترفض الزوجات أن يدركن حاجة أزواجهن إلى أنواع متنوعة من الترويح عن النفس لأنهنّ يشعرن أنه مهما كان وضع الزوج سيئًا فإنه لا يقارن بسوء وضع المرأة، ومع ذلك، لا تسعى النساء إلى الترويح عن أنفسهن، على الأقل علنًا.

الجانب الأبشع في هذا الاشتباك العائلي هو استخدام الأولاد سلاحًا في المعركة. ليست جميع النساء يائسات مثلما كانت أمي وهي تغمغم لي أن أبي «تيس عجوز خرف». يكون استخدام الأولاد عادة سلاحًا وذريعة للخلاف أكثر مكرًا. لمصلحة المرأة أن تبقي أولادها أطفالاً أطول فترة ممكنة، لأنهم بذلك لا يستطيعون التبرؤ منها حتى لو كانوا صبيانًا، لأنهم بحاجة إلى خدماتها. وهي تهزأ من والدهم لأنه لا يعرف ما الذي يحتاجون إليه، وتصرخ حين يصطحبهم إلى مباراة في كرة القدم تحت المطر، وتلحّ على انتظارهم عندما يخرجون من البيت، لأنها تغار من الحرية التي ينعمون بها لأنها تبدو دائمًا أكثر من الحرية التي تنعم بها، ولأنها تريد أن تثبت أنهم بحاجة إلى توسلاتها ومراقبتها. أما حالات استغلال الأطفال الأكثر تطرفًا من جانب النساء فهي أندر لكنها أكثر لفتًا للنظر. والحالة الواضحة على ذلك هي حثّ الابن على خلع الأب، وهي أكثر شيوعًا في العائلات الفقيرة التي يمكن فيها التشديد على نواقص الأب على نحو لا يرحم. ويقبل الابن رواية الأم عن عذابها على يدي أبيه القاسي، ويسعى مثل **ساتورن** إلى أخذ مكانه في بيته. أما في الحالات الأقل أوديبية، فربما يجد الابن نفسه معرضًا لهجوم أمه فيما والده هو الهدف الحقيقي. أذكر أن أمي جثت

مرة فوق صدر أخي الصغير، وانهالت بقبضتيها ضربًا على وجهه أمام أبي الذي هدّدها بالضرب إن لم تتوقف، وكانت تلك هي المرة الوحيدة التي أوشك أبي على ابتلاع الطعم الذي نصبته له فيما أذكر. كان أخي حينها في الثالثة من العمر.

كثيرًا ما تتجلّى برودة الزوجة الجنسية على هيئة حرمان للرجل من متعة ما، من باب العقاب له، مع أنها لا تعترف بذلك قط. وبالمثل، غالبًا ما تكون المبالغة في الأمراض إلى حد الهوس والهاجس نتيجة التعرض لتوبيخ دائم، وليست ذات منشأ عضوي بالمطلق. وأدهى أشكال هذه الحالة هي تلك التي تبقي الزوجة واقفة على قدميها طيلة فترة تقلبات المرض حتى يشعر الجميع بالذنب، شعور يفاقمه إحساس الجميع بالغيظ من هذا الاستشهاد الحاذق الذي تجبرهم على مراقبته. إن سحب الخدمات الجنسية أو تقنينها هو سلاح مهم في التعبير عن الغيظ من الرجل. والحق أن الجنس، حتى في الطبقات العليا نسبيًا في المجتمع الإنكليزي (بين زوجات بعض زملائي على سبيل المثال)، يُمنح للزوج بوصفه مكافأة على إنجاز ما أو مؤاساة على نكسة ما. والابتزاز الذي تمارسه المرأة هنا هو أن الجنس لا يعني أي شيء لها، فيشعر زوجها بالبهيمية والامتنان في الآن ذاته، لأنها سمحت له باستخدام ثقبه الزواجي. في هذه الأيام، يجري هذا النوع من المفاوضة كثيرًا في مظهر دراما ضبط النسل، حيث تجد الزوجة نفسها غير قادرة على تحمّل أي نوع من وسائل منع الحمل، بل وتزعم أنها لا تجد أي متعة في الجماع إلا إذا كان بقصد التناسل، أو تجبر الزوج على الجماع المبتور. وعندما يخفق ذلك في النهاية، يمكنها أن تزعم أنه خانها لأنه بهيمة أناني. التنويعات في هذا الموضوع كثيرة. والمرأة نفسها هي الخاسرة في جميع الحالات، لكن، بما أنه ليس لديها أي تصور عن الكيفية التي تستطيع بها أن تكسب باعتماد موقف

مختلف، فليس لذلك أي أهمية في دافعها. فهي عازمة على الانتقام منه.

وفي حين يمكن تفهم إثارة زوجة لزوجها حتى يبذل جهودًا أعلى عبر ملاحظتها أن عائلة ما تملك ما لا يملكون، فإن السبب الرئيسي للإشارة إلى ما تملكه تلك الأسرة هو، في المقام الأول، مقابلته مع ما يملكون، والتشديد من ثم على عجز الزوج. في مثل تلك الحالات، تدفع الزوجة زوجها إلى الخاتمة التي يمكن التنبؤ بها، إلى أزمة قلبية، وتمضي هي إلى ترمّل طويل الأجل، وليس هذا، بمعنى ما، ما كانت تريده، لأنها لم تعط قط فرصة فهم دوافعها للتعجيل بزوجها إلى حتفه. هذا جانب آخر من جوانب الغيرة من حياة الرجل خارج البيت، غيرة تدفع الزوجة في الحالات القصوية إلى الإلحاح على زوجها حتى يترك عملاً يحبه، ويقوم به على أكمل وجه، ليقوم بعمل مضجر لكنه يدرّ مالاً أكثر ومن شأنه أن يبقي العائلة في مستوى مثيل لغيرها من العائلات. تعتبر متلازمة روزامند ـ حيث قدّمت جورج إيليوت (George Eliot)، في وصفها لزواج لايدغيت الكارثي، المثال على تلك الحبيبة المفسَدَة[353] ـ أكثر أشكال الغيرة الأنثوية من الحياة الذكرية تطرّفًا، والتي تؤدي إلى صعود ذلك النوع من الحوار الذي لا ينسى «أنت تحب ذلك الستراديفاريوس السخيف أكثر مما تحبّني» وما شابه. الشخصية المتمّمة هي تلك الشخصية الشائعة بالدرجة نفسها، أي الزوجة التي تتخلّى عن كمانها لتصبح زوجة طيبة لزوجها، والتي يتحّلى الجميع بدرجة من الأدب تمنعهم من الإشارة إلى أنها كانت ستصبح عازفة كمان سيئة على أي حال. أرخص شكل هو تعداد العدد الكبير من الرجال الناجحين الذين كان من الممكن أن تتزوجهم، أو اللوم العام «لقد منحتك أفضل سنوات عمري!» كثيرًا ما يدفع الرجال

353- George Eliot, *Middlemarch.*

إلى الاقتناع بأن دوافع النساء إلى هذا النوع من السلوك الاستفزازي هي دوافع بقصد الكسب فحسب، لكنّ الحقيقة هي أن الدافع غالبًا أبسط من ذلك، إنه الغيظ الذي يوحي لهن بالحاجة إلى إثبات أن الرجل غير ملائم، أو أدنى منهن معنويًا، أو الأمرين معًا. يمكن استخدام أي حلفاء في القتال، وهم يستخدمون فعلاً. الأطباء والمحللون النفسيون والصديقات وحتى السكرتيرة أو الرئيس في العمل، بالإضافة إلى الأولاد، يمكن تجنيدهم جميعًا في النيل من الزوج. لا يمكن اعتبار فعالية العملية نصرًا نسائيًا، بل ببساطة الثمار الفاسدة لانتقام غير معترف به.

يقدّم **تشارلز شولتز** (Charles M. Schultz) رواية أفضل بكثير عن تدميرية النساء البائسة تلك، وذلك في وصفه لـ**لوسي فان بيلت** في ملحمة **فستق العبيد** (Peanuts) الرائعة. قلق **لوسي** النقّاق المتواصل، وانغلاقها على كل أنواع المعاناة عدا معاناتها، وإثارتها التي لا ترحم لمخاوف النقص لدى **تشارلي براون**، وفضيلتها في عين ذاتها، وغيرتها من دثار **لينوس**، وجهلها التام بموسيقى **شرويدر** (Schroeder) إضافة إلى محاولاتها الخيالية لإغوائه، ومزاجها النكد، وهرجها ومرجها حول ميزانيتها، وحدّتها الشيطانية في تدبيرها المنزلي، وعجزها عن الابتسام إلا بخبث، وتأثيرها في فريق **تشارلي براون** المنحوس للبيسبول، كل تلك الأمور موجودة هناك، وأي امرأة لا تستطيع أن تتميز صورتها الخاصة، وإن على نحو باهت، في ذلك الوجه الصغير التعيس، يعني أنها لم تفهم بعد خطورة وضعها. على أي حال، الصورة التي يرسمها **شولتز** للمرأة المستعدة للمعركة ليست كاملة. وحتى نكمل تدميرية **لوسي** نحن بحاجة إلى رواية **ستريندبيرغ** (Strindberg) عن المعركة القاتلة بين الجنسين، في **رقصة الموت** (The Dance of Death)، وكذلك إلى روايات **إبسن** الأكثر انحرافًا

في مسرحيات من مثل **هيدّا غيبلر** (Hedda Gabler) وبيت الدمية. إنها معركة تخاض بالزيف والرياء، بضربات مكتومة ونظرات غدر متبادلة تشبه إلى حد بعيد تمثيلية، وقد وصف **إريك بيرن** (Eric Berne) بعض أشد التكتيكات التي تتبناها النساء سطحية في كتابه الذي استحق الاحتفاء الذي حظي به، **الألعاب التي يلعبها الناس** (The Games People Play)، لكنّ أي امرأة تقرأ الفصل السابع منه، الذي يحمل عنوان **ألعاب الزواج**، يمكن بسرعة أن تضيف نقطة أو أكثر عن أساليب الاشتباك التي أغفلها في كتابه. آخر تعليق على شبك التلاعب العملاق برمته، والذي يميّز معظم علاقاتنا، وعلى رأسها تلك التي بين الجنسين، من الأب والابنة، إلى العتيق والأعتق، والزوج والزوجة، والأم والابن، هو الذي عبّرت عنه كلمات بيرن أفضل تعبير. «يلعب الأشخاص القلقون ألعابًا كثيرة بأقصى ما لديهم من جد؛ وإذا تحدثنا على نحو أعم نقول: كلما زاد قلقهم، زاد الجهد الذي يبذلونه في اللعب». إن البديل عن لعب الألعاب، عن العملية الدفاعية المتمثلة بلعبة الحرب، هو ما يجب على كل امرأة أن تسعى الآن إليه: الاستقلالية.

هناك لدى أشخاص محظوظين معيّنين شيء ما يسمو على جميع تصنيفات السلوك، وذلك الشيء هو الوعي؛ شيء يرتفع فوق برمجة الماضي، وذلك الشيء هو العفوية؛ شيء أكثر إثابة من اللعب، وذلك الشيء هو الألفة. لكن هذه الأشياء الثلاثة قد تكون مخيفة، بل وخطرة، لمن هو غير مستعد لها. ربما يكونون في وضع أفضل عمّا هم عليه الآن، يبحثون عن حلّهم في تقنيات الفعل الخاص الشعبية، من مثل «الوجود معًا». قد يعني ذلك أنه لا أمل للجنس البشري برمته، لكن هناك أمل للأعضاء الأفراد فيه[354].

354- Eric Berne, *The Games People Play* (London, 1964), p. 162.

التمرّد

لطالما وجدت نساء تمرّدن على دورهن في المجتمع. وأشهرهنّ الساحرات، أي تلك النساء إللواتي انسحبن من العلاقات الإنسانية «العادية» ليعشن مع حيواناتهن ورفيقاتهن، وليكسبن قوتهن عبر استغلال معارفهن بطب الأعشاب وسذاجة الفلاحين، وربما عبر الانخراط في تأمل إمكانيات أخرى، مثل السحر الأبيض أو الأسود، أو عبادة الشيطان. تكشف القراءة الدقيقة للشهادات في محاكمات الساحرات أن بعض النساء قد اضطهدن بالطريقة المريعة المخصصة للساحرات لأنهنّ كنّ يثرن المتاعب بتحريضهن القرويين على التدمير أو التمرّد. وكانت إحدى العقوبات، وهي كرسي التعذيب (ducking stool)، الشكل الأكثر بدائية من العلاج النفسي العقابي، وهو يماثل علاج النساء السوداويات والمتمرّدات بالصدمة في عصرنا الراهن.

كانت هناك امرأة معروفة بجرأتها الفائقة
وكانت مشهورة بأنها فاجرة سليطة اللسان؛
ويبدو أنها ذات مرة أساءت لمن هم أعلى منها مقامًا
فأرسلوها إلى السجن، مقيّدة بالأغلال:
ولمّا حان يوم استدعائها إلى المحكمة،
كان هذا هو القرار الذي اتُّخذ ضدها في حضرة الرجال الوقورين:

يجب تغطيسها في الماء حتى يغمر رأسها وأذنيها،
في بركة عميقة أمام المراقبين.
غُطّست في الماء ثلاث مرات، لكنها لم تصب بالإغماء،
ولم أرَ أنها قد رُوّعت ولو لبرهة من الزمن؛
لأنها حين كانت تُغمر بالماء،
كانت تصفّق بيديها فوق رأسها،
لتشير إلى أنها لم تكن حينها قادرة على الكلام،
لكن لتتأكد أيضًا من أن يديها قادرتان على الحركة؛
كانت خائرة القوى، لكنها مليئة الإرادة،
ولو استطاعت لاستمرت في توبيخهم:
لأنها بعد ذلك، حين رفعوها
شتمتهم جميعًا بقسوة
وهذا يثبت أن بعض النساء تعوزهن الفطنة المعقولة؛
الفطنة التي لو امتلكنها لاستسلمن بسرعة[355].

إن الخلاصة الباطلة التي تنتهي بها هذه الحكاية هي مثال نموذجي على الغطرسة الذكرية؛ ويمثّل رفض التفكير في محتوى شكواها صفة مميزة للروايات المحافظة عن محاولات النساء التصرف من تلقاء ذاتهن على أمل تغيير شروط حياتهن. إن الاتهام بحسد القضيب أو الإحباط أو الانحراف لم يعد جديرًا بالاحترام أكثر من افتراض كاتب مغفل الاسم أن بطلته تعوزها الفطنة المعقولة. سنعرف المزيد عن تاريخ النسوية عندما نتعلّم أن نقرأ ما بين الأسطر في حالات حرق الساحرات وغيرها من أشكال اضطهاد النساء. لقد انضمّت هرطوقيات كثيرات، مثل عضوات عائلة الحب (Family of Love)،

355- *The Anatomy of a Woman's Tongue divided into Five Parts* (London, 1963), Epigram III, p. 173.

إلى تلك الطائفة لأنها قدّمت لهن فرصة جديدة لتقرير مصيرهن[356].
لا شك في أن ظاهرة النميمة النسائية تنطوي على عناصر نسوية، وهي ظاهرة تستجر التعاون بين النساء لخداع الأزواج وإثراء الزوجات، بالإضافة إلى تدبير أمور الزنا والإجهاض، وهناك دليل على أن النساء المتعلمات على مرّ العصور كنّ ينفرن على وجه الخصوص من الخضوع لسيادة الذكور: وحتى الآن مازال التعليم يعتبر على نطاق واسع سبب العلّة، وليس سيادة الذكور.

وفي السياق ذاته، يمكن فهم الكثير من السحاقية، ولاسيما النوع المسترجل منها، بوصفها ثورة على قيود الدور الأنثوي المتصف بالسلبية والرياء والفعل غير المباشر، إضافة إلى رفض وحشية وميكانيكية رغبة الذكور الجنسية. تتضمن كل أشكال السحاق ابتكار طريقة بديلة في الحياة، حتى ولو استمرت قطبية الذكر ـ الأنثى في العلاقة إلى حدّ وجود نموذج مذكر ونموذج مؤنث فيها. وعلى أي حال، لا تستخدم السحاقيات من النموذج المذكر القضيب الاصطناعي (dildo). يُظهر انتشار السّحاق، بوصفه الأسلوب الرئيسي الذي تمارس به السحاقيات الجنس، انعدام الأهمية النسبي للخيالات المذكرة في العلاقة. لكن هذه الانحرافات الجنسية عوملت بكثير من الفضول الداعر والإهانة العنيفة إلى حدّ أن معظم السحاقيات عاجزات عن جعل الخيار البديل الذي اخترنه يرقى إلى مستوى الفعل

356- كانت عائلة الحب طائفة إنكليزية نشأت في هولاندا بقيادة هيندريك نيكلايس (Hendrick Niclaes)؛ وكانت تسعى إلى إعادة توحيد الرجال في الكيان الصوفي (Mystical Body). انظر:
A brief rehearsal of the belief of the good-willing in England (1656), *A Description of the sect called The Family of Love: with their Common Place of Residence*. Being discovered by Mrs Susannah Snow of Pinford near Chertsey in the County of Surrey, who was vainly led away for a time through their base allurements (1641), and *The Displaying of an horrible sect of...Heretiques* (1578).

السياسي. إن المواقف التي تجعل السحاقية تحسّ بالذنب والعار هي التي تدفعها إلى أن تخفي حقيقتها، وتعزو وضعها خطأ إلى علّة خلقية أو إلى أخطاء الأهل. صحيح أن عجزها عن لعب دور مقبول في المجتمع ربما يكون ناتجًا عن فشل في التكيّف، لكنّ ذلك في حدّ ذاته ليس تجريدًا من القدرة على اختيار السّحاق بطريقة محترمة وحصيفة ورافضة لمشاعر العار والدونية بوصفها مسألة مبدأ، سواء وجدت هذه المشاعر أم لا. يمكن للسّحاقية أيضًا أن تزعم بأن ليس أمامها مسلك آخر مقبول تتبعه، وتصبح بالتالي مدافعة عن طريقتها في الحياة. ولسوء الحظ، كثيرًا ما تعمي الأفكار الزائفة عن «السواء» بصيرتها تمامًا مثلما تعمي بصيرة نُقّادها.

النساء الأكثر إدراكًا لأشكال العجز التي تعاني منها النساء عامةً هنّ النساء المتعلمات إلى حدّ المطالبة بنوع من التقدم مثيل لذاك الذي للرجال، وهنّ جديرات به. هناك في المؤسسات التعليمية القائمة على عزل النساء جوّ غريب من الثورة المكتومة. معظم المعلمات غير متزوجات، وليس لهنّ أي تعامل يذكر مع الجنس المقابل. وتشتبه طالباتهن بأنهنّ يقمن علاقات جنسية فيما بينهن، وهناك بالتأكيد شيء من القوة في علاقاتهن الشخصية، وهو ما ينمّ عن درجة معينة من الافتتان أو التعلّق المنحرف، على الرغم من أنني أزعم أن الحالات المتطرفة من الكبت التي تمارسها تلك النساء على أنفسهن في مجالات أخرى تشير إلى عجز في هذا المجال. عندما رفعت مجموعة من الطالبات قائمة من المظالم المكتوبة بشيء من الفظاظة إلى مديرة كلية نسائية ـ ابتليت لسوء حظي بالبقاء فيها سنة كاملة قبل أن أتمكن من الفرار ـ جمعت زميلاتها حولها في غرفتها هوليوودية التصميم، ورفضت أن تعالج المسائل الواردة في العريضة، وركّزت على أنهنّ أردن لنا أن نكون سعيدات جدًا، وأننا قد جرحنا مشاعرهن بسلوكنا

ذاك. إن الامتناع عن استخدام مواد التجميل وأعمال الإغراء هو نوع من الثورة النسائية، ولا شك في أن بعض متمرّدات تلك المؤسسة التعليمية قد طوّرن موقفًا يستخفّ بالمظاهر إلى درجة مؤثرة وجديرة بالاحترام، حتى ليمكن القول إن الدّماثة مرّت على ذلك المجلس مرور الكرام. إذ كانت سيدة بارزة من تلك السيدات ـ كان جسمها المنتفخ في ثوب سباحتها المحبوك الأحمر كفيلاً بأن يصيب بالشحوب وجه أي زميل ذكر ـ مشهورةً بأنها تضرط وتتجشّأ على المائدة، وقد رأيتها مرة تلتقط قطعة حلويات سقطت من يدها على الأرض، وتضعها في صحنها، وتأكلها باطمئنان تامّ. وبدلاً من التسليم بوجود نوع من الخلل الوراثي لدى أولئك النساء الموهوبات، يجب أن أقول إن أصواتهن الجهيرة وخطواتهن المتثاقلة هي ردّات فعل متعمدة على حديث النساء الهامس وسيرهن خفيف الوطء مثل القطط. وقد ساعدهن في ذلك وجود نموذج بريطاني مقولب مقبول عن المرأة الريفية الأرستقراطية الجيدة في الرياضة والتي تفوق كثيرًا من الرجال في قدرتها على الإمساك بقبضة المحراث أو لجام الحصان. لم تضاهيهن سوى نسبة صغيرة من الفتيات الواقعات تحت رعايتهن، لأن معظمهن كنّ ما يزلن في المراحل الأخيرة من سن البلوغ، ويتطورن وفق معايير أنثوية أكثر تقليدية على الرغم من محاولات معلماتهن أن يجعلنهن يتابعن لعب الهوكي، ويحرزن علامات تفوق علامات الذكور في نهاية العام الدراسي.

إن مثل هذه الأشكال غير الملحوظة وغير الواعية من التمرّد على الدور الأنثوي قديمة وغير فعّالة. وإذا كان لنا أن نقارنها بمعدل المثلية الجنسية الموجبة العالي بالإضافة إلى العجز والتخنّث بين المقيمين الذكور في مؤسسات التعليم العالي، فقد نتلمّس ردّ فعل صحيح على القالب الذكري ذي العضلات القوية والحساسية الضعيفة، لكن طالما

بقي الوضع غير مسوّغ، فليس لتلك المقارنة أهمية إلا بوصفها دافعًا شخصيًا أو عاملاً جزئيًا في العُصاب. لكنّ التسويغ قد بدأ، وقد بدأته في البداية نساء من هذه الطبقة، وهنّ الأكثر استفادة من جنسهن. إن تاريخ حركة المستقرعات واستمرارها حتى يومنا هذا خارج نطاق هذا الكتاب، لكن من الجدير بالملاحظة كم من النساء المناضلات اليوم يستطعن أن يتذكرن بعض السيدات العجائز الاستثنائيات اللواتي حاولن (عبثًا) أن يزرعن بذور التمرد في عقولهن. تظهر على شاشة التلفاز بين حين وآخر نساء عجائز حيويات على نحو مدهش، أو يكتب لهنّ نعي مع نبذة عنهنّ في التايمز لتذكيرنا، لا باستمرارية الحركة فحسب، بل وبالبراعة التكتيكية والشجاعة البهيجة التي تمتّعت بها سيدات كنّ يرتدين التنانير الداخلية والمشدّات والقبعات قبل جيل واحد فقط. لم يكن التقدّم منذ أيامهن منتظمًا: فقد تقلبت ملابس النساء بين المرسلة وغير المقيّدة والفضفاضة والضيقة، وكانت بطلات الروايات شجاعات وفكهات، ومن ثم عدن مرة أخرى مثيرات ومتيمات. كانت بداية الموجة النسوية الثانية، التي يجب أن يعتبر هذا الكتاب جزءًا منها، هي البحث الذي أجرته بيتي فريدان عن البيع الجنسي في فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية، والتي أخرجت النساء الأمريكيات من المعامل، وأعادتهن إلى بيوتهن. السيدة فريدان خريجة بدرجة الشرف في جامعة سميث، وقد حازت على زمالة بحثية في علم النفس في جامعة بيركلي، وهي امرأة مهنية ذات شهرة واسعة وإنجازات كبيرة. قادها ما اكتشفته خلال السنوات الخمس التي أمضتها في تأليف كتابها إلى إنشاء المنظمة الوطنية للنساء، وهي الحركة النسائية الأكثر تأثيرًا في أمريكا، ويصل عدد عضواتها اليوم إلى أكثر من ثلاثة آلاف، ولها فروع في مدن كثيرة. وفي نقطة ما على الطريق، طلّقت زوجها الذي أهدت الكتاب إليه. وحركتها هي الوحيدة

التي قُيِّض لها أن تحقق درجة من الاعتراف من جانب المؤسسة السياسية. عندما أنشئت **المنظمة الوطنية للنساء**، أصبحت حاضرة في محاضر الكونغرس؛ وهي تؤمّن الدافع والكادر لأعداد كبيرة من المجموعات واللجان النسائية التي تدخل حاليًا في مختلف هيئات الكونغرس. من الواضح أن ما تقترحه السيدة **فريدان** لا يمكن أن يكون راديكاليًا بأي حال من الأحوال. إذ تقوم قضيتها بالكامل على الإحباط الذي عانت منه المرأة المتعلمة الواقعة في فخّ الفكرة الفرويدية القائمة على أن الفيزيولوجيا قدر المرأة. يبدو أن الجنسانية، عند السيدة **فريدان**، تعني الأمومة، وهي حجة تضلّل مجموعات نسوية أخرى، بحيث أنها في رفضها دور النساء الجنسي المعياري مجبرة على التشديد على الجوانب غير الجنسية من قدرة المرأة على حساب طاقتها الجنسية، وهو خطأ ستكون له عواقب خطيرة. تمثّل **فريدان** صفوة النساء الأمريكيات من الطبقة الوسطى، وما تريده لهنّ هو المساواة في الفرص ضمن الوضع الراهن، أي حرية الدخول إلى عالم القرحة وأمراض القلب. لقد استأنفت الحملة من أجل سنّ تشريع يتضمن تعديلاً ينصّ على الحقوق المتساوية بين الجنسين، وهي حملة بدأت في عام 1923، ومن أجل إلغاء قوانين الإجهاض مقدّمة حججًا بارعة جدًا، ومجادلة بأن تلك القوانين غير دستورية وتشكّل خروقًا للخصوصية وقيودًا على حرية التعبير وهلمجرًا. وهي تشعر أن مشكلات عُصابات ربات المنازل ستُحلّ عندما يشتركن في الحياة الاجتماعية، ويُشجّعن على التطلع إلى ما يتجاوز المطبخ، أي إلى المجتمع[357]. لقد نجحت حتى الآن في «إجبار» **نيويورك تايمز** على تعزيز ما عرف عنها من بعد عن التحيّز وتحرّر من التعصب الذكري بأن ألغت التمييز في إعلاناتها عن فرص عمل. لكنها لم تتمكّن بالتأكيد من إلغاء التمييز

357- Betty Friedan, *The Feminine Mystique* (New York, 1963).

في الوظائف: ذلك أن النتيجة المباشرة لإلغاء التمييز في الإعلانات كانت أن عددًا أكبر من النساء المؤهّلات قد هدرن وقتًا أطول وطاقة أكبر في القراءة عن وظائف ليست لديهن أدنى فرصة في الحصول عليها، وفي التقدّم إلى تلك الوظائف، لينتهي الأمر برفض طلباتهن. طالما استمر أرباب العمل، بمن في ذلك السيدات منهم، في تفضيل الموظفين على الموظفات، فإن تلك الإصلاحات الرمزية لن يكون لها سوى نتائج سلبية. قاطعت **المنظمة الوطنية للنساء** أيضًا شركة **كولجيت ـ بالموليف** احتجاجًا على تمييزها في الوظائف، لكنها لم تشنّ أي هجوم ذي معنى على كامل صناعة مواد التجميل السخيفة، في حين تشكل المقوّمات التافهة ذاتها جميع المستحضرات من أرخصها إلى أغلاها، وتعزز الدعاية المهينة إحساس النساء بعدم الأمان والذي يدفعهن إلى شراء تلك المستحضرات التافهة بأكثر من أي وقت مضى. واقتحمت **المنظمة الوطنية للنساء** أيضًا حانة في فندق بلازا حيث لم يكن يسمح للنساء بالدخول إلا في أوقات معينة من النهار وبرفقة رجل حتى في تلك الأوقات.

لم يمض وقت طويل حتى أدركت العضوات الذكيّات في **المنظمة** أن أهدافهن محدودة جدًا وأن تكتيكاتهن لطيفة زيادة عن اللزوم. إحدى النساء الأكثر إثارة للاهتمام ممن ظهرن في الحركة هي **تاي غريس آتكينسون**، قائدة المجموعة النسائية الأكثر جذرية ونخبوية والتي تحمل اسم **النسويّات**، وهي منظمة سياسية تسعى إلى إلغاء الأدوار الجنسية، وتضمّ مجموعة مغلقة من الداعيات السياسيات اللواتي يحاولن تطوير فكرة مجتمع بلا قيادة، وفيه لن تعود الأعراف القائمة على الحب («رد الضحية على المغتصب») وعلاقة الزواج القائمة على الملكية وحتى الحمل الرحمي مسيطرة. وتتميّز أحكامهن بأنها مليئة بالحكم وبأنها قوية، ولا بدّ أن تبدو للمرأة العادية المضطربة مخيفة.

وهنّ يصوّرن الرجال على أنهم العدو، وطالما أن الرجال مستمرّون في رسم أدوارهن على النحو الخاطئ الذي يتصورونه، ويؤبّدونه بفعلهم وفعل النساء معهم، فهنّ بالتأكيد على حق. ومع ذلك، ليس صحيحًا أنك بحاجة إلى نظرية ثورية ليكون لديك ثورة: فقد يكتشفن أن نظرية ابتكرتها عقول أصابها النظام بالسقم لن تتمكن من الانتفاع من حقائق واقع متغيّر. ومن الخطر إتباع تكتيك ثوري يقوم على تحاشي الجنس لأنه غير أصيل واستعبادي في الشروط التي يتوفر فيها الآن، حيث الجنس هو المجابهة الرئيسية التي يمكن أن تفضي إلى قيم جديدة. إن الرجال هم العدو بالطريقة ذاتها التي كان فيها فتى مخبول يرتدي البزّة العسكرية عدو فتى مثله في معظم الجوانب عدا البزّة العسكرية. وأحد التكتيكات الممكنة هي أن نجعلهم يخلعون بزّاتهم.

كان الجناح اليساري الجامعي هو القوة الدافعة لمعظم مجموعات تحرير النساء الأحدث عهدًا. ففي عدد تشرين الثاني/نوفمبر ـ كانون الأول/ديسمبر من مجلة **نيو ليفت ريفيو** (New Left Review) في عام 1966، نشرت **جولييت ميتشل** (Juliet Mitchell) العرض الأكثر تماسكًا لموقف النسوية الاشتراكية، وقد طُبع هذا العرض بأشكال شتى، ويبقى أساس معظم التنظير الاشتراكي حول الموضوع، على الرغم من أنه ناقص بوضوح من الناحية التكتيكية. تستند مقالة **النساء ـ أطول ثورة** (Women—The Longest Revolution) مباشرة إلى أفكار **ماركس وبيبل** (Bebel) **وانجلز**. وهي، على عكس منظرين آخرين، لا تنخدع بأنثروبولوجيا **إنجلز** الملتبسة، بل تلتزم بالتمحيص الدقيق في الحقيقة التي يمكن إقامة الدليل عليها. «... وعلى النقيض من ضعف النساء الجسدي الذي يبعدهن عن العمل الإنتاجي، فإن ضعفهنّ الاجتماعي قد جعلهنّ، في تلك الحالات، بالتأكيد عبدات له»[358].

358- Juliet Mitchell, 'Women—The Longest Revolution', *New Left Review*, November—December 1966, p. 18.

وهي ترى أن التصنيع المتزايد لا يضمن للنساء مكانًا في العمل الإنتاجي، لأن ما أبقاهنّ بعيدات عنه ليس العجز في قوّتهن العضلية، بل تطوّر الملكية الخاصة، ولاسيما تطوّر الملكية الخاصة لوسائل الإنتاج، ونفي النساء إلى وضع يكنّ فيه أشبه بخادمات مميزات يمارسن فيه الترف البديلي. وهذا الدور، بدوره، يتحدّد ببنية العائلة التي يفترض بالضرورة أنها بطريركيةً، حيث يجري تحريف التكاثر إلى محاكاة ساخرة للإنتاج، والجنسانية إلى استغلال سادي، وتهيئة الولد للمجتمع بوصفه مسؤولية المرأة الفريدة الممتدة. لا بدّ من إعادة التفكير في هذه البنى الأربع: الإنتاج والتكاثر والجنسانية والتهيئة للمجتمع، إذا أردنا أن نحصل على أي تغيير كبير. ولأن جولييت ميتشل تنبّأت بالتطورات التي ستنجم سريعًا عن نشاط النساء في الحركات الاشتراكية، كانت النتيجة التي خلصت إليها تعمل على دمج الحركة النسوية بالثورة البروليتارية، وذلك على الرغم من معرفتها بعدم وجود أي مؤشر في بنية المجموعات الموجودة أو الأنظمة الاشتراكية الموجودة على أن مثل تلك الخلاصة ستحترم:

> ... يجب أن تعني الاشتراكية لا إلغاء العائلة، بل تنويع العلاقات المعترف بها اجتماعيًا والتي هي اليوم محشورة فيها على نحو قسري ومتصلب. وسيتطلب ذلك طيفًا واسعًا من المؤسسات التي ليست العائلة سوى واحدة منها، وإلغاؤها لا يتضمن إلغاء أي منها. الأزواج الذين يعيشون معًا أو لا يعيشون معًا، الاقتران طويل الأجل الذي ينتج أطفالاً، والأب (ذكرًا أو أنثى) الوحيد الذي يربّي أطفالاً، والأطفال الذين ينشؤون على يد أبوين بالتبنّي، لا على يد الأبوين البيولوجيين، ومجموعات القرابة الممتدة ـ يمكن تجميع كل هذه الأشكال في طيف من المؤسسات التي تلائم خيارات الرجال والنساء الحرّة والمتنوعة.

سيكون ضربًا من الوهم أن نحاول تحديد الأشكال التي ستأخذها هذه المؤسسات. فالروايات المتعلقة بظروف مستقبلية هي روايات مثالية

وساكنة، وهذا الأسوأ. أما الاشتراكية فستكون عملية تغيير، صيرورة. إن رسم صورة ثابتة للمستقبل هي، في أسوأ معانيها، غير تاريخية؛ أما الشكل الذي ستتخذه الاشتراكية فيتوقف على النمط الرأسمالي السابق عليه وعلى طبيعة انهياره... ولن يكون تحرير النساء في ظل الاشتراكية إنجازًا «عقليًا» بل إنجازًا إنسانيًا، وفي المسيرة الطويلة من **الطبيعة** إلى الثقافة يكمن تعريف التاريخ والمجتمع[359].

جرت محاولة أخرى أكثر سذاجة لإثبات أن نضال النساء ضد الظلم يشكل جزءًا من الصراع الطبقي في وقت يعود إلى عام 1954، وكانت على يد **إيفلين ريد** (Evelyn Reed) في النشرة النقاشية (October Discussion Bulletin) الصادرة عن **حزب العمال الاشتراكي** في تشرين الأول/أكتوبر، وفيها تحاول أن تثبت أن التنافس الجنسي وظهور النساء بوصفهن مواضيع جنسية جاءا حصرًا نتيجة الرأسمالية البرجوازية. كما تستحضر فكرة مجتمع بدائي متحرّر من كل أشكال الاستغلال الجنسي أو الملكية أو التنافس، حيث كانت مواد التجميل تستخدم ببساطة بوصفها وسيلة تعريف، وتصف آلة الدعاية للأنوثة بأنها الحيلة الشريرة المتعمدة التي اتبعها الرأسماليون الجشعون في القرن التاسع عشر، ووصلت حدودًا قصوى في القرن العشرين. قد يكون الاتجاه الأساسي لهذا الجدل صحيحًا، لكن من الواضح أن جدالها ينبع من قناعاتها بما تقدّمه من دليل لا يتضمن أي إشارة إلى مصدر تقتبس منه حتى أن أكثر القرّاء تعاطفًا سينفر منه، إلا إذا كان لا يملك أي طريقة لأن يعرف أفضل. وفي عام 1969، أصدرت كل إسهاماتها في قضية المرأة في كراس بعنوان **مشكلات تحرير النساء: مقاربة ماركسية** (Problems of Women's Liberation: A Marxist Approach). وفيها عرضت حججها

359- *Ibid.*, pp. 36—7.

بمصطلحات عقائدية ماركسية نموذجية، مدعومة بأنثروبولوجيا زائفة وبأسلوب مدرسي هزيل. يمثّل الغلاف نسخة طبق الأصل لصورة امرأة على مزهرية أثينية، عُرّفت خطأ على أنها «رمز إلهة النظام الأمومي» في حين هي باخوسية[360] جميلة مع أكواز صنوبر وقط بري ميت. كانت إيفلين ريد ستصاب بالرعب لو أدركت أن عملها قد زُيّن برمز الهبيّة وثقافة المخدرات، بشعر مسترسل وتاج على شكل أفعى وكل هذه الأمور. ينطوي هذا الخطأ على رمزية ما: إذ هناك أملٌ أمام النساء مع ماركوز (Marcuse) أكثر ممّا مع ماركس. يُوزّع الكراس[361] عادة على نطاق واسع، وربما يكون مؤثرًا، وهو أمر يدعو للرثاء على نحو ما لأن كثيرًا من الوقت سيهدر في مناقشة نتائج غير صحيحة. وبالمقابل، كانت مقالة جولييت ميتشل أفضل حجةً وأكثر تدقيقًا.

لم تكن النساء الناشطات ضمن المجموعات الاشتراكية واثقات من أن تحرير الطبقات العاملة من شأنه أن يأتي بالحرية لهن. وقد كان إلغاء ستالين للتشريع السوفييتي المبكر، الذي سمح بالطلاق التلقائي وحرية الإجهاض، وقانونه القائم على مكافآت الأمومة، خيانة سافرة للنساء[362]. وليست زيادة عدد الطبيبات في الاتحاد السوفييتي سوى تحسينًا في دور النساء في الخدمة[363]. لا تُعلّم العاملات في قطاع الإنشاءات في روسيا أي مهارات، ولا يُعطَين أي أدوات[364]. وفي الصين، لم يؤدّ قبول النساء في السلك العسكري ومنع مواد التجميل واللباس غير المحتشم إلى تحسين دور المرأة، بوصفها خادمةً لأسرتها، على

360- نسبة إلى باخوس، إله الخمر. [المترجم]

361- Evelyn Reed, *Problems of Women's Liberation: A Marxist Approach* (New York, 1969).

362- Reich (*op. cit.*), pp. 153—269.

363- Tiger (*op. cit.*), pp. 110—11.

364- Kyril Tidmarsh, 'The Right to do the Hardest Work', *The Times*, 16.2.1967. See also *Women in the Soviet Economy* by T. Dodge (Baltimore, 1966).

الرغم من اجتثاث آفات اتّخاذ المحظيات. وفي صيف عام 1967، مضت إحدى جلسات اجتماع النساء في المؤتمر الوطني لحركة **طلاب من أجل مجتمع ديمقراطي** قدمًا لتصدر بيانًا يعبّر عن مشاعرهن بدرجة ما. ساندت **سوزان سورتهايم** (Susan Surtheim)، التي كتبت عن الجلسة في مجلة **ناشيونال غارديان**، فكرةٍ ارتباط مجموعات التحرير المذكرة مع المجموعات المؤنثة، ورأت أنه تجب دعوة الرجال إلى اجتماعات النساء لأن المشكلة، حسب رأيها، كانت محدودة بعيوب في الأدوار الجنسية. لقد عكس البيان، على النحو الذي صيغ فيه، وجهة نظر نساء مثلها. وخلص إلى:

1. إن أخوتنا في حركة **طلاب من أجل مجتمع ديمقراطي** [يجب أن يدركوا أنهم يجب أن يعالجوا مشكلاتهم المتعلقة بالتعصب الذكري في علاقاتهم الشخصية والاجتماعية والسياسية.

2. يتضح من اجتماع حركة **طلاب من أجل مجتمع ديمقراطي** هذا أنه لم يستفد استفادة تامة من قدرات النساء وإسهاماتهن الممكنة. ندعو النساء إلى المطالبة بالمشاركة التامة في جميع جوانب الحركة من لصق الطوابع إلى شغل المواقع القيادية.

3. يجب أن يكون الأشخاص في المواقع القيادية مدركين لديناميكيات خلق القيادة، ومسؤولين عن رعاية جميع الموارد النسائية المتاحة للحركة.

4. يجب أن تدرك جميع الإدارات الجامعية أن أنظمة الحرم الجامعي تمييزية ضد النساء تحديدًا، وأنها يجب أن تتخذ تدابير إيجابية لحماية حقوق النساء...

إننا نسعى إلى تحرير جميع البشر. ويجب أن يكون النضال من أجل تحرير النساء جزءًا من الكفاح الأكبر من أجل الحرية. وإننا ندرك الصعوبة التي سيواجهها أخوتنا في معالجة التعصب الذكري، ويجب

أن نتحمل مسؤوليتنا كاملة (بوصفنا نساء) في المساعدة على حلّ هذا التناقض.

الحرية الآن! إننا نحبكم![365]

ومما يثير السخرية، أن **نيو ليفت نوتس** (= **نشرة اليسار الجديد**) طبعت في الشهر التالي تمامًا خطابًا لـ**فيدل كاسترو** موجّهًا إلى **الاتحاد النسائي في كوبا**، خطابًا يفترض أن يكون قد بيّن عيوب تلك السياسة. فبعد الاعتراف بإسهام النساء في النضال من أجل الثورة، وشكرهنّ على حمل السلاح إلى جانب الرجال، رجاهنّ العودة إلى أدوارهنّ الوضيعة السابقة:

من سيطبخ للولد الذي يعود إلى البيت لتناول الغداء؟ من سيرعى الأطفال الصغار أو يهتمّ بالأطفال الذين لم يبلغوا سن المدرسة بعد؟ من سيطبخ للرجل عندما يعود من العمل؟ من سيغسل الأشياء وينظّفها ويهتم بها؟[366]

بات من الواضح بحلول خريف عام 1967 أن النساء كنّ يُعدن النظر في وضعهن. كتبت أربع عضوات في **اتحاد الطلاب للعمل السلمي**، وهو منظمة **اليسار الجديد** الرئيسية في كندا، ورقة عنوانها: «**أخواتنا وأخوتنا وأحبابنا... استمعوا**»، واستندت إلى ملاحظة **ماركس** بأنه «يمكن قياس التقدم الاجتماعي بالمركز الاجتماعي للجنس المؤنث». تنطوي الورقة على شيء من التشوّش حول الاختلاف الفعلي بين الجنسين، فكاتباتها لسن واثقات إذا كانت النساء يعانين من معوّق وراثي أم لا، لكنهنّ يأملن، في تبنيهن للفكرة الماركسية بأن التقدم يعني التغلّب على ذلك الاختلاف المتأصّل الذي لا علاقة

365- Quoted in *Towards a Female Liberation Movement* by Beverly Jones and Judith Brown (New England Free Press), p. 2.

366- *New Left Notes*, August 1967.

له بالوظيفة والأهمية الاجتماعيتين، أن يتغلبن عليه دون كبير جهد. وهنّ يعدن صياغة نظرية **جوليت ميتشل** عن البنى الأربع وتنظيرها عن الحتمية الحضارية لدور النساء. نصادف هنا مرة أخرى الوصف اللاذع لدور النساء في الحركات الراديكالية، وقد أبرزه تصريح من **ستوكلي كارمايكل** (Stokeley Carmichael): «إنّ موقع النساء الوحيد في لجنة تنسيق الطلاب اللاعنفيين (SNCC) هو الخضوع».

> بعض نساء الحركة مستعدّات للثورة. نحن نفكر بأنفسنا. ونقوم بما هو ضروري من قراءة وكتابة ونقاش حتى نصل إلى تحليل مهمتنا ونظريتها. ولدينا ما يكفي من التجربة للقيام بذلك. ولدينا الإحباط الناجم عن إقصاءنا ليجبرنا على القيام بذلك...[367]

هناك انطباع بأن الراديكالية عندهنّ هي عملية أكاديمية، وهو انطباع تعزّزه قائمة الكتب التي يدرجنها للقراءة، وهي الأولى من سلسلة تزداد باطّراد وتصبح أشمل. طالما أننا نتعامل مع حركة من النساء الجامعيات، فليس هذا مفاجئًا. أما بالنسبة للأغلبية الساحقة من النساء اللواتي لم يتمتعنّ قط بالاستعداد لمثل هذا النوع من استيعاب الأفكار، واللواتي ليس للجدل عندهن أي قيمة، لأنهنّ لا يستطعن فهمه أو ممارسته، فليس لتلك الطرق أي أهمية. الجانب الأكثر التباسًا في عمل أولئك المحرّرات الأكاديميات هو ادعاؤهن قيادة طبقة عاملة نسائية كبيرة، وتبيّنهن لأنواع التجميع والهياكل التنظيمية التي لم تصب النساء فيها سوى القليل من النجاح. ليس هناك في تنظيرهن ما يشير إلى أنهنّ قد أدركن المدى الكامل للاستقطاب المذكر - المؤنث، وإلى أنهنّ قد قرأن مجلتهن **سوفييت ويكلي**، وإلى أنه قيل لهنّ إن أعضاء **معهد الدولة لعلوم التعليم** قلقون جدًا من أن سيطرة

367- Judi Bernstein, Peggy Morton, Lina Seese, Myrna Wood, *Sisters, Brothers, Lovers...Listen...* (New England Free Press), p. 7.

النساء في الصناعة التعليمية ينتج صبيانًا ينقصهم «الحسّ اللازم بالسلطة الذكرية»[368].

تمتدّ النزعة الأكاديمية لأولئك النسوة إلى معظم مجموعات تحرير المرأة في الجامعات. فتعمل **تاي غريس آتكينسون**، إضافة إلى أنها عضو مؤسس في مجموعة **النسويات النخبوية**، في منظمة **حقوق الإنسان للنساء**، وهي منظمة سترعى مشاريع بحثيّة في تاريخ المرأة وظروفها. وربما يحق لنا أن نفكر في المستقرعات الميتات اللواتي كنّ يموّلن مشاريع من ذلك القبيل قبل أن تظهر منظمة **حقوق الإنسان للنساء** بزمن طويل، إضافة إلى إعطاء منح دراسية للمهندسات وما شابه. لدى جميع الكليات النسائية إرث من هذا النوع، لكنّ إسهامها في تحرير النساء عمومًا بقي ضئيلًا.

جاء أول هجوم مباشر على بيان عام 1967 من رجل مغفل الاسم، كتب إلى **نيو ليفت نوتس** في شهر كانون الأول/ديسمبر، ذكر فيه أن وضع امرأة متخلفة في موقع القيادة أمر خطر لأنها ستفشل بالتأكيد، وهو ما سيؤدي إلى تفاقم شعورها بالدونية[369]؛ وعلاوة على ذلك، فإن النساء، من وجهة نظره، لا يستطعن أن يفصلن أنفسهن عن أزواجهن لأنهنّ بحاجة إليهم، ودورهنّ هو أن يكنّ أكثر تواضعًا من الرجال وأكثر تقبلاً وشفقة منهم. وكان يظن أن النساء يجب أولاً أن يثقّفن أنفسهن حتى يدخلن في تحدّ حقيقي من أجل قيادة الحركة، وأنهنّ ربما يجب أن يحتفظن باسم العزوبية بعد الزواج. بدأت نساء حركة **طلاب من أجل مجتمع ديمقراطي** بالهمهمة، وعندما جاء موعد مؤتمر الحركة التالي كانت الهمهمة قد أصبحت هديرًا. وكتبت **مارلين ويب** (Marilyn Webb) في عدد 20 حزيران/يونيو 1968 من نشرة **نيو ليفت نوتس**

368- *Soviety Weekly*, 17 May 1969, p. 5.

369- Anonymous letter in *New Left Notes*, December 1967.

وصفًا للعدد الكبير من النساء العضوات في حركة **طلاب من أجل مجتمع ديمقراطي**. ودفعت الدّقّة التي كتب فيها هذا الوصف كل فتاة راديكالية إلى حالة جديدة من الغيظ، على الرغم من أنها لم تؤيّد الانفصال عن الحركة التي يسيطر عليها الرجال، ولكن كالعادة كان الأمر يقتضي مزيدًا من العمل من أجل الوصول إلى الحرية في الوقت الذي يستطعن توفيره بعد الانتهاء من الضرب على الآلة الكاتبة وتوزيع المنشورات وتلقّي الضرب على أيدي الشرطة وترتيب البيت والسرير لرجل ثوري[370]. في مؤتمر عام 1968، أساءت النساء التصرف، وجررن على أنفسهن حنق الرجال. وبدأن يدركن أنهنّ لن يحصلن على الحرية بخوضهن معارك الآخرين. واستخدم الرجال الحجج التقليدية ضد سيطرة النساء، وقررت النساء، اللواتي أدركن مكر الاستقطاب، أن لا بدّ من بذل شيء من التفكير الصعب وابتكار إستراتيجية جديدة تمامًا.

في هذا الوقت، كانت عضوتان قديمتان في الحركة الجامعية الراديكالية يحضّرن بيانًا أول على الطريق إلى تلك الإستراتيجية. وكانت نشرتهنّ الإخبارية، **صوت حركة تحرير النساء**، قد بدأت، وأعلن بيانهن، نحو **حركة لتحرير النساء**، عن وصوله. وجعل اعتقال **كارول توماس** (Carol Thomas) للمرة الثانية، والحكم عليها بالسجن فترة طويلة القضية أكثر حدةً وإلحاحًا.

هاجمن في البداية بيان النساء مشيرات إلى نقاط الخلل في نزعته الإصلاحية الليبرالية الواهنة، وذلك عبر مقارنته بحجج مجالس المدينة عن معاملة السود. ودافعن، من خلال القياس على تطور **القوة السوداء** بوصفها أول هجوم ذي معنى على نموذج التشريع البطريركي،

370- Marilyn Webb, 'We Have a Common Enemy', *New Left Notes*, 10 June 1968.

عن نوع من حركة القوة النسائية التي كان أول عنصر تفوّق فيها هو تطوير قوة النساء وثقتهن بأنفسهن ووضع إستراتيجية نسائية حقيقية. أشارت بيفرلي جونز (Beverly Jones) أن الطالبات العضوات في حركة طلاب من أجل مجتمع ديمقراطي هنّ نساء يتمتعن بالامتيازات، ولم تكن لديهن فكرة واضحة عن المعوقات التي تثقل كاهل النساء باطّراد وهنّ يتقدمن على الطريق المرسوم لهنّ إلهيًا نحو العناية بالأطفال والمطبخ. وشدّدت على الحاجة إلى خوض معاركهن الخاصة حتى يكتشفن ما هي المشكلات فعلاً استنادًا إلى نموذج حركة طلاب من أجل مجتمع ديمقراطي عن «المواجهة هي طريق الوعي السياسي». لقد وصلت النساء الناجحات في الحركة التي يسيطر عليها الذكور إلى النجاح عبر التلاعب بوضعهن الخاص والسمسرة للقيم الذكرية. ولهذا لم يكنّ مخوّلات الحديث عن أخواتهن بأكثر مما كان رجال الأعمال السود مخوّلين بتمثيل حي هارلم؛ وعلى أي حال، لقد جعل وضعهن ـ نساء غير متزوجات وحيويات نسبيًا واعتمادهن على الرجال بكل غرور أو هيبة ـ من حيواتهن محاكاة ساخرة وكابوسًا، لا يتمتّعن بالفطنة ولا بالفخر لرفضه. رسمت بيفرلي جونز، بوصفها امرأة متزوجة، صورة مرعبة عمّا يجب أن يتوقعنه، ووضعت سياسة من تسع نقاط، أصبحت منذ ذلك الحين أساسية، إلى هذه الدرجة أو تلك، لمجموعات تحرير المرأة الفتيّة.

1. يجب أن تقاوم النساء الضغط الممارس عليهن للمشاركة في نشاطات الحركة غير تلك الخاصة بهن. لا يمكن أن تُعاد هيكلة هذا المجتمع إلا إذا أعيدت هيكلة العلاقات بين الجنسين. إذ ربما تكون العلاقات غير القائمة على المساواة في البيت أساس كل الشرور. ذلك أن الرجال يستطيعون أن يرتكبوا أي أمور مرعبة، أو أن يعانوا بجبن أي تشويه لأرواحهم، أو أن ينكفئوا إلى البيت ليعاملوا هناك برهبة واحترام،

وربما بحب. لن يواجه الرجال قط هويتهم الحقيقية أو مشكلاتهم الحقيقية في ظل هذه الظروف، وكذا الحال معنا نحن...

2. بما أن النساء محكومات إلى حد بعيد بالخوف من القوة الجسدية، فيجب أن يتعلمن حماية أنفسهن...

3. يجب أن نجبر وسائل الإعلام على اتخاذ موقف يتسم بالواقعية...

4. يجب أن تتبادل النساء الخبرات فيما بينهن حتى يفهمن أساليب السيطرة النفسية الكثيرة في البيت وخارجه ويصفنها بصراحة. ويجب نشر هذه الأساليب وتوزيعها على نطاق واسع حتى تصبح جزءًا من المعارف العامة. يجب ألا تشعر أي امرأة أنها مرتبكة وعاجزة في نقاشها مع زوجها...

5. يجب على أحد ما أن يبدأ بتصميم مجتمعات تستطيع النساء فيها أن يتحررن من أعبائهن زمنًا كافيًا ليجرّبن إنسانيتهن...

6. يجب أن تعرف النساء تاريخهن، ذلك أن لديهن تاريخًا يفتخرن به، وتاريخًا سيمنح الفخر لبناتهن... لقد أخرجتنا نساء شجاعات من عبوديتنا التامة إلى وضعنا الراهن الأفضل حالاً. ويجب ألا نتخلى عنهن، بل أن نتعلم منهن وأن نسمح لهن بأن ينضممن إلى القضية مرة أخرى. السوق ناضج للأدب النسوي، التاريخي منه وغير التاريخي. ونحن يجب أن نؤمّن ذلك الأدب.

7. يجب على النساء اللواتي يتمتعن بالأهلية العلمية أن يبدأن في تقصي الاختلافات المزاجية والإدراكية الحقيقية بين الجنسين...

8. لقد ازدرت الراديكاليات مشروع الأجر المتساوي مقابل العمل المتساوي لكن ما كان يجب ذلك لأنه وسيلة للعبودية...

9. لا بدّ لي من ذكر قوانين الإجهاض في هذه القائمة التي ليست كاملة بأي حال من الأحوال[371].

371- Jones and Brown (*op. cit.*), pp. 20—22.

سيكون من السهل أن نعترض على الجهل الذي تنمّ عنه النقطة السابعة (فالبحث في الاختلافات بين الجنسين جارٍ منذ 50 سنة)، أو على النقطة الثامنة لأنها مفكّكة التركيب. أما النقطة الثانية (تعلّم حماية النفس) فهي ليست مسألة صعبة، لأن من السهل الحصول على الأسلحة، ودروس الكاراتيه متضمنة في المخطط الدراسي للفتيات اللواتي على وشك الانتهاء من الدراسة: الصعوبة هي في اعتبار العنف غير لازم، وهذا هو الأمل الوحيد أمام الكائن الإنساني، لكن لم تأت أي مجموعة نسوية حتى الآن بإستراتيجية لذلك. أما الجزء الثاني من **نحو حركة لتحرير النساء** فكتبته **جوديث براون** (Judith Brown)، وهي باحثة مساعدة في الطب النفسي في جامعة فلوريدا. وفيه وصفت وضع نساء الطبقة الوسطى الراديكاليات في حركة **طلاب من أجل مجتمع ديمقراطي**، وطوّرت فكرة مفادها أن الزواج للنساء مثله مثل الدمج للسود، مستخدمة قياس وضع النساء على وضع الزنوج الذي بات أمرًا شائعًا جدًا، ومضللاً بالقدر ذاته، في مناقشات مسألة المرأة. واقترحت تشكيل كومونات نسائية خالصة للنساء الراديكاليات، لكنّها لم تدرك أن الكومونة النسائية الخالصة ليست مختلفة بأي شكل من الأشكال عن الأديرة القروسطية التي كانت النساء الثائرات على أدوارهن الاجتماعية والبيولوجية يستطعن أن يجدن فيها تحققهن الفكري والمعنوي الذي لا يمارسن بموجبه أي ضغط على الوضع الراهن. ولقد جعل تفكيرها بالتبتل، بوصفه تكتيكًا، الجانب الرهبني من إستراتيجيتها أوضح. ولا يضعف السّحاق والاستمناء، بوصفهما بديلين عن الاندماج، قوة المثيل الرهبني كثيرًا. وينتهي البيان بندب مفكّك غير موقّع على اعتقال **كارول توماس** للمرة الثانية وسجنها لفترة طويلة. لكن لا توجد أي إشارة إلى ما إذا كانت ضحية لأنها امرأة، وفي الحقيقة لم تذكر التهمة التي اعتقلت على

أساسها، ولكن ربما كان لذلك قيمة ما باعتباره علامة على التضامن بين النساء الثوريات.

> نحن لم نحكم على أنفسنا بالشلل السياسي ليكون عذرًا لنا على خمولنا: بل نحن طبقة مضطهدة. يجب علينا أن ننشئ حركة نسائية لأننا، في المقام الأول، يجب أن نقاتل هذا النظام الاجتماعي، بكل ما نملك من قدرات، وهذه القدرات معبأة تمامًا. ويجب أن نتحرّر حتى نستطيع أن نتحوّل من يأسنا المنزلي المنعزل ـ سفر رؤيا الملعونين الخاص بنا ـ إلى ممارسة سورة غضبنا الاجتماعي ضد كل احتضار للضوء. يجب أن نوحّد قوانا معًا، وأن نبدأ بتفكيك دمى هذا النظام الاجتماعية والعسكرية المهلكة، وأن نوقف الكلاب المجنونة التي تحكمنا في كل مكان نوجد فيه[372].

اكتشف البحث النسائي عن معرفة الذات فجأة مستودعًا جديدًا كاملاً، ألا وهو عمل **ماسترز وجونسون** الذي نشر عام 1966 بعنوان **الاستجابة الجنسية لدى الإنسان** (Human Sexual Response). وكانت **ميت إيلجرسون** (Mette Eiljerson) أول من بيّن ما يعنيه ذلك من حيث تحرير المرأة بخطوط عامة، ومن ثم جاءت الدراسة التفصيلية الأصلية على يد **النسوية آن كودت** (Anne Koedt). إن الحجّة التي أوردتها الآنسة **كودت** في كتابها **أسطورة الرعشة المهبلية** (The Myth of Vaginal Orgasm) على أن إمكانية تحقيق الرعشة الجنسية أصبحت، نتيجة الجهل التشريحي لدى **فرويد** ورايش، غاية لا تدركها النساء وسببًا لمزيد من الخجل والزيف في السلوك الجنسي، هي حجة صحيحة بالتأكيد، أما النتائج التي تتوصل إليها من أن الخطأ هو نتيجة متعمدة من نتائج التعصب الذكري، وأن لا علاقة للمهبل بمتعة النساء الجنسية، وأن الرجال يلحّون على الإيلاج

372- *Ibid.*, p. 37.

لأن المهبل مكان من الممتع أن يكون القضيب فيه (يوجد أثر للتعصب النسائي هنا)، فهي في أحسن أحوالها موضع شك. «يخشى الرجال أن يُستغنى عنهم جنسيًا إذا حلّت الرعشة البظرية محلّ الرعشة المهبلية بوصفها متعة المرأة الأساسية...»[373].

يتساءل المرء عن طبيعة الشخص الذي ذهبت الآنسة **كودت** معه إلى السرير. فمعظم الرجال يدركون أهمية البظر، ويخافون فعلاً أن يكونوا موضع رغبة بوصفهم أدوات جنسية وحسب. ليس الرجل الذي ينتظر منه أن يمتلك قضيبًا صلبًا في جميع الأوقات أكثر حرية من المرأة التي يفترض بمهبلها أن يتفجر لدى أول إقحام لمثل ذلك القضيب فيه. الرجال مضلَّلون مثل النساء ليفترضوا أن أعضائهم الجنسية قادرة على القيام بما هو مستحيل تشريحيًا. تظهر فرضيات الآنسة **كودت** أنها قد أدركت تضليلها، ولكنها لم تدرك تضليلهم. وهذا ما يتبدى على نحو خاص في آخر نقطة عندها:

> **السحاق** ـ علاوة على الأسباب التشريحية الصارمة التي تدعو النساء إلى البحث عن حبيبات نساء، هناك خوف كبير لدى الرجال من أن تسعى النساء وراء صحبة نساء أخريات على أساس إنساني كامل. وإن تكريس الرعشة البظرية، بوصفها حقيقة، من شأنه أن يهدّد مؤسسة الغيرية الجنسية. يخشى المضطهِد دائمًا وحدة المضهَدين، وأن تتخلّص النساء من القبضة النفسية التي يتمتع بها الرجال حاليًا. وبدلاً من أن يتخيّل الرجال علاقة حرّة في المستقبل بين الأفراد، يميلون إلى الردّ بمخاوف مرضية أو انتقام من جانب النساء (على النحو الذي شهدناه في حوادث **سولاناس**)[374].

يتساءل المرء: من أطلق النار على من؟ حسب رواية الآنسة **كودت**،

373- Anne Koedt, *The Myth of Vaginal Orgasm* (New England Free Press), p. 5.
374- *Ibid.*

في معظم الحالات، تُصان الوحدة بين الذكور على حساب تحريم أي اتصال جنسي بين أعضاء الجماعة الذكور. فالجنس ببساطة ليس قوة تلاحم. والمجموعات المثلية في مجتمعنا، كما نعرفه، ليست معروفة بتلاحمها أو تعاونها، على الرغم من أن ذلك ليس بذاته تفنيدًا للمثلية الجنسية، حيث لم يكن الإحساس بالذنب وقلّة الشرف ملازمين أكيدين لها في ظروف أخرى. أدهى ما في الفرضيات الكامنة وراء تلك الورقة هو أن الوضع الراهن، وهو في تلك الحالة الحساسية المهبلية لدى عاشقات الطبقة الوسطى الأمريكية في ستينيات القرن العشرين، هو الوضع الوحيد الممكن: وآن **كودت**، في وضعها لتلك النظرية، تحكم على جميع النساء بذلك الوضع. وإلى أن تُجرى تجارب في تاهيتي وأماكن أخرى غير مألوفة (هذا إذا كانت ما تزال موجودة) لن نعرف مستوى انعدام الحساسية الذي يقرّره التشريح. على أي حال، الرعشة البظرية التي تتحقق والمهبل ممتلئ أمتع من الرعشة البظرية التي تتحقق والمهبل فارغ، حسب معرفتي على الأقل. وعلاوة على ذلك، فالرجل أكثر من مجرد قضيب اصطناعي. كتبت **نانسي مان** (Nancy Mann) تصحيحًا لمقالة الآنسة **كودت**، ونشرت **نيو إنغلند فري برس** المقالة والتصحيح معًا. وهي تحاول أن تقدّم شرحًا لإخفاق النساء في الوصول إلى الرعشة الجنسية، يرتكز في معظمه على أننا لا نمارس الجنس على نحو صحيح، وعلى أننا لا نعير انتباهًا لطبيعة التجربة الجوهرية. والخلاصة التي تتوصّل إليها مليئة بالآمال للنساء اللواتي لا يردن ممارسة الاستمناء ولا أن يتعلّمن السحاق:

> أنا واثقة من أنها ليست مصادفة أن الكثير من الناس في هذا البلد يمارسون الجنس على نحو سيء. فهذا يتماشى مع الإهمال العام للمتع البشرية لصالح منطق تحقيق الربح. من الواضح أن الناس يسيطرون على الأفعال التي يقومون بها في الجنس، ويتحمّلون مسؤوليتها أيضًا.

> أما أن تلقي النساء بكامل اللوم على الرجال (أو أن يلقي الرجال بكامل اللوم على النساء) فهي سياسة سيئة... فالجنس والعمل والحب والأخلاق والحسّ بالجماعة، وهي الأشياء التي تتمتع بأعلى قدرة على منحنا الإحساس بالاكتفاء والرضا، تتعرّض للتقويض والاستغلال على يد تنظيمنا الاجتماعي. وهذا ما يجب أن نحاربه.
>
> إذا كنت لا تستطيع أن تكون على وئام مع حبيبك، فيمكن أن تغادر السرير، ولكن ماذا تفعل إذا كان بلدك يعاملك معاملة سيئة؟[375]

إن تخفيف **نانسي مان** الواضح من رضا **آن كودت** المقيت عن طرد القضيب من عالم النساء لا يحميها من الهجوم الحقير الذي تشنّه عليها كاتبات الأعمدة في الصحف؛ فقد نجحت **جولي باومغولد** (Julie Baumgold)، في مقالتها الساخرة في **نيويورك**، في الإشارة إلى أن كنية الآنسة **مان**، وهو اسم يهودي جيد مثل اسمها هي، دليل على تعصّبها النسائي وحسدها للقضيب[376]. وفي الحقيقة، على الرغم من موقف الصحافة الساخر عمومًا فإن حركات تحرير المرأة كانت حتى الآن، وإلى حد بعيد، ظاهرة إعلامية. وقد قادت شهية الصحف الهائلة نحو الأمور الجديدة إلى ظهور القصص الغريبة عن تحرير النساء إلى جانب الإعلانات عن دهون مستحلبة على شكل مراهم للعناية بالبشرة، وعن مناضح معطرة لجعل المهبل ذي رائحة مقبولة، وكل تلك الأمور التي تهدف إلى تسويق النموذج الأنثوي المقولب على يدي هذا النموذج ذاته. حركات تحرير المرأة مناسبة للقصص الإخبارية نتيجة جو الانحراف السائد فيها وفسق النساء والهياج والسخرية الرزينة.

لم يكن عام 1968 مهمًا جدًا لحركة النساء لأن النساء برزن

375- Nancy Mann, *Fucked-up in America* (*ibid.*)

376- Julie Baumgold, 'You've come a long way, Baby', *New York*, 9 June 1969, p. 30.

مجموعةً متماسكة في **اليسار الجديد** وحسب، بل ولأن **فاليري سولاناس** أطلقت النار على **آندي وورهول** (Andy Warhol). فجأة حلّت **جمعية تمزيق الرجال** المعروفة اختصارًا بـ (SCUM) في صدارة الأخبار، منافسةً بذلك خبر اغتيال روبرت **كينيدي** على احتلال الصفحة الأولى. وباستثناء قصة الآنسة **سولاناس** نفسها، ليس هناك كبير دليل على أن تلك **الجمعية** قد عملت قط. وُصفت **سولاناس** بسهولة بأنها عُصابية، وبأنها استعراضية منحرفة، وكانت الحادثة برمتها جزءًا من عالم **وورهول** القلق والمشوّش عن الحمقى المستغلين حتى تصل رسالتها غير محرفة. لكن الناس يقرؤون كتابها بحثًا عن الإثارة، ويحصلون على أكثر مما قايضوا عليه. لقد فهمت أكثر من أي طالبة مشكلة الاستقطاب، الهاوية التي تفصل الرجال والنساء عن الإنسانية، وتضعهما في سجن ذي جانبين متعاكسين. لقد قُدمت أفظع إستراتيجية للسماح للنساء بالعودة إلى إنسانيتهن، وهي ببساطة إبادة النساء للرجال. ربما كانت الطاقة الرهيبة والحماسة في بيانها الذي لا يقبل التسوية حول تشبث الرجال بفكرة الأنوثة ومعركتهم المستقتلة للعيش وفق تصورهم الراسخ عن مركزية القضيب هما اللذان دفعا **تاي غريس آتكينسون** إلى تلك الراديكالية التي أبعدتها عن **المنظمة الوطنية للنساء**، بل وبعثت الحيوية في شعارات أولئك السيدات إلى أن أفلحن في تطهير صفوفهن من تلك الوحشية، وولدن في النهاية **مؤامرة النساء الإرهابية الدولية من الجحيم** المعروفة اختصاراً بـ **ويتش** (WITCH). كانت **ويتش** في جوهرها تجربة مع الإعلام. كان الإحراق العلني لحمالات الصدور، وتطويق مصرف **تشيس مانهاتن**، واجتياح معرض العرائس في **ماديسون سكوير غاردن**، وهنّ يلبسن مثل الساحرات، ويحملن عصي المكانس، كلها كانت عمليات ذات وقع كبير، وقد نجحت، نتيجة استجابة النظام التجاري الكبيرة لطرقه

الخاصة، إلى حدّ جعل سوق وول ستريت يهبط خمس نقاط، أما في هذه الأيام، ونتيجة الخوف من قوة الشرطة التكتيكية وغيرها من أشكال انتقام المؤسسات، فقد أصبحت الحركة، التي هي في الأساس حركة دعاوية، مجهولة وسرية.

بعد اندفاع الدعاية الأول الذي شهدته حركة تحرير المرأة عادت وتبنّت موقفًا شكاكًا وغير متعاون من الصحافة، وهو تكتيك لم يحسّن صورتها العامة ولم يحمها من الظهور بصور مضخمة في صحف الأحد والمجلات البرّاقة. وغياب الدعاية هو، في الحقيقة، دعاية سيئة، ولاسيما إذا كانت النساء متمسكات بعادة القراءة غير المبالية التي تفوتهن معها معظم السخرية الموجّهة إليهن، وحيث لم يكن وضوحها هو ما أثار تعاطفًا معيّنًا مع الحالات الفردية التي استغلّها الإعلام وأساء إليها إساءة بليغة. كانت النساء سعيدات بأن يعرفن أن «شيئًا ما يحدث هنا» حتى لو «كان هذا الشيء غير واضح تمامًا». في كل مرّة يصل فيها تصريح امرأة تسعى إلى التحرّر إلى الصحافة، سواء كان تحرّرًا من الضرائب التي تمنعها من ممارسة مهنتها بوصفها امرأة متزوجة، أو من السلطان الجنسي والرياء، يكون الرد هائلاً، ويستمر الجدل حولها على مدى عدّة أعداد؛ يمكن أن نأخذ مقالة فيفيان غورنيك (Vivian Gornick) في صوت القرية (Village Voice) مثالاً على ذلك[377]. ومقابل كل امرأة تكتب رسالة إلى المحرّر، هناك مئات النساء اللواتي لا يستطعن فعل ذلك. وفي كل مرّة يكتب فيها رجل بسخرية وخوف، ترى مائة توكيد على النقطة التي يوردها. ولا بدّ من الأمل في أن يقرّر المزيد والمزيد من النساء التأثير في وسائل الإعلام عبر الكتابة إليها، بدل أن يدعن الآخرين يكتبون عنهنّ. يمكن أن يمتدّ

377- Vivian Gornick, 'The Next Great Moment in History is Theirs', *Village Voice*, 27 November 1969.

التأثير إلى وسائل الإعلام الأخرى أيضًا لأن بطن التلفاز الهائل يجب أن يملأ يوميًا، وسيكون من الأفضل أن تموّل شركات مواد التجميل البرامج النسوية. ويمكن أن ندعها أيضًا تدفع تكاليف حفر قبرها بيدها. على أي حال، ليس إيذاء المراسلين الصحفيين وإقصاؤهم أسلوبنا في الدفاع ضد تلك الشركات؛ فالرقابة والمنع هما سلاح الظالم، لا سلاحنا.

هناك الكثير من حركات تحرير المرأة الأخرى الناشطة الآن في أمريكا، من الفروع الجامعية التي يبلغ عددها خمسة وعشرين فرعًا في المجموع، مع أنها تجليات محلية تعالج مشكلاتها الخاصة، إلى جماعات من مثل **الجوارب الحمراء**، التي تشكّلت عندما سخر منهنّ الرجال في المظاهرة المضادة لتنصيب الرئيس في واشنطن، وهي تركّز على التوعية بالمعنى الماركوزي، إلى حركة 17 **أكتوبر** التي تضم في عضويتها آن **كودت وشولاميث فايرستون** (Shulamith Firestone)، إلى **الخليّة** 55، إلى حركة **آبي روكفلر لتحرير المرأة** (Abby Rockefeller) ومقرّها في بوسطن والتي حضرت مؤتمرها في الصيف الماضي 500 امرأة ممّن استيقظن في الساعة العاشرة من صباح يوم أحد لمشاهدة عرض في الكاراتيه (تحمل **روكفلر وروكسين دانبر** (Roxanne Dunbar) الحزام الأخضر)، إلى **المؤتمر من أجل توحيد النساء** (الذي لم يجمع للأسف سوى 500 امرأة). الحركة منقسمة، وهي مستمرة في الانقسام بلا نهاية، لكنّ ذلك قد يعتبر علامة على الحياة، إن لم يكن على القوة.

في إنجلترا، تظهر ورشات تحرير المرأة في كل الأماكن المعتادة التي ترتادها ربات المنازل المتعلّمات في الضواحي وفي الجامعات. وهي لا تتمتع بكثير من الاتساق النظري، ولا يمكن أن نلحظ خيالاً أو كفاءة مميزين في طرائقها. أصدرت ورشة **تحرير تافنيل بارك** (Tufnell

Park) نشرة أطلقت عليها اسم شرو (Shrew)، لكنّ توزيعها سيء جدًا، إذ أنني فقدت الأمل في الحصول على أعداد سابقة بعد خمس محاولات للاتصال هاتفيًا. عندما ظهرت أولئك السيدات الفاضلات يوم مسابقة اختيار ملكة جمال العالم حاملات رايات كتب عليها «لسنا أغراضًا جنسية» (وهي قضية لم ينكرها أحد)، أصابهنّ الذعر عندما رأين فتيات من حركة جامعة وورويك (Warwick) يغنّين ويرقصن حول رجال الشرطة. رجت السيداتُ الفتياتِ أن يتوقّفن عن ذلك لأنه غير لائق بسيدة محترمة، ولأن صورتهن بالية أصلاً، وعندما ظهر العدد التالي من شرو، تضمّن مناحة رسمية على سلوك تلك النساء الغريبات، وافترضَ - بنبرة من الأسف على خرقهن - أنّهن ربّات منازل من **كوفنتري** وأن لدى كل واحدة منهنّ أربعة أطفال، أي من تلك النساء اللواتي كانت حركات تحرير المرأة تسعى إلى مساعدتهن! وفي الحقيقة، إن فرع **كوفنتري** هو من الفروع القليلة التي تحضرها نساء من الطبقة العاملة، وهنّ يحكين للفتيات الغنّيات عن وضعهن، وهو اتجاه يمكن أن تتبعه الغنيات الأخريات اللواتي لم يتعلّمن بعد أن يطالبن بأي شيء سوى الفكرة الفارغة عن «تكافؤ الفرص»[378].

على أي حال، تنمو النسوية الجديدة بسرعة على الرغم من التشوّش والتصوّرات الخاطئة. فالمسرح النسوي الذي ترعاه منظمة **الجوارب الحمراء** يملأ **فيليج غيت** في نيويورك. ومع أن قلّة من

378- لا بدّ من الإشارة أيضًا إلى (NJACC) (انظر فصل العمل أعلاه وكتاب **ميدج ماكينزي** عن النسويات، الذي أنتج طبعة منسوخة من هاربيز بيزار (Harpies Bizarre). توسعت ورشة تحرير المرأة لتصبح الآن خمس مجموعات، بينما تنتج مجموعة أخرى في نوتنغهام نشرة مزدوجة بعنوان **المرأة الاشتراكية** (Socialist Woman)، وتنتج مجموعة أخرى في بريستول نشرة بعنوان **يكفي يعني يكفي** (Enough is Enough). وجمع مؤتمر في أكسفورد بين 28 شباط/فبراير و1 آذار/مارس خمسمائة مشاركة، إضافة إلى أربعمائة طفل وخمسين زوجًا.

النساء تلقّين تلميحات مضلّلة تحثّهن على تعلّم العنف الذكري، بوصفه تكتيكًا ثوريًا، أو إلى ممارسة التبتّل، فإن زوجات وأمهات تظاهرن حول سجن هادسون ستريت رافعات لافتات مكتوب عليها أنّهن لا يردن نفقة. وكما لاحظت غلوريا ستاينم (Gloria Steinem)، فإن نمو حركة تحرير المرأة «لم يأت عن طريق التنظيم بقدر ما جاء عن طريق العدوى»[379]. تمتدّ الحركة الفعلية أبعد وأعمق من التنظيم السري الذي توزّع منشوراته دار نيو إنغلاند للصحافة الحرة وآغيت بروب، وعلى نطاق أوسع حتى من مؤسسة السيدة فريدان النسائية. هُزمت حركة مناهضة لتحرير المرأة هزيمة ساحقة على يد جمهور ذي أغلبية من الذكور في مناظرة جامعية، تحدّثتُ فيها مؤخرًا، في حين كنا قد تعرضنا للهزيمة قبل خمس سنوات في مناظرة شبيهة على الرغم من أننا أدرنا نقاشنا بنجاح، وقدّمنا حججنا على نحو أفضل حينها. عندما خاطبت قبل أسبوع من ذلك جمهورًا مختلطًا جدًا ومألوفًا في مركز لتعليم البالغين في تيسيد، تحدّثت نساء عصبيات رقيقات أمام أزواجهن عن أكثر الأفكار تدميرًا. الممرضات سيئات التصرف، المعلمون مضربون، التنورات من مختلف الأطوال التي يمكن تخيّلها، حمالات الصدر لم تعد تشترى، وهناك طلب على الإجهاض... ضغط التمرّد يزداد، والبخار المحبوس قد ينفجر ويحدث ثورة.

379- Gloria Steinem, 'The City Politic', *New York*, 10 March 1969.

الثورة

الثورة

ليست ردّة الفعل ثورة. وليس تبنّي المضطهَدين أساليب المضطهدِين وممارسة الاضطهاد نيابة عنهم علامة على الثورة، كما أنه ليس علامة على الثورة أن تقلّد النساء الرجال، ويقلّد الرجال النساء، أو أن تتراخى قبضة القوانين ضد المثلية الجنسية، وتضعف الدلالات الجنسية المرتبطة بأنواع معيّنة من الملابس والسلوك. وليس لمحاولة تخفيف حدة الاستقطاب في القانون أي علاقة بسيطرة أفكار الذكر ـ الأنثى على عقول الناس الحقيقيين وقلوبهم. إن انعدام الجاذبية في وجه باربرا كاسل (Barbara Castle) المتغضّن ووظيفتها المحبِطة بوصفها حلّالة رئيسية لمشكلات نظام ولسون (Wilson) يدفعان المزيد من النساء إلى التمسّك بأنوثتهن العاجزة أكثر مما يدفعانهن إلى المنافسة مثلما فعلت هي لإثبات تفوّقها في عالم الرجال. نحن نعرف أن النساء اللواتي من هذا الصنف لا يناصرن بنات جنسهن عندما يصبحن في مواقع السلطة، وعندما يصبحن صاحبات أعمال، لا يوظفن بنات جنسهن، حتى حين لا يوجد أي أساس للتمييز. وهنّ، في نهاية المطاف، يدبّرن أمورهن على نحو أفضل مع الرجال لأنهن كنّ طوال حيواتهن يتلاعبن بمشاعر الرجال وآثامهم ورغباتهم المستورة. تلك النسوة هنّ مثل الرجل الأسود الخاضع للرجل الأبيض،

مثل الزنجي المهني؛ إنهن النساء الإلزاميات، المخلوقات الاستثنائية الجيدة مثل الرجل والأكثر منه زخرفة بكثير. النساء اللواتي يستسلم لهنّ الرجال.

إن بحث أولئك النساء عن الثورة في ظروفهن عبر التدريب على استخدام القوة القتالية هو الحالة الأوضح على ردّة الفعل أو التمرّد الذي يُخلط بينه وبين الثورة. أما الآن، وقد كفّت الحرب، مثلها في ذلك مثل الصناعة، عن أن تكون مسألة قوة جسدية متفوقة، فإنها لم تعد مهمة في معركة النساء لدخول الإنسانية. لقد أصبح العنف في وقتنا غير إنساني وعديم الجنس. وهو يترافق مع الثروة في إنتاج أسلحة متطورة، وفي المحافظة على جيوش من الشرطة من كل الأشكال، وفي بناء الدفاعات العملاقة التي تسهم، بمجرّد وجودها، في فوضى الحرب. الحرب هي القبول بالهزيمة في مواجهة المصالح المتضاربة: في الحرب ثمّة مطرح متروك للصدفة، أما الفرضية الضمنية القائلة إن النصر للأفضل فليست مبررة على الإطلاق. ويمكن بالمثل الجدال بأن الأسوأ والأقل ضميرًا وأخلاقًا سينتصر، على الرغم من أن التاريخ سيتابع لعبته السخيفة التي تزعم في نهاية المطاف أن هذا الأسوأ هو الأفضل. حسبنا أن نفكّر في محاولة **هوتشهث** (Hochhuth) لإصدار قرار حول دور إنكلترا في تدمير ألمانيا وتعامي **ونستون تشرشل** (Winston Churchill) الحكيم عن الاعتراف بهذه العملية التي لا مناص منها. لا يمكن الفوز في الحروب، كما يدرك بارتباك أي رجل إنكليزي يقابل بكآبة حظوظه بعد الحرب مع تلك التي لأوروبا المذنبة بالنازية. والنساء اللواتي يتبنين مواقف الحرب في بحثهن عن التحرّر يحكمن على أنفسهن بالقيام بآخر انحراف من انحرافات الرجولة المجرّدة من الإنسانية، والتي ليس لها سوى نتيجة واحدة يمكن التنبؤ بها، ألا وهي الانتحار الذي هو صفة مذكرة بامتياز.

تبرّر عضوات حركة تحرير المرأة في بوسطن اهتمامهن بالكاراتيه بخوف النساء من الاعتداء الجسدي في حالات فردية، وبضرورة أن يتحرّرن من ذلك الخوف قبل أن يستطعن التصرف بثقة. صحيح أن الرجال يستخدمون التهديد بالقوة الجسدية، على نحو استعراضي عادة، لإسكات زوجاتهم النقّاقات، لكن استخدام القوة بالفعل يعتبر عارًا دائمًا. هو في الحقيقة لعبة أعصاب، ويمكن وضعه جانبًا بسهولة مقبولة. لقد عشت في مراحل مختلفة من حياتي مع رجال معروفين بعنفهم، وكان اثنان منهم قد أدينا بجرم ارتكاب أذى جسدي جسيم، لكنّي لم أتعرّض في أي حالة للتهديد بالاعتداء الجسدي، فقد كان واضحًا، بما لا يقبل اللبس، من موقفي أنني لن أتأثر بذلك التهديد. للعنف نوع من السحر على النساء؛ إذ يتصرفن كما لو كنّ متفرجات على مباريات الملاكمة، وتثير إعجابهن مشاهد العنف الدموي في الأفلام. وهنّ دائمًا يعجّلن بوقوع مشاهد العنف في الحانات والمراقص. أكثر ما يثير الرجال إلى العنف هو حاجة النساء إلى الإثارة التي يسبّبها العنف. ومعظم القتالات هي أفعال مشوّشة مخزية، إذ لا يصيب معظم الرجال الشيء الذي يسدّدون إليه، وينتهي معظمهم بأن يدع نفسه يتأذّى نتيجة نزعته المازوشية المشوّشة. لا يضيع الرجل العنيف حقًا وقته بالكاراتيه أو باللعب وفق قواعد الماركيز كوينزبري، بل يستخدم زجاجة مكسورة أو مفتاح جنط أو مخل أو فأس. وهو لا يدرك جوهر القتال، بل يسعى إلى إنهائه بسرعة بإيقاع أقصى ما يمكن من الأذى وبأسرع ما يمكن.

ستكون الثورة ثورة حقيقية إذا ما توقفت النساء فجأة عن حب المنتصرين في المواجهات العنيفة. لماذا تثير صورة الرجل القاسي إعجابهن؟ لو أنهن يستطعن أن ينفذن ببصيرتهن إلى ما بعد العضلات

المفتولة والتبجّح ليبصرن الخواء والبؤس اللذين يعتملان في نفس الرجل الذي يدفع إلى استخدام عضلاته (لأن الرجال الأقوياء الذين تبدو عليهم آثار ضرب يستدرجون دائمًا إلى الشجار من جانب رجال ذوي ذكورة أقلّ وضوحًا وبحاجة إلى إثبات أنفسهم). لماذا لا تستطيع النساء أن يفهمن عبثية تأليه الرجل القوي، سواء كان جنديًا أو مصارعًا أو لاعب كرة قدم أو نموذجًا ذكريًا، وهنّ يرين أن مصيره قريب جدًا من مصيرهن؟ ليت النساء يقدّمن بديلاً حقيقيًا لدوامة العنف، فلربما يستردّ العالم أنفاسه قليلاً ويعيش بألم أقل. إذا انسحبت النساء من مشاهدة مباريات المصارعة فستنهار هذه الصناعة؛ وإذا ووجه الجنود بالحرمان التام من الخدمات النسائية، كما لاحظت ليسيستراتا (Lysistrata) منذ زمن طويل، فسيفقد القتال فجأة الكثير من ألقه. لسنا حوريات؛ ولن نكون مكافأة للمحاربين. ولكننا نقرأ في الصحف الرجالية الأمريكية كيف أن العاهرات في المدن الأمريكية يقدّمن خدماتهن مجانًا للفتيان الذي يستعدون للمغادرة إلى فيتنام.

يعدّ التحريف الذكري للعنف شرطًا أساسيًا للحطّ من قدر النساء. إذ ينظر إلى القضيب على أنه سلاح، ويُفهم فعله في النساء على أنه مدمّر ومؤذ على نحو ما. لقد أصبح بندقية، وفي العامية الإنكليزية، تصرخ النساء عندما يردن من شريكهن الجنسي أن يقذف «قوّصني! قوّصني!».

قتال المرأة

(لحن: «جوانيتا»)

فلتهجع خفيفة على صدر الأرض الأم،
تلك التي عملت بنبل لينبعث العالم من جديد.
في قلب المرأة تكمن أمنية بمداواة كل الألم،
دعوها تتعلم كيف تساعد الرجل على تحطيم كل قيد.

أيتها المرأة، آه أيتها المرأة، ألقي بقيودك وراءك:
وانهضي، وطالبي بحقوقك التي لا منّة لأحد بها عليك،
وكوني حرة، حرة في حياتك.
وأنت، أمًا وزوجة وعزباء، تكمن طاقة عظيمة بين يديك:

فامنحيها كل ما تستطيعين من حرية وقوة وتضحية.
فهناك في أعلى التلة ينبلج ضوء اليوم الآتي،
ومازالت المعركة بانتظارك، فكوني مستعدة ولا تترددي.

أغاني (.I. W. W)

لا يمكن تحرير النساء من عجزهن بمنحهن مسدسات، على الرغم من أنهنّ قادرات على استخدامها كما الرجال. كانت النساء يمنحن مسدسات طوال صراع معين، ثم يسحب منهن، ليجدن أنفسهنّ أكثر عجزًا من قبل. أما العملية التي يجب إتباعها فهي معاكسة: يجب على النساء أن يؤنسنّ القضيب، أن يسحبن منه الفولاذ، ويرجعنه لحمًا مرة أخرى. ما تفعله معظم النساء «المتحررات» هو توبيخ القضيب على تشويه الحقائق المتعلقة به، والسخرية من الرجال نتيجة مبالغتهم

في تقدير رجولتهم، وذلك بدلاً من أن يكشفن كيف نشأ الخطأ وما الآثار التي تركها فيهن. تعب الرجال من تحمّل المسؤولية عن الجنس كاملة، وقد حان الوقت لإراحتهم منها. وأنا لا أقصد هنا أنه يجب تبنّي السّحاق على نطاق واسع، بل ببساطة أنه يجب نزع التشديد عن الأعضاء التناسلية ووضعه على الجنسانية الإنسانية. ويجب أن يحتل الفرج مكانته الطبيعية. ومسألة موقف النساء من العنف لا تنفصل عن هذه المشكلة. وربما لا بدّ، في البداية من أن تعمل النساء بجد حتى ينفرن فعلاً من العنف، وأن يرفضن، على الأقل، مكافأة المنتصر في مواجهة عنيفة، ولو وصل الأمر إلى درجة ربط مصيرهن من حيث المبدأ مع المهزوم. فإذا ما انسحبن من حضور المنافسات الذكرية بالكامل، فسيغيب الكثير من دوافعه.

على الرغم من أنه ليس من الضروري أن تجد النساء أنفسهن مفتونات بالفائزين في النزاعات العنيفة، بل يفضّلن أن يحمن حول المهزوم الشهم، فإنهن جميعًا، بالمعنى الاجتماعي الواسع، يفضّلن الفائزين. انتحبت أستاذة جامعية بارزة، وهي تخاطب مجموعة تعليمية من الكبار في جامعة جنوبية، نتيجة حقيقة مفادها أن التعصّب الذكري يمنع الرجال المتعلمين من مواعدة النساء اللواتي يتمتعن بالمستوى نفسه من التأهيل والمتوافرات في المؤسسة ذاتها. ولم يكن متوقعًا من النساء أن يعاشرن رجالًا أقلّ منهنّ مرتبة وتعليمًا، وهكذا لم يكنّ يخرجن مع أحد. ولكن، إذا كان الرجال راضين بأن يقضوا وقت فراغهم مع من هنّ أدنى منهم فكريًا، فلماذا لا تستطيع النساء أن يفعلن ذلك؟ ربما تلاحظ النساء باحتقار أن الرجال لا يكونون مثقفين إلا في ساعات العمل (بين التاسعة والخامسة)، ولا يستطيعون أن يسترخوا إلا حين تزول الحرارة من الحديث، وذلك حين يدردشون مع فتاة حمقاء. إنهم يلعبون دور الأب الذي يعرف كل

شيء، وتلعب الفتيات اللواتي يواعدنهم دور الابنة المبهورة. عمومًا هذا النقد الساخر صحيح، لكن الصحيح أيضًا أن المثقفات في الكثير من الحالات متكبرات وعدوانيات ومستبدّات ولاذعات، ويقمن اعتبارًا كبيرًا لإنجازاتهن التعليمية المشكوك فيها، فيفقدن الصلة بأشكال الترفيه عن النفس غير المصطنعة. يبحثن عن رجل تمنح إنجازاته قيمة لإنجازاتهن، يبحثن عن «أنا» يعوّضن بها عن عدم كفاءتهن، ومعظم الرجال سريع في استشعار الإلحاح الذي يبحثن به. يضجر كثير من الرجال من الحمقاوات بسهولة، لكنهم ينفرون أكثر من مدّعيات الثقافة. لماذا لا تستطيع النساء أن يجدن الاسترخاء والمتعة في رفقة من هم «أدنى منهن» بدلاً من البحث عن رفقة أشخاص يعتبرون أندادًا لهنّ ومواعدتهم؟ ينبغي على النساء أن يضعن جانبًا حاجتهن اليائسة إلى الإعجاب برجل، وأن يقبلن بالجانب الألطف من العلاقة، أي حبّه. لا يمكن لامرأة متعلمة أن تخصي سائق شاحنة، مثلما تستطيع أن تفعل مع ندّ فكري لها، لأنه لا يكنّ كبير احترام لقدراتها المتصلة بالكتب. ليس الغباء بديلاً عن التعليم التقليدي، وتحتاج فتيات ذكيات كثيرات إلى تقويم على يد الحكمة الأصيلة التي تتمتع بها روح متواضعة. ليس دور الأب في عائلات الطبقة العاملة حازمًا مثلما هو في عائلات الطبقة الوسطى، لأن نساء الطبقة العاملة أسرع في معارفهن وأمهر في مناورة السلطات من أزواجهن[380]. ربما يكون الزوج العامل فخورًا جدًا بزوجته «المفكّرة». ولا يعني الزواج أن ما تكسبه الزوجة سيحدث،

380- Anna Martin, *The Married Working Woman*, published by the National Union of Women's Suffrage Societies, July 1911.

يعتبر تفوق الزوجة العقلي على الزوج، بين العائلات الأفقر، ملحوظًا جدًا. فالصراع الدائم، الذي تخوضه تلك النساء دفاعًا عن بيوتهن ضد جميع قوى النظام الصناعي، يطور لديهن احتراسًا وقدرة على التكيف، لا يستطيع الرجال أن يزعموها لأنفسهم، نتيجة العمل المرهق وغير الملهم الذي يشل قدرتهم على التفكير.

بعد الضرائب، فرقًا كبيرًا في وضع العائلة المادي. فالمال الذي تعود به المهن على أصحابها في هذا البلد منخفض جدًا، وساعات العمل طويلة جدًا على نحو لا يحتاج معه أي رجل إلى الشعور بأن قدرة زوجته على الكسب تعرّض قدرته للخطر مهما كانت عالية التأهيل. وربما تفعل النساء الاشتراكيات اللواتي يطلقن الوعيد الآن في مجموعات منعزلة بعد أن انتظرن ثوريي الطبقة الوسطى في الحركة، خيرًا بأن يضعن خبرتهن ومعرفتهن بالنصوص الأساسية، والتي استخفّ بها أولئك، في خدمة الطبقة التي كتبت تلك النصوص من أجلها. يقاس إنجاز النساء عادة بمدى الارتقاء الذي حققنه بعيدًا عن طبقتهن بفضل الزواج. لكن، ربما تقلب ثورة في الوعي تلك الفكرة. وإن حدثت ثورة كهذه فيجب أن تكون ثورة حقيقية، إذ لا مجال للتعطّف هنا.

يبدو واضحًا أن النساء يجب أن يرفضن الزواج إذا أردن أن يحدثن تحسينًا مهمًا في شرطهن. لا يمكن أن يطلب من أي عامل أن يوقع عقد عمل مدى الحياة، وإن فعل يمكن لرب عمله أن يتجاهل جميع محاولاته للحصول على أجر أفضل وشروط أفضل. تمكن مشاهدة هذه الظاهرة في الأماكن التي يتمتع فيها ربّ العمل باحتكار التشغيل. يجب ألا يترك لرب العمل أمر منح تحسينات للعاملين بناء على طيبة قلبه؛ بل يجب أن يحتفظ عماله باعتدادهم بنفسهم من خلال الاحتفاظ بقدرتهم على المساومة. وبالمثل، يمكن الجدل بأن النساء لا يوقّعن في عقد الزواج على عقد مدى الحياة لأن الطلاق ممكن دائمًا، لكنّ الطلاق في وضعه الراهن يعمل لمصلحة الرجل، لا لأن الرجال هم من صمّموه ووضعوا أسسه فحسب، بل ولأن الطلاق مازال يعتمد على المال والدخل المستقل. وقلّما يتوفّر للنساء المتزوجات أي من الأمرين. ويجادل الرجال بأن قوانين النفقة قد تشلّهم، وهذا في الظاهر صحيح، ولكن ليس أمامهم من يلقون اللوم عليه سوى أنفسهم في اعتبار النفقة

ضرورية، وهذا يعود في جانب كبير منه إلى منح حضانة الأولاد للأم. والزوجة التي تحصل على النفقة لتربية الأولاد من دون الأب ليست أكثر حرية مما كانت عليه من قبل. وليس هناك أي منطق في توقعيها عقدًا للخدمة مدى الحياة يستطيع رب العمل وحده أن ينهيه. والأنكى من ذلك كله أن دخل المرأة العاملة يخضع للضريبة كأنه جزء من دخل زوجها، لكنه، في المقابل، ليس ملزمًا بأن يخبرها كم يكسب. إذا كانت الاستقلالية حالة ملازمة للحرية، فحريّ بالنساء ألا يتزوّجن.

ما دافع الفتاة العادية إلى الزواج؟ قد يأتي الجواب على ذلك: إنه الحب. لكن الحب يمكن أن يوجد خارج الزواج، وفي الحقيقة كان الافتراض خلال زمن طويل أن الحب قد وجد دائمًا. والحب قد يأخذ أشكالاً كثيرة؛ فلماذا يجب أن يكون حصريًا؟ أهو الأمان؟ لكن الأمان وهم، ولاسيما إذا كان المعنى المقصود هو المحافظة على وضع من «التآزر» السعيد الذي يوجد في وقت الزواج. حتى إذا لم تحدث كوارث واضحة كالزنا أو الانفصال، فإن الناس يتغيّرون: لا يمكن لأي شريك أن يبقى في النهاية الشخص ذاته الذي تزوّج في البداية. إذا كانت المرأة تتزوج لأنها مشمئزة من العمل، فإنها تستحق كل ما تحصل عليه. لكن يجب تحسين فرص العمل لا التخلّي عن العمل. إذا تزوجت امرأة لأنها تريد أطفالاً، فربما تفكّر في أن العائلة العادية لم تثبت أنها تربة جيدة جدًا لتربية الأولاد، ورؤية أن العالم ليس في حاجة ملحّة إلى الزيادة التي ستسهم بها، فقد يكون من الأفضل لها أن تنتظر، مع توافر وسائل منع الحمل بكثرة، حتى يفرض نوع أكثر ملاءمة من الأسرة ذاته. لا يمكن إلا للفتاة العزباء، التي لا يمكن أن تحصل على رهن وتعتبر غالبًا مستأجرة غير مرغوب بها، أن تعرف أشكال الاحتقار وعدم الأهلية التي تعاني منها؛ ولن يغيّر زواج جبان تلك الظروف بأي طريقة من الطرق. وعلى الرغم من وجود مشكلات كثيرة ترافق تنشئة طفل غير

شرعي، وحتى التعايش الودّي يمكن أن يُقابل بالإساءة والملاحقة من جانب المواطنين المتشددين، فإن الزواج لتجنّب هذه المضايقات هو مهرب لا معنى له.

من السهل جدًا أن نصرح بلا قيود أن المرأة التي تسعى إلى التحرر يجب ألا تتزوج، لكن إذا كان ذلك يعني إقصاء النساء المتزوجات، فسيكون أي تحرير واسع النطاق للمرأة مؤجّلاً إلى أجل غير مسمى. وتبقى المرأة المتزوجة التي ليس لديها أولاد قادرة على الاحتفاظ بدرجة من قدرتها على المساومة، شريطة أن تقرّر عدم الخوف من التهديد بالهجر. ليست المساومة بين المتزوجين عمومًا عادلة؛ إذ تكتشف المرأة في نهاية المطاف أن حياتها قد تغيّرت جذريًا، أما حياة زوجها فلا. ويعتبر هذا الوضع عمومًا سويًا؛ فعلى سبيل المثال، رفضت إحدى وزارات الداخلية مؤخرًا أن تمنح امرأة الحق في أن تعيش في بلدها الأصلي لأنها تزوّجت من رجل هندي بحجة أنه «من المتعارف عليه أن المرأة تتّخذ بلد زوجها الأصلي بلدًا لها»[381]. وينطبق الأمر ذاته على مدينتها الأصلية، أو مكان عمل زوجها وموطنه المختار وأصدقائه. يمكن شرح التفاوت في حالة الأخذ والعطاء في الزواج، على أفضل نحو، بأنه ظلم عاطفي في جوهره، على الرغم من أن هذا الظلم مضلّل في حالات كثيرة. فرجال كثيرون يخشون الهجر بقدر ما تخشاه النساء تقريبًا، ويخشون الفشل في الزواج بقدر ما تخشاه زوجاتهم، ويمكن للمرأة التي لا تخشى من تدبير أمورها بذاتها أن تتلاعب بهذا الوضع. والمسألة برمتها مسألة أعصاب.

---

381 أخبرت وزارة الداخلية السيدة ماري تشاترجي (Mary Chatterji) أنه «من المفترض أن تكون الزوجة مستعدة عمومًا للعيش في بلد زوجها» (*The Times*, 3.2.1970).

الفتاة الثائرة

كلمات وموسيقى: **جو هيل** (Joe Hill)، حقوق التأليف 1916

الكورس

تلكم هي الفتاة الثائرة، تلكم هي الفتاة الثائرة!
وهي لؤلؤة ثمينة للطبقة العاملة.
إنها تجلب الشجاعة والفخر والفرح
إلى الفتى الثائر؛
كان لدينا فتيات من قبل، لكننا بحاجة إلى المزيد منهن
بين عمال العالم الصناعيين،
لأنه من العظيم أن تناضل من أجل الحرية
مع فتاة ثائرة.

أغاني (I. W. W.)

مع نمو نشاط الجزء النسائي من السكان، يجب أن تظهر أنواع مختلفة من المشاريع التعاونية لمساندة استقلالية الأفراد، على الرغم من أن عدد النوادي والجمعيات التعاونية النسائية الآن أقل ربما ممّا كان عليه بين الحربين، إذا ما تأملنا في الصورة المرسومة في أغنية **فتيات ذوات وسائل مستقلة** (Girls of Independent Means). ليس الهدف الرئيسي من التنظيم هو تشكيل جبهة سياسية، بل تطوير التضامن والمساعدة الذاتية المتبادلة، والتي يمكن أن تكون مفيدة على نطاق ضيّق تمامًا. والعودة إلى بيت الأم هي حيلة مبتذلة جدًا، لأن الأم يصعب العيش معها، وهي تأنيبية ومحافظة ومتعبة من مشاكل الأولاد. مازالت معظم النساء بحاجة إلى غرفة خاصة بهن، وقد تكون الطريقة الوحيدة لإيجادها هي خارج بيوتهن.

يبعث مأزق الأمهات على اليأس أكثر من مأزق بقية النساء، وكلما زاد عدد الأولاد، بدا الوضع ميئوسًا منه أكثر. ومع ذلك، هناك نساء لديهن أطفال، وهنّ ينتزعن حريتهن مع أطفالهن أو بدونهم. فقد تركت تيسا فوذرغيل (Tessa Fothergill) زوجها، وأخذت طفليها، وبدأت الكفاح لتجد شقة تعيش فيها وعملاً خاصًا بها. وبالتأكيد واجهت صعوبات كثيرة حتى أنها قرّرت أن تؤسس مؤسسة للنساء اللواتي يعانين من مشكلات مثل مشكلتها، وأطلقت عليها اسم جينجربريد (Gingerbread). وهناك مؤسسة شبيهة موجودة أصلاً، واسمها أمهات عاملات (Mothers-in-Action)[382]. مهما كان التقدم الذي يتجاوز العراقيل الرسمية بطيئًا، فمن الأسهل القيام به معًا. وفي النهاية، أُسست جريدة للنساء، وتستطيع تلك المجموعات أن تعلن عن تأسيسها وأن تسعى لكسب المتعاونات. ستنكمش معظم النساء من فكرة ترك الزوج والأولاد نتيجة الفرضيات المتكوّنة لديهن عن أهمية دورهن بوصفهن حاملات أطفالهن ومنشئاتهم اجتماعيًا، ولكن هذه هي بالضبط الحالة التي يجب أن تجري فيها إعادة التفكير الواضحة وضوحًا قاسيًا. فأولاً وقبل كل شيء، ليس الأطفال لها، ليسوا ملكيتها، على الرغم من أن معظم المحاكم تنحاز بقوة لصالح الأمّ ضد الأب في مطالبتها بالحضانة. وإنه لأسوأ للأطفال بكثير أن ينموا في جوّ المعاناة، مهما كان مكبوتًا، من أن يتكيّفوا مع تغيير النظام. إن الصعوبة التي يواجهونها في تكيّفهم هي بحد ذاتها دليل على تقوية الارتباط السري اللااجتماعي، وقد يكون من الأفضل للأولاد على المدى الطويل أن يكتشفوا أن ليست لهم سيطرة بلا منازع على الأم. على أي حال،

382- Gingerbread, 35 Wellington Street, London WC2E 7BN, and Mothers-in-Action, 10 Lady Somerset Road, London NW5 (*Sunday Times*, 25.1.1970).

يجب شرح الوضع للأولاد لأنهم دائمًا يشعرون بالاضطراب والقلق حيال الاحتمالات الغامضة أكثر مما يشعرون بهما حيال الحقائق. يجب على الزوجة التي تعلم أنها إذا تركت زوجها فلا يمكنها أن تربيهم إلا في العوز، على الرغم من أنها تستطيع أن تعيل نفسها، أن تتّخذ قرارًا حصيفًا، وأن ترفض فورًا التحيّز العميق ضد الزوجة الهاربة. يُواسى الأب، في حالات كثيرة، بالسماح له بأن يحتفظ بالأولاد، ويستطيع أن يؤمّن معاملتهم معاملة أفضل وبقلق أقلّ مما تستطيع الأم أن تفعله. فالأرجح أن يكون أقدر من الأمّ على دفع أجرة مدبرة منزل أو مربية. وهكذا دواليك. يلوح دائمًا خلف المرأة المطلّقة التي تكافح للاحتفاظ بأولادها التهديد «بأخذ الأولاد إلى العناية»، وهو أسوأ البدائل. يمكن للمرأة التي تترك زوجها وأولادها أن تقدّم لهم النفقة، لو أن المجتمع يمنحها الوسائل.

إن العامل الأساسي في تحرير المرأة المتزوجة هو فهم ظرفها. إذ عليها أن تحارب الإحساس بالذنب عن الفشل في وضع مستحيل، وتمحيص ذلك الوضع. يجب عليها أن تتجاهل التوصيفات المهتمّة لصحتها وأخلاقها وجنسانيتها وأن تقيّمها كلها بنفسها. ويجب عليها أن تعرف أعداءها: الأطباء والأطباء النفسيون والعمال الاجتماعيون واستشاريو الزواج والقساوسة والزوّار الصحيون والأخلاقويون الشعبيون. يجب عليها أن تحلّل عاداتها الشرائية ومراوغاتها وسقطاتها اليومية وآلامها ومشاعرها الحقيقية نحو أبنائها وماضيها ومستقبلها. وأفضل من يساعدها في تقييمها هذا هنّ أخواتها. يجب ألا تسمح لنفسها بأن تصبح عرضة للسخرية والارتباك في جدالات مع زوجها، أو بأن يستغلّها بجهله بدوره في مأزقها أو بشهامته في أن يعرض حلاً وسطًا في أي اقتراح «معقول». يجب، في الجوهر، أن تستعيد السيطرة على إرادتها وأهدافها والقدرة على استخدامهما، وحتى تتمكن من

تنفيذ ذلك، فقد تكون بعض الاقتراحات أو المطالب «غير العقلانية» ضرورية.

ليس القول بأن الرجال قد حلّوا لغز الإنجاب البيولوجي، كما تقول **تاي غريس آتكنسون**، شرحًا كاملاً لتطوّر خضوع الجنس المؤنث. فهم في الحقيقة لم يحلّوا لغز الأبوة. إذ من المعروف أن الأب ضروري، لكن من غير المعروف كيف نحدّده إلا على نحو سلبي.

> سيستمر كل ما هو طيب وجدير بالثناء، مما هو موجود الآن، في الوجود إذا ما أُبطلت كل قوانين الزواج غدًا... لديّ حق دستوري وطبيعي غير قابل للتحويل في أن أحب من أشاء، وفي أن أحب أطول أو أقصر فترة أستطيع، وفي أن أغيّر ذلك الحب كل يوم إذا راق لي ذلك!
>
> **فيكتوريا كلافلين وودهل** (Victoria Claflin Woodhull)
> 20 تشرين الثاني/نوفمبر 1871

لقد واجهت النساء بحرية عجز الأبوة هذا، بعد أن أجبرهن السجن والمراقبة في البداية على ذلك، بتقديم ضمانات على الأبوة والإخلاص الملازم لها. أما الآن، وقد أصبحت عزلة الزوجات مستحيلة، فقد نسحب الضمانات أيضًا، ونجعل العائلة البطريركية مستحيلة أيضًا، وذلك بالإصرار على المحافظة على الجماعة برمتها؛ جميع الرجال آباء لجميع الأطفال. إن سحب ضمانة الأبوة لا يتضمن بالضرورة «الاختلاط الجنسي»، على الرغم من أنه في المراحل الأولى قد يبدو كذلك. وقد يعمل تشوّش السكرتيرات العرضيات في اختيار وظائفهن في البداية بوصفه إجراء ثوريًا يدفع بالقوة إلى الاعتراف بإسهاماتهن في الشركة والعمل؛ وبالمثل، قد يكون من الواجب تعزيز

عدم استعداد النساء للالتزام التام بعهود الزواج الأحادي والوفاء الشبيه بوفاء الكلاب عن طريق «الاختلاط الجنسي» الفعلي على سبيل البداية.

كما ينبغي أن ترفض النساء أيضًا دورهن بوصفهن مستهلكات رئيسيات في الدولة الرأسمالية. صحيح أن رفض شراء الأجهزة المنزلية سيكون خطوة رجعية لأن عمل النساء سيزداد، ويصبح أكثر تقييدًا لهنّ، لكن إذا ما تشاركت النساء مثلاً في غسالة واحدة لكل ثلاث عائلات، وإذا ما توقّفن عن اعتبار امتلاك آخر طراز مؤشرًا ضروريًا على المكانة والنجاح، فسيوجّهن بذلك ضربة قوية للصناعات المعنية. يمكن أن يشكّلن تعاونيات منزلية، وأن يتبادلن العمل، وأن تقوم واحدة منهنّ بعمل الأخرى بالتناوب لتكون كل منهما حرّة في وقتها أيامًا كاملة. وبدلاً من تشجيع الأولاد على الصراع فيما بينهم، يمكن تشجيعهم على تبادل الألعاب التي يلقون بها جانبًا ما أن يملّوا منها. ولن يكره الأولاد ذلك كما يظنّ الأهل. مازلت أذكر أنني تعرّضت للضرب عندما كنت في الرابعة من العمر لأنني تخلّيت عن جميع ألعابي. لم أكن فعلاً أريد الاحتفاظ بها أكثر من ذلك. الأولاد لا يريدون ألعابًا غالية الثمن، والنساء لا يستطعن رفض الإعلان الذي يسعى إلى سحب ملايين الجنيهات من جيوبهن في كل عيد ميلاد. كما يمكن تجنّب دفع القيمة التي تضاف إلى سعر مساحيق الغسيل المعبّأة في عبوات جذابة عن طريق شراءها «دوكما». وبالمثل، يمكن شراء المواد الغذائية من الموزّدين مباشرة، وإذا ما اتّحدت النساء للاحتيال على الوسطاء فيمكن أن يحصلن على فرصة أفضل لجعل الأمور تسير على ما يرام. إذ يمكن توسيع الشراء بالجملة بسعر أقل ليشمل عدة عائلات. ويجب على النساء أن يتغلّبن أيضًا على التحيّز المتصل بشراء الملابس والسلع المستعملة. يمكن تبادل الملابس التي

تضيق على الأولاد، وإذا لم يكن الأولاد ضحايا الإفراط في البيع فلن يبالوا في الأمر قيد أنملة. إذ أن تبادل عربات الأطفال، وما شابه، موجود أصلاً بين معظم عائلات الطبقة العاملة. وجزء من هدف هذه المشاريع التعاونية هو كسر عزلة العائلة الأحادية والوالد الوحيد، لكنني في الأساس أفكر في طرق لتقليص وظيفة النساء بوصفها هدف الإعلانات الرئيسي والمنفقات الرئيسيات لغنائم الأمة.

ستجد معظم النساء أن من الصعب عليهنّ أن يتخلّين عن اهتمامهن بالملابس ومواد التجميل، مع أن حركات كثيرة من حركات تحرير المرأة تحثّهن على التسامي فوق هذه الأشكال من التباهي التي لا تليق إلا بالعبيد. طالما أن مواد التجميل تستخدم للتزيّن بطريقة واعية وإبداعية فإنها لا تعتبر رمزًا للزيف، لكنها تصبح كذلك عندما يصبح هدفها تغطية العيوب البشعة وإخفاء الأشياء القبيحة حتى ليبدو الزيف حقيقة، ففي هذه الحالة يضع العالم عمومًا وظيفتها موضع شك عميق. تعاني النساء اللواتي لا يجرؤن على الخروج دون رموش اصطناعية من مشكلة نفسية جديّة. لا تختلف أغلى المستحضرات ثمنًا في صناعة مواد التجميل في الجوهر عن أرخصها ثمنًا؛ ولا يستطيع أي مرهم سحري أن يرمّم في الحقيقة نسيجًا ضعيفًا. وهكذا، لا بدّ من التفكير في الحمية الغذائية وبقية المواد الأولية المستخدمة في التجميل، وعدم استخدام مواد التجميل إلا للّهو. وبعض أرخصها وأفضله هو ذاك المستخدم في المسرح. فالكحل أفضل زينة للعيون وأرخصها، ويمكن شراؤه بأشكال متعددة. وبدلاً من مشتقات الفحم الغالية التي تسوّق تحت أسماء ماركات فرنسية، تستطيع النساء أن يصنعن عطورهن بأنفسهن من روح الكافور وزيت القرنفل والبخور، وكذلك من مسحوق الخزامى والعطرة وعطر الورد. وبدلاً من الجري وراء التغيّرات السنوية في موضة قص الشعر، يستطعن إيجاد الطريقة

التي ينمو بها شعرهن على أفضل نحو، ويحتفظن به على ذلك النحو، ويقمن بالتغييرات الممكنة التي توافق أسلوبهن ومزاجهن، بدلاً من أن يسرّحن شعرهن وفق مقتضيات الموضة، لا وفق ما يناسب رؤوسهن.

بعض هذه الاتجاهات واضح أصلاً. ومعظم الفتيات لا يتردّدن على مزيّن الشعر بأكثر مما كانت أمهاتهن يفعلن. لقد تغلّبن على مصممي الملابس الفريدين، وصرن يلبسن ما يعجبهن من الملابس الأقدم والأكثر رومانسية وصولًا إلى الملابس التي تعتبر نسخًا مطابقة لملابس الرجال الرياضية. هناك إشارات على أنهنّ يهجرن أيضًا عادات الأكل التي تدل على رفعة المكانة، ولاسيما لعبة الكحول والنبيذ. وكثيرات منهنّ يجدن طرقًا للعيش وهنّ طالبات، ولا يتخلّين عنها عندما يصبحن نساء ناضجات. إن لنمط رفض السكائر والبيرة من أجل الماريجوانا الممنوعة آثاراً بعيدة المدى في الاقتصاد إذا ما أخذت على نطاق واسع. كما يعكس الميل إلى تناول الطعام النباتي وبكميات أقل موقفًا من الأكل ومن تسويق الطعام في الوقت ذاته. صحيح أن أقلية فقط تتبع هذه الاتجاهات حتى الآن، لكنها أقلية أكبر بكثير من تلك التي وجدناها تنفخ في البوق خلف رايات تحرير المرأة. ومع ذلك، يبقى البحث عن التحرير هو ذاته. يمكن القول إن الرفض الهيبّي للعنف قد فشل، لأن رجال الشرطة لم يكونوا يشعرون بالعار لدى مواجهة الزهرة بالعصا، لكنّ القضية طرحت بوضوح، ولم ينته الجدل بعد.

إن الوسيلة الرئيسية لتحرير النساء هي استبدال الإكراه والاضطرار بمبدأ اللذة. فالطبخ والملابس والجمال والتدبير المنزلي كلها أعمال إلزامية حلّ فيها القلق والتوتر، منذ زمن طويل، محلّ الإنجاز أو اللذة. ولكن يمكن استخدام الطبخ والملابس ومواد التجميل والتدبير المنزلي لتحقيق شيء من الاستمتاع. فأساس المتعة هو

العفوية. وفي هذه الحالات، العفوية تعني رفض المعيار أو النموذج الذي يجب أن يعيش المرء على أساسه، ووضع مبدأ ناظم للذات. يُفهم القياس فهمًا أفضل في حالة المخدرات: فالنساء يستخدمن المخدرات مثل المسكنات، رغمًا عنهن، لتخفيض التوتر والألم ومكافحة أعراض القلق، ويدخلن تلقائيًا تقريبًا في متلازمة الاتكال على الأدوية حتى يغدو من المستحيل إدراك ما إذا كان العقار قد سبّب العرَض الذي أخذ العقار من أجله، وهكذا يستمر الوضع على حاله. ليس الشخص الذي يستخدم الماريجوانا بحاجة إلى استخدامها: فهو يستخدمها عندما يريد أن يشعر على نحو ما، ويتوقف عن تجرّعها عندما يصل إلى النقطة التي يرغب في الوصول إليها. وهو لا يميل إلى تقديم عذر لاستخدامه إياها بوصفها نوعًا من العلاج، على الرغم من أن الأنظمة المتعلقة باستخدام الحشيش تحاول أن تفرض تفسيرًا للوضع من هذا القبيل. وعلى النحو ذاته، يجب أن يكون ممكنًا لكِ أن تطبخي وجبة ترغبين في طبخها، ويرغب الجميع في أكلها، وأن تقدّميها بأي طريقة تشائين، فيمكن أن تتبعي جدولاً مقرّرًا، وتقدمي وجبة اليوم حسب الجدول، أو أن تقدمي قائمة شهية منوّعة تضم كل الأطباق الجديدة والصعبة التي أعددتها بنفسك في تشكيلة جديدة، أو ببساطة ألا تقومي بالأمر برمته إذا كنتِ لا تهتمّين بالأمر. إن أيديولوجيا الروتين راسخة، لسوء الحظ، بقوة في هذا البلد، حتى أن ربات المنازل المهملات أنفسهن يستخدمن لعب القمار وشرب الجعة في نوع من الروتين حتى «أنهن لا يعرفن ما يفعلن دونه». من المعترف به أن العمل المنزلي يشكل حلقة مفرغة نموذجية؛ فالعمل يولّد المزيد من العمل وهكذا دواليك. من الصعب جدًا كسر تلك الحلقة ولكن يبدو من الضروري الخروج منها والإصرار على القيام بشيء مختلف تمامًا. مازالت فترات «الحرية» المنتظمة محتواة ضمن الدائرة، ولهذا السبب

فهي لن تجدي نفعًا. لن تنجح معظم أشكال التسوية في أداء العمل، على الرغم من أنها قد تخفّف أعراض الإجهاد مؤقتًا. وللسبب ذاته، فإن إدخال بعض العمل المختار ذاتيًا في الدائرة لن يجدي نفعًا طالما أن الحافز والطاقة يدمّران باستمرار. لا بديل عن تمزيق تلك الدائرة.

لقد عنى تمزيق الدائرة للبعض أن المركز لن يصمد وأن الفوضى ستعمّ العالم. ذلك أن الخوف من الحرية قوي فينا، لكن يجب فهم الخوف نفسه على أنه أحد العوامل البنيوية في استمرار الوضع الراهن. عندما ترفض النساء قبول قطبية الذكورة ـ الأنوثة، فيجب أن يقبلن وجود مخاطرة واحتمال الخطأ.

> بما أن حججي، يا سيدي، قد نوقشت من جانب روح نزيهة، فإنني أدافع عن جنسي، لا عن نفسي. لطالما اعتبرت الاستقلال نعمة الحياة الكبرى وأساس كل فضيلة؛ وسأصون استقلالي دائمًا عبر تقليص حاجاتي، على الرغم من أنه كان مقدّرًا لي أن أعيش فوق أرض بور مقفرة.
>
> **ماري وولستونكرافت، «*دفاع عن حقوق النساء*»**
> (1792, p. iv).

إن هجر العبودية هو أيضًا طرد لوهم الأمان. والعالم لن يتغيّر بين ليلة وضحاها، ولن يحدث التحرير إلا إذا وافقت نساء، بصفتهن الفردية، على أن يكن منبوذات وخارجات على المألوف ومنحرفات وأي صفات أخرى قد ترميهن بها قوى الأمر الواقع. كانت هناك في الماضي نساء أشجع بكثير مما نحتاج إلى أن نكون عليه حاليًا، نساء غامرن بكل شيء، ولم يحصلن إلا على القليل، لكنهنّ نجحن في البقاء في نهاية

المطاف. تعرّضت النساء الصخّابات للسخرية في الصحافة، وللهزء من جانب أخريات يحصلن على أجور عالية، ويزهون بأنوثتهن أيضًا، ولكن، على الأقل، لم تعد عقوبتهن الحرق. سيكون كثيرًا أن نتوقع أن تصبح النساء اللواتي انطلقن لتحرير أنفسهن سليمات الصحة وسعيدات ومبدعات ومتعاونات كما لو بفعل السحر، على الرغم من أن أعراض الاستلاب الأكثر ترويعًا تختفي بالفعل. أما الحاجات وأشكال القلق المشروطة القديمة فتتخلف عنها، وتستمر في فرض إغرائها، لكنها تُفهم الآن على ما هي عليه، وتحمل لغاية ما. لن يظهر الوضع بكل نتائجه إلا عند تحدّيه، وقد تخاف النساء في البداية من السرعة التي ترمي بها الشرطة جانبًا تردّدها في ضرب النساء، أو حقارة الإهانة التي يواجهن بها، لكن لا يمكن لمثل هذه الاكتشافات إلا أن تلهمهنّ المزيد من الإصرار على الاستمرار. إن مفتاح إستراتيجية التحرير يكمن في فضح الوضع، وأبسط طريقة للقيام بذلك هي إثارة النقّاد والخبراء بصفاقة حادة في الحديث والإيماء، واستغلال كليشة «المنطق الأنثوي» لفضح التباهي والسخف والظلم الذكري. أسلحة النساء هي تقليديًا ألسنتهن، ولقد كان التكتيك الثوري الرئيسي دائمًا نشر المعلومات. والآن، كما من قبل، يجب أن ترفض النساء الخنوع والنفاق، لأنه لا يمكن خدمة الحقيقة بالرياء. أما النساء، اللواتي يتصوّرن أنهن يتلاعبن بالعالم بالقوة الناعمة والمداهنة اللطيفة، فهنّ حمقاوات[383]. وما تبنّي تكتيكات كهذه إلا عبودية.

383- سعت دايان هارت (Diane Hart) إلى إطلاق حزب التنانير (Petticoat Party) في أيار/مايو 1969، بأن نشرت في التايمز إعلانًا تقول فيه: «أيها السيدات، لا تكتفين بالجلوس هناك. إذا كنت ضجرة من القلاع في الهواء، فتعالي إلى مجلس العموم. المطلوب: 630 سيدة مستعدات للمقامرة بـ 500 جنيه كل منهن، ومقاتلات من أجل دائرة انتخابية». لا داع للقول أنه لم ينجم عن تلك المحاولة أي حزب سياسي. دخلت الانتخابات وحدها، وهزمت أصولًا. وأسست ثلاث نساء أمريكيات فاتنات رابطة =

من الصعب في هذه المرحلة تقديم تصوّر لما سيكون عليه النظام الجنسي الجديد. ليس أمامنا سوى حياة واحدة نعيشها، وأول هدف هو إيجاد طريقة لإنقاذ تلك الحياة من الإعاقات التي ابتليت بها أصلاً خدمة لحضارتنا. لا يمكن إلا بالتجريب أن نفتح إمكانيات جديدة تشير إلى احتمالات التطور التي يعتبر الوضع الراهن فيها شرطًا معطى. ثورة النساء هي بالضرورة ثورة على الوضع برمته: فلا يمكننا القول إن كل شيء سيكون على ما يرام عندما ينجح الاشتراكيون في إلغاء الملكية الخاصة واستعادة الملكية العامة لوسائل الإنتاج. لا يمكننا أن ننتظر حتى ذلك الوقت. إذا ما ألغى تحرير المرأة العائلة البطريركية فإنه سيلغي بنية تحتية ضرورية من بنى الدولة التسلطية، وعندما تتلاشى الدولة التسلطية سيكون ماركس قد تحقّق شاء المرء أم أبى، لذا دعونا ننهض بهذه المهمة. دعوا الرجال يوزعون المنشورات في المعامل التي أصبح البروليتاريون فيها عبيد الشراء بالتقسيط بدل أن يصبحوا شيوعيين. ووجود عبيد الشراء بالتقسيط يقوم أيضًا على وظيفة الزوجة بوصفها المستهلكة الملازمة للبيت. تظهر الإحصاءات أن جميع عقود الشراء بالتقسيط تقريبًا قام بها أشخاص متزوجون. وإذا ثارت النساء فيجب أن يتغيّر هذا الوضع أيضًا. إذ تمثّل النساء طبقة العاملات بلا أجر بعقود مدى الحياة، وهي الطبقة الأكثر تعرّضًا للظلم، ولا يعتبر وصفهن بالإماء وصفًا ميلودراميًا. إنهنّ البروليتاريا الحقيقية الوحيدة المتبقية، وهنّ يمثّلن، مع هامش ضئيل، أغلبية السكان، فما الذي يوقفهن إذًا؟ لا بدّ من أن يأتي الجواب بأن ظلمهن

= بوسي كات (Pussycat League) للتعبير عن قوة الجنس اللطيف، الذي من شأنه أن يحظى بسيطرة عامة عن طريق الملاطفات والمعاملة برفق (*Sunday Mirror*, 2.11.1969). لم تنشأ أي نتائج سياسية يمكن تقديرها أو غيرها عن تقنية الرواية هذه.

نفسه يقف عثرة في طريق اتحادهنّ لتشكيل مجموعة صلبة تستطيع أن تتحدّى السادة. لكن الرجل ارتكب خطأ خطيرًا: ففي ردّه على الإثارة الإصلاحية والإنسانية بغموض، سمح للنساء بدخول عالم السياسة والمهن. والمحافظون الذين رأوا في ذلك تقويضًا لحضارتنا ونهاية للدولة والزواج كانوا على حق في نهاية المطاف؛ لقد آن أوان البدء بالتدمير. لسنا بحاجة لأن نتحدّى أحدًا حتى نبدأ المعركة، لأن الطريقة الأنجع هي ببساطة أن نمتنع عن التعاون في بناء نظام يقمعنا، أن نسحب عملنا على نحو صحيح. ويمكن أيضًا أن نحرّض هنا وهناك، ونحاصر الحانات التي تحظر دخول النساء ومسابقات الجمال، ونخدم في لجان، ونجتاح وسائل الإعلام، أي باختصار، نفعل ما نريد، لكن يجب أيضًا أن نرفض، لا أن نفعل بعض الأشياء فحسب، بل وأن نريد القيام بها.

التجربة تعلّم، لكنها مكلفة جدًا: لا يمكننا جميعًا أن نتزّوج لنعرف الوضع عن كثب. يجب أن تعلّمنا الأخوات الأكبر سنًا ما الذي اكتشفنه. يجب أن نتعلم في جميع الأوقات من تجارب بعضنا بعضًا، وألا نطلق أحكامًا متسرعة أو نفّاجة أو وفق المعايير الذكرية. يجب أن نكافح ضد النزعة إلى تكوين نخبة نسوية، أو تراتبية سلطوية على النمط الذكري في بنانا السياسية، وأن نكافح للمحافظة على التعاون وعلى مبدأ الأخوية الأمومي. ليس من الضروري للنسويات أن يثبتن أن النظام الأمومي هو شكل قبل ـ تاريخي من أشكال المجتمع، أو أن النظام الأبوي هو انحراف رأسمالي حتى نبرّر سياساتنا، لأن شكل الحياة الذي نتخيّله قد يكون أيضًا جديدًا تمامًا مثلما يمكن أن يكون قديمًا راسخًا. لسنا بحاجة إلى شراء أنثروبولوجيا ملتبسة حتى نشرح أنفسنا، على الرغم من أن النساء اللواتي لديهن ميل إلى الدراسة قد يفعلن حسنًا حين يبحثن في دور النساء التاريخي، في محاولة ما لتعيين مفاهيمنا

عما هو طبيعي وما هو ممكن في عالم المرأة. لقد حان الوقت الذي أصبحت فيه بعض النساء مستعدّات للاستماع، وعددهن في تزايد؛ وقد حان الوقت لتتكلم تلك النسوة، مهما كان حديثهن غير متماسك، ومهما كان أعرجًا، وقد حان الوقت للعالم حتى يسمع.

إن الدليل الأوثق على صحة المسار الذي اتبعته النساء هو الفرح في الكفاح. الثورة هي مهرجان المظلومين. قد لا تحصل النساء قبل مضي زمن طويل على أي مكافآت ملموسة سوى حسّهن الجديد بالهدف والسلامة. إن الفرح لا يعني الطرب المستهتر، بل التوظيف الهادف للطاقة في عمل من اختيارنا الذاتي. هو يعني الفخر بأنفسنا وثقتنا بها، والتواصل والتعاون مع الآخرين على أساس بهجتنا في صحبتهم وبهجتهم في صحبتنا. أن تكوني متحررةً من العجز والحاجة، وأن تسيري بحرية على الأرض فهذا حقك منذ الولادة. وحقك أيضًا أن ترفضي القيود والتشوه، وأن تملكي جسدك، وتتباهي بقدرته قابلةً بقوانين الجمال الخاصة به. وأن يكون لديك شيء ما ترغبين به، شيء تقومين به، شيء تنجزينه، وفي النهاية شيء حقيقي تمنحينه. أن تكوني متحررة من الإحساس بالذنب والعار وانضباط النساء الذاتي المتواصل. أن تتوقفي عن التظاهر والنفاق، عن المداهنة والتلاعب، وأن تبدئي بالسيطرة والمشاركة الوجدانية. أن تطالبي بفضائل الشهامة والكرم والشجاعة المذكرة. إن الأمر يتخطّى مسألة الأجر المتساوي مقابل العمل المتساوي بكثير، حين نضع نصب أعيننا تثوير شروط العمل برمتها. وهو لا يفهم تعبير «تكافؤ الفرص»، لأن الفرص يجب أن تتغيّر تغيّرًا تامًا، على ما يبدو، وكذلك أرواح النساء بحيث يرغبن بالفرصة بدل أن ينفرن منها.

يقوم ترسيخ الحقيقة على تدمير البهتان باستمرار، وعلى الختان، لا على البتولة، آه يا حكماء بريطانيا!

وليم بليك، *«القدس»* (p. 55, pl. 65–6)

أول اكتشاف مهم سنقوم به حين نندفع في طريقنا النسائي نحو الحرية هو أن الرجال ليسوا أحرارًا، وسيسعون نتيجة ذلك إلى إثارة جدال حول الداعي لأن يكون أي شخص حر. لا يسعنا سوى القول إن العبيد يستعبدون سادتهم، وحين نضمن تحرير أنفسنا، نستطيع أن نري الرجال الطريق التي يمكن أن يسلكوها عندما يقفزون خارج رتابة حياتهم المضجرة.

... لم أجد بين الكافرين بالأديان السماوية، خلال حياة امتدت نصف قرن، شخصًا واحدًا ضد مبدأ تساوي الرجال والنساء في الحقوق.

لونغ، «حواء»
(Long, 'Eve', 1875, p. 112)

ستتمسك النساء الغنيّات بكمّ ثوبك، ويسعين إلى تجنيدك في «المعركة» من أجل الإصلاح، لكنّ زمن الإصلاح قد ولّى، وينبغي تحطيم المسار القديم، لا تجديده. وستدعوك النساء العنيفات، بالمقابل، إلى التمرّد، لكن لديك الكثير مما يجب أن تقومي به، فانظري ما أنت فاعلة؟

عن ترجمة الكتاب

لدى اتصال دار الرحبة بمؤلفة الكتاب من أجل الحصول على إذنها بالترجمة، اشترطت أن تعرض الترجمة على شخص موثوق من طرفها لتقييم الترجمة قبل السماح بالنشر. وهذا هو الرد الذي جاءها من الأستاذ **مايكل مومیسا** الذي عرضت عليه الترجمة لتقييمها:

«لقد انتهيت للتو من تفحّص النسخة العربية من كتاب «المرأة المخصية» على أساس النسخة الإنكليزية الأصلية. وهي ترجمة عربية مؤثرة جدًا وشديدة الدقّة، ظلّت أمينة للأصل الإنكليزي. وهي طريفة أيضًا. لم تحذف أي مقطع أو جملة. وهي أفضل بكثير، ومن جميع الجوانب، من تلك النسخة العربية غير الشرعية التي أريتني إياها سابقًا.

الأسلوب العربي المستخدم هو اللغة العربية الفصحى الحديثة وليس العربية الأدبية، كما هي الحال عادة مع معظم ترجمات النصوص المدرسية إلى العربية. والحقيقة أن اختيار المترجم العربية الفصحى الحديثة ليس أمرًا سلبيًا. إذ من شأنه أن يجعل الكتاب سهل الفهم على القارئ العربي العادي، لأن العربية الأدبية ليست سهلة على القارئ العربي العادي كالعربية الفصحى الحديثة.

وعلاوة على ذلك، وضع المترجم، حيث اقتضت الضرورة، ملاحظات مفيدة جدًا لشرح بعض التعابير والمفاهيم ذات الخصوصية الثقافية التي ليس وقعها سهلًا على أذن القارئ العربي. هكذا، لم يحذف تلك التعابير والمفاهيم، بل احتفظ بها في النسخة العربية عبر نقحرتها. أما في المواضع التي وضع فيها حاشية، فقد حرص على الإشارة إلى أن هذه الحاشية هي من المترجم وليس من المؤلفة، وذلك بكتابة كلمة «مترجم» بين قوسين عند نهاية الملاحظة. وهكذا يدرك القارئ أنه حيث لا توجد كلمة [مترجم] تكون الملاحظة من المؤلفة وليس من المترجم. كذلك اقتصرت ملاحظات المترجم على شرح الكلمات أو المفاهيم دون أن يقحم نفسه في التأويل أو التفسير. وهذا مهم لأنه يترك للقارئ حرية أن يكوّن أفكاره الخاصة عن النص.

لم أتمكن من رؤية أي أخطاء في الترجمة سوى تلك الأخطاء الطباعية البسيطة التي أنا متأكد أن المحرر أو الناشر قد انتبه إليها أصلًا.

وعلاوة على ذلك، أضاف المترجم مقدمة تعرّف بالكاتبة وكتبها وإسهاماتها المهمة والدائمة في النسوية وحقوق الإنسان وحقوق المهمشين والمظلومين. وهي مقدمة جيدة جدًا سيستمتع القارئ بقراءتها. أما المعلومات المتضمنة في المقدمة، فمأخوذة من مصادر معلومات متعددة، بما في ذلك ويكيبيديا. الخطأ الوحيد البسيط في هذا الجزء حصل لدى ترجمة (Newhman College at University of Cambridge)، إذ ترجمت بـ«جامعة **نيوهامكوليج** في المملكة المتحدة»، وذلك لدى كتابة المترجم عن عودة البروفيسورة **غرير** إلى **كامبردج** في عام 1989 لتعمل محاضرة وزميلة في **نيونهام كوليج**. أما ما عدا ذلك فهو يقدّم كل شيء يتعلق بتعليم البروفيسورة **غرير**

في أستراليا وفي كامبردج تقديمًا صحيحًا، وكذلك الحال مع حياتها المهنية والأشياء الأخرى التي قامت بها.

رأيي بهذه الترجمة هو أنها ترجمة ممتازة وشديدة الدقة. إذ بقيت أمينة للأصل الإنكليزي. ونجحت في ترجمة والتقاط بعض روح الفكاهة في النسخة الإنكليزية. وهذا ليس من السهل دائمًا القيام به. لم تُحذف أي مقاطع أو جمل. وهي أفضل بكثير، ومن جميع الجوانب، من تلك النسخة العربية غير الشرعية».

الأستاذ مايكل موميسا

النص بالإنكليزية

«I have just finished closely examining the Arabic version of The Female Eunuch against the original English version. It is a very impressive and meticulous Arabic translation which has remained loyal to the original English version. It is funny too. No sections or sentences have been edited out. It is far much better, in every aspect, than the bootleg Arabic version you showed me.

The style of Arabic used is Modern Standard Arabic and not Literary Arabic as is usually the case with most translations of scholarly texts into Arabic. The fact that the translators opted for MSA is not a negative thing. It will make the book easily accessible to the general Arab reader since Literary Arabic is not as easily accessible to ordinary Arab readers as MSA.

Where necessary, the translators also provided very useful footnotes to explain culturally specific terms or concepts that do not easily register with an Arab reader. They did not edit out such terms or concepts. They retained them in the Arabic version by way of transliteration. Where they have provided footnotes they have been careful to indicate that the footnote is by the translators and not the author. They did this by writing the word [translator] in brackets at the end of the footnote. So the reader is able to tell that where the word [translator] does

not appear the footnote has been written by the original author and not translators. The translators' footnotes are also limited to explaining words and concepts and not to engage in exegesis. This is important because it allows the readers to make up their own minds about the text.

I could not see any mistakes in the translation apart from the normal minor typographical errors which I am sure the editors or publishers have picked up already.

The translators have also included a Foreword introducing the author, her books, and her important and lasting contribution to Feminism, human rights, and the rights of the marginalised and oppressed. It is a very good foreword which readers will enjoy reading. The information for this section has been taken from various media sources including Wikipedia. The only minor error in this section is where "Newhman College at University of Cambridge" has been translation into Arabic as "Newnham University College in the UK" (p.2). This is when the translators are writing about Professor Greer's return to Cambridge in 1989 as special lecturer and fellow at Newnham. They do get everything else right when discussion Professor Greer's educational background in Australia and at Cambridge, as well as her career and other things she has done.

My verdict is that this is an excellent and meticulous translation. It has remained loyal to the original English version. It succeeds in translating and recapturing some of the humour in the original English version. This is not always easy to do. No sections or sentences have been edited out. It is far much better, in every aspect, than the bootleg Arabic version.»

Mr. Michael Mumisa

«هذا الكتاب مكتوب بطريقة لمّاحة ومواربة وحساسة، وهو مليء بالمرارة والتبصّر»

مراجعة الكتب في مجلة نيويورك تايمز

يمثّل هذا الكتاب علامة فارقة في تاريخ حركة حقوق النساء.

THE FEMALE EUNUCH By: Germaine Greer

يتقصى الكتاب التجليات المختلفة للصورة النمطية أو النموذج المقولب الذي وقعت المرأة أسيرة له، ويحللها وينتقدها. فهذه الصورة النمطية التي ترفع المرأة إلى مستوى الإلهة المعبودة شعرًا وفنًا، هي نفسها التي تفرغها من عقلها وإنسانيتها وتستخدمها وسيلة إعلانية أو سلعة في سوق السلع. وهذه الصورة لم تكن من بنات أفكار الشركات ومصممي الدعايات فحسب، بل أسهم مفكرون وأطباء ومحللون نفسيون وكتّاب وشعراء في إنتاجها، حتى ليبدو التخلص منها أشبه بحرب على مستويات متعددة. والكتاب في تقصيه وتحليله ونقده لكثير من تلك الأفكار، لا يكتفي بذلك بل يسعى إلى تلمس ملامح مسار جديد أمام النساء، مسار لا يمكن أن يتحقق تمامًا إلا بالثورة، ثورة لا من أجل المساواة فحسب، بل من أجل حرية النساء التامة.

وهذا الكتاب ليس من النوع الذي تقرأه، ثم تضعه جانبًا وانتهى الأمر. إنه كتاب يحرّض ويقلق ويثير الأسئلة. كتاب يدفعك إلى إعادة اكتشاف نفسك. ولا يمكن أن تقرأه دون أن يترك أثرًا فيك.

أخيرًا، لا بد من الإشارة إلى العنوان. العنوان صادم ومستفز، وقد فكرنا ببدائل مقبولة، لكننا وجدنا أنفسنا نعود في كل مرة إلى العنوان نفسه، كل البدائل التي فكرنا بها بدت أقل مما يريد الكتاب قوله. وربما يكون من النافل القول إن بعض ما يرد في الكتاب من أفكار أو كلمات أو تعابير صادمة جاء ليؤدي وظيفة معينة في إطار بحث علمي معرفي، وربما يحق لنا، ونحن نقدمه للقارئ العربي، أن نحرّف ما قاله بعض أجدادنا ونقول: لا حياء في العلم.

المترجم

الرحبة للنشر والتوزيع
Al Rahba Publishing House

ISBN 978-9933-9145-4-7
9 789933 914547